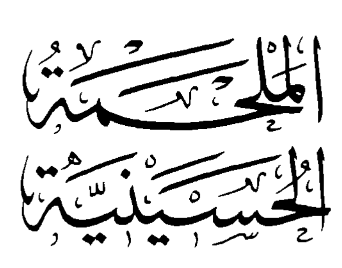
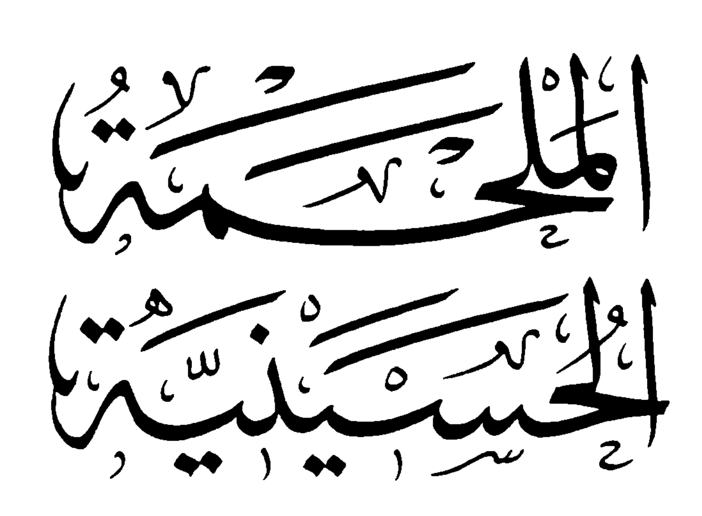
الأستاذ مرتضى المطهري

الملحمة الحسينية



الدار الإسلامية


الملحمة
الحسينية



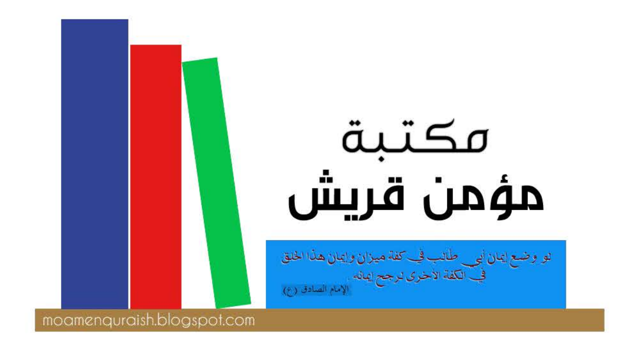
الأستاذ مرتضى المطهري

الجزء الثالث

الدار الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م





كورنيش المزرعة، بناية الحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧
فرع ثاني: حارة حريك، شارع دكاش، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
ص.ب: ١٤٥٦٨ - تلكس: ٢٣٢١٢ - غدير

القســم الأول
الجــذور التــاريخية لواقعــة كــربلاء

كيف قتلت أمة النبي ابن النبي !

إنّ واقعة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ،ليست فقط واقعة كارثيـة ، ومظهـراً من مظاهر الفداء العظيم والنادر ، بل إنها أيضاً واقعـة عجيبة من زاويـة التبرير الروحي للقضية .

وقد حصلت أحداث الواقعة بعد خمسين سنة من وفاة النبي الأكـرم ، وعلى أيدي جماعة قالوا بأنهم مسلمون ومن أتباع الرسول الأكرم ومُحبّي آل علي ، ولكن تحت راية أولئك الذين ظلوا يُقاتلون النبي حتىٰ خمس سنـوات قبل وفـاته ، حـين أسلم الكثـير من جماعـات تلك الديـار ، الأمر الـذي اضـطرهم هم كـذلـك أنْ يُسلمـوا بالأمـر الواقـع ، ويصبحوا مسلمـين في الظاهـر . (وكما يقـول عـمّار بن ياسر : استسملوا ولم يُسملوا) .

إنّ أبـا سفيان قـاتل النبي لمـدة تناهـز العشرين عامـاً ، وكان في السنـوات الخمس الأخيرة قبل استسلامه ، على رأس الجماعـات المحاربـة للإسـلام ، وكان حزبه أي الحزب الأموي من أعدىٰ أعداء الله ورسوله ، وألدّ خصامه .

ولم تمض عشر سنـوات ، عـلى وفــاة النبي ، حتىٰ صـار معــاويـة بـن أبي سفيان ، الذي ظلّ يُقاتـل النبي لسنوات عديدة، كتفـاً إلى كتف مع أبيـه ، والياً للمسلمين على بلاد الشام وسورية ، وخليفة للنبي ، وأميراً للمؤمنين ، بعد مضي

ثلاثين عاماً على رحلة الرسول الأكرم !

وبعد مضي خمسين عاماً على تلك الرحلة فقد صار يزيد بن معاوية هو الخليفة ، والوصي ، على شؤون المسلمين ، وقام بقتل ابن النبي بذلك الشكل الفجيع وعلى أيدي جماعة من المسلمين ، كانت تنطق بالشهادتين وتُصلي ، وتؤدي مناسك الحج وتُدير معاملاتها كافة طبقاً للتعاليم الإسلامية ، وتُزوّج أبناءها ، وتدفن موتاها في مقابر المسلمين .

وهذه الجماعة لم تكن قد تنكرت للإسلام ـ وإلّا لما كان هناك لغزٌ مُحيّر في مسلسل الحدث ـ ولا كانت تُنكر حرمة مقام الإمام الحسين ، أو اعتقدت ـ أعوذ بالله ـ بخروج الحسين على الدين ، بل إنها كانت تعتقد بالتأكيد بأفضلية الإمام الحسين على يزيد .

والآن كيف تمكن حزب أبي سفيان من استلام السلطة أساساً ، ومن ثم ماذا حدث حتىٰ صار المسلمون، بل وشيعتهم هم قتلة الإمام الحسين (ع) ، بالرغم من عدم اعتقادهم باستحقاقه للقتل ، بل حتىٰ إنهم كانوا يحترمون دمه أكثر من دم أي مسلم آخر ؟!

فمن ناحية استلام السلطة من قِبَل حزب أبي سفيان ، ينبغي الإشارة هنا إلى أنّ أحد الأمويين ، ممن لم يكن لهم سابقة سيئة بين المسلمين ، وهو من المسلمين الأوائل ، كان قد وصل إلى سدة الخلافة .

وهذا بدوره أفسح المجال لإيجاد موطىء قدم للأمويين داخل مؤسسات الحكومة الإسلامية ، بحيث إنهم صاروا يُطالبون بملكية الخلافة الإسلامية (وهو ما صرّح به مروان بن الحكم أمام الثوار الذين كانوا قد أحاطوا ببيت عثمان) ، هذا بالإضافة إلى أنّ موطىء القدم هذا كان قد هُيئت الظروف له ، منذ زمن الخليفة عمر ، الذي بدوره ساهم في صعود الأمويين للسلطة ، من خلال تعيينه لمعاوية والياً على بلاد الشام وسورية ، الغنية خصوصاً ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار اللغز الذي لم نجد له حلاً ، لكون عمر كان يجري تعديلات ، وتطهيرات

مستمرة في الولايات الإسلامية كافة ، من دون أن يتعرض لولاية الشام ، وواليها معاوية !

لقد كان الأمويون السبب الرئيسي وراء فساد الأوضاع في أجهزة الخلافة ، أيام عثمان ، مما دفع الناس للقيام ضد الخليفة ، وقتله .

غير أنّ معاوية الذي كان قد كمن منذ مدة ، وهو ينتظر الفرصة المؤاتية للقفز إلى قمة السلطة ، اعتبر الوقت مناسباً لانتزاع زمام المبادرة من يد الثوار ، فقام بحملة دعائية واسعة ، رفع خلالها شعار المطالبة بدم عثمان ، وطرح نفسه مُدافعاً عن الخليفة الشهيد ، والخليفة المظلوم و . . . واستغل الأمر أشد الاستغلال ، ورفع من درجة مظلومية خليفة النبي ، وصعّد الموقف باتجاه حسم الصراع لصالح توليه قمة الهرم السلطوي ، حيث وجه اتهاماته ضد الإمام علي (ع) ، واعتبره قائد الثوار ، والمحرّض على قتل الخليفة ، وبالتالي فإنّ على الناس أن تقوم ضد الخليفة الجديد ، الذي لم يكتف بقتل الخليفة فقط ، بل وآوىٰ الثوار ، وحماهم كما يزعم معاوية وما أكثر دموع التماسيح التي ذرفها في هذا المجال !

وهكذا تمكن معاوية ، من تعبئة القبائل العربية كافة ، التي كانت قد اتخذت من الشام سكناً لها ، بعد فتحها من قبل المسلمين ، وجعلها تُنادي بصوت واحد ، وترفع لواء الانتقام من قتلة عثمان ، ورد الحيف الذي لحق بالخليفة المظلوم ، ومن خلال قميص عثمان ، استطاع معاوية أن يُعبّىء ، في الواقع ، قوى الإسلام ضد الإسلام .

الحوادث الغامضة في صدر الإسلام

لقد وقعت حوادث محيرة ونادرة في التاريخ ، يصعبُ ربما على البعض منّا أنْ يجد المبررات ، أو التفسيرات المناسبة لها ، ومن بين هذه الحوادث موضوع تقدم الإسلام السريع ، وهيمنته على أفكار وعقائد الزمان : ﴿ **لِيُظهِرَهُ على الدين كُلّه** ﴾ أو واقعة الحركة الحسينية ، وملابسات ثورة الإمام عليه السلام .

فالذين نصحوا الحُسين (ع) بعدم الانطلاق والتحرك في ثورته ، كانوا كثيرين ، ومنهم القريب ، والبعيد والغريب ، وكان منطقهم جميعاً يتركز على غدر أهل الكوفة ، وسابقتهم في عدم الوفاء بالعهد .

والعجيب أنّ الإمام(ع) لم يكن يردُ منطقهم هذا، لكنه ـ ومن خلال ردوده عليهم ، ولا سيما تلك الخطب التي ألقاها ، وهو في الطريق بين مكة وكربلاء ، يتضح أنّ الإمام الحسين (ع) كان يتحرك في سياق منطق أوسع من منطقهم المحدود .

وإذا كان منطق أولئك الناصحين يرتكز على محور المحافظة على النفس ، والأولاد ، والسلامة العامة ، فإن منطق الإمام كان يستند إلى ضرورة حفظ الدين ، والإيمان ، والعقيدة .

ففي رد الإمام (ع) على نصيحة مروان له بعدم الخروج تراهُ يقول : «وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

إنّ استلام معاوية للسلطة ، ومن بعده يزيد ، وتعبئتهما للقوة الإسلامية البشرية ، ضد عليٍ بن أبي طالب ، والحسين بن علي عليهما السلام ، بالرغم من عدم ارتداد الناس عن دينهم ، يُعتبر واحدةً من الحوادث التاريخية الغامضة ، في عصر صدر الإسلام .

ولا بد لنا قبل كل شيء أن نبحث في قضيتين حتىٰ نتمكن من اكتشاف الماهية ، والهدف ، والدافع ، من وراء واقعة الثورة الحسينية .

أولاً : سبب محاربة الأمويين الشديدة وعلى رأسهم أبو سفيان للإسلام والقرآن .

وثانياً : أسباب نجاحهم في السيطرة على السلطة والحكومة الإسلامية .

ففيما يخص الموضوع الأول ، يبدو أنه عائدٌ لسببين :

أحدهما : يتمثل في المنافسة العرقية التي كانت متراكمة على مدى ثلاثة أجيال .

والثاني : وجود الفارق الكبير بين القوانين الإسلامية التي جاءت مع الدين الجديد ، وبين نظام الحياة الاجتماعية الذي كان يتحكم برؤساء قريش ووجهائها ، لا سيما الأمويين منهم ، والذي انقلب رأساً على عقب مع مجيء الإسلام ، وهو ما اعتبره الإسلام مبدأ عاماً لا بد منه .

ولذا نقرأ في سورة سبأ قوله تعالى : ﴿ **وما أرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ ، إلاّ قالَ مُتْرَفُوها . . .** ﴾ وهو الأمر الذي يتكرر في سُور أُخرى من القرآن الكريم كالزخرف ، والواقعة ، والمؤمنون ، وهود .

هذا بالإضافة إلى أنّ التعليمات الإلهية والربّانية الجديدة ، لا يمكن أن تتلاءم مع الأمزجة الروحية ، والبُنية الأخلاقية ، لبني أُمية ، القائمة في الأساس على قاعدة عبادة المادة ، والمنفعة المادية .

وهذا أمرٌ لا علاقة له بمدىٰ ذكائهم ، أو غباوتهم ، فالذي يُذعن لتلك التعليمات الإلهية ، ويخضع لها ، لا بد وأن يكون يحمل في داخله أساساً إشراقةً ولو بسيطة من الشرف ، وعزة النفس ، وعلّوها ، ونوراً ، وحياةً ، وهدايةً ، كامنةً في خميرة نفسه .

قال تعالى : ﴿ **لِيُنْذِرَ من كان حيّاً** ﴾ ، ﴿ **إنّما تُنذرُ من اتّبع الذكرَ** ﴾ ، ﴿ **ونُنزِّلُ من القُرآن ما هُوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين** ﴾ ، ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيّب** ﴾ .

وهذا أصلٌ ، ومبدأ ، وركن أساسي من أركان الإسلام .

وقصة أبي سفيان مع العبّاس بعد فتح مكة وقوله له : « لقد صار مُلك ابن أخيك عظيماً » .

وقول العباس له في مكان آخر : « بالله غلبتُك يا أبا سفيان » .

وقول أبي سفيان مرة أخرى لّما صار عثمان خليفةً : « تَلقّفوها تلقُّف الكرة » . ما هي إلا أقوال تدلّ على العُمى الباطني لأبي سفيان .

وأمّا كيف تمكن الحزب الأموي من أن يتحول في العصر الإسلامي إلى

حزب فعّال ، ونشيط ، وقادر ، ويُمسك بزمام الحكومة الإسلامية ؟ فذلك حديث آخر نعرضُ له فيما يلي :

قبل كل شيء ، لا بد من القول : إنّ المجتمع الجديد النشأة والوليد ، لا يمكن له أن يحافظ على نسقٍ واحد ، وتركيبة منسجمةً واحدة ، مهما كان عامل الوحدة عاملاً قوياً فيه[1] .

فهذا المجتمع الإسلامي الوليد والناشىء ، ومهما كان قد اكتسب من وحدة قوية تحت لواء التوحيد ، وراية لا إله إلاّ الله ، ومهما قيل من تمكُّنه من القضاء على الفوارق الشكلية ، والعرقية ، بصورة تشبه المعجزة ، لكنه في الوقت نفسه لا يمكن تصوُّر إمكانية محو الطباع ، والعادات ، والأخلاق ، والآداب ، والأفكار المتنوعة ، لمجتمع قامت أركانه لفترات طويلة ، وتشكّلت أُسسه من أعراق وعناصر مختلفة ، وبالتالي استقبال أفراده كافة ، للقضايا الدينية ، والتربية الإيمانية الجديدة ، بشكل متساوٍ !

فلا بد أن يظهر بينهم من هو قوي الإيمان ، وآخر ضعيف الإيمان ، وثالث يعيش في حالة من الشك ، والكفر ، والإلحاد الباطني .

ولهذا ليس من السهل إدارة مثل هذا المجتمع على أساس الإسلام ، وضمان بقائه نقياً وسالماً ، لسنوات طويلة ، بل ولعقود متواصلة ، وإبقائه في ظل نظام وحكومةٍ معينة .

---

(١) أليس من حقنا القول هنا بأنّه كان الأفضل للمسلمين الصبر ، وعدم الاستعجال في الفتوحات ، وانتظار رسوخ الإسلام ، وانتشاره إلى المجتمعات الأخرى بشكل طبيعي ؟ وإنه لولا الاستعجال لما كانت تلك الانقسامات والخلافات الحادة التي انتشرت فوراً؟ والجدير ذكره هنا بأنّ النبي (ص) لم يوصِ بالفتوحات بالرغم من أنه ترك وصايا كثيرة لأصحابه وأنصاره وصحيح أن الفتوحات كان لها أثر حلو وانطباع طيب في الظاهر ، لكنه ليس معلوماً إذا ما كانت موضع تأييد العقل . وليس معلوماً إذا ما كان علي سيوافق على الفتوحات في حال توليه منصب الخلافة منذ البداية . ولهذا تراه ركّز على الإصلاحات الداخلية عندما تولىٰ منصب الخلافة فيما بعد . بالإضافة إلى أن هذه الفتوحات قد أفسدت أخلاق العرب على ما يبدو . وعليه يمكن القول بأنّ الفتوحات ساهمت في خلق مجتمع لا متجانس من جهة ، وأفسدت العنصر العربي داخل المجتمع الإسلامي من جهة أخرى .

إنّ القرآن الكريم نفسه يتطرق إلى وجود المنافقين الذين كانوا يُشوّشون على المؤمنين في قولهم :

﴿ غـرّ هؤلاء دينُهُم ﴾ و ﴿ أنؤمن كما آمن السُفهـاء ﴾ ويتضـح من خـلال اهتمام القرآن الكثير من ظاهرة المنافقين ، وعرضه المتكرر لقضاياهم ، أنه إنما أراد تنبيه المسلمين إلى الخطر المهم الذي يُمثلونّه في المجتمع ، وضروة مقارعته[1] .

وقد كان على رأس أولئك المنافقين في المدينة ، عبد الله بن سلول .

إلى جانب ذلك فقـد أتى القرآن الكـريم على ذكـر (المؤلفة قلوبهم) الـذين أصبحوا ، شئنا ذلـك أم أبينا ، جـزءاً لا يتجزأ من المجتمـع الإسلامي الـوليد ، حيث كان لا بد للمسلمين من رعايتهم ، بـل وتخصيص جزء من الميـزانية العـامة للصدقات والزكاة ، لصرفها عليهم ، من أجل تقوية إيمانهم ، وجذبهم أكثر فأكثر إلى الإسلام ، أو ضمان كسب أجيالهم اللاحقة ، على الأقل ، وصهرهم في بـوتقة الإسلام ، من دون أن تسند إليهم بالطبع المناصب الحساسة في الدولة .

إنّ النبي (ص) كان يشمل بِخُلقه الكريم حتىٰ المنافقين ، والمؤلفة قلوبهم ، لكنه لم يتهاون لحظةً فـي اتخاذ الحيطة والحذر تجاههم .

وطالما أن النبي على قيد الحياة ، لم يتمكن الأمويون من ضعفاء الإيمان ، أو المؤلفـة قلوبهم ، أوالمنافقـون ، من إيجـاد مـوطىء قـدم لهم داخـل جهـاز الحكم الإسـلامي ، ولكن للأسف فقـد تمكنوا بعـد موتـه (ص) من الإمساك بـالمناصب الحساسة ، شيئاً فشيئاً ، لا سيما في عصر الخليفة عثمان .

فبعد أن كان مروان وأبوه طريدي رسول الله(ص) تمكنا في زمن عثـمان من استعادة مواقعهما الاجتماعية ، بل والنفـوذ إلى مؤسسات الحكم ، في حـين أنّ كلاً من الخليفة الأول والثاني ، كانا قد رفضا شفاعة عثمان لهما ، وبالتالي لم يوافقا على عودتهما إلى المدينة المنورة ! في حين أن مروان هذا هو المسبب الأصلي للفتن ، ومن جملتها فتنة قتل عثمان .

---

(١) وهذه ظاهرة ملفتة للنظر تُظهر الشجاعـة التي يتميز بهـا الأسلوب القرآني من خـلال عكسه لمنطق الكفار والمنافقين دون وجل أو تردد .

لقد تمكن الأمويون من السيطرة على بيت المال ، والمراكز الحساسة للسلطة بعد نهاية عهد حكومة عثمان ، ومع تمكنهم من الثروة ، والمراكز الحساسة ، لم يَعُد ينقصهم في الواقع سوى ذلك العامل القوي والأساس ، ألا وهو عامل الدين .

لكن معاوية تمكن بعد قتل عثمان ، ومن خلال حركته الذكية ، وتلفيقه الشيطاني لرواية كيفية مقتل عثمان ، من الإمساك بهذا العامل أيضاً ، واستخدامه في صراعاته السلطوية .

وهكذا تراه قد تمكن من تعبئة جيش عظيم باسم الدين ، وتحت لواء الشريعة الإسلامية ، وتحريضه لقتال شخص مثل علي بن أبي طالب عليه السلام !!

ومن بعد أنْ تسلّم معاوية السلطة كاملةً ، تمكن من السيطرة على العامل الديني تماماً ، من خلال استئجار عدد من رجال الدين المرتزقة ، أمثال أبي هريرة .

وهكذا يكون قد أضاف عاملاً جديداً إلى عوامل حكمه ، وهو عامل الروحانية وطبقة الروحانيين بعد أن كان لا يملك سوى عناصر السياسة ، والمراكز الحساسة ، والثروة ، والدين .

إنّ تلاعب الأمويين ببيت المال ، واحتكارهم لمراكز السلطة والقرار، في زمن الخليفة عثمان ، كان قد أثار موجةً من الانزعاج والسخط بين عامة الناس ، سواء منهم من كان من أهل الدنيا . أو من أهل الدين .

فأهل الدنيا كانوا قلقين على مستقبلهم ، وهم يرون من ظهر لينافسهم على دُنياهم ، وثرواتهم ، ومُلكهم ، وهم يتفرجون عليهم ، بينما أهل الدين كانوا يرون من جهتهم ، بأنّ المبادىء الاجتماعية للإسلام ، قد أضحت في خطر شديد .

ولهذا نرى أن جبهة المعارضة كانت تشمل عَمراً بن العاص والزبير ، كما أبا ذر وعمّار بن ياسر .

فعمرو بن العاص كان يقول : لم أمُر على راعٍ إلاّ وحركته على قتل عثمان ، وما أن سَمِع بنبأ قتل عثمان حتى قال : « أنا عبدُ الله ، ما حككت قرحةً إلاّ أدميتها » . الأمر الذي يجعل عليّاً(ع) أيضاً أن يقول للزبير في معركة الجمل : « لعن الله أولانا بقتل عثمان » . .

إنّ علياً (ع) كان قد تعامل مع عثمان ، تماماً كما تعامل مع الخلفاء الذين سبقوه ، وهو لم يبخل عليه لا بنصيحةٍ ، ولا بإحسان عام ، وعندما حوصر عثمان فقد أشار عليه بطريق الصلاح والإصلاح ، كما أوصل إليه المؤن والمساعدة .

بينما ظل معاوية يتفرج على الأحداث من بعيد ، وبالرغم من امتلاكه لتلك القوة العظيمة في الشام ، لكنه فضّل استغلال نتائج الفتنة ، بعد أن استغلّ مقدماتها ، وهكذا رفض كل نداءات المساعدة التي طلبها عثمان منه ، بالرغم من قدرته على القضاء على الثوار[1] ذلك أنه كان يعرف تماماً أن عثمان مقتولاً أفضل له من عثمان حياً ، فجلس ينتظر خبر مقتل عثمان ، وما أن وصله نبأ القتل حتىٰ اعتلىٰ منبر السلطة وصار يُنادي واعثماناه ! ورفع قميص عثمان رايةً له ، وصار يُبكي الناس على الخليفة المقتول ظُلماً ، وعدواناً ، مُستعيناً كذلك بالآية القرآنية : ﴿ **وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً ، فقد جعلنا لوليّه سُلطاناً** ﴾ .

وقد لبّى دعوة معاوية هذه مئات الألوف من الناس ، وكان شعارهم الانتقام للخليفة المظلوم ، وهُنا بالذات كان معاوية قد تمكن من إضافة عنصر الدين إلى عناصر الثروة ، والسياسة في الصراع على السلطة .

وهكذا يكون قد تمكّن من تركيز كل القوى ، والعناصر المهمة ، في شطر هام من البلاد الإسلامية ، والسيطرة عليها[2] .

---

(١) وهُنا يمكننا إلقاء مزيدٍ من الضوء على سياسة معاوية تجاه عثمان ، من خلال الإشارة إلى إحدى رسائل الإمام علي (ع) إلى معاوية والتي وردت في (نهج البلاغة) حيث جاء فيها : « فأمّا إكثارُك الحجاج في عُثمان ، وقتلته ، فإنك إنّما نصرت عثمان حيثُ كان النصرُ لك ، وخذلتهُ حيثُ كان النصر له » .

(٢) من هنا يتضح عدم نضج مجتمع ذلك العصر لفكرة انتخاب الخليفة ، وأنّ ولي الأمر كان يجب أن يكون تعيينيا وليس انتخابيا . وحتى إذا ما قبلنا بأنّ مبدأ الحكومة الإسلامية إنما يقوم على

وبهذه الطريقة استطاع معاوية أن يغتصب موقع الخلافة ، ويتسلّط على أمر الروحانية والدين ، وما كان ذلك مُمكناً لبني أمية لولا عوامل ثلاثة أساسية :

أولاً : ذكاء وفطنة أولئك القوم .

وثانياً : سوء تدبير ، وعقم سياسة الخلفاء الذين تركوهم يتسللون إلى المواقع .

وثالثاً : جهل العامة وسذاجتهم[1] .

لقد سعىٰ معاوية والأمويون كثيراً في سبيل محو مبدأ المساواة العرقية في المجتمع الإسلامي ، والعودة بالأوضاع إلى مبدأ الجاهلية ، الذي كان يُرجّح العرب على العجم . وكذلك محو مبدأ المساواة الاجتماعية ، بين أفراد المجتمع ، والعودة إلى مبدأ التمايز الطبقي ، الذي كان سائداً ما قبل الإسلام ، ولهذا ترىٰ

= الانتخاب ، وليس على التعيين إلّا أن ذلك المجتمع بل ولسنوات طويلة بعد النبي ، وحتىٰ ربما لقرون طويلة ، لم يكن قادراً على استيعاب فكرة الانتخاب ، وكان لا بد أن تمر فترةٌ لا بأس بها ، تكون فيها فكرة النص والتعيين هي الدليل ، فالحرية لا تُعطى لمجتمعات غير قادرة على إدراك معنىٰ الانتخاب ، والتدخل في تعيين السلطة الحاكمة . لكن حق سلب هذه الحرية لا يُعطىٰ لأي كان ، ناهيك عن إعطائها لأولئك الذين يخافون ، ويرتعبون من مجرد فكرة حق الحرية للناس . ومقام النبوة وحده كان هو الكفيل بحل هذا الإشكال ، وسلب هذا الحق من الناس . من هنا يتضح لنا جهل العامة ، وعدم إدراكهم السبب في تمكن بني أمية من استغلال الأوضاع لمصلحتهم ، باستعمال ذكائهم ، وفطنتهم ، ودهائهم . لكن علياً (ع) وهو التجسيم الحي للعدالة ، والفطنة ، والتنبؤ استطاع رغم ذلك التنبؤ بالفتنة الأموية التي كانت قد اتخذت لوناً إسلامياً ، وقد تسترت بستار الدين ، ولكن لم يكن هناك من هو قادر على إدراك أحاديث علي .

(١) وبعبارة أخرى تمكن من ضم سلطة الدين إلى سلطة السياسة ، وسلطة الثروة ، وبالتالي تمكن من الضغط على الناس أي جماعة علي وأنصاره ، ومحاصرتهم روحياً ، ومعنوياً ، بعد أن تمكن من تشديد الخناق مادياً عليهم . وهذا الوضع هو من أخطر الأوضاع التي يمكن لشعب أن يواجهه ، وهو الوضع الذي تتظافر فيه سلطة المادة مع سلطة الروح ، وتتحكمان معاً بمصير الأمة . صحيح أنّ الدين يقف إلى جانب المظلوم دائماً ، لكن الويل ثم الويل من ذلك اليوم الذي يجتمع فيه جهل العامة ، مع خيانة أولياء الأمور ، وبمعنىٰ آخر يتظافر جهل المتنسكين مع خيانة المتهتكين ، ويصبح الدين وسيلةً وأداة بيد السياسة والسياسيين . فما أسوأ ذلك اليوم الذي يصبح فيه الدين في خدمة السياسة !

صعود أفراد مثل عبد الرحمن بن عوف ، والزُبير بن العوّام ، وامتلاكهم للآلاف المؤلفة ، وبقاء البعض الآخر فقراء وصعاليك .

وليس من باب الصدفة أن نسمع علياً(ع) يقول : « . . . أنْ لا يقارّوا على كِظّة ظالم ، ولا سغب مظلوم » ، أو يقول : « ألا وإنّ بَلِيّتكُم قد عادت كهيئتها يوم بَعث الله نبيّهُ » .

القاعدة الشعبية لعلي (ع) وأشكال مكافحة معاوية لها

لقد رحل علي (ع) عن هذه الدنيا ، وصار معاوية هو الخليفة ، ولكن الأمور لم تنته كما كان يتوقع لها معاوية بن سفيان أن تنتهي ، فقد بقي ظل علي موجوداً ، كقوة اجتماعية في كل مكان .

ورغم كل مظاهر القوة ، والتوازن التي كانت تطبع حكومة معاوية في الظاهر ، إلّا أن أعماق الرجل كانت لا تزال مرتعبة ، وتتوجس خيفةً من آثار شخصية علي .

ولذلك تراه سرعان ما دعا إلى حملة دعائية قوية ، مناهضة لفكر علي (ع) . فأمر قبل كل شيء بسب علي ، ولعنه على المنابر ، وفي خُطب الجمعة .

ثم أصدر تعليماته المُشدّدة لرجاله بقمع أنصار علي ، وملاحقتهم ، وقتل كل الخواص من رجاله ، واعتقال كل من له صلة بفكر علي ، حتىٰ وإن كانت العلاقة بحدود التهمة ، وذلك كله منعاً لانتشار فضائل علي ، ونهجه الخيّر .

ثم شرع بعد ذلك بشراء النفوس ، واستئجار عدد من المرتزقة ممن باعوا ضمائرهم ، وصاروا يختلقون الأحاديث بحق معاوية .

وكل ذلك كان من أجل محاربة فكر علي (ع) الذي كان كامناً في أعماق القلوب والصدور . فقتل حجر بن عدي ، وعمر بن الحَمِق في الشام ، وأمر عُبيد الله بقتل ميثم التمار ، ورُشيد في الكوفة .

لكنه رغم ذلك كله لم يستطع القضاء على كل التجمعات النشطة ، رغم عدم تشكُلها المنظم ، والتي ظلت تعمل باسم التشيع في مواجهة الحكم الأموي .

إنّ التحقيق في ظاهره صعود بني أمية إلى الحكم بالنسبة لنا ، لا يجوز أن يبقىٰ منحصراً في كونه أمراً مثيراً للعجب فحسب ، فالأمر ليس سطحياً يتعلق بأحداث ما قبل ثلاثة عشر قرناً فقط ، حتىٰ نقول إنه أمرٌ حدث في الماضي وانقضىٰ ، بل إنه الخطر الذي تعرّض له الإسلام منذ ذلك الحين ، وهو مستمر حتىٰ ما شاء الله .

ونحن إذ نُريد استرجاع تاريخ معنوياتنا ، وسير حركتنا التاريخية ، لا بد لنا بالتأكيد من دراسة التاريخ الأموي .

فالفكر الأموي ظل يُحارب الفكر الإسلامي باستمرار ، ولكن من تحت الستار ، وبتغطية إسلامية في الظاهر !

وهكذا تم إدخال عناصر الفكر الأموي في مجموعة عناصر الفكر الإسلامي ، وليس بعيداً أبداً ملاحظة وجود بعض عناصر الفكر الأموي في فكر أولئك الذين لا يمر عليهم صباح أو مساء ، إلاّ وهم يلعنون بني أمية وفكرهم ، وهو كذلك بالتأكيد[1] .

وإنك لتجد مثال ذلك في مواضيع مختلفة ، كموضوع رعاية الشؤون وموارد صرف الزكاة ، والخمس ، وموضوع الاستطاعة في تأدية فريضة الحج ، ونفقة الزوجة ، وغيرها الكثير .

لقد كان علي (ع) يولي أهميةً بالغة لخطر السلطة الأموية ، وكثيراً ما كان يدق جرس الإنذار في هذا الاتجاه ، ولكن قليلاً ما كان يتم التنبه لتلك المخاطر في ذلك الوقت ، وعلي (ع) نفسه كان يقول لقومه أيضاً بأنكم إنما سوف تتنبّهون لها

---

(١) صحيح أن الأمويين قد رحلوا وانتهوا إلاّ إن عناصر الفكر الأموي والنظام الأموي للأسف الشديد لا يزال موجوداً بيننا بل وأصبح جزءاً من مبادىء حياتنا . ففي الوقت الراهن أيضاً تتحكم فينا مبادىء معاوية ويتم استخدام عامل الدين ضد الدين ولا نستطيع نحن بالمقابل أن نقول شيئاً ضد أسس الفكر الأموي .لأنهم سرعان ما يبدأون بالبكاء على قميص عثمان أكثر مما بكىٰ عليه معاوية .

في المستقبل : « وعند ذلك تودُّ قُريش ـ بالدنيا وما فيها ـ لو يَرونني مقاماً واحداً ، ولو قدر جزر جزورٍ ، لأقبل منهم ، ما أطلب منهم اليوم بعضه ، ولا يُعطونني »[1] كما أنه يقول أيضاً : « إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت نبّهت »[2] . وكذلك أيضاً « أيها الناس ! سيأتي عليكم زمان ، يُكفأ الإسلام كما يُكفأُ الإناء بما فيه . . . »[3] وأيضاً : « فما احلولت لكم الدنيا في لذتها »[4] . وأيضاً : « ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح . . »[5] .

هذه وغيرها من التحذيرات كانت في الواقع دليلاً على أنّ علياً (ع) كان يتنبأ بوقوع بعض الأحداث التي يمكن الإشارة إلى بعضٍ منها هنا :

١ ـ ظلم بني أمية ،وآستبدادهم، واستئثارهم بالسلطة ، وضربهم لكل ألوان العدل والمساواة ، واختفاء أي أثر للمفاهيم الإنسانية في زمانهم كمقولة : « لا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » . أو مقولة « لَنْ تُقدّس أمةٌ حتى يُؤخذ للضعيف حَقُّهُ . . . » ، وكذلك : « لا يكونُ انتصار أحَدِكُم منهم إلاّ كانتصار العبد من رَبّه »[6] ، وهو ما حدث لأهل المدينة عندما جاء مسلم بن عقبة يُطالبهم بالبيعة بالعبودية ليزيد ، وما رافقها من انتفاضة أهل المدينة في وقعة الحرة ، وبهذا تكون تنبؤات مولى المؤمنين علي (ع) هنا قد تحققت .

٢ ـ ومن جملة ذلك أنّ طلائع القوم ، ومثقفيهم ، والأخيار ، والصُلحاء منهم ، سوف لن يكونوا بعيدين عن ظلم بني أمية . بل إن البلاء سينتشر في عهدهم ، وسيصيب كل من له فكر نيّر ، وقلبُ مُبصر ، حيث يقول (ع) : « عَمّتْ خُطّتُها ، وخَصّت بَليّتها ، وأصاب البلاءُ من أبصر فيها ، وأخطأ من عمِيَ عنها »[7] .

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤ .
(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤ .
(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١ .
(٤) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٤ .
(٥) نهج البلاغة ج ٢ ص ٣٢ ـ ٣٤ .
(٦و٧) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤ .

٣ ـ القضاء على حرمة أحكام الإسلام ، وأنه لن يبقىٰ هناك حرامٌ إلاّ وسيُحللهُ بنو أمية . وهو ما جاء في قوله (ع) : « والله لا يزالون حتىٰ لا يدعوا لله مُحرّماً إلاّ استحلوه ، ولا عقداً إلاّ حلُّوه ، وحتىٰ لا يبقى بيتُ مَدَرٍ ، ولا وَبَرٍ ، إلاّ دَخَلَهُ ظُلمُهُم ، ونبا به سوء رَعْيِهم »[١] .

نعم فها هو عبد الله بن حنظلة يعود من الشام إلى المدينة ، بعد حوادث واقعة كربلاء ليقول : « إننا قادمون من عند مَنْ ينكحُ الأُمّهات والأخوات » .

٤ ـ إنّ الإسلام سيتم تحريفه ، وقلب مفاهيمه ، رأساً على عقب ، وأنه سترد عناصر غير إسلامية ، وتختلط في المفاهيم العامة الإسلامية . وهو ما ورد في قوله عليه السلام : « يُكفأ الإسلام كما يكفأ الإناء »[٢] أو : « ولُبِس الإسلام لُبس الفرو مقلوباً »[٣] .

إنّ وقوع كل هذه الحوادث ، وتحقُّق هذه النبوءات التي كان علي (ع) يراها في عهده ، كما لو أنها كانت تُعرض أمامه في المرآة ، إضافة إلى سيرته المثالية ، وعدله ، وخُلقه ، كانت كافيةً لانبعاث جيلٍ يَعشق علياً (ع) عشقاً لا يوصف .

نعود مرة أخرى ونقول : صحيح أنّ معاوية قد مات ، لكنه مع موته ترك وراءه عدداً من السُنن السيئة والتي هي :

أ ـ بدعة لعن علي (ع) وسبه .

ب ـ بدعة صرف أموال الدولة في شراء ذمم بعض الرجال من الروحانيين المرتزقة ، وأمرهم بتزوير الأحاديث التي تُنقص من قيمة علي (ع) . وبعبارة أخرى استخدام العامل الروحاني ، الذي تمثّل آنذاك بعلماء السوء ضد علي (ع) ، تماماً كما استخدم من قبل العامل الديني في قضية قتل عثمان . (قصة سُمرة بن جندب مع الآية : ﴿ **ومِنَ النّاس مَنْ يَشري نَفْسَهُ ابتغاء مرضاة الله . .** ﴾) .

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢ .
(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١ .
(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٣٥ .

ج ـ قتل الأبرياء بدون حق ، وهي بدعة جديدة أيضاً ، لم يكن لها سابقة في الإسلام ، بالإضافة إلى عدم احترام النفس البشرية ، وقطع الأيدي والأرجل ، وقطع الرؤوس وحملها على الحراب ، وهو ما فعله رجال معاوية بعمرو بن الحمق الخزاعي .

د ـ تسميم المعارضين ، واعتبار ذلك أمراً عادياً ، وهو الأمر الذي يُخالف كل أوجه المروءة والإنسانية ، لكنه للأسف سرعان ما أصبح سُنّة مُتّبعة عند الخلفاء من بعد معاوية . هذا وقد ابتدأ معاوية هذه السُّنّة السيئة بتسميم كل من الإمام الحسن (ع) ، ومن ثم أتبعه بمالك الأشتر ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الذي كان من أفضل أنصار الحسن (ع) .

هـ ـ جعل الخلافة وراثية في بني أمية[1] . وتعيين ابنه يزيد ـ الذي لم يكن يحمل كفاءات تُذكر ـ ولياً للعهد من بعده .

و ـ بعث قضية التمييز العنصري من جديد ، وترجيح العربية على العجمية ، والقرشية على غير القرشية .

ومن بين هذه الأعمال السيئة ، وسوابق السوء ، يمكن اعتبار لعن علي وسبّه ، بل وحتى تزوير الحديث ، وتولية يزيد للخلافة من بعده ، من علامات سوء تدبير معاوية في الحكم .

إنّ يزيد ليس سوى رجل جاهل وساذج ، وكانت القاعدة تقضي بأن يخضع الخلفاء الذين كانوا يُرشحون للخلافة إلى دورة تعليمية وتربوية ، قبل الترشيح ، حتى يتأهّلوا كحد أدنى لمنصب زعامة البلاد (كما كان يعمل العباسيون) .

---

(١) وهكذا يكون قد تحقق ذلك الأمل القديم الذي كان يحلمُ به بنو أمية ، والذي عبّر عنه صراحةً أبو سفيان في بيت عثمان عندما قال : « يا بني أمية تلقفوها تلقُّف الكرة ، أما والذي يُحلِفُ به أبو سفيان ، ما زلتُ أرجوها لكم ، ولتصيَّرَنّ إلى صبيانكم وراثة » . وهو ما لم يكن يتصوره حتى معاوية نفسه . لكن الإمام الحسين (ع) كان يعلم قبل أي شخص آخر حقيقة ما كان يضمره الحزب الأموي ، وكيف أنهم كانوا يلعبون بالحكم كالكرة ، ويرمون بها إلى أطفالهم وراثةً . وبناءً عليه فإن ثورته عليه السلام كانت تُمثّل في الواقع ثورة ضد تحقق أفكار الحزب الأموي .

بينما ظل يزيد يُعاني ، حتىٰ بعد توليه السلطة ، من الجهل الشديد ، والسذاجة الصحراوية التي كبر فيها ونما . وهو لا يعرف سوى أطباع البادية ، دون أن يتمكن من اكتساب الخبرات اللازمة التي تنفعه في الدنيا أو الآخرة .

إذا ما اعتبرنا أنّ عهد عثمان كان عهد اغتصاب الثروة والسلطة من قبل بني أمية ، وأن عهد معاوية كان عهد لعن علي ، وسبّه ، وتزوير الحديث النبوي ، والكذب على النبي ، وقتل الأبرياء ، وتسميم المعارضة ، وجعل الخلافة وراثية في العائلة الحاكمة ، وإحياء نزعة التمييز العنصري ، فإننا نستطيع القول بأن عصر يزيد ، ما هو إلّا عصر العار ، والفضيحة للإسلام والمسلمين .

فسفراء الدول الأخرى ، كانوا يأتون لزيارة مركز الخلافة ، وبدل أن يلتقوا بممثل النبي ، إذا بهم يلتقون برجل يحمل الخمرة بيد ، ويُلاعب قردةً أجلسها إلى جانبه باليد الأخرى ، وقد ألبسها أفخر الملابس الممكنة ، وهل ستبقى في هذه الحالة أي كرامة تذكر للإسلام ؟!

فعندما يكون يزيد الغارق حتىٰ الثمالة في الغرور ، والرعونة ، والسلطة ، والشراب ، هو الحاكم والخليفة ، عندها يمكننا إدراك معنىٰ قول سيد الشهداء عليه السلام : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيدٰ » .

نعم فيزيد كان متظاهراً بالفسق ، والفجور ، والكفر ، والردة ، وهو قد أسقط كل الأقنعة ، ومزّق كل الحُجب من حول فساده ، ولذلك كان لا بد من القيام والنهضة ، فأية كرامة وأيةُ شخصيةٍ بقيت للإسلام بعد كل ذلك ؟! .

وعلى هذا الأساس ، فإنّ السؤال عن الدافع وراء الثورة الحسينية يشبه السؤال عن سبب تحرك النبي الأكرم (ص) في مكة ، وعدم قبوله بمهادنة قريش ؟

أو السؤال عن سبب تحمّل علي (ع) كل تلك المعاناة في سبيل حماية النبي في بدر ، وحُنين ، وأُحد ، والأحزاب ، وليلة المبيت في فراش النبي ؟

أو السؤال عن سبب قيام إبراهيم عليه السلام وحده ، بوجه تلك القوة العظيمة لنمرود الطاغية ؟

أو السؤال عن سبب ذهاب موسىٰ إلى فرعون ، ما دام لم يكن معه أحد سوى أخيه هارون ؟

إنّ معنىٰ هذا التساؤل ، هو القول بأنّ المُبررات لثورة الحسين لم تكن موجودة ، فهو لم يكن يملك من الجُند والعسكر بعدد ما كان تحت سلطة يزيد ! !

في حين أنني أقول : إنه لو كان للإمام الحسين (ع) جُند ، وعسكر ، بمقدار ما كان ليزيد ، ولو كان الحُسين قد قام والمجتمع مُنقسم إلى جناحين كبيرين ، يقف على رأس أحدهما أبو عبد الله الحسين ، فإن قيام الحُسين ونهضته ، لم يكن لينطبق عليها عند ذاك صفة الثورة الخالدة .

إنّ هذه التساؤلات تُطرح في الواقع مع كل الثورات والحركات التاريخية الكبرىٰ ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الثورات المُقدّسة في العالم عادةً ما تحمل ميزتين شاخصتين :

الأولى : وهي المتعلقة بهدف الثورة ، والتحرك ، أي إنّ مثل هذه الثورات إنما تهدف في الواقع الوصول إلى الدرجات العُليا في سُلم الإنسانية ، ومن أجل تحقيق العدل والتوحيد ، ورفع الظلم عن كاهل البشرية ، وتلبية نزعة الإنسان إلى الحرية ، وليس من أجل كسب الجاه ، والسلطان ، أو تحصيل الثروة ، والمال ، أو كما يقول (حنظلة) حُباً في اكتساب التفاخر ، والجلال ، والعظمة ، ولا حتى دفاعاً عن التعصب الوطني ، أو القبلي ، أو العرقي .

وأما الميزة **الثانية** : فهي كونها تشبه الشرارة في وسط الظلمات ، وشعلة من نور تحرق ممارسات الظلم ، والاستبداد ، والقمع ، والاستغلال ، بل نجمة تسطع في ذلك الليل المظلم ، لتبشّر بطلوع صبح سعيد للبشرية جمعاء ، وهي الثورة التي لا يُصادق عليها « عقلاء القوم ! » .

إنّ مما يُعتز به في النهضة الحسينية ، أنها لم تقع بموافقة عقلاء القوم ! لا لكونها ما دون رأي العقلاء ، بل لكونها ما فوق فكرهم ورؤيتهم ، ولذلك فإنّ العرفاء الذين نظروا إلى النهضة من زاويتها العرفانية ، أو ما فوق العقلية أطلقوا عليها تسمية مدرسة العشق ، وكذلك كان حال منطق شعراء المرثيات الحسينية

الذين أعطوها بدورهم مسحة مثالية مبالغاً فيها .

فهي صحيح أنها تُمثل مدرسةً في العشق الإلهي ، وأنّ علياً (ع) قد قال بشأن مدرسة آل البيت : « مُناخُ ركابٍ ، ومصارعُ عُشّاق » ، ولكن لماذا ظهر هذا العشق ، وتبلور مثل هذا السلوك على مسرح كربلاء ؟

فبالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى ، إلى ذلك المعشوق الأزلي والأبدي ، لا فرق أين يظهر ذلك العشق .

نعم إنّ رضا الله في التضحية في سبيل الدين ، وفي سبيل سعادة البشرية ، وفي سبيل تحقيق العدل والقسط ، والذي هو هدف الأنبياء كافةً .

وإذا كان عرفاؤنا عُرفاء صادقين ، عن حق وحقيقة ، فلماذا يُظهرون عشقهم في مجالس العرفان الكلامي فقط ؟ صحيح أن عشق الحسين عشق إلهي ، وعشق صادق وحقيقي ، لكنه لم يظهر في مجالس العُرفان التقليدي ، بل برز وتلألأ في مسرح الحياة .

وإنّه لمن مفاخر الثورة الحسينية أنْ لا يوافق عليها أمثال ابن عباس ، وهذا هو حال الثورات الكبرىٰ القدسية كافة في العالم ، والتي تُعتبر شعلةً مضيئةً في وسط بحرٍ من الظلمات .

والشيء نفسه ينطبق على حالتنا الراهنة ، إذ تصوروا لو أن أحدنا أراد القيام مثلاً ، بانتقاد القوى الروحانية العُلمائية ـ جماعات العلماء ـ والتي تصرف جهودها في غير طريق الله ، وبالتالي الاعتراض على الوضع العام ككل ، حيث تُهيمن قوى السُلطة العميقة ، وأراد أن يُطلق نداء التحرك ، والنهضة ، والثورة ، فإنه لا بد وأن يوصم بانحراف في السلوك ، واعوجاج في الذوق والمنهج ! ولكن ما هو معيار هذا السلوك ؟ وأين هي البوصلة التي تُبين الاستقامة من الاعوجاج ؟

وفي هذا المجال ليس أمامنا إلاّ العودة إلى منهج الأئمة عليهم السلام ، واعتماد بوصلة القرآن الكريم :

فما أجمل ذلك التعبير الذي يردُ على لسان أمير المؤمنين علي (ع) بشأن النبي الأكرم (ص) عندما يقول : « أَرْسَلَهُ على حين فترةٍ من الرُسل . . . » « . . . والدنيا كاسفةُ النور . . . » .

وما أبلغ حديث القرآن عن قيام إبراهيم (ع) وذلك في قوله تعالى : ﴿ . . . ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ . [وحيث يُستنبط هنا من مفهوم كلمة «رُشد» : إن إبراهيم(ع) كان يحس بأمور وأشياء لا يقدر غيره على الإحساس بها] حتىٰ إنهم قالوا عنه : ﴿ قالوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آلهَتَكم ﴾ .

وكما جاء في ذكره تعالى لأمر موسىٰ (ع) : ﴿ إنَّ فِرعَونَ علا في الأرضِ ، وجَعَل أهلَهَا شِيَعاً . . . ﴾ ، ومن هنا فإنّ علياً(ع) يقول حول فتنة بني أمية : « إنها فتنةُ عمياءُ مُظلمة » .

وبالتالي فالأمر بحاجةٍ إلى شعلةٍ من نور ، شعلة حقّانيّة نورانية ، تصد هجمة بني أُمية الظلامية ، التي يقول عنها علي (ع) أيضاً : لَتَجِدُنّ بني أُمية لكُم أرباب سُوءٍ » ، وأيضاً : « حتىٰ لا يكون انتصارُ أحدِكم منهم إلّا كانتصار العبد من رَبّه » .

الإمام الحسين (ع) ، وسائر المُصلحين العظام

إنّ كل الذين قدّموا الخدمات للبشرية لهم حقٌّ عليها ، سواء أكانوا من أهل الصناعة ، أو الفن ، أو أهل الاكتشاف والاختراع ، أو الحكمة والفلسفة ، أو الأدب والأخلاق ، أو أهل أي شيء كان . لكنهم جميعاً لا يصلون إلى مستوى شهداء طريق الحق . ولهذا أيضاً ترىٰ أنّ رد فعل البشرية ، وتعاطفها مع أولئك الشهداء ، أكثر من تعاطفها مع أية جهةٍ أخرىٰ ، ذلك أنّ العدل والحرية بالنسبة لمحيط المجتمع البشري ، والروح الإنسانية ، بمثابة الهواء المطلوب للرئتين ، والذي لا يمكن للحياة أن تستمر بدونه .

يقول رسولنا الكريم محمد (ص) : « المُلك يبقىٰ مع الكفر ، ولا يبقىٰ مع الظلم » .

إنّ المجتمع مدين للعالم بعلمه ، وللمكتشف باكتشافاته ، وللمعلم أو المربّي بتوجيهاته الأخلاقية ، وللحكيم بحكمته ، وللفيلسوف بفلسفته ؛ وكل هؤلاء مدينون للشهداء بأعمالهم ، بينما لا يدين الشهداء لأحد من الناس .

فالشهداء هم الذين كانوا السبب في خلق أجواء الحرية للآخرين حتىٰ يتمكنوا من إظهار نبوغهم ، وإبراز تفوقهم .

والشهداء في الحقيقة هم الشمعة التي تحترق من أجل إضاءة محفل البشرية[1] . بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يا أيُّها النبي إنّا أرسلنَاكَ شَاهداً ، ومُبشّراً ، ونَذِيراً . . . وسِراجاً مُنيراً** ﴾ .

نعم فلولا وجود الظلمات التي سببها انتفاء الوعي الكافي ، والنمو اللازم لدى البشر ، لما كان المُحيط بحاجةٍ إلى « سراج » والسراج هُنا هو البعثة النبوية ، التي جاءت لتُنهي عصر الظلمات .

ومرةً أخرى كانت الظلمات قد أحاطت بمجتمع الولايات الإسلامية ، وذلك بعد تسنم يزيد منصب الخلافة ، وهناك كتب يزيد إلى والي المدينة يقول : « خُذ حُسيناً . . . بالبيعة أخذاً شديداً » .

ومعلوم هنا بأن يزيد لم يكن يرضىٰ بغير البيعة ، ومعنىٰ هذا أنّ الحسين (ع) كان أمام خيارات ثلاثة :

إمّا أن يبايع يزيد ويستسلم له ، ويُسلّم بشروطه .

أو كما عرض عليه البعض ، أن يرفض البيعة ، وينزوي أو يبتعد عن واجهة الأحداث ، إذا ما تطلب الأمر ذلك ـ وهو الأمر الذي كان لا بد منه ـ وبالتالي اللجوء إلى أحد الوديان ، أو إحدى الهضاب ،والتصرف كالمتمردين ، أو

---

(١) في حديث الشهيد والشهادة قلنا : إنّ كل استشهاد يصحبه حالة نورانية . وشبّهنا ذلك بالأعمال الفردية الخيّرة التي عادةً ما تجلب لصاحبها المُضحّي الصفاء والنورانية لقلبه . وعلى قاعدة هذه النظرة المميّزة يمكننا الانطلاق في بحث موسّع ومفيد للغاية .

العُصاة الذين عادةً ما يُعبّرون بأعمالهم عن خليط من أحاسيس الخوف الممزوج بالشجاعة .

أو أن يختار خطاً ثالثاً هو الاستقامة ، والصمود ، حتىٰ الاستشهاد .

والخيار الأول هو ما كان يُشير عليه به أنصار الأمويين من أمثال مروان بن الحكم .

والخيار الثاني هو ما كان يقترح عليه القيام به كل من ابن الحنفية وابن عبّاس (حيث إن اقتراحهما كان يعني بالنتيجة هذا الأمر بالضبط) .

وأما الخيار الثالث فهو ما قام به الحُسين بنفسه وطبّقه ، وكان الخيار الأول يتلخص في الواقع ، بأنْ يقوم الحسين (ع) ببيع دينه ، وآخرته ، مقابل دنيا يزيد ، وأن يترك المسلمين وشأنهم ، ويتصالح مع يزيد ، ويُهادِنَهُ ، ويُبايعه أملاً في الحفاظ على نفسه وحياته .

وهذا ما كانت تأباه روح الحُسين الرفيعة الطاهرة حيث قال : « يأبىٰ الله ذلك لنا ، ورسولُهُ ، والمؤمنون ، وحُجورٌ طابت ، وطَهُرت ، وأنوفٌ حميّة ، ونفوس أبيّة » .

بينما كان الخيار الثاني يتلخص في الواقع ، في اتخاذ موقف سلبي ، لا أكثر ، من البيعة ، الأمر الذي كان يتنافىٰ وشخصية الحُسين ، التي كانت تحمل في روحها ، وطيّات قلبها ، تكليفاً إيجابياً في مثل هذه الحالات ، عملاً بقول الرسول الأكرم (ص) : « أيها الناس ! من رأى سُلطاناً جائراً مُستحلاً لِحُرم الله . . . » ناهيك عن عدم انسجام روح الحُسين الرفيعة العالية ، مع روح الفرار في الهضاب والوديان !

ولذلك تراهُ لم يكن مُستعداً حتىٰ وهو في الطريق من المدينة إلى مكة ، أنْ يختار الطرق الفرعية في المسير ، حيث إنّه أجاب على اقتراح البعض من رفاق دربه ، القاضي بالانحراف عن الجادة الرئيسية قائلاً : « لا والله لا أُفارِقُهُ حتىٰ يقضي الله ما هو قاضٍ » .

وهو نفسه القائل (ع) : « لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أُقِرّ إقرار العبيد » .

ثم إنه ابن ذلك القائدعلي بن أبي طالب(ع) الذي يقول: «والله لو تظاهرت العربُ على قتالي ، لما وليتُ عنها ، ولو أمكنتِ الفُرص من رِقابها ، لسارعتُ إليها » .

ولذلك تراه عليه السلام اختار الطريق الثالث ، طريق الحرية ، والشهادة ، المعروف .

قيمة الشهيد والشهادة في المجتمع

سبق وقلنا إنّ كل شهادة تُسبِّب حالة نورانية في المجتمع ، وشبهنا ذلك الأمر بالحالة النورانية التي تحصل في قلب الأفراد من خلال بعض أعمال الخير ، أو أعمال التضحية والإيثار ، التي يقومون بها .

وإنّ القلب الذي يدخل إليه الصفاء ، وتحصل له عملية الجلاء ، ومن ثم الهداية ، فإنّ الظلمات ستزول عنه ، والطريق سيتضح أمامهُ ، ويصبح جلياً .

وهذا موضوع جوهري ، رفيع المستوى في باب أبحاث قيمة الشهيد والشهادة ، لا سيما من زاوية دراسة آثار النهضة الحسينية في عالم الإسلام .

وإنّ الإمام (ع) حتى لو كان قد تحرّك أساساً بهدف الشهادة ، فإن حركته تلك كانت في إطار منطق صحيح .

والعبارة المرويّة بهذا الخصوص : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً » . إذا ما ثبت إسنادها الصحيح ، فإنها عبارة سليمة ، وصحيحة المعنىٰ ، والمرام .

بين منطق المصلحة ومنطق الحقيقة

إنّ المنطق المصلحي والنفعي شيء ، ومنطق الحق والإصلاح شيء

آخر[١] .

إنّ عقلاء القوم الذين أرادوا منع أبي عبد الله الحسين من التحرك ، والقيام ، إنما كانت تتمحور نصائحهم حول محور المصلحة الشخصية للحسين (ع) ، وضرورة الحفاظ على الحياة الدنيوية ، وسلامة البدن ، وحفظ الأهل والأولاد .

ويُقال إنّ أكثر الأقوال شمولية وتوضيحاً لهذا المنطق ، هو قول ابن عباس وحديثه ، وإذا كان لا بد من التعجب والاستغراب ، فإنه يجب أن تتعجب من قول ابن عباس .

إنّ الشيء الوحيد الذي يُفتقد في منطق ابن عباس هو الفكر الإسلامي ، ومنطق الإيثار ، والتضحية ، بينما نرى أنّ الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن نراه مُطلقاً في منطق الحسين (ع) ، هو منطق المنفعة ، والمصلحة الذاتية[٢] .

إنّ منطق الحُسين هو ذلك المنطق الذي يقول : « خُطّ الموت على وُلد آدم . . » .

وهو المنطق الذي أجاب به على الحُر قائلاً : « أفبالموت تخوفني ؟ . . . » .

وهو نفسه المنطق الذي جاء في بعض أشعاره : « سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتىٰ . . . »

الهدف المقدس وحسّ السموّ والقداسة

إنّ كلمات الشهيد والشهادة ، من الكلمات الرائجة ، التي لا تستخدم في الواقع إلّا بحق بعض الأفراد ، فليس كل قتيل أو ميّت بشهيد !

---

(١) فعلي (ع) يقول حول أرض كربلاء : « مُناخُ رِكاب ، ومَصارعُ عُشّاق » . ويقول كذلك حول تربتها : « واهاً لكِ أيتها التربة ! لَيُحْشرَنّ منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب » .

(٢) يقول هربرت سبنسر : « إنّ طموح الأخيار والصالحين هو في مشاركتهم في تربية الإنسان ، أيْ ان يصبحوا مُصلحين » . ويقول نبينا الكريم : « بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » . ويقول تعالى عنه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ .

فهناك مئات القتلىٰ ، وآلاف الموتىٰ ، يسقطون يومياً في مجتمعاتنـا ، لكننا لا نُطلق عليهم صفة الشهيد .

إنّ كلمة الشهيد تحيط بها هالة من القدسية ، والتعالي والسمو ، وإنما تُطلق كلمة الشهيد على ذلك الفـرد الذي ضحىٰ بحيـاته في سبيـل هدف مُقـدّس ، أو مات وهو سائر على طريق المسيرة المُقدّسة .

والشهيد إنما تمتاز حركته بثلاث ميزات :

فهو أولاً يُقتل في سبيل تحقيق هدف مُقدس .

وهو ثانياً يكسب حالة الخلود .

وهو ثالثـاً ما ذكـرناه آنفـاً بأنـه يخلق جواً من الصفـاء والطُهـر في المجتمع المُحيط به .

ولا بد للهدف من أنْ يكون مُقدساً ولا يكفي أن يكون عظيماً ، فقـد يكون عـظيماً ، ومهـماً للغايـة ، لكنه ليس مُقـدّساً ، والـذي يموت من أجـل الأهـداف الكبرى ، أو يُقتل في سبيلها ، لا سيما إنْ كانت تلك الأهداف غير ساميـة ، فإنـه لن ينال حالة القُدسية ، واحترام التقديس ، في عيون البشر[1] .

---

(١) إنّ الشهيد هو من يعطي لدمه قيمة أبـدية وخـالدة . فمن يضـع مالـه في خدمـة أعمال الخـير ، إنما يُعطي لماله قيمة أبـدية ، وكـذلك من يضـع فكره ، وآثـاره العلمية ، فـإنّه يُعـطي لفكره مفهـوم الخلود، ومثله من يضع صناعته وفنّه ، فهو يُعطي لفنـه الأثر الخـالد ، وكـذلك من يُـربّي ابنه أو يُربي الآخرين ، فإنه يُعطي الخلود لأعماله ، بينما الشهيد يُعطي لدمه قيمة الأبدية والخلود . وهذا هو الفرق بين الشهيد وغيره : فالشهيـد هو ذلـك المُضحي بكل مـا يملك عن عشق ووفاء للمبـدأ السـامي . بينما العـالم ، أو المنفق ، أو المعلم ، أو الفنّان ، فـإنّ كل واحـد منهم يُضحي بقسم مما يملك ، ويُعـطي لذلـك القسـم تلك الأبديـة وذلـك الخلود . وقـد قلنـا سـابقـاً إنّ الفيلسـوف ، والمنفق ، والفنان ، وغيرهم ، مـدينون جميعاً للشهيد في أعمالهم ، وإبـداعهم ، بينما الشهيـد غير مـدين لأيّ كـان . وإن دم الشهيد لا يسقط عـلى الأرض ، بل يصبـح مضاعفـاً ، ويتم تزريقـه للآخرين في عروقهم ، ويظل جارياً إلى الأبد فيهم . وهذا هو معنىٰ خلود دم الشهيد . وهـذا هو معنىٰ الحماسة الأبـدية للشهيـد . ولهذا نـرى أن الأولياء والصـالحين كـانوا يـأملون الشهـادة عـلى الدوام ، وأن الإسلام بحاجة إلى الشهيد في كل عصر وزمان .

إنّه في الواقع يكون قد وَسّع بـذلك العمـل الكبير من دائـرة حُب الذات ، والدائرة النفعية لديه .

ومثل هذا الشخص لو تمكن من تسخير كـل الكواكب السماوية ، فـإنه لن يتمكن من كسب حالة القداسة لأعماله ، فالعمل يكون مُقدساً فقط عندما يخرج من محيط دائـرة حُب الـذات ، والمنفعـة الشخصيـة[1] ، ويكـون الهـدف فقط التكليف والـوظيفة لا سيما التكاليف المطلوبـة من البشر تجاه النـوع البشري ، والمجتمع الإنساني .

وعندما يُقـال بأن « المقتـول دون عيالـه ، ومالـه ، شهيد » فـإنه في الـواقع كـذلك ، بسبب قيـامـه بـالـواجب والتكليف اللذين أمـلاهمـا عليـه وجـدانـه ، وكرامته ، وشرفه ، ودينه ، وليس عندما يكون الدافع هو المنفعة المادية .

فـما بالـك أن يكون المقتـول قد قُتل دون العدل والحـرية ، ودون التـوحيد والإيمان ، فإنه لا شك أكثر قدسيةً ، وأعلى مرتبـةً ، وأرفع درجةً ، بالتأكيد .

إنَّ حس التعالي ، والسمو ، والتقـديس ، حس أصيل لـدى البشر ، وهو نابع من صميم روح البشر ، فهناك حسُّ البحث عن الحقيقة وتقـديسها ـ العلم وهنـاك حس البحث عن الخـير وتقـديسـه ـ الأخـلاق ـ وهنـاك حس البحث عن الجمال وتقديسه وهذا هو أحد الأسرار والألغاز المحيطة بوجود البشر .

فالإنسان على العموم تـراه ينظر نـظرةً مُقدّسـة تجاه الأمـور ، والأشياء غـير الحسية ، وهو يُعظّم كل ما هو معنوي غير قابل للمس .

صحيح أن كل ميل إنما هـو تعبير عن حـاجة عينيـة ، لكن هذه الحـاجات

---

(١) وهنا لا بد من التحقيق في موضوع المعيار والملاك الأسـاسي المطروح للقـدسية ؟ ولمـاذا حب الذات والأنانية عملان دنيئان ، بينما العمل الذي فيه خدمةَ الغير ، والقيام بالواجب ، والمسؤولية أو رضا الله ، يكون عملاً مُقدساً ؟ فهل المعيار هو في المادية والتجرد ؟ أو أن المعيار هو في الـوجود والعدم؟ أو في الحـركة والتـوفيق ؟ أو أنّ المعيار يكمن في التنـاسق مع أهـداف العالم ، والحـركة التكـامليـة الكـونية ؟ أو إنّ علة القـداسة ، كـما ورد في الشرح داخـل المتن ، هي في الأبـديـة ، والخلود ، والنجاة من الموت ؟

العينية ليس مبدؤها الأجهزة البدنية للإنسان ، بل هي تلك الدرجة المستقلة لروح الإنسان .

إنّ مبدأ سلسلة المقدسات عند البشر تكمن في الذات الأحدية ، الذات المقدّسة ، الله القدّوس المنزّه من كل نقص على الإطلاق ، ﴿ **هو الله الّذي لا إله إلّا هو الملِكُ القدُّوسُ** . . . ﴾

ولهذا ترى أنّ أكثر أعمال البشر قدسية ، هي الكفاح ضد الشرك ، وعبادة الأوثان .

الثورات المُقدَّسة

إنّ الثورات والحركات المقدَّسة ، قد ابتدأت في الحقيقة بالأنبياء العظام ، وقد ورد ذكر تلك الثورات ، والحركات المقدّسة ، وجهاد الأنبياء المقدّس ، باختصار في سورة الشعراء ، حيث يذكر القرآن الكريم قصص موسىٰ ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، ولوط ، وصالح ، وشُعيب ، وخاتم الأنبياء ، بأنهم إنما قاموا في سبيل مكافحة عبادة الأصنام ، والنضال ضد الظلم والاستبداد ، والجهل ، والتعصب ، والتقليد ، والإسراف ، والتبذير ، والإفساد في الأرض ، والفحشاء ، والامتيازات الاجتماعية الوهمية .

وهذه هي خلاصة مقدسات الجنس البشري .

وقد سلك الإمام الحسين نفس الطريق الذي سلكه الأنبياء ، لكنه بالطبع واجه ظروفاً غير تلك الظروف التي واجهت الأنبياء .

والاعتراض الذي يوجّه للإمام الحسين ، بسبب إصراره على التضحية ، وعدم الاستسلام ، من أجل حفظ النفس ، هو نفسه يمكن أن يوجّه إلى الأنبياء والأولياء كافة .

وأساس الدين في الواقع هو الإيثار والتضحية ، فمنطق الدين هو منطق الإيثار ، يقول تعالى : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ على أنْفُسِهِمْ ، وَلَو كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ** ،

ويُطعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّه مِسْكيناً ، وَيَتِيماً ، وأسيراً ﴾ ، ويقول الرسول الأكرم (ص) : « من أصبح ، ولم يهتم بأمور المسلمين ، فليس بمسلم » .

إنّ تعلُّق الجنس البشري بالنفس والحياة ، وكذلك التعلُّق بالآباء ، والأبناء ، والأمهات ، والزوجات ، أو المال ، والملك ، والشغل ، أو الحرفة ، أو البيت ، إنما هو أمرٌ طبيعي ، وهو ما يظهر في كل فردٍ من أفراد المجتمع .

بل إن كثيراً من هذه التعلقات ، جزء من طبيعة الحيوان أيضاً ، وقد جاء الدين لينقل الإنسان من حالة إلى حالة أرقىٰ ، بحيث يجعله يعشق أموراً أكثر عُلواً ، ورفعةً ، وليتعلم درساً قيماً من دروس العزة والجلال .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وأبْنَاؤُكُمْ ، وإخْوانكم ، وأزْوَاجُكُمْ ، وَعَشيرَتُكُمْ ، وأمْوَال اقْترَفْتُمُوهَا ، وَتِجارَة تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِن تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ الله ، ورَسُولِهِ ، وجهادٍ في سبيله ، فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأتي الله بِأمْرِهِ ، والله لا يَهْدي القَوْمَ الفاسقين ﴾[1] .

وجود الإدراك المتين في النهضة الحسينية

يمكننا أن نُميز بعض الأشياء التي يمكن اعتبارها السبب ، أو الميزان ، الذي يُبيّن كون هذه النهضة ، أو تلك ، من النهضات المقدسة ، والرفيعة ، أو لا ، والتي إنْ وجدت جعلت الروحانية تسود على الأفكار ، والعقول الإنسانية .

وهذه الأشياء بالدرجة الأولىٰ عبارة عن طهارة ، ونقاء ، وقدسية الهدف والغاية ، وعدم اختلاط أهداف النهضة بأي نوع من أنواع الأهداف الشخصية ، أو المنفعة المادية ، والمطامع الذاتية ، أو حب الجاه ، والشهوة ، والأنانية ، والمحورية الذاتية ، أو أنواع التعصب القومي ، أو الحمية الوطنية .

بل أن تبقىٰ الغاية رضا الله ، والعمل بأوامره سبحانه وتعالى ، وتحقيق العدل والتوحيد ، والقيام بالقسط والحرية ، وحماية المظلوم ، والدفاع عن

---

(1) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

الضعيف ﴿ . . إنّ فرعون عَلا في الأرض وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم . . . ﴾

نعم ، عندما تكون النهضة بسبب الارتعاش ، والحرقة التي تحصل في الوجدان والضمير الإنساني ، وعندما يكون القيام من أجل الإنسانية ، والمجتمع البشري ، وأصوله ، ومبادئه المقدسة ، وبعبارة أخرى ، عندما تكون النهضة ذات صفة أصولية ، وليست فردية[1] ، وهي الأصول السامية للإنسانية ، والتي تُشكّل في الواقع قوام الحياة الإنسانية ، وروحها .

نعم من أجل روح الحياة ، التي هي أرفع ، وأسمىٰ من وسائل الحياة .

فافتقار الإنسان للوسائل لا يسلب منه أصل الحياة ، لكن غياب المقدّسات ، كالعدالة ، والحق ، والحرية ، من قاموس البشرية ، ومحوها ، يكون بمثابة سحب الهواء من الفضاء .

وهناك فرق بين أن يكون الفضاء مفتقراً للقنديل ، أو الفراش ، أو وسائل الصوت والصورة ، أو أن يكون مفتقراً للهواء نفسه .

العامل الثاني من عوامل تقديس أية نهضة ، وسموها ، وتعاليها ، كونها تأتي في ظل سيطرة الظلمات المتراكمة ، وبعد شيوع موجة اليأس المطلق ، وفي ظروف تعيشها البشرية لا يكون فيها نجمة واحدة مُضيئة في السماوات ، وإذا بالنهضة تأتي كشرارةٍ ، وكبرقٍ لامع ، وشعلةٍ حقّانية ، تُضيء الطريق للآدميين .

وبالتالي سَتُمثِّل حركة في وسط السكون ، ونداءً مُلِّحاً وسط السكوت المميت ، والظلام القاتل ، كالبرق في وسط الظلام ، والقليل مقابل الكثير : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَة كَثِيرَة بِإِذْنِ الله ﴾ .

ولهذا ترى مثل هذه النهضة لا تجد صدىً عند العقلاء من المُحبّين

---

(١) بعبارة أخرى عندما يتم التضحية بالمصلحة الذاتية ، والمنفعة الشخصية ، من أجل المصالح العامة للمجتمع ، والتضحية بكل شيء من أجل الحق والعدالة ، عندها فقط يتحول الأفراد ، وتتحول ثورتهم ، إلى تبلور ، وتجسيد للحق ، والعدالة ، وهكذا يصبحون مُقدّسين مثل الحق والعدالة .

لذواتهم ، وهي تظل رغم ذلك أشبه بالغيمة التي تُمطر على العطشان في الصحراء ، ومثل المحبوب الذي يصل إلى المحبّ من دون موعدٍ مُسْبَق :

وبريدٌ يأتي بوصلِ حبيبٍ   وحبيبٌ يأتي بلا ميعاد

العامل الثالث من عوامل تقديس الثورات والحركات ، هو كون قيادة الحركة تحمل إدراكاً متيناً ، وبصيرةً نافذة ثاقبة ، قادرةً على رؤية ما سيأتي من أحداثٍ خلفها ، فهي إذن ترىٰ ما لا يراه الآخرون خلف الستار .

وهذا ما يتم استنباطه من قراءة الآيات القرآنية المتعلقة بنهضة الأنبياء عليهم السلام كآية ؛ ﴿ **مَنْ أنصاري إلى الله** . . . ﴾ ، وآية ﴿ **سراج منير** . . . . ﴾ ، وآية ﴿ **يستضعف طائفةً** . . . ﴾ حيث يتضح منها جميعاً أنّ قياداتها تحمل حقاً بصيرةً ، وإحساساً ، قوياً ، نافذاً ، وترى ما لا يراه الآخرون .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتينا إبراهيم رُشْدَهُ** ﴾ وآية : ﴿ **نحن نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحقّ إنّهم فِتْيَةٌ آمنوا بِربّهم ، وَزِدْناهُمْ هُدى** ﴾ .

فكلمة « رُشد » لم تستخدم بمعنى النمو ، بل بمعنى العاقل ، والبالغ ، والرشيد .

وكذلك معنىٰ « الهُدى » .

وهنا لا بد لنا من الاعتراف أيضاً ، بأنّ نهضة السيد (جمال الدين) هي الأخرى نهضة مُقدسة ، من حيث إنها كانت ذات بصيرة نافذة ، وكانت ترى ما لم يكن يراه أهل عصرها . وهو ما يمكن ملاحظته من رسائل (السيد جمال) التي بعثها إلى العلماء في زمانه .

بالطبع هناك عوامل أخرى لتقديس النهضة ، مثل كونها تحصل في ظل عدم توازن القوى بين طرفي الصراع ، وفقد التجهيزات المادية الظاهرية ، للقائمين عليها ، فموسىٰ ، وإبراهيم ، ومحمد (ص) كانوا وحدهم عندما شرعوا

بالنهضة ، ولم يكونوا يملكون شيئاً من تلك التجهيزات ، وكذلك كان حال الإمام الحسين (ع) .

والآن ماذا كان يرى الإمام الحسين (ع) من خلف الستار ؟ وكيف كان إدراكه قوياً لخفايا الفكر الأموي المناهض للإسلام ؟

نعم فالنهضة الحسينية كشفت أنّ الحسين (ع) كان يرى ما لم يكن يراه البسطاء من الناس ، فأبو سفيان قد قال بوضوح في بيت عثمان :

« يا بني أُمية ! تلقّفوها تلقُّف الكرة ، أما والذي يحلِفُ به أبو سفيان ، لا جنّة ولا نار ، وما زلتُ أرجوها لكم ولتصيّرنّ إلى أبنائكم وراثةً » .

ثم قام بنو أُمية بتحويل ذلك الكلام إلى ممارسة فعلية ، عندما سلّموا الخلافة إلى يزيد ، وطالبوا أهل العقد والحل ، وفي مقدمتهم الإمام الحسين (ع) ، بمبايعة الخليفة الجديد ، مما كان يعني الترجمة العملية للفكر السفياني الخطير ، وهو الفكر الحزبي الأموي الأساسي .

ولكن رغم ذلك كله فإنّ جمهور العامة ، الذي كان يحمل الأمور على الظاهر ، والذي كانت تخدعه المظاهر والظواهر من السيرة ، لم يُدرك للأسف أخطار مثل هذه التحركات ، التي أشار إليها الإمام الحسين (ع) آنذاك عندما قال : «وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليتْ الأُمة براعٍ مثل يزيد » .

والإمام الحسين (ع) ، كان يُدرك جيداً أن صعود يزيد إلى الخلافة ، يعني تحقق مبدأ أبي سفيان القائل : « ولتصيرن إلى صبيانكم وراثةً » ، وأنّ السكوت عليها قد يحمل معه أخطار تحوُّل هذه الفكرة إلى تقليد دائم ، وربما يصحب ذلك أيضاً تزوير في الحديث لصالح الأفكار التي تَنادي بصيرورة الخلافة وراثية في بني أمية .

إنّ الإمام الحسين (ع) لم يُقتل على يد اليهود ، أو النصارى ، أو المجوس ، أو مشركي العرب ، ولا حتىٰ على يد أهل الردة منهم ، بل إنّه قُتل بأيدي المسلمين ، بل وحتىٰ على يد أصحاب أبيه ، ولم يكن القتلة من أهل الشام ، بل كانوا من أهل الكوفة !!

بالطبع فقد كـان الكوفيـون مرعـوبين ، وكـانت العامـة منهم تتبع وجهـاء القوم ، والقيادات منهم كانت مشبعة بالرشوة :

« أمّا رؤساؤهم فقد أُعظمت رشوتُهُم ، ومُلئت غرائزهم » .

نعم فـماذا يُنتـظر من رؤسـاء قـوم امتــلأت جيـوبهم بـالليرة والـدولار ، والرشاوي التي تتقاطر عليهم من كل جانب ، سـواء بشكل حـوالات بنكية ، أو دفعات نقديـة ، لا سيما وإن كـانت أحاسيس ومـدارك العامـة ضعيفة ، ومُصـابة بمرض النسيان ؟

لقـد قلنا إنّ أحـد الأسباب ، أو العـامل الأهم ، والعلة الأكـثر أهميةً ، في شهادة الإمام الحسين (ع) ، أو التفاف العامة حول الأمويين ، يكمن في الواقع في جهل الناس .

ومن جهةٍ أخرىٰ فإننا نعـرف أيضاً بـأنّ الإمام الحسـين لم يكن يكافـح ضد شخص يزيد ، فـالحسين (ع) أكـبرُ من أن يكون هـدفه شخصـاً أو فرداً بعينـه ، فهدفه كان في الحقيقة كلياً ، وشاملاً ، وأساسياً .

فهو كان يهدف من وراء نهضته ، مقاومة الـظلم ، والكفاح ضـد الجهل ، وهو ما جاء في الزيارة العامة التي نقرأها بمناسبة ذكرىٰ الحسين (ع) ، تلك الزيارة التي تُعلّمنا ، وتلقّننا ، بـأن الهدف لتلك النهضـة ، وذلك الكفـاح ، إنما كـان في الواقع للقضاء على الجهل ، والانحراف ، وهو ما جاء ذكره في زيـارة الأربعين في قولنا : « وَبَذَلَ مُهجته فيكَ ، ليستنقذ عبادك من الجهالة ، وحيرة الضلالة » .

وهنـا لا بد من التـوضيح أنْ المقصـود من الجهل ليس عـدم معرفـة الناس بالقراءة ، أو الكتابة وأنّ كون الناس أميين ، هو الذي جعلهم يرتكبون مثل ذلك العمل .

وأنّهم لو كانوا أهل درس ، وأهل قراءة ، وكتابة ، وتحصيـل ، لَما ارتكبـوا مثل ما ارتكبوه بحق الحسين . لا أبداً ليس كذلك !!

فـالجهـل في المصـطلح الـديني ، إنمـا يتم استخـدامــه مقابــل العقـل ،

والإدراك ، والمقصود به المنبه العقلي ، الذي لابد من وجوده بين الناس . وبعبارة أخرى القدرة على تحليل الأمور ، والأحداث ، وتفسيرها ، وتطبيق الكليات على الجزئيات ، وهذا ما ليس له علاقة كثيراً بالأمية ، أو عدمها .

فالمطلوب هنا ، وجود العلم ، وحفظ وتسجيل الكليات والأصول العامة ، وحيازة العقل بمثابة قوة التحليل ، والتفسير ، والإدراك المتين .

أي إنّ الإمام الحسين (ع) ، قد استشهد ضحية نسيان الناس ، فلو أنّ الناس قد فكرت جيداً بتاريخ الخمسين ، أو الستين عاماً ، التي مرّت عليها ، وملكت قوة إدراك ، وتنبه ، واستنتاج للأحداث التي مرت عليها ، وأخذت العبرة من كل ذلك ، والعمل بما عبّر عنه سيد الشهداء (ع) في قوله : « ارجعوا إلى عُقُولكم » . واستذكار جرائم أبي سفيان ، ومعاوية ، وزياد في الكوفة ، وعدم نسيان حقيقة بني أمية أساساً ، وعدم انخداعهم بالظاهر الذي كان يبدو فيه معاوية ، والذي كان يُريد من ورائه خداع الناس ، برفعه راية الدين والتديُّن ، في محاولةٍ منه لإخفاء المصالح الشخصية ، التي كان يعمل لها .

ولو أن العامة كانت تُفكّر بعمق ، وتحسبُ بدقةٍ ، مقدار النفع الذي كان يدرُ عليها في الدنيا والآخرة من وراء تبعيتها للحُسين ، في مقابل تبعيتها ولهاثها وراء يزيد ، ومعاوية ، وعبيد الله ، لما كانت وقعت مثل تلك الجريمة بحق آل البيت أبداً .

إذاً ، فالسبب الرئيسي وراء تصرُّف أناس معتقدين نسبياً بالإسلام ، بتلك الصورة ، مع آل بيت النبي ، في الوقت الذي كانوا فيه هم أنفسهم مستعدين لقتال الكفّار ، قربةً إلى الله ، إنما يكمن فقط ، وفقط في نسيان أولئك العامة ، وسذاجتهم ، وسهولة خداعهم ، وبكلمة : عدم قدرتهم على النظر ما وراء الستار ، وكشف حُجب النفاق .

فهم كانوا يرون ظواهر الشعائر الإسلامية يُعمل بها ، ولكنهم لم يكونوا يرون ضياع الأصول والمعاني .

بالطبع هناك عوامل أخرىٰ ساهمت في حصول الواقعة المأساة تلك ، والتي

سبق أن ذكرناها ، وهي الرعب ، والخوف ، والتبعيّة ، الذي كان يُحيط بجمهور العامة ، من جهة فساد أخلاق الرؤساء ، وشيوع الرشوة ، والطمع ، والطاعة العمياء ، في صفوف المجتمع عملاً بالعادات الجاهلية العربية ، حيث كان الصغار في القبيلة يتبعون رؤساء القبائل .

إنّ واقعة الطف واقعة إسلامية مئة بالمئة ، فالإمام الحسين (ع) وكما يقول ذلك الرجل المعاند قد قُتل بسيف جده ، ولكن السبب يكمن في جهل الناس ، وتمسكهم بالظواهر ، وانخداعهم بالمظاهر العامة ، التي تُبرز وجود الشعائر الدينية .

إضافة إلى ذلك فإن أحد عوامل وقوع تلك الفاجعة ، هو كون القائمين ، والمُنفذّين لها ، كانوا بالصدفة من أصحاب الجريمة ، وحاملي مواصفات الجُناة الفطريين ، كما جاء وصفهم على لسان العقاد بقوله : « المُسخاء المشوّهين أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ، ولا سيما من كان منهم على سواء الخُلق ، وحُسن الأُحدوثة ، فإذا بهم يفرغون حِقدهُم لعِدائه ، وإنْ لم ينتفعوا بأجرٍ أو غنيمةٍ . . . » .

الخلاصة في بحث العوامل المؤثرة في شهادة الإمام

إنّنا نستطيع في الواقع بحث الموضوع من الناحية التاريخية وعنونته على الشكل التالي ، فنقول : مَن هي العناصر ، وما هي الأشياء التي ساهمت في استشهاد الإمام الحسين ؟ ثم نقول : من هي العناصر ، وما هي الأشياء التي وقفت إلى جانبه أو ناصرته ؟

فأمّا من زاوية الحديث عن العناصر التي ساهمت في استشهاد الحسين ، فهي عناصر معروفة ، ويبقىٰ هنا الإشارة باختصار شديد ، إلى الأشياء التي كانت الباعث وراء قيام تلك العناصر بذلك الدور الإجرامي ، وباختصار يمكن الإشارة أولاً إلى طمع المُلك ـ ملك الري ـ والحصول على المال والثروة . كما يقول « خولي » : « جئتُك غنىٰ الدهر » .

أو من خلال رشوة الرؤساء : « أمّا رؤساؤهم فقد أُعظمت رَشوتُهُم ومُلئت غرائزهم » .

إلى جانب عوامل الجبن ، والرعب ، التي كانت قد أصابت عامة الناس ، إضافة إلى الميل الباطني الذي كان يُحرّك ابن زياد ، وإلى جانب الخبث الذاتي ، الذي كان يطبع أمثال الشمر ، والغرور ، والانحلال الخُلقي ، والخفة ، والتعاسة ، التي كانت مهيمنة على شخص يزيد .

وما فوق ذلك كله نسيان الناس لتاريخهم الماضي ، وتجربة الستين عاماً ، التي خاضوها بكل ألوانها ، وأنهم كانوا من المسلمين الذين خاضوا كل تلك التجارب الغنية ، لكنهم رغم ذلك خُدعوا ، وضُللوا بالمظاهر الخدّاعة للخليفة الأرعن الجديد .

تلك العوامل مجتمعةً كانت في الحقيقة هي الخلفية وراء واقعة الطف ، واستشهاد الإمام الحسين (ع) .

وأمّا ماذا كانت عناوين الأشياء التي وقفت إلى جانب الحُسين في المواجهة ، فإننا يمكن الإشارة إليها باختصار ، بأنها عبارة عن الإيمان ، وأخذ العبرة من التاريخ ، وتجربة الستين عاماً منذ صدر الإسلام حتىٰ زمان حدوث الواقعة ، وهي العناوين التي نجد لها صدىً في كلمات زهير بن القين ، بالإضافة إلى حس الفتوّة ، والرجولة ، والشجاعة ، والإيمان بالغيب ، وأمثال ذلك من المبادىء التي ناصرت الإمام في معركة المواجهة .

عِلل تقديس الثورات

تأسيساً على الموضوعات السابقة حيث الحديث عن الأسباب ، وراء تقديس الناس لنهضة ما ، دون غيرها ، والنظر إليها نظرة تُحيط بها هالة عظيمة ، وشعور بالتقديس والطهارة ، بحيث إنها تصبح معياراً لسائر الحركات الأخرى ، وميزاناً للسكوت والسكون .

وعندما نقول إنّ حركة ما تصبح « مقدّسة » فإننا نعني أنّ الناس تنظر إليها

باعتبارها حركة ما فوق حركة المادة والطبيعة ، ولذا تراهم ينظرون إليها نظرة احترام وتقدير عاليين ، وبالتالي فإنهم يرون فيها حركة ، أو نهضة غير قابلة للقياس ، أو المقارنة مع أية نهضة أخرىٰ .

كل ما هنالك ربما تكون قابلة للتشبيه ، أو التقليد والتبعية ، من قبل الحركات الأخرى .

وأمّا بخصوص قداسة ، أو قدسية الحركة الحسينية ، وأهميتها الخارقة للعادة ، رغم مرور ما يناهز الأربعة عشر قرناً على مرورها ، فإنها ترجع إلى ثلاث عوامل أو علل هي :

١ ـ قدسية[1] ، وسموّ ورفعة الهدف ، الذي من أجله قام الإمام الحسين (ع) ، حيث الهدف المنشود هو الوصول إلى الحقيقة ، وليس كسب المنفعة ، ولذلك تراه يفدي المنفعة ، ويُضحي بالمصلحة الشخصية ، في سبيل انتصار الحقيقة ، في سبيل الله .

وبديهي القول هنا إنّ من يقوم طلباً للحصول على المعاش ، أو للوصول إلى الثروة ، أو السلطة ، أو كما يقول (حنظلة) ، لاكتساب الجلال والعظمة ، أو كما يقول الوطنيون : من أجل الدفاع عن الحقوق الوطنية ، والقومية ، فإنّ هؤلاء جميعاً لا يمكن اعتبار حركاتهم ، ونهضاتهم ، نهضات مُقدسة .

بل ربما لكونهم من إحدىٰ الجهات سيكونون سبباً في استخدام الآخرين وسيلةً لتحقيق مآربهم ولذلك فإنّ حركاتهم تلك ، قد تكون حركات مُدانة ، ولا فرق هنا إنْ كانت حركاتهم ناجحة أو فاشلة .

فهذه الحركات محكومة بقوانين التجارة والمعاملات ، وقد تأتي بالنفع على

---

(١) سبق أنْ أشرنا إلى الفرق بين الهدف المقدس ، والسامي ، وبين الهدف العظيم ، والكبير . فأمثال (الإسكندر) والشاه (إسماعيل الصفوي) و(نادر شاه) كانوا يأملون بتحقيق أهداف كبرىٰ ، لكنهم لم تكن لديهم أهداف مُقدسة ينشدون تحقيقها ، وهم كانوا يُمثلون دور أبطال الحركة الذاتية ، وعظماء حب الجاه والسلطة ، ولم يمثّلوا رمزاً للأحرار ، وطُلاب الحقيقة ، ولهذا لم يتم اعتبارهم من رجالات الخير أو مُحبّي الإنسانية ، أو الموحدين الكبار ، والعظام .

أصحابها مرةً وقد تأتي بالضرر ، وليس مهماً إن كانت مُربحة أو خاسرة ، ذلك أن مثل هذه النضالات نضالات تدور حول محاور الأشخاص والمنافع الشخصية ، ولهذا فهي حركات لا قيمة لها من الناحية الكُلية ، والشمولية .

من هنا فإنّ الإمام الحسين (ع) ، وعملاً بِسُنة أبيه ، ومشياً على سيرته يقول : « اللهم إنك تعلمُ أنّهُ لم يكن ما كان مِنّا منافسةً في سلطان . . . » .

نعم ، فحين يكون النضال غير شخصيّ ، أي لا يدور في محور الأشخاص ، ولا دفاعاً عن المصالح الشخصية ، بل إعلان حرب ضد نوعٍ من أنواع العقيدة والنظام ، المبني على الفساد ، والظلم ، والشرك ، وعبادة الأوثان ، ومن أجل تحرير البشرية من كل أنواع العبودية الاجتماعية ، بل الأخطر من ذلك ، وهي العبودية العقائدية ، وبالتالي من أجل إنقاذ البشرية من براثن عفريت الجهل ، والضلال ، وشبح الظلم ، والاستبداد ، والاستغلال ، باختصار عندما يكون النضال نضالاً على الطريقة الحسينية : « وبَذَل مُهجَتَهُ فيكَ ، ليستنقذ عِبادك من الجهالة ، وحيرة الضلالة » .

واستناداً إلى أمر الله ، ومن أجل كسب رضا الله ، وعملاً بمقولة : « إنّ صلاتي ، ونُسكي ، ومحياي ، ومماتي ، لله ربّ العالمين » .

نعم على أساس من التضحية والفداء ، وبكلمة ، عملاً خالصاً لوجه الله ، ليس فيه ذرة من النفع الشخصي ، بل العكس من ذلك ، تعريض كل المنافع الخاصة للأخطار ، من أجل الوصول إلى الحقيقة .

فإنّ نضالاً من هذا الشكل ، سيكون صورةً من صور تبلور روح تقديس الحقيقة لدى البشرية ، وصفحة من صفحات نضالها ضد الأنانية ، والذاتية ، وبما أنها ستكون كذلك مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ **إِنّي أَعلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ** ﴾ ، فإنها لا بد ستنال ذلك الطابع القُدسي ، ويُنظر إليها نظرة مملوّةً بالعلو ، والسمو ، والعظمة . وإن نضالاً وكفاحاً كهذين سيكونان أيضاً مصداقاً للهجرة إلى الله وإلى الرسول ، كما ورد في الحديث الشريف .

. بعبارة أخرى فإنّ احد وجوه قداسة النهضة ، يرتبط بنوع المعاناة ، ونوع الآمال التي يحملها صاحب تلك النهضة ورائدها .

إنّ نهضة الحسين (ع) كانت مصداقاً حقيقياً لوجود مثل هذا العنصر ، ومثل هذه المواصفات ، فقد كان بإمكانه عليه السلام أن يضمن منافعه ، ومصالحه بالكامل ، لكنه مع ذلك فضّل أن يُعرّض حياته ، وماله ، وكل وجوده ، للخطر ، حفاظاً على العالم الإسلامي ، وإنقاذاً للمسلمين من براثن الظلم والاستبداد .

ومن هنا يمكننا القول بكل تأكيد إنّ الإمام الحسين (ع) ، شهيد مئة بالمئة ، وفدائي طاهر السريرة ، بل سيد الشهداء ، وأمير الفداء .

أما العلة الثانية ، والعامل الآخر ، الذي يُعطي صفة القُدسية والعلو ، والسمو ، والخلود ، لنهضة ما ، فهي الظروف الخاصة المحيطة بالنهضة[1] .

فالمصباح في يوم مشرق ، وفي وسط النهار ، ليس له أية قيمة تذكر ، كما أن السراج في الليلة المقمرة ، ذات السماء الصافية ، والمليئة بالنجوم ، له قيمة قليلة ، لكنه مهم جداً ،وذو أهمية بالغة ، عندما يوجد في ليلة حالكة الظلام ، لا ترى فيها العين أي شيء يذكر .

عندها يكون كالماء الذي ينزل على العطشان في وسط الصحراء ، أو كالمطر الذي ينزل مدراراً على الزرع بعد فصلٍ من الجفاف وانقطاع الماء .

وبعبارة أخرىٰ يمكن تقييم العامل الثاني من خلال ملاحظة نوع القوة والسلطة التي يواجهها القائمون على النهضة . هل هي قوة فرعون ، ونمرود ، ومن يدعي أنّه « ربكم الأعلى » ، وأمثاله من المستبدين ، ومصاصي دماء

---

(١) لقد سبق وقلنا إن مثل هذه الثورات والحركات إنما تحصل مثل البرق ، أو الشرارة ، في ظل الظلمات بل أشبه بالشعلة المقدسة . التي تضيء وسط القمع ، وسيطرة الاستبداد ، والظلام الحالك ، بل أشبه بنجمة تُضيء بنورها وسط ليل مظلم ، تُنير الطريق للضالين بعد طلوعها عليهم ، بل مظهراً من مظاهر العشق والصفاء مقابل العقل والحسابات العقلانية .

الشعوب ، الذين تقطر الدماء من سيوفهم ؟ فإنْ كانت كـذلك ، عنـدها تنـطبق عليها مواصفات القُدسية المطلوبة .

يقول النبي الأكرم (ص) : « أفضـل الأعمال (أو : أفضـل الجهاد) كلمـة عدل عند إمام جائر » . نعم ففي ظل شيوع أجواء الحـرية ، يكـون الحديث عن الحـرية أمـراً عـاديـاً ، ولا يحتـاج إلى فن أو جهـد معين . لكنـه في ظـل هيمنـة الاستبداد ، وتحكُّم أجواء الظلم والجور ، حيث الأنفـاس محبوسـة في الصدور ، والألسنة التي تنطق بالحق تُقطع ، وكل مَنْ يتجرأ على معارضـة الحكم تُقطع يـداه ورجلاه ، وتُعلّق المشانق لكل مَن تُسوِّل لـه نفسه القيـام ضد السلطة الحـاكمة ، وفي أجـواء يُسيـطر عليهـا اليـأس المطلق ، وبتعبـير أمـير المؤمنـين عـلي (ع) : « يظنُّ الظانُّ الدُنيا معقولةً عـلى بني أُمية » ، نعم في مثـل ظروف كهـذه ، يصبح الحديث عن الحرية فناً ، وقدرةً ، وشجاعة .

تلك هي ظروف قيام الإمام الحسين (ع) ، والتي تنبأ بها علي (ع) في إحدىٰ خطبه (رقم ٩١) عندما قال :

« ألا وإنّ أخـوفَ الفتن عندي عليكم ، فتنـة بني أمية ، فـإنها فتنة عميـاء مُظلمة : عَمّت خُطتها ، وخصّت بليتُها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمي عنها . وايمُ الله ! لَتجدنّ بني أمية لكم أرباب سوءٍ بعدي كالناب الضروس : تعزم بغيها ، وتخبُط بيدها ، وتزبِنُ برجلها ، وتمنع درّها ، لا يزالون بكم حتىٰ لا يـتركوا منكم إلا نـافعاً لهم ، أو غـير ضائـرٍ بهم ، ولا يـزالُ بـلاؤهم عنكم حتىٰ لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من رَبّه » .

فمن هذه الزاوية تكبر قيمة النهضة حيث ترى القائمين عليهـا ، يُظهـرون أعلى مراتب الشهامة ، والشجاعة ، ويحتقـرون بالمقـابل الـظَلَمَة ، والمتفرعنين ، والمُتسلطين على رقاب الناس ، من أصحاب السلطة القمعيّة ، وهو الأمر الذي نعرفه جيداً في سيرة إبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ ، والرسول محمـد (ص) ، حيث كانت حركة كل واحدٍ منهم قيام رجـل واحدٍ ، لكنّها بمثابـة قيام أمـة في مواجهـة السلطات الفرعونية الحاكمة ، وما قيـامهم في ظل تلك الـظروف غير المتكـافئة ،

وفي ظل عدم توازن للقوى ، إلاّ مصداق للآية الكريمة : ﴿ **كم مِنْ فِئةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةً بإذنِ الله** ﴾ وهذا هو سر الأهمية البالغة ، والقدسية المحيطة بتلك الحركات الربّانية .

والعجيب هنا أنّ البعض ـ من أمثال مؤلف كتاب الشهيد الخالد ـ ومن أجل أن يُبرِّر قيام الإمام الحسين (ع) في ظل تلك المواجهة غير المتكافئة ، فإنك تراه يسعى كل جهده ، لِيُثْبت أن أهل الكوفة كانوا يُمثلون قوة كافية في الميزان ، كان الحسين (ع) يعتمد عليها كثيراً في حسابات المعركة .

في حين أنّ عظمة الحسين ونهضته تتجلىٰ في الواقع في قيامه وهو وحيد .

وما نراه اليوم من أثرٍ باقٍ له ما هو إلا بقية من آثار تلك الروح العالية التوّاقة للسمو والرفعة ، التي هزّت أركان العالم آنذاك ، ولا تزال آثارها باقية حتىٰ اليوم .

العامل الثالث له علاقة في الواقع بدرجة الوعي الاجتماعي ، والرؤية الثاقبة ، والخبرة ، والنظرة الحادة التي يتمتع بها القائمون على النهضة ، فالقائمون على النهضة المُقدّسة أشبه ما يكونون بالطبيب الفطين الذي سُرعان ما يُشخّص المرض في وقت مبكّر ، وسرعان ما يجد له العلاج المناسب ، في الوقت المناسب .

فقيادة النهضة كانت قد شخصت نوع الغفلة العامة للناس ، كما شخّصت طريقة إيقاظهم ، ولقد كانت نهضة الحسين (ع) حدثاً خارقاً للعادة ، تلازم مع نظرة حادة وواعية ، وإدراك قوي ومتين ، وبصيرة مستنيرة بنور بعيد ، من قبل القيادة التي كانت في الحقيقة ترىٰ وتعلم ما لا يعلمه ويراه الآخرون ، وهي كانت سبّاقة ونبوءةً ثورية ، وليس حركة سابقة لأوانها ، بل جرس إنذارٍ لما هو قادم من أخطار التسلُط الأموي .

والموضوع الأساس هنا هو أن الأمويين كانوا يُخفون في ما وراء الستار برنامجهم السلطوي البغيض ، فجاء الحسين (ع) فكشف عنهم الغطاء ، ورفع الستار عمّا كانوا يُعدِّون له من مشروع .

فحتىٰ شرب الخمرة من قبل يزيد ، كان أمراً خافياً على جمهور العامة آنذاك ، ولم يُكشف عنه إلا فيما بعد .

ثم إن أبا سفيان ، عندما طرح مشروعه في بيت عثمان ، إنما كان قد طرح في الواقع مشروعاً خطيراً للغاية ، وذلك بقوله : « يا بني أُمية تلقّفوها تلقُّف الكرة ولتصيرنّ إلى أولادكم وراثةً » . مما يعني أنه ربما كان يَعُد العُدّة ، ويسعىٰ من خلال تقادُم الزمان ، والأحداث أنْ يُحوّل مشروعه ، ويُترجمه عملياً ، بواسطة خلق خلفية دينية حقيقيّة ، تقوم على تزوير الحديث وإدخال الأفكار التي تخدم مشروعه الخطير ، الذي كان يقوم على جعل الحكم وراثةً ، في سلالة بني أمية .

فهو كان يحلم بتحويل ذلك إلى واقع :

« أما والذي يحلفُ به أبو سفيان . . . »

ولهذا ترىٰ الإمام الحسين (ع) يُسارع إلى القول في سباق مع الزمن ، والأحداث :

« وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليت الأُمة براعٍ مثل يزيد » .

مما يعني أنه كان يحس ويشعر بأنّ مشروع أبي سفيان ، قد أصبح قاب قوسين ، أو أدنىٰ من التحقيق بصعود يزيد إلى السلطة .

وعندما يكون الإمام الحسين (ع) واثقاً ، ومتيقناً من نتائج عمله إلى درجة أنه يتنبأ بسقوط بني أمية من بعده ، فإنّ ذلك دليلٌ آخر على امتلاكه عليه السلام لذلك الإدراك القوي ، والرؤية الثاقبة للأحداث .

لقب « سيد الشهداء »

إنّ لقب سيد الشهداء ، كان يخصّ في البداية حمزة ، عم النبي الأكرم (ص) ، ولكن ، وبعد استشهاد أبي عبد الله ، انتقل هذا اللقب ، ليصبح خاصاً بالحسين (ع) . فاستشهاد الحسين أنسى مَنْ كان قد استشهد من قبله ، وهكذا كان وضع أصحاب أبي عبد الله أيضاً ، فهم بدورهم أيضاً تجاوزوا من سبقوهم من الشهداء ، درجةً ومرتبة .

وأبو عبد الله نفسه يقول بشأنهم :

« إني لا أعلم أصحاباً أوفىٰ ، ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أوصل ، ولا أفضل من أهل بيتي » .

فأصحاب أبي عبد الله كانوا أحراراً ، سواء من طرف الصديق ، أم من طرف العدو ، فهم لم يكونوا مُحاصرين ، ولم يكونوا كذلك تحت ضغط معنوي من أبي عبد الله ، فهو نفسه قال لهم : بأنّ الأعداء لا يُريدون سواي ، وإنني أُجيز لكم استخدام الليل جملاً ، وركوبه ، وترك ساحة النزال ، والتوجه إلى حيث تشاؤون .

وفوق ذلك كله فقد خفض برأسه إلى الأرض ، حتىٰ لا تقع عيناه على عين من يُريد مغادرة المكان ، فيقع أسير الخجل والحياء ، من أبي عبد الله مثلاً !

إذاً ، لا هم محاصرون من قبل العدو ، كما هي حالة الجند التي وضعهم فيها طارق بن زياد ، عندما لم يبق من الطعام سوى ليوم واحد ، وقام بحرق المراكب من ورائهم .

ولا هم تحت ضغط مطالبة الصديق لهم بضرورة البقاء في ساحة المعركة حتىٰ النهاية ، حتىٰ يكونوا في موقف استحياء وفي حيرةٍ من أمرهم .

بل إنه حتىٰ خفض عينه إلى الأرض عليه السلام حتىٰ لا يترك أي مجال للخجل ، أو الحياء من اتخاذ خطوة التراجع لو أرادوا[1] .

---

(١) وخلاصة القول فإن الجملة التي تُنسب ظاهراً إلى ابن أبي الحديد حيث يقول فيها : « آثروا الموت » تنطبق على هؤلاء الأصحاب الأوفياء . وفي الحديث المعروف عن أمير المؤمنين (ع) [الوارد في ص ١١٠ من كتاب نفس المهموم] أنه عليه السلام يقول : « ومصارع عُشّاق ، لا يَسبِقُهُم مَنْ كان قبلُهم ، ولا يلحقُهم مِن بعدَهم » .

أصحاب الحسين وأهل بدر ، وأهل صفين

وعليه يمكن القول بأنّ أصحاب الحسين (ع) أفضل درجة من البدريين في عهد النبي (ص) ، وكذلك أفضل من جماعة علي (ع) في صفين ، وفي المقابل فإنّ جماعة عمر بن سعد ، في معركة الطف ، أكثر شقاوةً ، وأسوأ فعلاً من جماعة أبي سفيان في بدر ، ومن جماعة معاوية في صفّين .

نعم فهؤلاء لم يُقاتلوا كما دخل البدريون من جماعة أبي سفيان الحرب بناءً على العادة والعقيدة الجاهلية في حرب النبي (ص) .

ولا كانت عندهم مسألة اختلافية كما كانت لدى جماعة معاوية مثل قضية مقتل عثمان .

فهؤلاء كانوا يرتكبون الجرائم ، ونداء قلبهم ، وصوت وجدانهم ، وضميرهم ، كان يقول بخلاف ذلك . [قلوبهم معك وسيوفُهُم عليك] .

وهم كانوا يبكون الحسين لكنهم كانوا يأمرون بقتله في ذات اليوم، ويذرفون الدموع على آل بيته ، لكنهم ينهبون ممتلكات أهله ، وينتزعون الأقراط من آذان بنات الحسين (ع) ، نعم كانوا يرتجفون ، لكنهم يُرددون في الوقت نفسه نعم قطع رأس الحسين .

النضال ضد الجهل والظلم

لقد شاع مصطلح النضال ضد المرض ، والفقر ، والجهل ، في أيامنا هذه بحيث إنه صار عملاً مقدّساً القيام بمثل هذه الأعمال ، لكن أيّ واحدٍ من هذه النضالات لا يصل في الدرجة والرتبة إلى مستوى النضال المطلوب ، ضد جهل الناس ، وغفلتهم ، وضد الظلم ، وهي الأمور التي تتطلب التضحية والفداء والاستشهاد .

فالقرآن الكريم يذكر الشهداء في عداد الأنبياء ، والصدّيقين ، كما جاء في

قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ الله والرسُّول ، فَأولَئِكَ مع الّذينَ أنعمَ الله علَيْهِم مِنَ النّبيينَ ، والصّديقينَ ، والشُّهداء ، والصّالحينَ ، وحَسُن أولئكَ رَفيقًا** ﴾ .

والشهيد لا يحتاج إلى تغسيل أو كفن ، إذْ إنّ دم الشهيد أكثر نقاءً وطُهراً من الماء . . .

لماذا خرج الكوفيون لقتال الحسين (ع) ؟

السؤال هو كيف خرج أهل الكوفة لقتال الحسين (ع) بالرغم من حبهم وعلاقتهم العاطفية بالحسين (ع) ؟

والجواب : هو الرعب والخوف الذي كان قد هيمن على أهل الكوفة عموماً ، منذ زمن زياد ومعاوية ، والذي ازداد وتفاقم مع قدوم عُبيد الله ، الذي قام على الفور ، بقتل ميثم التمار ، ورُشيد ، ومُسلم ، وهاني .

وبعبارة أخرىٰ فإنّ الناس رجالاً ونساءً كانت قد ضُيعت ، وأصبحت مسلوبة الإرادة ، ولم يكن بمقدورها العمل طبقاً لما يراه عقلها ، ويستسيغه فكرها .

وفي أيام كربلاء أيضاً ما أن أبدىٰ أحد الجنود تباطؤاً حتىٰ قطع عُنقه ، فعرف الباقون على الفور ماذا ينتظرهم .

هذا بالإضافة إلى تغلب عامل الطمع ، والحرص على الثروة ، والمال ، وجاه الدنيا ، كما كان الحال مع عمر بن سعد نفسه الذي كان يعيش حالةً من عذاب الضمير ، وهو يُردّد : « فوالله ما أدري ، وإني لحائرٌ أُفكر في أمري . . . » .

وأما وجهاء القوم ، ورؤساءُهم ، فقد أرعبهم ابن زياد ، وأغراهم بالمال ، منذ اليوم الأول الذي دخل فيه إلى الكوفة ، حيث ناداهم جميعاً ، وقال لهم من كان منكم في صفوف المعارضة ، فإنّي قاطعٌ عنه العطاء .

نعم وهذا عامر بن مجمع العبيدي أو [مجمع بن عامر] يقول : « أمّا

رؤساؤهم ، قد أعظِمتْ رشوتهم ، ومُلئت غرائزهم » .

رُكنا الفخر والاعتزاز لدى أبي عبد الله

في أيام كربلاء ، وأثناء وقوع الابتلاءات العجيبة التي كانت تزداد يوماً بعد يوم على أبي عبد الله الحسين (ع) .

والأسوأ من كل ذلك تلك الدناءة ، وذلك الكلام الرذيل ، وأنواع التجاسر والوحشية ، التي كان يُعامل بها أهل الكوفة الإمام الحسين (ع) .

رغم كل تلك الظروف الصعبة ، كانت هناك نافذتان مفتوحتين يتنفس منهما أبو عبد الله الهواء الطلق ، ويعتمرُ قلبه من خلالهما بالسعادة والفرح ، وكانتا نافذة أصحابه ، ونافدة أهل بيته ، حيث الوفاء ، والصفاء ، والفداء ، والخدمة الطوعية ، التي كان يُقدّمها له أصحابه ، وبعبارة أخرى السرور الذي كان يعمُّ قلبه ، عليه السلام ، من خلال وقفة الأصحاب ، ونصرتهم له ، والسير معه على نفس الطريق والمرام .

وبالنسبة لرجل العقيدة والإيمان والسلوك ، ليس هناك شيء يُدخل السرور إلى قلبه مثل امتلاكه لرفاق دربٍ ، يؤمنون بطريقه ، ومستعدين للسير إلى جنبه ، كيفما سارت الأمور .

ولذا تراه كان يُكرّر الدعاء لهم ، وطلب التوفيق لهم من أعماق قلبه ، وخير شهادة لهم تلك الشهادة المعروفة وهو يقول عنهم : « إني لا أعلمُ أصحاباً أبرّ ، ولا أهل بيتٍ أوصَل ، ولا أوفىٰ من أصحابي . . . » ، وهي المقولة التي تُحدّثنا عن الثقة التامة التي كانت لديه فيهم ، والآمال الكبيرة التي كان يعقدها ، عليه السلام ، عليهم .

وبالتأكيد فإنّ طلب (أبو ثمامة الصائدي) من أبي عبد الله الحسين لأداء الصلاة الأخيرة معه ، قد أثلج صدر الحسين ، وجعله يدعو له ذلك الدعاء المعروف .

ثم وأكثر من ذلك مسألة تلك التضحية العجيبة التي أبداها سعيد بن عبد الله الحنفي تجاه الإمام (ع) ، وقوله بعد كل تلك التضحية عبارة : « أوفيتَ ؟» هذه وغيرها الكثير من مواقف الوفاء ، والفداء لأصحابه ، وأهل بيته ، جعلته عليه السلام يخصّ البعض منهم بالدعاء الخاص ، وجميعهم بالدعاء العام .

وأكثر هذه الأدعية حُرقةً للقلب ، ذلك الدعاء المعروف بحق ابنه علي الأكبر ، وهو الدعاء الذي يدعو له فيه من الله سبحانه وتعالى أنْ يسرع في إلحاقه بركب جده النبي ، حتىٰ يستفيض منه ويروي عطشه .

وهكذا يمكن الإشارة هُنا إلى ذلك الموقف السار والمفرح ، الذي واجهه به ابن أخيه القاسم ، وهو يقول له في ليلة عاشوراء ، ردّاً على سؤال عمّه ، عن طبيعة رؤيته للموت ، بأنه : « أحلى من العسل » .

ومن الأدعية المعروفة له عليه السلام ، في أيام كربلاء ، حول أهله وأصحابه ، يمكن الإشارة إلى بعضها في يوم عاشوراء ، والتي وردت على الشكل التالي :

١ ـ الدعاء بحق أبو ثمامة الصائدي .

٢ ـ الدعاء بحق علي الأكبر .

٣ ـ دعاؤه إلى العموم في ليلة عاشوراء ، بعد أن رَدُّوا عليه جميعاً بعدم مفارقتهم له ، حيث ردّ عليهم بدعائه المعروف الذي ورد فيه : « جزاكُم الله خيراً »[1]

بيان القرآن حول فلسفة قيام المُصلحين الربانيين

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القُرونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أولُو بَقِيَّةٍ ، يَنْهَونَ عَنِ

---

(١) نفس المهموم ص ١٢٢

الفسادِ في الأرضِ ، إلاّ قليلاً ممّنْ أنْجَيْنَا مِنْهُم ، واتّبعَ الّذينَ ظَلَمُوا ما اترفوا فيه ، وكَانُوا مُجرِمِين * ومَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ ، وأهلُها مُصلِحُونَ ﴾[1] .

نفهم من آيات القرآن الكريم أنه ما جاء نبي إلاّ وكان هناك قوم يخالفونه ، أو بالأحرى ، إلاّ وكان قد بُعث لمناهضة نظام قوم معيّنين ، وإنّ بيانات الأنبياء لم تكن اعتباطية هكذا دون سياق معين ، بل مُجرّد أقوال نزلت من السماء ، دون أن تكون هادفة لتغيير نظام حيا ةالناس ، ووضعهم الاجتماعي .

وإنه ليس صحيحاً أيضاً بأنّ المخالفين ما هم إلاّ جماعة من المعارضين ، الذين ليس لديهم همّ في الدنيا إلاّ مخالفة كل جديد ، ولذلك تراهم وقفوا بوجه الأنبياء .

كلا فالأمر ليس كذلك (وإنْ كُنّا للأسف نشرح الأمر للناس بهذه الصورة ، ونُبرّر مخالفة الناس لنا ـ حتى وإنْ كانت مخالفة عادلة ومُحقّة ـ بأنها من سُنة الكون ، وأنه ديدن الناس المخالفة ، حتىٰ مخالفة الأنبياء) .

فالأنبياء إنما كانوا يُبعثون ، لإعلان النضال والكفاح ضد نظام اجتماعي معين ، يكون حاكماً ومهيمناً على قوم معينين .

والقرآن الكريم بالمناسبة يذكر ويشير بوضوح إلى أسباب مخالفة الناس للأنبياء ، والمنطق الذي يستندون إليه في مخالفتهم ، وكيف أن القائمين على هذه المخالفة إنما هم أقلية متحكمة في رقاب الناس ، هي التي توجّه هذه المعارضة ، وتشوِّش أذهان العامة ، التي لم تكن متضررةً أساساً من حركة الأنبياء ، بل على العكس من ذلك .

هذه الأمور كلها يرِدُ ذكرها في القرآن الكريم في موارد عدة .

والقرآن الكريم يُركز على أن المسألة الأساسية التي تدفع بهذه الأقلية

---

(١) سورة هود : الآيتان ١١٦ ـ ١١٧

للمعارضة ، هي حالة الترف التي تُحيط بالمُترفين من القوم ، وبعبارة أخرى النظام الظالم المتحكم في المجتمع .

فقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أرسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قال مُترَفُوهَا إنّا بِمَا أرسِلْتُم بِهِ كافرونَ ﴾[1] ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قال مُتْرَفُوهَا إنّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلى أُمَةٍ ، وإنّا على آثارِهِم مُقْتَدُونَ * قَالَ : أولَوَ جِئْتُكُمْ بِأهْدىٰ مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيه آباءَكُمْ قَالُوا : إنّا بِمَا أرسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ [2] .

ففي هذه الآية مثلاً ، يُشير القرآن الكريم إلى الابتلاء الذي واجه خاتم الأنبياء محمداً(ص) ، وكيف أنّ هذا الابتلاء قد أصاب الأنبياء عامةً ، وأنّ المعاناة المشتركة لهم جميعاً تأتي من الترف ، والإسراف ، والتنعم ، الذي كان سائداً في ظل الوضع الظالم ، الذي كانت تُعزّزه تلك الأقلية المتسلطة على رقاب الناس ، والتي ما كانت لتُبرّر استنكافها من الإيمان بالدين الجديد ، بحجة أنّ آباءَها وأجدادها كانوا على سيرة أخرى ، إلاّ لتضليل الضعفاء ، والمساكين ، وجمهور غير المترفين ، الذين جاء الإسلام لحمايتهم ، وإنقاذهم من سلطة المتجبّرين .

ذلك أنّ التحاق أولئك العامة كان يُهدّد وضع الأقلية المُترفة ، ويُطيح بهكيل المجتمع القديم .

ولذلك تراهم تشبّثوا بنظرية احترام السُنن والتقاليد القديمة ، التي لم تكن تساوي عندهم شيئاً قبل ظهور الإسلام .

إنّ قريش أي أكابرها ووجهاءَها ، كانوا يعيبون على النبي أنّه يأكل ويشرب ، مثله مثل غيره من البشر العاديين ، ثم إنه لا يملك كنزاً من ذهب ، ولا حديقة زاهرة ، مليئة بالفاكهة ، حتىٰ يؤمنوا به !

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣٤ .

(٢) سورة الزخرف : الآيتان ٢٣و ٢٤ .

فهل كان أمثال أبي سفيان وأبي جهل يُعبّران بهذه الأحاديث عن شك أو تردد حقيقي بنبوّة محمد (ص) ، أم إنهم كانوا يتوسلون بهذه الأساليب ، لإلقاء الشبهات والشك في قلوب الآخرين ؟ .

ألم يكونوا يؤمنون بنبوة إبراهيم ؟ وهل كانوا يعتقدون مثلاً أنّه لم يكن يأكل ولا يمشي بين الناس ،وأنّه كان يملك كنزاً من الذهب ، وبستاناً مليئاً بالفاكهة ؟! إنه هُراء وحُجج مبتذلة ، أُريد من ورائها تضليل المستضعفين وخداعهم .

على كل حال فإنّ القرآن الكريم يُحدّد هدف الأنبياء بأنّه عبارة عن القيام بالقسط كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **لَقَد أرسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيّنَاتِ وأنْزَلْنَا مَعَهم الكِتابَ والميزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بالقِسطِ** ﴾[1] .

ولذلك ، فإنه من المحتم رؤية أولئك الذين كانوا السبب في ضرب العدالة الاجتماعية ، والمتنعمين ، والغارقين في الإسراف حتى آذانهم ، يقفون موقف المعارض للدين ، وهذا هو السر الكبير وراء موقف أبي سفيان المعارض للنبي (ص) ، والذي عمّده بالدم وبالتضحية بأفراده .

وعليه يمكننا القول بأنّ معارضة أكابر قريش ، ومخالفتهم الشديدة لحركة النبي (ص) ، قائمة في الأساس على نفس قواعد الخلاف ، والمعارضة ، التي مثلّها فرعون في مواجهة موسىٰ ، ونمرود ، مع ابراهيم ، وأي قوم آخرين ، وقفوا بوجه نبيّهم .

أما بشأن قراءتنا للآية : ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ من القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُم . . .** ﴾ . فنقول :

إن هناك بعض الموضوعات التي يمكن استنتاجها من هذه الآية وهي :

أ ـ وجوب النهي عن الفساد وضرورة اجتثاثه من على الأرض .

ب ـ القلة والكثرة ليستا معياراً في المواجهة .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥

ج ـ علة العلل تكمن في فساد المُترفين .

د ـ إنّ الذي يحفظ بقاء أية أمة هو العدل ، وإنّ أي ملك يمكن له أن يبقىٰ مع الكفر ، لكنه ينهار بمجرد اختلال توازن العدل الاجتماعي .

يقول (البيضاوي) في شرحه للآية الكريمة : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ القُرون** . . . ﴾ :

إنّ المقصود في « أولو بقيةٍ » ، هو أولو بقيةٍ من الرأي والعقل ، و« يا أولو الفضل » ، أو « أولو الإبقاء » أي أولئك الذين يُبقون على أنفسهم من العلم والمعرفة .

ثم يضيف :

وأمّا ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرىٰ بظلمٍ** . . . ﴾ :

فالمقصود هنا بالظلم هو الشرك .

وعليه يصبح معنىٰ الآية أنّ الله سبحانه وتعالى لا يهلك القرى بسبب شركها ، إذا ما كانت أهل صلاح ، وإصلاح ، وترعىٰ شؤون العدالة .

ولذلك نرى (الشهرستاني) يُفسّر حوادث التاريخ كلها بإعادتها إلى نُطفة التكوين ، التي يعتقد أنها قد انعقدت جميعاً في القرن الأول للهجرة .

في كتابه « الملل والنحل » في الصفحة الخامسة من « سمو المعنى » يقول :

« كل التبليلات ، التي مَرّت بالتاريخ الإسلامي ، سواء في العقيدة ، أو السياسة ، يمكننا أن نجد لها مرتجعاً ، ومَرّداً ، في حوادث صدر التاريخ » .

ما معنى الرجل العظيم ؟

كلنا سمع بعبارة رجال التاريخ العظماء ، فما هي هذه العظمة وما هو مقياسها ؟

نقول : إنّ الشخصية الروحية للأفراد هي التي تُعيّن حجم ومقدار عظمة

الأفراد ، وإنه لأمر بديهي القـول بأنّ العـلامات والمقـاييس البدنيـة ، أو العرقيـة للأفراد ، لا تُعينّ مقياس عظمة البشر .

ونحن عندما نسبر أعماق التاريخ نسمع بأشخاص وأفراد يمكن تصنيفهم في عداد الأبطال الذين سطروا ملاحم على صفحات التاريخ ، وكانـوا أشبه بـالقمم الجبليـة الشاهقـة ، مقابـل الآخرين ممن عـاصروهم ، والذين هـم أشبـه بالحصىٰ الصغيرة المتناثرة .

إنّ الوقوف قليلاً عند هذه النقطة من دراسة التاريخ ، والنظر إليها جيداً ، تجعلنا نرىٰ بـوضـوح ، شموخ مثل هؤلاء الأشخـاص ، إلى جانب صغـر البعض الآخر ، من الذين لم يكن بالإمكان رؤيتهم ، لشدة ضمورهم .

١ ـ فـالاسكندر ، ونـابليون ، ونـادر شاه ، والشـاه إسماعيـل الصفوي ، وأمثالهم يُعتبرون من رجالات التاريخ وعظمائه .

٢ ـ والأنبياء العظام ، والأولياء الصالحون الكبار ، كـإبراهيم ، ومـوسى ، وعيسىٰ عليهم الســلام ، ومحمـد (ص) ، وعــلي (ع) هم الآخرون من رجــال التاريخ البارزين ، وعظماء البشرية النادرين .

والسؤال الآن هـو هل يـوجد هنـاك مجال للمقـارنة بـين عظماء المجمـوعـة الأولى ، مع عظماء المجموعة الثانية ؟ والجواب بالتأكيد : كلاّ .

فصحيح أنّ أولئك الأفراد من المجموعة الأولى قد جاءت عظمتهم ، وظهر بروزهم ، لكونهم أثبتوا أنهم ذوو همم عالية ، وإرادات قويـة ، وأنّ شعاع دائـرة آمالهم ، وطموحـاتهم الواسعـة ، قد غـطىٰ مساحـة كبيرة ، ولم يكـونوا يقنعـون بالقليل ، وبالتالي فإنه من الطبيعي أن يقف الإنسان منبهراً ، ومبهوتـاً ، لسماعـه ببـطولاتهم ، وتعرُّفـه على همـة روحهم ، ونشاطهم المتميـز ، حتىٰ إنه ربمـا انحنىٰ لعـظمتهم ، ودخل قلبـه نوع من المحبـة تجاههم ، بسبب تلك الـروح الفعّـالـة المتألقة فيهم (وهـذا ما تتركه من أثـر في نفوس النـاس قراءة الشـاهنامـه للشاعـر فردوسي مثلا) .

إلاّ أنّ عظمة المجموعة الثانية عظمــة من نـوع آخر ، ونمط مختلف تمـاماً ،

نوع يفرض علينا منح مقام القدسية لهم ، إلى درجة أنّ أسماءَهم بدورها أيضاً تصبح أسماء مقدّسة ، وهو ما نراه بوضوح لدىٰ ذكر أسماء هؤلاء العظام أمثال محمد (ص) ، وعلي (ع) ، والإمام الحسين (ع) ، وكذلك إبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ ، عليهم السلام ، حيث ترى أنّ هالة من القدسية الخالصة تُحيط بهذه الرموز . لماذا ؟

نقول : صحيح أنّ المجموعة الأولى عظيمة شاخصة في التاريخ إلّا أنّ عظمتها وتألّقها من نوع العظمة والتألق الذاتي .

فكل واحد من أولئك العظام يمكن اعتباره سبعاً ، وحيواناً ضخماً ، فليس هناك فرق ، أو تمييز بين الحالتين ، فالإنسان يتعجب كثيراً لرؤية فرد يأكل عشرة أضعاف ما يستطيع أن يأكله الإنسان العادي ، وقد يُلازم هذا التعجب نوع من المديح والتقدير .

نعم فهناك من يطلب القليل من الطعام ، ويقنع به ، وهناك من لا يقنع بالقليل ، كذلك طُلّاب الجاه ، فمنهم من يكتفي بالقليل ، وآخر منهم يطلب المزيد ، ولا يشبع بالنزر اليسير ، تماماً كما هو الفرق بين حاكم يُريد الولاية على ناحية من عشرة عوائل ، وتراه يحمل همة حكومة أولئك العشرة فقط ، فسيكون من أصحاب الجاه الصغار ، وآخر يسعىٰ لكسب الولاية على قصبة من ألف وحدة اجتماعية ، فهو أيضاً من النوع الأول لكنه أكثر طموحاً .

وآخر تراه يسعىٰ للسيطرة على محافظة بأكملها ، أو منطقة ، أو إقليم من أقاليم البلاد ، وصولاً إلى بلد ودولة بأكملها ، . وهكذا دواليك ، إلى أن يظهر من هو طامع وطامح ليرىٰ السيطرة والهيمنة لسلطانه ، قد اتسعت ، وطال شعاعها العالم كله ، فيكون بذلك من أصحاب الجاه ، والسلطان ، ومن العظام في التاريخ .

نعم إنّ شخصية مثل هؤلاء ، شخصية عظيمة بالتأكيد ، فهم شخصيات عظيمة الهمة الذاتية ، وأشبه ما تكون بسبع الغابة العظيم الشأن ، والجاه ، والاستغلال .

ولا شك في أنّ مثل أولئك الرجال يملكون من سعة الروح ، واتّساع مساحة الشخصية ، وطول شعاع دائرة الطموح، ما يجعلهم لا يكتفون بالنزر اليسير من الحكم والجاه ، بل يطلبون توسيع حاجاتهم ، وطموحاتهم ، الذاتية لتشمل الدنيا كلها ، وبالتالي يكون جلُّ سعيهم مُتمثلاً في الواقع في ابتلاع الكل العام في هاضمتهم الذاتية الكبرىٰ .

إنهم في الواقع من عظماء الذات الذين لا يشبعون ، والذين يُريدون تحويل الدنيا كلها إلى جزء من ذاتهم ، وفناء الشخصيات والرموز كافة في شخصيتهم ورمزهم الأعلى ، وهي الشخصية الطفيلية الكبرىٰ ، التي تتغذىٰ من شخصيات الآخرين .

إذاً صحيح أنّ تلك الفئة عظيمة ، وكبيرة ، ونشطة، وفعّالة، لكنها أشبه ما تكون بالغدة السرطانية ، التي تبدأ بالنمو غير المتوازن من داخل إحدىٰ الخلايا ، وهكذا تستمر في نمو مطرد ، إلى أنْ تصل إلى نهايتها الطبيعية ، التي هي فناء البدن ، وهلاكه .

في حين أنّ الفئة الثانية تكبر شخصيتها وتنمو كما تنمو الأم ، وتكبر شخصيتها ، ويكبر معها أبناؤها ، وتنمو شخصيتهم المستقلة ، وتلقىٰ الاحترام ، والتقدير ، من قبل الأم ، بل والرعاية الشاملة لتلك الشخصية الوليدة ، تماماً كما هي الرعاية التي توليها الأم لنفسها وربما أكثر .

نعم فهي تسعىٰ إلى هضم تلك الشخصيات الجديدة والوليدة ، وإفنائها في داخل شخصيتها الذاتية ، بل حفظها ، ورعايتها ، وتقديرها ، واحترامها ، على عكس الفئة الأولى التي تتصرف كالغدة السرطانية مع الآخرين .

بينما نرىٰ أنّ الفئة الثانية كما قُلنا أشبه ما تكون بالروح القوية التي تسري في جسد المجتمع ، فتنفخ الروح في أبدان الجميع ، وتُنشِّطهم ، وبالتالي تصبح مصداق الحديث الشريف : « من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين ، فليس بمُسلم » .

إنها الشخصية الإنسانية هي التي تتوسع ، والروح البشرية هي التي تنمو وتكبر

في تلك الفئة ، وليس الروح الحيوانية فيها .

إنه علو النفس ، وسعة الإيمان والوجدان في الأولياء ، والصالحين ، والأنبياء ، ما يميز بين نوعي العظمة .

صحيح ، لماذا ترانا اليوم ندَّعي بأننا من فدائيي الحسين (ع) ؟

الجواب هو : إنّ ما قاله النبي محمد (ص) عن الحسين (ع) : « حُسين مني وأنا من حُسين » نحس به نحن كذلك أيضاً في أنفسنا ، فحسين منّا ونحن من حُسين ، ذلك أننا لا نرىٰ في الحُسين شخصاً قام من أجل تحقيق مصالحه الذاتية ، بل نرى فيه الرمز والروح الكُلّية ، التي قامت ، ونهضت ، وفكّرت بنا ، حتى قبل أن نولد .

وعليه فإنه منّا ونحن منه ، وهو من البشرية ، والبشرية منه .

إنه الرمز الذي اتّحد مع روحنا ، وامتزج مصيره بمصيرنا ، فهو منا ونحن منه .

إنّ التوسع الإنساني للشخصية يتمثل أيضاً في قول علي (ع) متمثلاً :

وحَسبُكَ داءً ، أنْ تبيت ببطنةٍ وحولَكَ أكبادٌ ، تَحِنُ إلى القِدِّ

أو كما جاء في قوله عليه السلام :

« وهذا أخو غامدٍ ، وقد وَرَدَ خيلُه الأنبار . . . ولو أنّ امرأً مُسلماً مات على هذا أسفاً . . . » .

وعلو النفس ، وسعة الروح ، وتألُّق الشخصية ، يتمثل أيضاً في قول الحسين (ع) : « إني لم أخرُج أشراً ، ولا بَطِراً . . . » أو في قوله عليه السلام : « من رأىٰ سُلطاناً جائِراً ، مُستحلاً لِحُرم الله . . . » .

* * * *

الأساس في وقوع الفاجعة
أن الامام أبى أن يبيع رأيه ومعتقده

سواء قبل موت معاوية ، أو بعد موته في عهد يزيد ، وفي الوقت الذي كان فيه لا يزال في المدينة ، أو بعد انتقاله إلى مكة ، أو وهو في الطريق إلى العراق ، أو في أرض كربلاء نفسها ، كل ما كان يُطلب من الإمام ، هو منحه إياهم ذلك الامتياز .

ولو كان عليه السلام قد أعطاهم إيّاه ليس فقط لم يكونوا قد آذوه في شيءٍ ، بل ولربما كانوا قد دفعوا له بعض الامتيازات المُقابلة ، ولم يكن بحاجةٍ إلى تحمل كل تلك المعاناة واجتراح كل تلك الآلام ، والتضحية بنفسه ، وأهله، وأعزائه ، واختيار طريق الشهادة .

وذلك الامتياز هو بيعه لهم رأيه وعقيدته .

ففي ذلك العصر لم يكن بَعدُ قد ظهر ما يُسمى بصندوق الانتخابات ، أو ما يسمى بالمعركة الانتخابية والتصويت ، بل كانت الفكرة هي فكرة البيعة .

فالبيعة في ذلك اليوم ، كانت تساوي التصويت الانتخابي اليوم ، وعليه ، لو كان الإمام قد أدلى بصوت لا شرعي ، ولا يُمثّل حقيقة الوجدان ، والعقيدة التي يحملها ، لما كان قد أُستشهد ، لكنه فضّل الشهادة على أن يبيع رأيه ، وعقيدته .

* * * *

أرض كربلاء مسرح للمعنويات والروحانيات ، وليست معرضاً للجنايات البشرية

هنـاك تقليـد متّبـع في عـالم اليـوم ، بـأنْ تقيم مختلف البلدان معـرضـاً للصناعات ، مثلاً ، وأحياناً معرضاً دولياً ، تشترك فيه بلدان العالم كافة .

وكما يبدو فإنّ العالم كله يجتمع مرةً كل ستين عـامـاً في معـرض دولي كبير ، تستضيفه إحدى البلدان ، حيث يُقال إن برج (إيفـل) مثلاً ، مـا هو إلاّ تـذكار تاريخي لآخر معرض دولي أقيم قبل حوالي أكثر من ستين عاماً في باريس .

وقد أُقيم قبل بضع سنوات مثل هذا المعرض في مدينـة (بروكسـل) حيث اجتمعت الجموع البشرية القادمة من كل أنحاء العالم الشرقي والغربي .

والهـدف من مثل هـذه المعارض هـو عرض النتـاجات الفكـريـة والعمليـة للبشر ، ومن خلال هذه المعارض ، يستطيـع الإنسان أن يلمس عـظمة الفكـر ، والنشاط البشري ، وحجم التألق الفني ، للجماعات الإنسانية .

فهناك يؤتىٰ بكل شيء ، ابتداءً من الإبرة ، وانتهاءً بنموذج لأحـد المصانـع الكبرىٰ ، ومسرح كربـلاء يمكن تشبيهه في الـواقع بمعـرض تاريخي ، لكنـه ليس معرضاً للعلم ، والصناعة ، بل معرضاً للروح المعنوية ، وللمعرفة الإنسانية .

في هـذا المعرض (كـربـلاء) ، يستـطيـع المرء أن يُـدرك عـظمـة القـدرة الأخلاقية ، والروحية ، والمعنوية للبشر .

كـما يستـطيـع أن يفهم ويستـوعب حجم المقـدرة البشريـة عـلى العـطاء ، والتضحية ، والظهور بمظهر التحرر ، والـدفاع عن الحق ، وعبـادة الحق تعالى ، رب العباد .

كـما يمكن مـلاحـظة بـروز معـاني الصـبر ، والـرضـا ، والتسليم لله ، والشجاعة ، والمروءة ، والكرم ، والنبل .

إنّ من عادة أهل المنبر تضخيم الجانب الكارثي ، في قضية كربلاء ، وإبراز

جوانب الظلم ، والقساوة ، عندما يُريدون تضخيم القضية ، وبالتالي فإنك تراهم يبحثون عن أي خبر يُفيد في إبراز ذلك الجانب المأساوي ، بل وحتىٰ تزوير وخلق بعض القصص الخيالية ، في هذا الاتجاه ، وعقد بعض المقارنات ، والتشبيهات المأساوية الكبرىٰ ، كل ذلك بهدف تضخيم ذلك الجانب ، كما قلنا إلى أعلى حدٍ ممكن .

في حين أنّ السؤال المطروح أمامنا هو : أين تكمن في الحقيقة عظمة حادثة كربلاء ؟ فهل هي واقعة كبرىٰ بسبب حجمها المأساوي الكبير ؟

بالتأكيد إنها كارثة ومأساة نادرة ، كما يذكر (أبو ريحان البيروني) في مؤلفه « الآثار الباقية » نقلاً عن « نفس المهموم » ، إضافة إلى تقريرات الآخرين .

لكنها ليست المأساة الوحيدة في التاريخ ، فمثلها وربما أعظم منها قد حصلت أيضاً في التاريخ ، ويكفي أن نذكر مأساة المدينة[1] ، فإنها ليست أقل فجاعةً من واقعة الطف ، في كربلاء .

لكن عظمة واقعة كربلاء تكمن في شخصية سيد الشهداء ، وأصحابه ، وأنصاره ، وليس من زاوية ابن زياد ، وابن سعد ، وأتباعهم ، وأشياعهم .

وبالتالي فإن العظمة هي عظمة السعادة ، وليست عظمة الشقاوة ، وكربلاء العظيمة تصلح معرضاً للروحانية ، والمعنوية ، والأخلاق العالية ، والإنسانية ، قبل أن تكون صالحة كمعرض للشقاوة ، والخسة ، والسوء .

لكن أهل المنبر لم يُعطوا هذا الجانب الإيجابي ذلك الاهتمام المطلوب ، بعبارة أخرىٰ ينبغي لنا في هذه القضية أن نُبرز أبا عبد الله ، وأبا الفضل العباس ، وزينب ، باعتبارهم هُم أبطال المسرح ، وليس الشمر ، وسنان ، وأمثالهم من مظاهر السلب ، والسوء في القضية .

* * * *

---

(١) أعتقد أنّ الأستاذ الشهيد يقصد وقعة الحرة ـ المترجم ـ.

لماذا انقلب « الحر » في كربلاء ؟

لقد قيل : إنّ سبب التحاق « الحر » بسيد الشهداء ، هو معاشرته الطويلة للإمام ، وبالتالي التعرف عليه عن قرب .

لم يلتحق أحد من أصحاب الحسين بالعدو ، والعكس هو ما وقع !

إنّ أحد مظاهر القوة ، والكمال في النهضة الحسينية ، يتمثل في عدم التحاق أي من أفراد معسكر الحسين بالعدو ، على الرغم من المعاناة الشديدة ، التي مرّوا بها ، بينما تمكنوا من جلب عدد من أفراد الجيش الغالب لطرفهم ، وهو ما حصل مع الحر بن يزيد الرياحي ، وثلاثين نفراً من عساكره .

ولعل السبب في إصرار الحُسين في ليلة العاشر على أصحابه بحسم مواقفهم النهائية ، قبل الدخول في المعركة الفاصلة ، هو رغبته في أن يكون المعرض صورةً كاملة ، ومشهداً متكاملاً ، لا وجود فيه لأي جانب ضعيف إطلاقاً ، قد يؤدي إلى بروز بعض الارتخاء في اللحظات الحاسمة للموقف .

وهذا الجانب لم يكن حساساً في (بدر) و(صفين) ، لكنه في غاية الحساسية في واقعة (كربلاء) ، لأن الأساس في هذه المواجهة ، كان قائماً على فلسفة الفداء ، والعطاء ، والتضحية .

إنّ القاعدة أن يجذب الجيش الغالب قلوب بعض الأنفار من الجيش المغلوب إلى جانبه ، لكن العكس هو الذي حصل في (كربلاء) ، فجيش المغلوب هو الذي تمكن من جذب قلوب بعض الأنفار من الجيش الغالب ، ذلك أنه تمكن من تحقيق الغلبة الروحية ، وبالتالي إيجاد الانكسار الروحي لدى عساكر العدو .

أكثر الجوانب إيلاماً في شهادة « سيد الشهداء »

إنّ من الجوانب الأكثر مأساوية ، من سائر جوانب المأساة الحسينيـة ، والتي لا يتم التطرق إليها إلاّ قليلاً ، هو جانب ادّعاء الأعـداء بأنهم إنمـا « يتقربـون إلى الله بدمه » .

وبذلك يكونون قد طبعوا حادثة قتل سيد الشهداء بالطابع الديني ، وهناك فرق بين أن يفترس الذئب الغنم ، ويأكله غيلـةً وغدراً ، وبين أن يقوم بـذلك ، ويدّعي أنه قام بالعملية « قربةً إلى الله » ، ومن أجل المصالح الوطنية ، والقضـاء على الخيانة ، والتمرد ضد المصالح العامة .

ويبدو هنا أنّ هذا الجانب كان الأكثر إيلاماً في مأساة كربلاء .

إنّ أكبر الوقـائع إجـراماً في التـاريخ هي تلك الجـرائم التي ترتكب بـاسم الأخلاق والروحانية والصلح والسلام !!



النهضة الحسينية مدرسة لالهام المصلحين ، وليست لافراز المذنبين

الحسين (ع) يستشهد ثلاث مرات !

إنّ الإمام الحسين (ع) قد مرّ بثلاث مراحل في استشهاده ، بمعنى آخر إنه استشهد ثلاث مرات :

المرة الأولى ، استشهد على يد اليزيديين ، بفقدانه لجسده .

والمرة الثانية ، استشهد من خلال تشويه الأعداء لسمعته ، ومقامه ، واسمه ولا سيما على يد المتوكل العباسي .

والمرة الثالثة استشهدت أهدافه على يد أهل المنبر الحسيني .

والثالثة فقط هي المرحلة العظمىٰ من مراحل الاستشهاد ، والعبارة الشهيرة للعقيلة زينب وهي تخاطب يزيد قائلةً : « كِدْ كيدك ، واسع سعيك . . » تنطبق في الواقع ، وتشمل المراحل الثلاث على حد سواء .

إنّ فلسفة المدرسة الحسينية ، ليست مبنيةً على أساس تربية جيل من المذنبين ، بل ما هي في الحقيقة إلاّ استمرار لمدرسة الأنبياء التي يرد ذكرها في سورة الشعراء .

وإنّ إحياء هذه الذكرى في كل عام ، إنما يستهدف من ورائها تخليداً لتلك المدرسة النبوية .

فالنبوة قد ختمت بمحمد (ص) . فجاءت المدرسة الحسينية بمثابة البديل الدائم لمصدر الوحي ، والإلهام النبوي .

فالأنبياء كانوا يتلقون الوحي من ربهم ، ويُطلب منهم القيام والنهضة ، ومع انقطاع الوحي ، كان لا بد من مصدر آخر مُلهم للنهضات ، والثورات البشرية ، وهكذا كانت المدرسة الحسينية هي المُلهمة الدائمة لرجال التاريخ العظام ، ورجال الإصلاح ، الذين تتطلبهم الحاجات البشرية .

يقول (هربرت سبنسر) : إنّ أرقى ما يأمل الوصول إليه الرجال الصالحون، هو المشاركة في صناعة الإنسان الآدمي ، أي الاشتراك في خلق جيل صالح . بينما مدرسة الحسين عليه السلام ليست فقط مدرسة تنبذ المذنبين ولا يمكن لها أن تكون من صانعيهم بل إنها لا تكتفي بكونها تسعى لخلق جيل صالح ، إنها مدرسة لتخريج المُصلحين (١هـ) .

سمات السياسة الأموية : إثارة العصبية العرقية ، وترويج الشعر

إنّ من جملة ما كان يُروّج له الأمويون ، ويُدافعون عنه بإصرار ، هي فكرة التعصب العرقي .

فقد ورد في كتاب « الإمام الصادق » أن « الحجاج » بعث بكتابٍ منه إلى عامله على البصرة يقول له فيه :

ما إن يردُكَ كتابي هذا ، حتى تقوم بإبعاد « النَبطية » من حولك ، فإنهم مفسدةً للدين والدنيا !

وما كان من عامله ـ حسب قرينة الكلام ـ إلاّ أن ردّ عليه بتقرير عن الوضع لديه ، بعد أن استثنىٰ المُتقين، وقُراء القرآن ، فرد عليه الحجاج بكتاب آخر طلب منه أن يجمع أطباء ولايته ليفحصوه وهو في المنام ، فإن وجدوا في داخله عِرقاً « نبطيّاً» لَزم قطعه على الفور .

السمة الثانية من سمات السياسة الأموية هي ترويجهم للشعر ، لا.سيما الشعر الجاهلي .

فإضافةً إلى ترويجهم للشعر ، كشعر وكقيمة جمالية بحد ذاته ، فإنهم كانوا يُريدون الإيحاء إلى الناس بأنّ الحكمة أيضاً إنما تكمن أكثر ما تكمن في الشعر .

ففي المجلد الرابع لـ (ابن خلّكان) في الصفحة (٣٢٨) منه ، وفي سياق شرح سيرة أبي عبيدة النحوي ، ورد :

« وذكر المُبرّد في كتاب (الكامل) أنّ معاوية بن أبي سفيان الأموي قال :

اجعلوا الشعر أكبر هَمكُم ،وأكثر آدابكم ، فإنّ فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتني يوم الهزيمة ، وقد عزمتُ على الفرار ، فما رَدّني إلاّ قولُ ابن الإطنابة الأنصاري :

أبت لي عفّتي ، وأبىٰ بلائي — وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجشامي على المكروه نفسي ، — وضربي هامة البطل المُشيح
وقولي كُلما جشأت وجاشت : — مكانك تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ، — وأحمي بَعْدُ عن عِرضٍ صريح

وما عبارات معاوية هنا في الواقع ، سوى تعبير عن مناهضته للمقولة القرآنية : ﴿ **الشُعراء يَتبعهم الغاوون** . . . ﴾ ، ومحاربته للسنة النبوية الشريفة ، فكيف لا يأتي معاوية في تلك اللحظات على ذكر آيات الجهاد في القرآن ، بينما تراه يتذكر ، ويذكر مثل هذه الأبيات الشعرية ، الدالة على التعصب والعصبية ؟!

بالطبع ليس هناك مانع من الاستشهاد بشعر الحكمة ، كما فعل أبو عبد الله الحسين (ع) ، وهو في الطريق إلى كربلاء عندما استشهد بشعر أحد الأنصار :

« سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى . . . »

لكن هذا شيء ، وبيان معاوية بقوله : « اجعلوا الشِعر أكبر همُكم . . . » شيء آخر وهو أمرٌ خطير للغاية .

يقول (جرجي زيدان) في المجلد الرابع من كتابه « حضارة الإسلام » (ص ١٣١) ما مضمونه :

الناس ثلاثة أقسام برأي بني أمية :

فهم إما من الحكام وهم العرب آنذاك .

وإمّا من الموالي أي العبيد ، وهم المسلمون المحررون .

وإما من الذميين ، أو كما يذكر معاوية في إشارته إلى شعب مصر حيث يقول :

إنّ أهل تلك البلاد على ثلاثة أقسام ، فإما من فئة الناس ، أو من فئة شبيهة بالناس ، أو إنهم من فئة نسناس أو لاناس (من الأحياء) .

وإنّ الفئة الأولى هم العرب ، والثانية هم الموالي ، والثالثة هم الذميون من أهل مصر ، أي الأقباط » .

وقد أورد جرجي زيدان فصلاً كاملاً للحديث عن سياسة الدولة في العصر الأموي في المجلد الرابع من مؤلفه .

وهو قد ذكر عن بني أمية بأنهم كانوا يعاملون الذميين معاملة شديدة لأخذ المال منهم ، وما أن يدفع أحدهم المال حتىٰ يصبح محترماً ، ومعززاً لديهم ، وهو يُرجع مصادره في هذا المجال إلى « خطط » المقريزي .

* *

- مواطن بروز الشجاعة الحسينية (الشجاعة الجسمانية)
- مواطن بروز المروءة الحسينية
- مواطن بروز الصبر
- مواطن بروز الغيرة والحمية وإباء النفس
- التوجه لله[1] .

(١) في النسخة المخطوطة بقلم الأستاذ الشهيد ، وردت هذه العناوين كرؤوس أقلام لمواضيع أراد الكتابة عنها كما يبدو ، وقد وضع لها حيزاً للكتابة حولها ، لكنه لم يتمكن من ذلك كما يبدو ولأسباب غير معروفة .

الرضا والتسليم

إنّ الرضا والتسليم ، بالأمر الإلهي ، لا يعني السكوت ، والسكون ، والتوقف عن الحركة ، بل تغيير كيفية الحركة .

إذْ إنّ هناك فرقاً بين حركة الغواص في قعر البحر ، وحركة الإنسان العادي في الشارع على الأرض ، وذلك من أربع جهات :

أولاً : يكون مفتاح الأمر والنهي لدى الغوّاص المستسلم في قعر البحار بيد الله تعالى مباشرة ، ويكون البرنامج والتخطيط غير تابع لهوى النفس البشرية .

وثانياً : يكون الإقدام على الفعل هناك خطراً يُحدق بالإنسان على الدوام ، ويُعرّضه باستمرار إلى الحيتان ، والأفاعي ، والتماسيح ، التي قد تواجهه في أية لحظةٍ ، وتقضي عليه .

وثالثاً : فإن المرء في حالة التسليم والرضا ، سيكون في الواقع أشبه ما يكون بالجُندي المطيع ، الذي لا يتحرك إلّا بأوامر قائده ، فتراه يظل صامتاً لا يفتح فاه ، ولا ينطق ببنت شفة ، وما أن تأتيه الأوامر من القيادة ، حتىٰ يقول سمعاً وطاعة ، وبالتالي يكون في منتهىٰ الانضباط .

وأمّا رابعاً : فإن المعني هنا تراه يذهب على رأسه ، وليس بأقدامه أي إنّه يذهب بإرادته ، ورغبته الكاملة ، وبعبارة أخرى ، بميل ،وشوق، وعشق خالص .

وعليه فإنّ حالة الانقياد ، والطاعة ، والسكوت ، ليست بكافية ، بل المطلوب توافر العشق ، والوازع الذاتي المُحرّك ، ذلك الوازع العبادي الداخلي اللازم في مثل هذه الحالات ، وهو وازع العبادة ، عبادة الأحرار والعُشاق .

والقرآن الكريم يُشير إلى الفريقين الأول والثالث حيث يقول تعالى في سورة النساء : ﴿ فَلَا وَرَبِّك لَا يُؤْمِنُونَ حتّى يُحكّموك فيما شَجَرَ بَيْنَهُم . . . ﴾[1] .

نعم ، عندما يغوص مثل هذا الغوّاص الحامل لمثل تلك المواصفات الأربعة ، فإنه لا بد سيكون قادراً على استخراج الكنوز من قعر البحار .

الشجاعة الروحية ، وقوة القلب ، والمحافظة على التوازن الروحي في العمل ، والشكل ، واللسان

يقول العقّاد في هذا الشأن : « ملك جأشهُ وكل شيء من حوله يوهن الجأش » .

* * * *

(١) سورة النساء : الآية ٦٥ .

المنطق التقليدي لأهل المنبر : الحديث عن شهادة ومظلومية أبي عبد الله

الموت والوفاة أنواع متعددة هي :

١ ـ **الموت الطبيعي (وليس الاخترامي)** : أي أن يعيش المرء عمره الطبيعي المُقدّر ، وينتهي في الساعة المكتوبة له .

٢ ـ **الموت الاخترامي ، الذي يحصل للمرء بواسطة العوامل الطبيعية** : مثل الموت المُبكّر لأحد الشباب بسبب ابتلائه بأمراض صعبة ، كالمرض الخبيث ، أو الطاعون ، أو غيرها ، وبالتالي فإن الموت الحاصل هنا نتج عن الإصابة بالأمراض ، والتضرر بالميكروبات .

٣ ـ **الموت الاخترامي ، الذي يحصل للمرء نتيجة وقوع الحوادث ، أو السوانح العامة** : مثل الزلزال ، أو الطوفان والسيول ، أو حوادث السيارات ، أو غيرها من الحوادث الطبيعية ، والتي تقع رغماً عن أنف الإنسان ، **ولا يكون فيها** أي تعمد من أحد ، كما أنّ المقتول غير مذنب في **وقوع الحادث** .

٤ ـ **الموت الاخترامي الذي يقع للمرء بواسطة الحوادث والسوانح الطبيعية ، ولكن الذنب يكون فيها على المقتول ، إذ تكون قد حدثت** مثلاً بسبب شربه للخمر ، مما عرّضه لحادث سير مُعين ، أودى بحياته .

٥ ـ **الموت الاخترامي الذي يقع للمرء بواسطة الحوادث ، والسوانح الطبيعية ، والتي يكون فيها القاتل والمقتول مشتركين في الذنب ، على حد سواء** : كأغلب حوادث القتل التي تحصل بسبب المشاحنات الفردية ، والعائلية وغيرها ، والتي تحصل بسبب اللجاجة ، والجهل ، والتعصب ، والفساد ، والنزاعات القبلية ، أو العشائرية .

٦ ـ **الموت الاخترامي الذي يحصل بواسطة القتل العمدي (المتعمد) ، والذي لا يكون فيه للمقتول أي ذنب يذكر** ، بل يقع عليه القتل ، وهو بريء ، وبالتالي فإنّ القتل إنما يحصل لا لسبب إلاّ لبروز صفة الجريمة ، وهيجانها عند

القاتل ، كأن يقتل أحدهم فرداً من أفراد المجتمع بسبب الهوس ، أو بحجة واهية ، أو بسبب الاختلاف والمشاحنات العائلية ، والانتقام من عائلة معينة ، فيتم اختيار أحد أفرادها اعتباطاً ، أو لأيّ سبب من الأسباب الخلافية التي يتعلل بها القاتل ، كأن يشعر بمنافسة الطرف الآخر له ، في مقام ، أو مال ، أو كسب ، أو تجارة ، أو معشوق ، فيقتل بريئاً لا ذنب له من دون حق .

٧ ـ القتل والموت على طريق التضحية والفداء والشهادة ، حيث يكون للمقتول في العملية إرادة واعية لدى التعرض للقتل ، فهو يكون قد تقدم نحو الموت بهدف الدفاع عن أهداف وعقيدة راسخة في أعماقه ، وهي له ذات أبعاد مُقدّسة تتطلب التضحية بكل شيء من أجل تحقيقها .

وبعبارة أخرى يكون الموت هنا اختياراً وموتاً واعياً سعياً وراء تحقق الأهداف المرجوة .

٨ ـ بالطبع هناك نوع آخر من الموت الاختياري الذي يختلف جوهرياً عن النوع السابق إذ إنه يحصل بسبب ضعف الإنسان ، وفراره من حوادث الزمان ، فيأخذ معنىٰ الرمي بالنفس إلى الهلاك ، دون أي هدف يذكر ، وهذا هو الانتحار .

هذه هي أقسام وأنواع الموت والوفاة ، والتي يأسف الإنسان لوقوع البعض منها ، ولا يأسف لبعضها الآخر ؛ أو أن يكون المقتول فيها يستأهل القتل أو لا يكون .

كما يمكن أن يكون المقتول فيها قد وقع ضحيةً لأطراف أو تعقيدات أخرى ، لا شأن له في حدوثها ، أو وقوعها ، فيكون بريئاً ، وقد لا يكون .

إنّ موت القسم الأول من الناس يمكن اعتباره موتاً عادياً من الناحية الشخصية ، ولا يؤسف لوقوعه ، عدا أن يكون المتوفىٰ شخصية مرموقة ، ومفيدة للمجتمع ، وبذلك تكون وفاته خسارةً للمجتمع بشكل عام .

أما القسم الثاني من الموت فهو الموت المجاني ، الذي يذهب فيه المتوفىٰ

ضحية حوادث الزمان التي يؤسف لوقوعها ، لكنه ليس هناك من مُذنب ، أو مُقصرٍ في حدوث الواقعة .

كذلك الحال مع القسم الثالث ، .

في حين أنّ القسم الرابع يمكن اعتباره نوعاً من الاستحقاق الذي لا بد منه للمقتول ، والشيء نفسه ينطبق على القسم الخامس .

إضافةً إلى وجود طرف آخر مُلام في مثل هذه الحالات .

وعليه فإن الموت بالطريقة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة يمكن اعتباره نوعاً من هدر النفس الموجودة ، وضياعها دون مقابل . بينما يمكن اعتبار الموت على الطريقة الرابعة والخامسة ، إضافةً إلى ما سبق نوعاً من التأسف على الأخلاق العامة التي وصلت إلى تلك الدرجة من الانحطاط .

وأمّا موت القسم السادس ، فإن الإنسان يأسف من جهة على ضياع نفس المقتول البريء ، ويتأسف في الوقت نفسه على دناءة ، وفساد ، القاتل ، وانحطاط سلوكه ، وأخلاقه .

لكن الوضع بالنسبة إلى طريقة الموت ، وحالة الموت السابعة ، يتحدّد في أنّ المرء وبالرغم من تأثره ، وتأسفه على الحالة ، التي عبّر عنها القاتل ، من دناءة النفس ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط السلوك ، إلاّ أنه في الوقت نفسه ينظر إلى المقتول من زاوية الإعجاب والتمجيد وكونه مثلاً أعلى يُحتذى به .

لقد جرت العادة أن يتطرق الذاكرون ، وأصحاب المنبر الحسيني ، لشهادة الإمام الحسين (ع) ، من باب كونها من النوع السادس للموت ، والوفاة ، حيث يكون التركيز في الأمر على إظهار براءة المقتول ، ومظلوميته ، وذهاب نفسه هدراً ، وضياعها ، في حين أنّ شهادة الإمام هي من القسم السابع للموت والوفاة ، وليس من القسم السادس .

فالغالب على أصحاب المنبر هو ذكر حادثة كربلاء في سياق التأسف على روح سيد الشهداء ، التي ذهبت هدراً ، وهباءً منثوراً ، في حين أنه من الأخطاء

الفاحشة ، الاعتقاد بذهاب دم الحسين هدراً ، واعتبار خسارتنا لروحه ونفسه الطاهرة خسارةً وكفىٰ .

فالإمام الحسين (ع) ، على العكس من ذلك ، فهو قد منح قيمةً بالغةً لا يُقدّر ثمنها بالدنيا كلها ، لكل قطرة دمٍ سالت من جسده الطاهر !

وهل يمكن الاعتقاد بأن الذي زلزل بموته قواعد قصور الظلمة والطغاة ، على مدى قرون ، ولا يزال هو المثل الأعلى لكل حوادث الزمان الفعلية ، إذ ترى أكثر الحوادث الساخنة والمصيرية تقع في شهر محرم الحرام ، إنما مات ميتةً رخيصةً ، وذهب دمه هدراً ؟! وأن الذي أفرز بموته ملايين المصلين ، والصائمين ، والفدائيين ، إنما ذهب دمه هدراً ؟!

هل تلقّى الإمام الحسين (ع) أمراً خاصاً بالتحرك ؟

إنّ أحد العوامل الذي ساهم في تشويه واقعة كربلاء ، وإخراجها من حيّز التوظيف ، في خدمة قضايا العامة ، وجعل بالتالي الاستفادة من تعليمات الأئمة عليهم السلام ، في إحياء الذكرىٰ ، وإقامة العزاء بهذه المناسبة غير كاملة ، هو ذلك التصور الخاطىء القائل بأن حركة سيد الشهداء (ع) ، قد جاءت في الواقع ، نتيجة تلقي الإمام أمراً خاصاً ، وتعليمات سريةً تخصه شخصياً ، دون غيره ، وتطلب منه القيام بتلك الحركة المعروفة[1] .

وأنّ التعليمات الخاصة تلك قد صدرت إلى الإمام في المنام ، أو في اليقظة .

وهذا أمر غير جائز لأنه في هذه الحال ، يصبح من غير الممكن للآخرين أن يتبعوا الإمام ، ويجعلوه قائداً ، ومرجعاً لهم ، في مثل تلك الحالات ، وبالتالي لا يمكن الحديث عن وجود مدرسة حسينية .

---

(١) وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا البحث يختلف عن البحث الحالي المتداول بشأن القضايا الشخصية والخارجية والحقيقية وأنه كما يصطلح عليه المتأخرون بأن جعل الأحكام لا يتم إلاّ على أساس القضايا الحقيقية .

بينما لو قلنا بأنّ حركة الإمام الحسين ، قد حصلت في سياق استنباط الإمام نفسه للتعليمات الكلية للإسلام ، وتطبيقه لتلك الأحكام ، نكون قد أعطينا الموضوع حقه ، ولم يبخس الإمام حقه ، في كونه قد تمكن من فهم الأحكام الإسلامية حق فهمها ، من جهة .

ومن خلال الرؤية الثاقبة ، والرأي السديد ، الذي يملكه من جهة أخرى ، فإنه استطاع أن يُطبّق تلك الأحكام على زمانه ، ويتعامل مع الطبقة الحاكمة لذلك الزمان ، بالطريقة المناسبة ، التي تُرضي الله ورسوله ، مما كان يعني ضرورة القيام ، والتحرك الحسيني المعروفين .

من هنا نرى أنه عليه السلام ، إنما يستند فيما يستند إليه في قيامه وتحركه ، إلى ذلك الحديث النبوي الشريف القائل : « من رأى سلطاناً جائراً . . . . » ، أو في قوله : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن . . . » .

إذ تراه يؤكد من خلال قوله « المؤمن » أن المسألة ليست خاصة بالإمام وحده ، وإلّا لقال : « ليرغب الإمام » ، مما يعني أنّ الواجب والتكليف كان تكليفاً كلياً يقع على كاهل المؤمنين كافة ، وما قيام الحسين (ع) به إلّا لكونه واحداً من عامة المؤمنين .

إلّا أنّ العادة جرت بالنسبة لأصحاب المنبر الحسيني ، أنْ يُفسِّروا الأمر على أنه قد حصل في سياق تعليمات خاصة ، قد صدرت لشخص الإمام الحسين (ع) ، لمحاربة شخص يزيد ، وشخص ابن زياد ، وهم من أجل أن يرفعوا من مقام الحسين ، أكثر وأكثر ، تراهم يتوسلون بالخيال ، والأحلام ، والقصص الخيالية ما أمكن .

لكنهم بذلك ، وللأسف ، يُخرجون حركة الإمام الحسين من دائرة طاقة العمل البشري العادية ، ويصبح أمر الاقتداء بها ، وتقليدها ، واقتفاء أثرها ، أمراً غير ممكن ، بل ويُخرجون حتى مقولة ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[1]

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

من دائرة الفعل والتطبيق العملي .

وإذا جاز التعبير ، فإنهم بهذا يُحلِّقون بالفعل ، ودائرة الفعل ، إلى السماء ، بعيداً عن الأرض والواقع ، وهكذا يتم طرح مقولات « لا تقس نفسك بأعمال الصالحين ، والأولياء العظام » ، وغيرها من المقولات التعجيزية ، ناسين أنّ كثرة التخيلات ، والإغراق في استخدام الجن ، والملائكة ، والأحلام ، والتعليمات الخاصة ، والسرية ، والمهمات الخصوصية ، وغيرها ، إنما يجعل النهضة الحسينية ، أقل فائدةً ، وعبرةً ، للأجيال .

والآن دعونا نَـرَ لو أنّ الإمام الحسين (ع) ، كان قد تحرك ونهض ، نتيجة وصول تعليمات خاصة له ، ترفع من مقامه أكثر .

أم أنّه لو كان قد تحرك بناءً على فهمه وقراءته للأحكام الكلية ، ونتيجة تطبيقه للكلي على الجزئي ، وإصابة التطبيق للواقع ، هو الأمر الذي يرفع من مقامه أكثر .

لا سيما وأنّ دُهاة الصحابة ، وكبارهم ، مثل ابن عبّاس ، وغيره ، كانوا عاجزين عن استيعاب مثل تلك الظروف ، واستنباط مثل تلك الأحكام ؟

نحن الشرقيين على العموم لا نُقدّر الشخص حق قدره في المقام والرفعة ، إلّا من خلال حمله لمواصفات تدلُّ على أنه من أهل المكاشفة ، وأنه صاحب مكرمات ، ومن صُنّاع المعاجز ، وأنه على اتصال بالجن ، وهو قادر على تسخيرهم ، وأنّ له اتصالاً مباشراً بالملائكة ! !

ليس هناك شك في أنّ للإمام الحسين (ع) مقاماً ملكوتياً خاصاً ، لكنه أيضاً صاحب مقام جامع مانع كما يقال .

أي إنه مظهر للإنسان الكامل ، وإن مقام الإنسان لأعلى مرتبةً من مقام الملائكة ، وإنّ الحد الأعلى للكمال الإنساني ، ليس في كونه على اتصال ، أو تماسٍ مع الملائكة ، بل الكمال الإنساني ، هو حصوله على مقام الإنسان الكامل .

ونحن نقول بأن جبرائيل ، قد تخلّف عن الخوض في المعراج ، ولو افترضنا أن الإمام الحسين كان قد تحرك بواسطة التوجيه المباشر للملائكة له ، فإن معنى ذلك أنه عليه السلام لم يكن بمقدوره أن يقوم بتكليفه ووظيفته ، من خلال عقله ، وتشخيصه الشخصي !

أما لو قلنا بأنّه كان قد شخص التكليف بواسطة عقله ، فإن ذلك يعني : أنّ عقله ، . وإدراكه ، عليه السلام ، كانا أعلى درجةً وأرفع مقاماً من الجميع ، وأنه قدفعل بعقله ما يفعله الإلهام .

إذ إنّ الإلهام يفعل فعله حيث تكون هداية العقل والشرع غير وافية ، في حين أنّ هداية العقل والشرع كانت كافية بالنسبة للإمام الحسين (ع) .

وعليه يكون تفسير « إنّ الله شاءَ أن يـراكَ قتيلاً » هنا ، بمعنى أنّ المشيئة الكلية التشريعية هي التي اقتضت القيام من طرف أبي عبد الله ، وليس المشيئة التكوينية ، أو المشيئة التشريعية الخاصة بشخص الحسين .

لقد تناول علماؤنا هذا البحث بالتفصيل في الماضي، وتباحثوا مطوّلاً فيما إذا كان المقصود من عبارة : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً » . هو المشيئة التشريعية أم التكوينية ؟

وقد توصلوا في النهاية إلى القناعة القائلة بأنّ المقصود : هو المشيئة التشريعية ، لكنهم لم يُناقشوا الأمر من زاوية إذا ما كانت هذه المشيئة ، هي المشيئة الكلية ، التي تشمل المسلمين كافةً أم إنها جاءت في سياق المشيئة التشريعية ، والتعليمات الخاصة ، التي صدرت بحق الحسين (ع) وحده ، دون غيره ؟

إنّ هذا البحث يمكن تناوله من زاوية أخرى ، وهي الطريقة الأسلم ، والأكثر معقوليةً فنقول :

هل إنّ الإمام الحسين نهض من باب أنه الإمام ، أم إنّه قام باعتباره أحد المؤمنين والمسلمين ؟ .

وبعبارة أخرى ، وفي سياق البحث على قاعدة مقولة « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً » . ينبغي أن نقول :

هل كانت المشيئة تكوينية أم تشريعية ؟

وإذا كانت تشريعية فهل كان التكليف خاصاً وشخصياً أم عاماً وكلياً .

وعلى أساس الاحتمال الثاني ، فهل كان ذلك التكليف الكلي ، موجهاً إلى الإمام ، وقائد المسلمين ، أي إن الوظائف والتكاليف المُشرّعة ، كانت من النوع الذي خُصص وضعها للأئمة ، أم إنها كانت من النوع الذي تم وضعه لعموم المؤمنين والمسلمين ؟

وعند الحديث في هذا المجال لا بد من ذكر أمثلة توضيحية ، هذا مع العلم ، أنّ التطرق إلى التكاليف الخاصة ، التي يتم وضعها لأئمة المسلمين ، يتطلب منّا التفريق بين التكاليف التي تُناط بالإمام ، وتحوّل له ، لكونه زعيماً فعلياً للمسلمين ، وبين التكاليف المُناطة به أساساً من زاوية كونه صاحب مقام الوصاية والولاية .

الفرق بين معاوية ويزيد

عندما تولى يزيد الخلافة ، قال الإمام الحسين مخاطباً مروان بن الحكم ، وهو لا يزال في المدينة المنورة : « وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

وهنا لا بد من التأمل جيداً بعبارة « مثل يزيد » ، إذ ما هي الخصوصية التي كانت تتوافر في يزيد ، ولم تكن موجودة حتى في معاوية ؟

لقد سبق لنا أنْ شرحنا هذا الجانب إلى حد ما ، لكنه لا بأس من إضافة ملاحظتين أخريين ، حول الموضوع :

الأولى : وهي أنه يجب أن لا نتصور أنّ الناس كانت تعرف يزيد ومعاوية ، تماماً كما كانا عليه بالفعل ، وكما هما مفضوحان تماماً ، بالنسبة إلينا في

عصرنا الراهن . (تماماً كما يعتقد الناس في عصرنا الراهن ، أن بعض الجُناة والمجرمين القدامى ، من أمثال الشاه عباس الصفوي ، هم من القديسين ، لأنه لم يقم أحد بفضحهم حتىٰ الآن) .

إنّ الإمام الحسين (ع) كان قد عرف يزيد حق المعرفة ، بالرغم من عدم وجود وسائل الارتباط ، والاتصال الجماهيري آنذاك ، كما هو حالها اليوم .

غير أنّ الناس لم تكن قد عرفته على حقيقته ، ولذلك فإن عبد الله بن حنظلة مثلاً وهو المعروف بغسيل الملائكة ، لم يعرف يزيد على حقيقته ، إلاّ بعد أن ذهب إلى الشام على رأس وفد من المدينة ، بعد واقعة كربلاء ، وإذا به قد عاد منها ، وهو يشكر الله تعالى بأنّ السماء لم تُمطر عليهم حجراً ، بسبب غضب السماء لشدة مفاسد يزيد .

وهكذا قدّم نفسه ، وأولاده الثمانية ، على طريق محاربة يزيد وفسق يزيد .

من هنا يمكن القول بأنّ الحسين (ع) ، كان يرى ما لا يراه الآخرون .

الملاحظة الثانية : وتتمثل في ضرورة التفريق بين أن يكون شخص الخليفة ليس برجلٍ صالح ، لكنه على كل حال يُدير أمور المسلمين ، ويُدبّر أمرهم بشكل أو بآخر ، وبين خليفةٍ يكون فيه أصل وجوده نفسه ضد مصالح المسلمين .

من هنا نرى أنّ علياً (ع) ، وفي الوقت الذي تقرر فيه أنْ يُبايع عثمان ، قال :

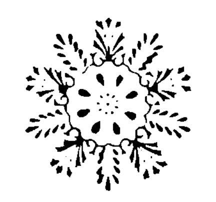
« لقد علمتم إنّي أحقُّ الناس بها من غيري ، ووالله لأُسلمنّ ما سَلِمَتْ أمورُ المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليّ خاصةً ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزُهداً فيما تنافستموهُ من زُخرفهِ وزِبرجهِ »[1] .

في زمن الإمام الحسين (ع) ، كانت القضية الأساسية ، هي أنّ الخلافة الإسلامية ، قد تحوّلت إلى سلطنةٍ جائرة ، ظالمة ، مترفة ، فاسقة ، ذات طابع

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٧٢ .

عصبوي عربي ، مع ما كان من سقوط أقنعة النفاق ، وبروز الوقاحة في الفساد ، الأمر الذي يجعلنا نقول ، وكما ذكرنا من قبل ، بأنّه لولا قيام الإمام الحسين (ع) ، فإنّ خطر القضاء على الإسلام ، كان أمراً محتماً ، وذلك من خلال قيام ، وتمرد الشعوب ، التي دخلت الإسلام بعد الفتح ، والتي كانت مهيأةً للانقلاب عليه فيما بعد ، فيما لو استمر الوضع على ما كان عليه في عهد يزيد .



لماذا استشهد الامام الحسين(ع) ، ووصايا الأئمة (ع) بإحياء الذكرى

إنّنا نواجه هذين السؤالين على الدوام ، ولا بأس من الإجابة عنهما ، حتى تتوضح الأمور بالنسبة لنا جيداً ، كما تتوضح لغيرنا .

والسؤال الأول هو : لماذا استشهد الإمام الحسين (ع) ؟ أمّا الثاني فهو : لماذا كانت توصيات الأئمة عليهم السلام تدعو إلى ضرورة إقامة العزاء الحسيني باستمرار ، وبشكل دائم ، وبالتالي ترانا نصرف الكثير من الوقت ، والعمر الطويل أحياناً ، والأموال الطائلة ، والقوى والطاقات الكثيرة ، في كل عامٍ ، وعلى طوال شهري محرم ، وصفر ، وربما في غير هذين الشهرين أيضاً ، في سبيل إقامة المأتم الحسيني ؟

بالنسبة إلى جواب السؤال الأول : لا بد من القول بأنّ الأقوال كثيرة في هذا المجال :

فالأعداء قالوا بأنّ الإمام الحسين (ع) كان يطلب الحكم ، وقصد تسلُّم السلطة ، ففشل وقُتل ، وبالتالي فإنه كان يُتابع هدفاً ذاتياً .

أمّا الأصدقاء الجُهّال (الجهلة) ، فإنهم قالوا بأنّه قُتل عليه السلام ، ليغفر للمذنبين من أُمته ، ويكونون بذلك قد أعطوا للقضية بُعداً سماوياً ، وخيالياً ، وقالوا بشأن الحسين ، ما قالهُ النصارىٰ بحق عيسىٰ المسيح عليه السلام .

لكن الحقيقة هي ما نطق به الحسين (ع) ، في مواضع مختلفة ، حيث قال في إحداها : « ما خرجتُ أشِراً ولا بَطِراً . . . . » ، « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ، لِيَرغب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً . . . » ، و« أيها الناس من رأىٰ سُلطاناً جائراً . . . » .

وأمّا في جواب السؤال الثاني : لا بد من القول إنّ التكاليف الشرعية ليست خاليةً من الحكمة .

فالمقصود من إقامة الشعائر الحسينية ليس تقديم التضامن والسلوىٰ ، لآل بيت النبي عليهم السلام ، وكما يقول أصحاب المنبر الحسيني : إسعاداً للزهراء وإرضاءً لها ، وبالتالي التصور ، بأنه كلما بكينا أكثر على آل البيت ، كلّما كان ذلك أكثر عزاءً وسلوىً ، للرسول الأكرم (ص) ، وللزهراء (ع) .

فكم نكون بذلك قد حجّمنا ، وهمّشنا من قيمة ، وحجم الرسول ، والزهراء ، وأمير المؤمنين علي ، وهم الذين كانوا يتوقون للشهادة ، ويرون فيها فخراً لهم ، بينما نتخيل أنهم وبعد مضي أكثر من ثلاثة عشر قرناً على رحيلهم ، فإنهم لا يزالون يعيشون حالةً من الأسىٰ ، والحزن ، والرعب .

إنّ الهدف من تعليمات الأئمة في الحقيقة ، يكمن في أنهم كانوا يُريدون لنا أن نصنع من كربلاء مدرسةً تعليمية ، وتربوية خالدةً ، إلى الأبد .

وفي الواقع فإن الجواب الصحيح عن السؤال الأول ، هو الذي يجعلنا نصل إلى الجواب الصحيح ، عن السؤال الثاني .

في كتاب « اللؤلؤ والمرجان » الصفحة الثالثة من « كامل الزيارة » ، ورد أنّ الإمام الصادق (ع) قد خاطب عبد الله بن حمّاد البصري ، قائلاً :

« بلغني أنّ قوماً يأتونه ـ يعني الحُسين عليه السلام ـ من نواحي الكوفة ، وناساً من غيرهم ، ونساءً يندُبنهُ ، وذلك في النصف من شعبان ، فمَن بين قارىءٍ يقرأ ، وقاصٍّ يقُصُّ ، ونادبٍ يندبُ ، وقائل يقولُ المراثي .

فقلتُ له : نعم ، جُعلت فداك قد شهدتُ بعض ما تصف .

فقال : الحمد لله الـذي جعل في النـاس من يَفِد إلينـا ، ويمدحُنـا ، ويرثي علينـا ، وجعل عـدُوَّنا من يـطعنُ عليهم من قرابتنـا ، أو من غيرهم يُهـددونهم ، ويُقبّحون ما يصنعون » .

كما جاء في مكان آخر في الصفحة (٣٨) قوله :

« إنّ لقتل الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبرُدُ أبداً » .

وعليه يتضح أن فلسفة هذا العمل ، هو تهـديد العـدو ، وتقبيح أعـماله ، وبـالتالي تمجيـد وتعظيم أعـمال جماعـة الحسين ، وبـالمقابـل تقبيح أعـمال المعسكر الآخر ، واستنكار تصرفاته المُشينة[1] .

بالطبـع فإنّ السيـدة الزهـراء تسعد ، وتسر من ذلـك ، لكن من زاوية أنّ نيتها وهدفها ، كما هي نيـة وهدف النبي الأكـرم ، وأمير المؤمنـين علي ، والإمـام الحسـين جميعـاً ، تتمثـل في قـولـه تعـالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيـاتِـه ، ويُـزَكّيهم ، ويُعلّمُهُم الكِتابَ والحكمة ﴾ .

نعم إنها لتسعد حقاً ، وتُسر بواسطة إقـامةالـذكرى لابنهـا الحُسين ، الأمـر الذي يجلب سعادة الدنيا والآخـرة، لمن يُقيم تلك الذكـرى، ويُحييها، والأهم من ذلك كله لمن يمضي على نفس الطريق الذي سلكهُ ابنها الحسين .

واستطراداً نقول :

بعد موت معاوية ، طُلب من الإمام الحسين (ع) أن يُبايع الخليفة الجديد ، لكن الإمام حضر إلى بيت حاكم المدينة ، ورفض البيعة .

وفي اليوم التالي التقىٰ مـروان بن الحكم ، بالإمـام وهو في الـطريق ، وأراد أن يُقدّم له النصيحة ، فطلب منه أن يُبايع .

---

(١) في حاشية هذه العبارة كتب الشهيد مُطهري : هل إنّ الهدف من إقامـة العزاء هـو التضامن مـع آل البيت ، وتقـديم العزاء لهم ؟ ! أم إنّ الهـدف هو كسب الثـواب ؟! في الوقت الـذي يكـون فيـه الثواب والعمل الحسن والمعقول ذا مصلحة ذاتية . إذن ينبغي لنا هنا أن نرى ما هي تلك المصلحة الذاتية والتي تأتي في سياق علل الحكم ، حتىٰ نتمكن بعد ذلك من الوصول إلى الثواب الذي يـأتي في سياق معلولات الحكم .

لكن الإمام خاطبه قائلاً : « وعلى الإسلام السلام إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

ولا بد هنا كما ذكرنا آنفاً من التدقيق جيداً في عبارة : « براعٍ مثل يزيد » ، حيث يُفهم منها أنّ هناك خصوصية توجد في يزيد ، لم تكن توجد حتىٰ في شخص معاوية .

صحيح أنّه ليس هناك فرق لدىٰ عوام الشيعة ، بين يزيد ، وغير يزيد ، ذلك أنّ الجميع عندهم ، باطل ، وغاصب ، لكن الحقيقة هو أن هناك فرقاً بين هذا وذاك من الخلفاء .

فعلىٰ سبيل المثال ، عندما أراد الناس من أمير المؤمنين علي (ع) أن يُبايع عثمان ، قال : « لقد علِمتم أني أحقُّ الناس بها من غيري ، ووالله لأُسلّمن ما سَلِمت أُمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليّ خاصةً ، التماساً لأجر ذلك ، وفضله ، وزُهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه » .

كما أنّه قال (ع) أثناء البيعة لأبي بكر : « شُقّوا أمواج الفِتن بِسُفُنِ النجاة »[1] .

إذاً ، هناك فرق بين غاصبٍ يحافظ على الشأن العام حتىٰ وإن كان السبب المصلحة الذاتية ، وبين آخر لا يهمه شيء ، ويزيد هذا كان يختلف تماماً عن أسلافه كافة ، كما ورد في شرح ذلك سابقاً .

وسبق وأن أشرنا سابقاً في سياق شرحنا عن حال ابن زياد ويزيد بأنّ أحد أسباب فاجعة كربلاء ، والنار التي أشعلها هؤلاء ، والتي أول ما أتت عليه ، كان مُلك بني أُمية نفسه ، إنما يكمن في كون كليهما (يزيد وابن زياد) من الشباب الفاقدين لأبسط أنواع التجربة والخبرة ، وكما يقول الشاعر العربي :

إنّ الشباب ، والفراغ ، والجِدة   مَفسدةٌ للمرء أيُّ مفسدة

---

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ٥ .

مسألة البكاء على « سيد الشهداء »

إنّ إحدىٰ القضايا المتعلقة بحادثة سيد الشهداء هي قضية البكاء :

ولا بأس هنا من استعراض مسألة البكاء ، والضحك ، من عدة زوايا :

فمرةً يمكن تناول هذه القضية من زاوية كونها من أعراض وعلائم الإنسان الخاصة .

وأخرى يمكن التطرق إليها من زاوية العلل ، والمبادىء الجسمية ، والروحية .

وثالثة من زاوية آثارها ، وعوارضها الجسمية ، والروحية .

ورابعة من وجهة النظر الأخلاقية والعقيدية لعلماء الأخلاق ، والآداب .

وخامساً يمكن بحثها من زاوية الآثار الاجتماعية المترتبة على الضحك ، والبكاء .

وسادساً يمكن أيضاً البحث في أنواع الضحك والبكاء ، وهل أنّ كل ضحك جيد ، وكل بُكاء سيّىء ، أم أن الأمر ليس كذلك ؟

هذا مع العلم أنّ نوع البكاء على الحسين ، نوع من البكاء اللذيذ الذي يُضفي صفاءً ، وإشراقاً خاصاً ، على قلب الإنسان .

وعليه ينبغي المقارنة بين المدرسة الحسينية ، ومدارس الضحك ، والكوميديا ، أو الأفلام الكوميدية ، والتراجيدية المتعددة ، ثم التعريج على الشعر ، والتوقف عند شعرائنا ، وما قالوه ، أو نظموه في باب المديح والبكاء .

فالضحك والبكاء ، ما هما في الواقع إلاّ مظهر لأشد حالات الإنسان حساسيةً ، ومن يتمكن من امتلاك إضحاك الناس ، وإبكائهم ، فإنه في الحقيقة يكون قد امتلك قلوبهم ، وبالتالي تمكن من التحكم والسيطرة على عواطفهم ، وتوجيهها بالاتجاه الذي يُريد .

والأعمال القلبية غير الأعمال العقلية .

لقد تم اللعب بعواطف الناس وقلوبهم حتىٰ الآن ، من خلال قضية البكاء ، على سيد الشهداء ، إذ إنه لم يكن هناك عقل موّجه ، أو هدف محدد ، من وراء ذلك البكاء ، هذا مع العلم أنّ وجود الهدف لا يكفي بل إنّ الأمر يتطلب وجود النظام ، والتنظيم ، والترتيب .

في مجلة (راديو ايران ، العدد ٧٠) هناك مقالة بقلم الدكتور (حسن علوي) ، وهي عبارة عن محاضرة له ، تناول فيها موضوع دموع العين ، وهي محاضرة لا بأس بها ، يقول فيها :

إنّ دموع التماسيح كاذبة ، ويضيف : لقد ورد في كتاب دارون حول « بيان إحساسات وآلام ، الإنسان ، والحيوان ١٨٩٠ م » بأنّ الفيل يبكي أيضاً عندما يقع تحت تأثير الإحساسات ، لكن هذا الموضوع لم يمكن التأكّد منه بعد .

ويضيف : إنّ الضحك على أنواع وأقسام :

فهناك ضحكة المحبة ، وضحكة السخرية ، وضحكة الفرح والسرور ، وضحكة التأثر والغضب ، كما أن البكاء لا يُعبّر دائماً عن حالات الحزن والكآبة ، وإنه لأمر لا بد قد مرّ به الجميع ، وقد ذاق طعمه أيضاً ، وهو ذلك البكاء الناتج عن شدة الشوق ، حيث يمكن القول إنّ منظر دموع الشوق ربما من أجمل ، وأحلى المناظر الطبيعية المُعبّرة .

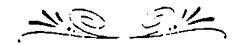
وقد قيل الكثير في هذا المجال من نظم ونثر ، سواء بالعربية ، أو الفارسية ، وشعر حافظ ، وسعدي ، كما هي أشعار العرب ، لا تخلو من التعبيرات الدقيقة والقيّمة ، في هذا المضمار .

ونكتفي هنا بعبارة واحدة ، وردت على لسان أحد شعراء العرب ، في كتاب (كليلة ودمنة) حيث يقول فيها : « لولا الدموع لاكتوت أرض الوداع بالنار » .

تحريف الكلمة ـ تحريف واقعة الإمام الحسين

. . . . إنّ واقعة الإمام الحسين (ع) ، قد شملها في الواقع التحريف الظاهري ، واللفظي ، والهيكلي ، كما شملها التحريف المعنوي ، والباطني ، والجوهري ، على حد سواء .

ويمكن البحث بالتفصيل حول هذا الموضوع[1] .



(١) وهو ما سيأتي عليه المؤلف ، في فصل ملاحظات « في تحريفات واقعة كربلاء التاريخية » في هذا الكتاب ، وهو ما تطرق إليه الكاتب في محاضرة له ، تحت هذا العنوان في الجزء الأول من هذه المجموعة .

الامام الحسين (ع) ، والحد الفاصل بين القيام والتمرد

أثر النهضة الحسينية

إنّ إحدى النتائج ، والآثار المهمة ، للنهضة الحسينية ، هو ذلك التفكيك ، وتلك التجزئة التي كرّسها الإمام الحسين (ع) ، بين فعل القيام ضد الخليفة ، وبين فعل التمرد ضد الإسلام .

وكما أشرنا سابقاً فإنه لولا قيام الحسين ، ونهضته ضد يزيد ، لكان احتمال بروز تمردات ، وثورات عديدة مناهضة للإسلام ، كبيراً للغاية ، خاصةً فيما لو استمر الحال على ما كان عليه من سوء تدبير ، وانحراف في أمر الدين والسياسة في عهد يزيد .

أمّا اليوم ونحن ندرس تاريخ الثورات ، والتمردات ، الطويل ، على امتداد العصور الإسلامية ، ونرى قيام هذه الفرقة أو تلك ، وهذه الملة أو تلك ، من الملل التي قامت ضد سلطة الخلفاء ، وأظهرت ، بشكل أو بآخر ، تعلقها بالإسلام ، كقيام الإيرانيين ضد السلطة الأموية فإنّ الفضل في كل ذلك ، يعود في الواقع ، لثورة الحسين (ع) ونهضته ، وهو القيام الأول من نوعه ، الذي جمع بين كونه قياماً مُسلحاً وجماعياً ، في نفس الوقت ، وهو القيام الذي ميّز بشكل دقيق ، بين موقعية الخلفاء والولاة ، وبين موقعية الإسلام والدين الإسلامي .

بل إنه في الواقع هو الذي فتح الباب للثورة والنهضة ، على قاعدة الإسلام ، وصار المثل الأعلى والأنموذج الذي يُحتذى به .

وهكذا سقطت فكرة السلطان ، والخليفة ، باعتبارهما حُماة الإسلام ، على حساب الجماهير ، والفكر الجماهيري الحق ، وفُرز الجمع إلى مُعسكرين : معسكر الإسلام في جهة ، ومعسكر الخليفة والسلطان ، في الجهة المقابلة .

صحيح أنه سبق وأن حصلت بعض الانتفاضات الفردية ، أو الجماعية ، ضد تحكم السلطان ، أو الخليفة في شؤون المسلمين ، قبل انتفاضة الحسين (ع) ، لكن النهضة التي جمعت بين الصفة المسلحة والجماعية للمرة الأولى ، هي نهضة الإمام الحسين (ع) . (قيام الثوار بوجه عثمان كان أيضاً نوعاً من الفصل بين الإسلام والخلافة) .

إنّ مقام الخلافة آنذاك كان يُمثل في الواقع أعلى مقام روحاني وسياسي على الإطلاق ، وكما هو معروف فإنّ الخلفاء العباسيين قد استطاعوا ، رغم كل ما حصل ، الحفاظ على هذا المقام لأنفسهم ، قدر الإمكان .

ولم يتمكن أحد من زعزعته لآخر مرة سوى الخواجة نصير الدين الطوسي ، وهو من علماء الشيعة الكبار .

الوجهان البارزان لحادثة كربلاء

﴿ وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إنّي جَاعَلٌ في الأرض خَليفةً ، قالوا : أتَجْعَلَ فِيهَا مَنْ يُفسد فيها ، وَيَسفِكُ الدّماءَ ، ونحنُ نُسبّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقدّسُ لَكَ ، قال : إني أعلَمُ مَا لا تَعْلَمُونْ ﴾[1] .

إنّ حياة البشر عبارة عن مجموعة متداخلة من أبعاد الظلام والنور ، والقبح والجمال ، والشر والخير .

وما رآه الملائكة من ابن آدم هو ذلك الجانب المُظلم منه ، وأمّا ما كان يُشير

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

إليه رب العالمين في الآية الشريفة ، فهو أجزاء من الجانب المُشرق لبني البشر ، وهو الجانب الراجح على الجانب المظلم .

وعند الحديث عن حادثة كربلاء ، يمكننا القول بأنّ هناك صفحتين في تلك الحادثة : صفحة سوداء ، وأخرىٰ بيضاء :

فهي صفحة سوداء من زاوية كونها قصة جنائية ، قصة مظلمة للغاية ، وخطيرة ، وبربرية ، وهو ما سَنُلقي الضوء على بعض مظاهره فيما بعد ، وهي مظاهر لاإنسانية ، وقاسية ، ودنيئة ، وفاقدة لأي شكل من أشكال الرحمة ، والقصة من هذه الزاوية لها صورة بالغة الحدة في قساوتها ووحشيتها .

وأما الصفحة الأخرى فهي صفحة بيضاء ، تُعبّر عن قصة ملكوتية ، وملحمة حماسية إنسانية ، ومظهر من مظاهر الآدمية ، والعظمة ، والصفاء ، والنبل ، والتضحية ، والفداء .

إنها كارثة من الطراز الأول ، بينما هي قيام مقدس من الطراز الثاني .

وأبطال القصة من الطراز الأول ، هم الشمر ، وابن زياد ، وحرملة ، وعمر بن سعد و . . . . .

بينما أبطال القصة من الطراز الثاني هم : الإمام الحسين (ع) ، وأبو الفضل العباس ، وعلي الأكبر ، وحبيب بن مظاهر ، وزينب ، وأم كلثوم ، وأم وهب ، وغيرهم .

وهي من الطراز الأول ليست بقضيةٍ تستأهل الإحياء ، وإقامة الاحتفالات السنوية لها ، وتجديد ذكراها على الدوام ، بعد مُضي أكثر من ألف وثلاثمئة عامٍ عليها ، مع كل ما يعني ذلك من صرفٍ للأموال ، والجهود ، والدموع ، والإحساسات ، والعواطف .

طبعاً ليس لكون المرء غير قادر على الاستفادة من القصص الجنائية ، وأخذ العبرة منها . (ذلك أنه من الممكن جداً استخلاص الفوائد الجمة ، من نواحي الحياة البشرية السلبية ، فعندما سُئل لقمان من أين تعلّم الأدب ؟ قال : من غير

المؤدبين) ، ولا لكون أنّ هذه الكارثة ليست مهمة من زاويتها الكارثية ، والجنائية ، أو أنها ليست مُعلّمة لنا ، فنحن سبق لنا وأثبتنا أن هذه القصة مهمة من هذه الناحية ، وقلنا أيضاً بأنّ مقتل الحسين (ع) على يد المسلمين بل على يد الشيعة ، بعد مُضي خمسين عاماً فقط على وفاة النبي (ص) ، لأمر مُحيّر ، ولغز عجيب ، ومُلفت للغاية .

بل قلنا إنّ هذه الواقعة ليس لها تلك الأهمية البالغة من ناحيتها الجنائية ، حتىٰ تتطلب كل تلك الاحتفالات ، ومراسم إحياء الذكر ، ذلك أنّ كثيراً من القصص الجنائية ، والفواجع التاريخية ، قد حلّت بالبشرية ، وبأشكال متعددة ، سواء في القرون القديمة ، أو القرون الوسطىٰ ، أو القرون المعاصرة .

فها هي حكاية القنبلة الذرية التي أُلقيت على مدينة (هيروشيما) لم يمضِ عليها أكثر من عشرين عاماً[1] ، وهي الكارثة التي أودت بحياة ستين ألفاً من البشر ، بين صغير ، وكبير ، لا لذنبٍ اقترفوه ، بل ذهبوا ضحية الصراعات العالمية .

باختصار يمكن القول إنّ الشرق والغرب مملوءان بعالم الجريمة والجناية، فهذا (نادر شاه) الذي يمكن وضعه في سُلّم أبطال الجريمة ، وهكذا أبو مسلم ، وبابك ، وتلك هي جرائم الحروب الصليبية ، وحروب الأندلس ، وهي صفحات أخرى من صفحات الجريمة البشرية .

إنّ واقعة كربلاء إنما تأخذ ذلك الحيّز الهام ، والبالغ الأهمية ، من حياتنا وحياة البشر ، باعتبار تلك الصفحة البيضاء من القصة ، وذلك من حيث إنها صفحة نادرة الوجود ، بل ليس لها مثيل .

صحيح أنه كان من هو أفضل من الإمام الحسين (ع) في الدنيا ، لكنه لم تتوفر لهم الظروف لأن يلعبوا الدور الذي لعبه الإمام الحسين (ع) .

وهذا هو الإمام الحسين يُعلن رسمياً وبصراحةٍ بأنه ليس هُناك في الدنيا

---

(١) في أوائل الأربعينات وأثناء الحرب العالمية الثانية .

بأهل بيت ، وبأصحاب ، أفضل من أصحابي ، وأهل بيتي ، وأبرّ منهم أبداً .

ولهذا أرى أنّه لا بد لنا من دراسة هذه الواقعة التاريخية العظيمة ، والتحقيق حولها ، والتّبحر في دراستها ، ولكن من زاوية التركيز على جوانبها الوضّاءة والمشرقة ، أي من زاوية كونها (مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ **إنّي أعلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** . . . ﴾ .

وليس من زاوية كونها مصداقاً للآية الشريفة : ﴿ **مَنْ يُفسِدُ فيها وَيُسْفِكُ الدّماء** . . . ﴾ ، نعم من الصفحة التي يكون فيها أبطال الواقعة ، هم الحسين ، وزينب ، وأهل البيت ، والأصحاب ، وليس من زاوية الصفحة السوداء ، حيث أبطال القضية هم أمثال عمر بن سعد ، والشمر ، وحرملة ، وغيرهم[1] .

عوامل النهضة الحسينية

يجب أن نعرف لماذا قام الحسين (ع) وفي هذا المجال لا بد لنا من معرفة العوامل المختلفة المؤثرة في النهضة الحسينية والتي هي :

أ ـ لقد كانوا يُريدون أخذ البيعة منه عليه السلام ، بشأن خلافة يزيد ، وبالتالي فإنهم كانوا يُريدون منه المصادقة ، وإضفاء الشرعية على حكم يزيد .

فكم كان حجم الآثار ، والنتائج المترتبة على مثل تلك البيعة وتلك المصادقة ؟

ثم ما هو مقدار الفرق بين هذه البيعة والبيعة التي أُخذت من أبيه ، مع كل من أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، أو صُلح أخيه مع معاوية ؟

وكما يقول العقّاد : فإنّ أول آثار مثل تلك البيعة ، كان يعني المصادقة على سب علي (ع) ، ولعنه ، وهو ما كان قد شُرّع به في زمن معاوية ، إضافةً إلى إضفاء المشروعية على مقولة ولاية العهد ، وتوارث الخلافة .

(١) وهنا أدعوكم لمطالعة كتاب لبنت الشاطىء بهذا الخصوص ، وهو كتاب بطلة كربلاء .

ب ـ يقول الحسين (ع) نفسه : بأنّ الدافع وراء قيامه ، هو وجود أصل في الإسلام يتطلب منّا عدم السكوت ، مقابل الظلم ، وانتشار الفساد ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ويستند بذلك إلى رواية عن النبي (ص) أنه قال : « من رأى سُلطاناً جائراً مُستحّلاً لِحُرُم الله . . . » ، بالإضافة إلى قوله عليه السلام : « ألاَ ترون أنّ الحق لا يُعمل به . . . »

ج ـ هناك دعوة أهل الكوفة له ، وكتابتهم الكتب له ، والتي كانت تدعوه للقدوم إلى العراق ، وهي أكثر من ثمانية عشر ألف كتاب ، ومبايعتهم لسفيره مسلم بن عقيل .

وهنا لا بد من التوقف عند هذا الموضوع ، وملاحظة مدىٰ أهمية هذا العامل ، وهل كان عامل الدعوة هذا عاملاً أساسياً في قيام الحسين (ع) ، وأنه لولاه لما كان قد نهض بالثورة ، وأنه كان قد بايع يزيد مثلاً ؟!

لكننا نعرف جيداً أنّ هذا ليس من رأي ، ولا عقيدة الحسين (ع) ، وبالتالي فإنه لم يكن ليبايع يزيد بالتأكيد حتىٰ ولو لم تكن دعوة أهل الكوفة قد وجهت له .

والتاريخ يُثبت لنا بدقة بأنّ دعوة أهل الكوفة ما كانت لتحصل ، لولا وصول خبر امتناع الإمام عن المبايعة إلى أهلها ، الأمر الذي دعاهم إلى الاجتماع ، والاتفاق على الكتابة إليه عليه السلام ، مُعلنين بيعتهم له ، وعقدهم العزم على مناصرته .

ومن المعلوم أيضاً أنّ الأمويين قد طالبوه بالبيعة ، منذ اليوم الأول ، وهو لا يزال في المدينة المنورة ، بل إنّ معاوية قد طالبه بالبيعة ليزيد ، حتىٰ وهو لا يزال على قيد الحياة ، وهو ما كان يرفضه الحسين (ع) بشكل قاطع .

ذلك أنّ مبايعة يزيد كانت تعني بالنسبة للحسين إضفاء المشروعية على حكم يزيد ، الذي كان يساوي المُصادقة على القضاء على الإسلام : « وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

. وتأسيساً علـى ذلك نقـول : إنّ الامتناع عن البيعـة كان عـاملاً أسـاسياً ، وأصيلاً في قيام الحسين (ع) .

فـالحسين كـان مستعداً أن يمـوت ولا يقبل بـالبيعة ليـزيد ، ذلـك أنّ خطر مبايعة مثل ذلك الرجل كان موجهاً للإسـلام ، وليس لشخص الحسين (ع) ، أي إنّ الخطر كان يُهدد النظام الكلي للإسـلام، وفلسفة قيـام الحكم الإسلامي، وهي ليست بمسألةٍ جزئية ، أو فرعية تتحمل حكم التقيّة .

وأمّا العامل الثاني ، فإنه بدوره أيضاً كان قد لعب دوراً أسـاسياً ، وشكّـل دافعاً أصيلاً من دوافـع النهضة الحسينيـة ، وهو أمـرٌ حين نـدرسه ، ونُـطالعه من زاوية احتمال حصول الأثر المطلوب ، والنتيجة المُثمرة لمبدأ الأمر بالمعروف ، فإننـا من قرائتنا لأقواله عليه السلام ، بهذا الشأن كما ورد في قوله عليه السلام :

« ثم أيم والله ، لا تلبثون بعدها إلاّ كريثما يُركَبُ الفرس ، حتىٰ تدور بكم دَوْرَ الرحىٰ ، وتقلق بكم قلق المحورَ » .

أو في رَدّهِ على أحدهم ، كما جاء نقلاً عن (الرياش) أنه قال :

« إنّ هؤلاء أخافوني ، وهذه كُتب أهل الكـوفة ، وهم قـاتلي ، فـإذا فعلوا ذلـك ، ولم يَدَعُـوا مُحرّمـاً إلاّ انتهكوه ، بعث الله إليهم من يَقْتُلهم ، حتىٰ يكـونوا أذلّ من قوم الأمة : (فِرام الأمَةَ) » .

وكذلك ما ورد في خطبته وهو يودّع أهل بيته للمرة الثانية ، حيث قال :

« استعدوا للبلاء واعلمـوا أنّ الله حافـظكم ، ومُنجيكم من شر الأعداء ، ويُعذّب أعاديكم بأنواع البلاء » .

كلها أقوال نستطيع من خلالها القول بكل تأكيد بأنه عليـه السلام إنمـا كان يعرف تماماً مدىٰ أهمية قيامه ، والآثار المترتبة على نزف دمه ، واستشهاده ، وكيف أنّ ذلك سيكون داعياً ، وسبباً لنهضة الناس ، ويقظتهم ، وقيامهم .

بينما حال العامل الثالث لم يكن مؤثراً إلاّ من زاويـة أنّه كـان سبباً في تـوجه الإمام إلى الكوفة بالتحديد ، وإلاّ هل كان في أمنٍ وأمانٍ لو لم يذهب إلى الكوفة ؟

والجـواب هو : إنّـه حتىٰ لو بقي في مكـة ، أو المـدينـة ، لم يكن بمـأمن من ملاحقة الحكم له ، ذلك أنّـه امتنع عن البيعـة ليزيـد ، إضافـةً إلى وقوفـه موقف المعارضة ، من تولي يزيد لمنصب الخلافة أساساً .

لكنه كان يأبىٰ أن يُقتل في حرم الله المكي ، وربما أيضـاً في حرم رسـول الله في المدينة ، وهو بقوله لأصحاب الحُر ، الذين واجههم في الـطريق إلى كربـلاء ، والذي يبدو أنه أعاده على عمر بن سعد نفسه في كربلاء نفسها ، الأمر الذي يُفهم من رسالة عمر بن سعد إلى ابن زياد ، أنه :

إذا كنتم لا تُريدونني فإنني أعود من حيث أتيت .

إنما كان يُريد فقط توضيح سبب قدومه إلى العراق ، وليس سبب قيامه ضد يزيد ، ومن ثم عدوله عن القدوم إلى العراق ، وليس عدوله عن النهضة .

فالحسين عليه السلام ، لم يقُـل هناك بـأنه الآن ، وقـد نقض أهل الكـوفة عهدهم معي ، فأنا على استعداد للبيعة ، وإنني أسحب اعتراضي على حكم يزيد وخلافته ، وأتعهد بالسكوت ، والامتناع عن المعارضة !

وهنا لا بد من ذكر بعض الملاحظات :

أ ـ إنّ مسألة امتناع أهل المدينة عن مبـايعة يـزيد ، وبـالأخص الحسين بن علي (ع) ، كانت مطروحة قبـل موت معـاوية ، وقـد ردّ الإمام الحسـين (ع) على هذا الموضـوع بشكل عنيف ، في رسـالته الجـوابية ، التي بعث بهـا إلى معاويـة ، حيث انتقد فيها بشدة وعنف ، فكرة طرح يزيد لولاية العهد[1] .

ب ـ إن مسألة ولاية العهد ـ ليزيد ـ بدعة كبيرة في الإسلام ، ومخـطط كان يَعدُّ له الأمويون منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

فـأبو سفيان نفسـه هو صـاحب القول الشهيـر في بيت عثمان : « تلقفُـوها تلقُّف الكرة ولتصيُرنّ . . أما والذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار » .

---

(١) يرجى العودة هنا إلى كتب العقاد بهذا الخصوص والذي منها (أبو الشهداء) .

وهي مسألة مهمة للغاية، إذ إنها مقولة لا هي شوروية، ولا هي قائمة على قاعدة الانتخابات العامة - الرأي العام - ولا هي قائمة على التعيين والنص الإلهي ، بل إنها ملكية وراثية ، يرثها الابن عن أبيه .

ج - إنّ التسليم بخلافة أحدهم إنما يتم ، ويصبح مقبولاً ، عندما يدور الأمر حول صلاحية فرد آخر للخلافة ، ولكن الخليفة الذي يُسلّم له بالخلافة ، على الرغم من وجود من هو أصلح منه ، لكنه رغم ذلك ، يُدير الأمور في إطار المحور الإسلامي العام .

فها هو علي (ع) يقول :

« والله لأُسلمنّ ، ما سَلِمَتْ أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليّ خاصةً » .

د - إنّ البيعة كانت عقداً يشبه عقد البيع والإجارة والنكاح ، وبالتالي ففيه تعهُّد على الالتزام به ، وهو غير قابل للنقض ، يقول علي (ع) : إنّ العهد لا يجوز نقضه حتىٰ مع الكُفّار ، وإلاّ لما بقي أمان .

هـ - إنّ مسألة الاعتراض على أعمال الخليفة ، حتىٰ ولو أدىٰ الأمر إلى عزله في حال انحرافه ، هي في الواقع مسألة هامة في الإسلام ، تقعُ تحت باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وقد استند الإمام الحسين (ع) مراراً إلى هذا المبدأ الإسلامي الهام ، في قيامه ونهضته ، وليس هناك شرط في هذا الباب ، يتضمن عدم حصول سيل للدماء ، بل إنّ الشرط هو أنْ تكون النتيجة النهائية للتحرك ، لمصلحة الإسلام ، وهو أمرٌ يشبه أمر الجهاد ضد الكفار .

و - إنّ موضوع دعوة أهل الكوفة للإمام ، وإتمامهم الحجة عليه ، هو الآخر موضوع هام بحد ذاته .

وقد تعامل الإمام بكل عقل وتدبير مع هذا العامل .

فقد أجاب قبل كل شيء على كتبهم ، وأخذ يبعث الرسُل الواحد تلو

الآخـر إليهم ، حيث أرسل في أول الأمـر سفيراً خـاصاً من طـرفـه إليهم ، وهـو مسلم بن عقيل ، الذي تعامل بـدوره مع القضيـة ، وأهل الـدعوة ، بـالأسلوب العلوي الأصيل ، أي دون استخدام أنواع الحيلة ، والخدعة ، أو الشطارة ، بـل إنه تعامل مع النـاس بكل صراحـة وصدق ، فهـو لم يأخـذ مالاً من النـاس ، ولم يوزع عليهم بالمقابل الأموال التي تُغريهم ، أي إنه لم يكن على استعداد لاستخدام أسلوب (الغاية تبرر الوسيلة) .

وقـد تأمـل الإمام أولاً في رسـائل الـدعوة ، وبعـد أن قطع نهائيـاً بضرورة الاستمرار في نهج المعارضة ، وعدم الرضوخ للبيعة نهائياً ، أرسـل إليـهم بكتابـه الإيجابي .

والسبب في أنّـه تحرّك إليهم في ذلـك الوقت المُحـدّد بالـذات ، تاركـاً مكة وراءهُ ، هو أنه كان يرى أولاً ، وقبـل كل شيء ، أنّ الفـرصة كـانت مؤاتية جـداً للحركة في تلك الأوضاع بالذات ، فالفـرصة التـاريخية كـانت في اليوم الثـامن من ذي الحجة ، حيث الاجتماع العظيم للناس ، لأداء مناسك الحج ، والذهـاب إلى عرفات .

وعليه فإن جمـوع الناس لا بـد وأن يلفت نظرهـا تخلف ابن بنت النبي عن المشاركة في مثل تلك المراسم ، وأنه لا بد وأن يكون الأمر هاماً للغاية حتىٰ يـدفعه للاستغناء عن المشاركة في مثل تلك المناسك .

وهذا التحرك الحسيني يمكن اعتباره مناورة مُحنّكة ، وذكية للغاية ، لكنـه في المقابل فإنّ التحرك السريع هذا كانت قد أملته على الإمام شروط وظروف صعبـة جداً ، حيث كان يتهدد الإمام الحسين (ع) خطر القتل في تلك الساعات بالـذات ـ ساعات أداء مناسك الحج ـ .

فكـما ورد في كتاب العقّـاد [رأسمال الحـديث] ، فإن عمـرو بن سعيد بن العاص ، كان قد توجّـه في حينه عـلى رأس قوة عسكـرية إلى مكـة ، بهدف قتـل الحسين (ع) .

والإمـام الحسين نفسـه أعرب عن مثـل هـذا الاحتـمال عنـدمـا تحـدّث إلى الفرزدق قائلاً :

لو لم أخرج من مكة لكنتُ قد قُتلْت .

وقد ورد مثل هذا في (منتخب الطريحي) الذي يُشير إلى توجه ثلاثين نفـراً في الخفاء ، في مهمةٍ لقتل الحسين (ع) ، أثناء أداء مناسك الحج .

«وإضاعة دم الحسين من خلال عرضه القضية على أنها نزاع شخصي بين عددٍ من الأفراد ، أو تحريف القضيـة بشكل آخـر ، كما حصـل في مقتل سعـد بن عُبادة ، فيُقال إنه قد قُتل بوسيلة الجن مثلاً » .

وعليه فإنه حتىٰ لو لم تكن قضية دعوة أهـل العراق مـطروحة ، فـإنّ موسم الحج ، وازدحام الحجيج ، كان يحمل معه خطر مقتل الإمـام الحسين ، ممـا جعل الإمام مُصمماً على عدم البقاء في مكة .

فهو لم يكن بمقدوره حماية نفسه بالسلاح ، وهو في لبـاس الإحرام ، إضـافة إلى كـون مقتله ، وهــو ابن بنت رسـول الله (ص) في محيط « مـن دَخَـلَه كـان آمنـاً » ، بعد مُضي خمسين عامـاً فقط على رحلة الـرسـول الأكـرم (ص) ، كـان يُشكل إهانة كبرىٰ لبيت الله الحرام .

من هنـا فإنّ حـركة الإمـام الحسين في ذلـك الـوقت ، من مكـة إلى مكـان آخر ، كانت مطلوبة وضرورية ، ولو أننا صرفنا النظر عن دعوة أهل العراق له ، فإنه لم يكن لديه في الحقيقة موقـع أفضل من موقع العراق .

ز ـ إنّ الإمـام الحسين (ع) كـان يرى أنّ مقتله ، وهـو يُطبّق المبـدأ الثاني ، أي تنفيذ واجب تحقيق الإصلاح في الأمة الإسلامية ، أمرٌ مفيـد ، فهو كـان يحسُّ تماماً بأنّ الحالة العامة كانت بحيث إنه لو استشهد فسوف لن يذهب دمه سُدىً .

* * * *

نستطيع أن نوضح القضايا الآنفة الذكر ، بشكل أكثر شمولاً ، وأكمل صورةً فنقول :

إن واقعة كربلاء كان لها وجوهٌ عدة :

١ ـ لقد كان الإمام الحسين ، الشخصية الوحيدة الجديرة ، والمنصوص عليها ، والوارثة الطبيعية للخلافة ، بينما كان يزيد في موقع الغاصب ، وغير الكفؤ لها .

ومن هذه الناحية كان هناك وجه تشابه بين وضعية الإمام ، والوضع الذي كان عليه أبوه ، وأبناؤه مع الخلفاء في العصور المختلفة .

ولذلك لا بد لنا من النظر هنا أنّ مجرّد وجود هذه الناحية لدى الإمام ، ماذا كانت تُلقي عليه من واجبات ؟!

٢ ـ لقد كانوا يُريدون البيعة من الإمام ، ولم يكونوا على استعداد للتخلي عن مثل هذا المطلب ، بأي شكل من الأشكال ، وهنا لابد أنْ نرى ما هي البيعة ، وما هي آثارها ، وماذا يتطلب موضوع التكليف بالبيعة من أعمال على الإمام ؟

٣ ـ إنّ أوضاع ، وأحوال المسلمين ، كانت قد وصلت إلى أسوأ حالاتها الممكنة ، من زاوية إجراء الحدود ، والموازين الشرعية ، حتى صارت تُهدد جذور الدين والنظام الإسلامي .

وهنا لا بد من رؤية ماذا كان يوجب على الإمام تكليف مثل تكليف الأمر بالمعروف ، وهو المبدأ الذي كان يستند الإمام إليه في أحاديثه ؟

٤ ـ قام أهل الكوفة بدعوة الإمام ، وأتّموا الحجة عليه بشكل ، أو بآخر ، وهنا لا بد أن نرى ماذا كان يتوجب على الإمام نتيجة هذه الدعوة ؟

٥ ـ السلطة الحاكمة بالمقابل ، كانت قد خيّرته أخيراً ، بين خيار التسليم ، وبين خيار القتل ، فماذا يجب على الإمام عمله في مثل هذه الحالة ؟

فأمّا مسألة الأحقيّة بالخلافة ، فإنها إن كانت غير متلازمة مع موضوع آخر ،

أي إنّ المسألة تتراوح بين خيار الأشخاص ، واختيار الأكفأ ، فإنه ومهما كان الفرق بين الكفاءات ، فإنّ اللازمة القهرية ، والإجبارية ، لتولي الأصلح للحكم ، في الظاهر ، لا تُكلّف الإمام ، ولا توجب عليه أكثر من المطالبة بحقه في الموضوع ، فإنْ كان له أعوان ، وأنصار ، بالقدر الكافي ، أقدم على الإمساك بزمام الأمور ، وإلاّ فلينتظر ، ويصبر كما فعل الإمام علي (ع) في موقع خلافة أبي بكر ، إذْ صبر وقال : « أفلح من نهض بجناح ، واستسلم فأراح »[1] .

أو كما قال في موقع خلافة عثمان : « والله لأُسلِمَنّ ما سَلِمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليّ خاصةً » .

وعلي (ع) كان يتعاون مع خلفاء عصره ، على مختلف الصُعد القضائية ، والسياسية ، والعلمية ، ويُشير عليهم في كل حين ، ويدعمهم ويُساندهم ، وقضاء علي وأجوبته العلمية في هذا المجال مشهورة .

وفي هذه الناحية ، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار ، موقف الناس ، ونظرتهم ، وحكمهم على مثل هذا الموضوع .

فإنْ كان الرأي العام لا يُريد الإمام الحق ، لجهة جهلهم ، وعدم تشخيصهم الحق ، من غير الحق ، فإنّ الإمام لا يحق له عندئذٍ أنْ يُجبر الناس ، ويفرض عليهم أمر الله ، ومن هنا يأتي لزوم البيعة ووجوبها .

أمّا موضوع البيعة : لنَر أولاً ما معنىٰ البيعة ؟

والتعريف الذي نفهمه نحن للبيعة ، هو نفسه ما ورد في كتاب (النهاية) لابن الأثير تحت مادة البيع ، فيقول :

« وفي الحديث : ألا تُبايعوني على الإسلام ، هو عبارة عن المُعاقدة عليه ، والمُعاهدة ، كأنّ كُلّ واحدٍ منهما باع ما عنده من صاحبه ، وأعطاه خالصةَ نفسه ، وطاعته ودخيلة أمره » .

فالبيعة حكم يخص الحاكم والسلطان فقط ، وعهد الصداقة والأخوة بين

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥ .

صديقين ، لا يُقال له بيعة ، أي إنّ البيعة تعني تسليم أحد الطرفين للآخر ، تسليماً تاماً[1] .

لقد جاء ذكر البيعة في القرآن أيضاً في قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤْمِنِينَ إذْ يُبايعونَكَ تحتَ الشَّجَرةِ . . . إذا جاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبايِعَنكَ على أن لا يُشرِكْنَ بالله ولاَ يَسرِقْنَ ، ولا يزنين ، ولا يقتُلنَ أولادهُنَّ** ﴾ .

والنبي (ص) بدوره أيضاً ، قد أخذ البيعة لعلي (ع) في يوم (غدير خُم) ، عندما بايعهُ أهل المدينة على ذلك في « ليلة العقبة » .

في سقيفة بني ساعدة كانوا قد أخذوا البيعة من الناس على الخلافة ، وبفضلها كانت الخلافة قد تمت لأبي بكر دون منازع ، ورغم أنّ الناس كانت قد كشفت زيف تلك البيعة فيما بعد ، إلاّ أنها لم تنقض البيعة .

وعلي (ع) أيضاً بدوره كان قد أخذ البيعة له من الناس حتىٰ صار خليفةً ، وعندما حاول الزبير بن العوام التملص من البيعة لعلي ، وهو الذي كان فيمن بايعهُ عليها ، لكنه إدّعى بالبيعة الظاهرية ، فقد ردّ عليه الإمام علي (ع) كما ورد في (نهج البلاغة) في الخطبة (٨) ، إذ قال :

« يزعمُ أنه قد بايع بيده ، ولم يُبايع بقلبه ، فقد أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليجة ، فليأتِ عليها بأمرٍ يُعرَفُ ، وإلاّ فليدخُل فيما خرج منه » .

ويُلاحظ هنا بوضوح ، إنّ الإمام يُحاجُّ الزبير قضائياً بشأن البيعة .

على أية حال فإنّ الإمام يذكر البيعة هنا على أنها معاهدة مُلزمة لصاحبها ، وفي خطبة أخرى له عليه السلام وهو ما ورد في (نهج البلاغة الخطبة ٣٤) إنه عليه السلام قال :

« إنّ لي عليكم حقاً ، ولكم عليّ حقّ . فأما حقُكم عليّ فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجلهوا ، وتأديبكم كيما تعلموا

---

(١) راجع الكشاف ، ومجمع البيان .

(تعملوا)[1] . وأمّا حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد والمغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمرُكُمْ » .

كما أنّ أصحاب الجمل ، إنما نُعتوا بالناكثين ، لأنهم نكثوا العهد ، ونقضوا البيعة مع الإمام .

هذا بالإضافة إلى أن هناك حديثاً يقول : إنّ الإمام الحجة المنتظر صاحب الزمان (عج) إنما اختفىٰ وغاب حتىٰ لا يُلزم الناس بالبيعة له .

هذا كما أنّ أولاد الأئمة عليهم السلام كافة ، وكل من كانت له نية في الثورة على الخلفاء ، كانوا يطلبون البيعة لأنفسهم ، من أتباعهم ، وهو ما فعله محمد بن النفس الزكية ، وزيد بن علي .

وقد أفتىٰ (أبو حنيفة) بعدم صلاحية بيعة أهل المدينة مع العباسيين ، لأنّ لهم في رقبتهم بيعةً مع محمد بن النفس الزكية .

والإمام الصادق (ع) قال : إنه على استعداد لمبايعة محمد بن النفس الزكية ، إذا كانت نهضته نهضة الأمر بالمعروف ، وليست نهضةً مهدوية .

والإمام الحسين نفسه كان قد أخذ البيعة من أصحابه ، وأراد في ليلة عاشوراء أن يُحررهم منها ، عندما عرض عليهم خيار تركه بقوله لهم : « أنتم في حلٍ من بيعتي » .

ومسلم بن عقيل ، هو الآخر ، كان قد أخذ البيعة لإمامه من أهل الكوفة .

وعندما كتب معاوية إلى أمير المؤمنين (ع) يقول له : « وكنتَ تُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش » . فقد ردّ عليه أمير المؤمنين (ع) قائلاً :

« وقُلت : إني كنتُ أُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش ، حتىٰ أُبايع ، ولعمرُ الله ! لقد أردت أنْ تَذُمّ فمدحت ، وأنْ تفضح فافتضحت ! وما على المسلم من

---

(١) وهو ما ورد في شرح ابن ميثم وهو الأصح .

غضاضةٍ في أن يكون مظلوماً ، ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مُرتاباً بيقينه ، وهذه حُجتي إلى غيرك قصدُها ، ولكني أطلقتُ لك منها ، بقدر ما سَنَحَ من ذكرها » .

وهنا تُطرح الأسئلة التالية ، وهي :

ما هي ضرورة أخذ البيعة بالنسبة للنبي والإمام ؟

ومن ثم ما هو الأثر الإلزامي المترتب على البيعة من الناحية الشرعية ؟

وبعد فهل إنّ عدم مبايعة الناس لنبيهم ، تعني أن طاعة النبي ليست واجبة ؟!

ثم لماذا كان أمير المؤمنين علي (ع) يستند إلى مفهوم البيعة في مجادلاته ، ومحاجّاته ؟

وكما يبدو فإن البيعة يكون لها في بعض الموارد معنى الاعتراف وإبراز الاستعداد للطاعة ، أي تعبير وجداني .

والبيعة التي كان يأخذها النبي من الناس ، كانت من هذه الزاوية ، لا سيما وأنّ مثل هذه الأخلاق كانت سائدة بين العرب ، والتي كانت تُميّزهم عن غيرهم بالوفاء بالعهد ، والالتزام بالعهود ، والمواثيق ، التي يقطعونها على أنفسهم . وهو أمرٌ أشبه ما يكون بالقَسَم الذي يُقسمه العسكريون ، ونوّاب الشعب مثلاً ، في مثل هذه الأيام ، وهو قَسَم الوفاء ، وعدم خيانة أوطانهم ، والذي هو من الأخلاق العامة المطلوبة من الجميع ، لكنه على كل حال إنما يؤكّد الفرد بالقسم تقديمه وجدانه أمانةً ، ورهناً لدىٰ الوطن .

كذلك الأمر بالنسبة إلى البيعة ، فما لم يُبايع الفرد ، فإن في عنقه تلك الوظيفة العامة ، والواجب الكُلي المترتب على الجميع ، والذي لا يقبل التفسير والتأويل ، لكنه بالبيعة يكون قد شهد شخصياً ، واعترف بشخصه ، وألزم نفسه على رؤوس الأشهاد ، بالالتزام بطاعة الحاكم ، وبذلك يكون قد أخرج الموضوع من دائرة الإبهام ، ووضع وجدانه وضميره في الميزان .

وليس بعيداً أن يكون بذلك قد أوجد لنفسه ، من الناحية الشرعية ، إلزاماً

ما فوق الإلزام الأول الكلي ، لكن البيعه قد تكون في موارد أخرى بمثابة العقد ، الذي لم يكن يسبقه أي إلزام للطاعة بين الطرفين ، قبل توقيع العقد .

فعندما كانت الخلافة شوروية مثلاً ، ولم تكن بالنص ، فإنّ زمن ما قبل البيعة ، لم يكن مُلزماً لأحد بطاعة ذلك المرشح للخلافة ، بينما يصبحُ مُلزماً للجميع في حال منحهم البيعة له .

وعندما يستند أمير المؤمنين علي(ع) إلى مفهوم البيعة في محاجّته للزبير،وغير الزبير ، فإنّه في الحقيقة ، يتجاوز مسألة النص النبوي له بالخلافة ، والذي أسقطته خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ويأخذ في قواعد العمل بالمبدأ الشرعي الآخر وهو البيعة ، تماماً كما فعل الخلفاء الثلاثة ، عندما تجاوزوا مقولة النص النبوي على علي (ع) ، وعملوا بالمبدأ الشرعي الآخر ، والذي هو بدوره أيضاً مبدأ جدير بالالتزام والاحترام ، وهو مبدأ الشورى : ﴿ **وَشَاوِرْهُم في الأمرِ** ﴾ ﴿ **وأمْرُهُم شُورىٰ بَيْنَهُم** ﴾ .

على أية حال فإنّ البيعة تختلف قليلاً عن مسألة التصويت الانتخابي في زماننا .

إذ إنها أكثر إلزاماً من التصويت في الانتخابات الراهنة ، فالتصويت اليوم لا يعدو كونه انتخاباً للشخص ، بينما كانت البيعة تعني الانتخاب ، والتسليم بالطاعة للشخص المنتخب .

والآن لنر إذا ما كان الإمام الحسين (ع) قد بايع ، ماذا كانت تعني مثل تلك البيعة ؟

وأما في مرحلة الامتناع عن البيعة ، فإنّ تكليف الإمام الحسين سيكون نوعاً من التكليف السلبي . (وهو ما ينطبق على المراحل الرابعة والخامسة) ، وبالتالي فإنّ عدم البيعة يختلف عن موقف المُبايع في المرحلة الأولى والثالثة ، حيث يكون التكليف هناك تكليفاً إيجابياً .

من هنا فإنّ الإمام الحسين (ع) تراهُ يقول « لا » ، وبالتالي فإنه يرفع الغطاء عن الحاكم الجديد ، ويسحب يد الدعم والمساندة عنه .

وفي حدود هذا التكليف الإلهي ، فإنّ خروج الإمام من البلاد كان كافياً للقيام بالواجب المترتب عليه نتيجة ذلك ، وكذلك أيضاً لو أنه اختار صعود الجبال ، والاختفاء عن الأنظار (كما اقترح عليه ابن عباس ، بأنْ يذهب إلى شعاب الجبال) .

وإذا ما افترضنا أنّه كان قد اختار الاختفاء عن الأنظار في أحد البيوت ، فإنه يكون بذلك قد قام بواجبه أيضاً .

لكنه لم يكن معذوراً فيما لو رضخ للبيعة الإكراهية . فتقبل الإكراه من وجهة نظر الإسلام لا يشمل مثل هذه الحالات .

وقاعدة : « رُفع ما استكرهوا عليه ، ولا ضرر ولا ضرار » . لا يجوز تطبيقها عندما يكون المتضرر هو الإسلام ، كأن يُجبر الإنسان أو يُكره على كتابة كتاب ضد الإسلام أو مُعاندٍ لأهل القرآن الكريم .

وهنا لابد من التعليق على قول البعض ، وتساؤلهم عن سبب عدم قيام الحسين (ع) في زمن معاوية ، وجواب البعض الآخر بأنّ ما كان يمنعه من ذلك هو وجود معاهدة الصُلح . بين أخيه وبين معاوية ، وأنّ الإمام الحسين (ع) لم يكن يُريد التحرك خلافاً لمعاهدة أخيه أو نقضها .

ونقول : بأنّ هذا ليس صحيحاً ، فمعاوية نفسه كان قد أخلّ بالمعاهدة ونقضها ، والقرآن الكريم إنما يأمرنا باحترام العهود وعدم نقضها ، في حالة احترامها من قبل الطرف الآخر .

والقرآن لم يُطالبنا بالبقاء على العهد حتىٰ وإنْ نُقض من قبل الطرف الآخر ، وإنما يقول تعالى : ﴿ فما اسْتَقَاموا لكُم ، فاستقيموا لهم ﴾ .

طبعاً الوفاء بالعهد حتى مع الكافر ، ينبغي احترامه ، والالتزام بمواثيقه ، والنبي محمد (ص) كان قد عقد اتفاقاً للصلح مع قريش في (الحديبية) ، ولكنهم ما أن نقضوا العهد ، حتىٰ اعتبره عليه الصلاة والسلام حبراً على ورق .

وعودةً إلى عدم قيام سيد الشهداء في ظل حكم معاوية نقول :

إنّ سر ذلـك يكمن في الحقيقة في سيـاسة أبي عبـد الله الحسـين (ع) ، التي كانت تقوم على انتظار الفرصة الأفضل ، والأكبر في الثورة ، وهنا لا بـد من القول إنّ الإسلام ليس فقط يجوِّز تكتيك الانتظار ، والصبر لاختيار الفرصة الأفضـل ، بل يعتبر ذلك واجباً من الواجبات .

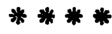
وإنه لأمر مؤكد أن تكون الفرصة بعـد موت معـاوية ، أفضـل منها في زمن معاوية نفسه .

والإمـام لم يكن ساكتـاً رغم ذلك في زمن معـاوية ، بـل كـان معـترضـاً ، ومقاوماً على الدوام ، وهو ما يمكن استفادته من رسـالته الشهـيرة إلى معاويـة[1] ، وهو يحاجّه فيها شخصياً .

هذا بالإضافة إلى دعوته لأكابر المسلمـين ، والحديث إليهم بشـأن الأوضاع السيئة في زمن معاوية .

لكنه عليه السلام كان يـرى أنّ أفضل الأوقـات للقيام بـالسيف ، هو بعـد موت معاوية ، لا سيما وأنّ الإمام كان متيقناً من أنّ معاوية قد نصّب يزيداً خليفـة لـه بعد مـوته ، وأنّ الأمـويين سـوف يدعـون الناس بـالتأكيـد إلى إطاعـة الخليفة الجديد .

وعليه فإنّ موضوع خلافة يزيد لم يكن أمراً مفاجئاً للإمام على الإطلاق .



(١) يرجى العودة في هذا المضمار إلى كتاب « رأسمال الحديث » و« دراسة تاريخ عاشوراء » ؟؟

الحسين وأصحابه في ليلة عاشوراء

درس في التوحيد ، والإيمان ، والعظمة ، ومثال في الأسطورة التي لا تُقهر ، (كل ذلك في ظل توافر كل الشروط ، والظروف غير المساعدة)

إنّ من مظاهر الإشراق في واقعة كربلاء ، ومن تجليات الله الكبرىٰ فيها ، هو موضوع جمع الإمام (ع) لأصحابه في ليلة عاشوراء ، وخطبته الشهيرة فيهم .

في مثل تلك الليلة العصيبة ، حيث اجتمعت كل الظروف والعوامل ، التي تبعث على اليأس ، والوهن ، والضعف ، لم يكن باستطاعة أي قائدٍ ، ولا رائدٍ تقويم حركته ، على أساس المادة والحسابات المادية ، سوى أن يُبدي حسرته على ما فاته من فُرص الحكم ، والجاه ، والسلطة ، ولم يكن لسان حاله سيوحي إلاّ بفشل حركته وكنت تراه لا ينطق بغير الشكوىٰ ، ولا يُبدي سوى التململ من الأوضاع المحيطة ، ولا يتفوّه إلاّ بمنطق الكافر بالدهر ، وساعته السوداء ، التي أتت عليه بتلك الأوضاع السيئة ، تماماً كما فعل نابوليون عندما اشتدت عليه الظروف حيث قال قوله الشهير :

« إنّ الطبيعة لم تُساعدني » .

بعد أن كان يلعن الدهر ، وهو في أشد حالات اليأس . فتصوروا إذاً ،

حالة الحسين (ع) ، وهو يُفكّر بمصير زوجه ، وأبنائه ، وأخواته ، الذين سيصبحون أسرى بيد العدو ، بعد أقل من (٢٤ ساعة) .

إنه لأمر في غاية المرارة ، لرجل غيور ، وصاحب شهامة ، كشهامة أبي عبد الله الحسين (ع) .

فماذا فعل الآخرون عندما ، واجهوا مثل هذه الظروف ؟

إننا نقرأ في التاريخ أنّ « المقنّع » عندما حوصر ، وواجه ظروفاً صعبة يائسة ، فإنّ أول ما قام به ، هو قتل عائلته ، ومن ثم الاستسلام والانتحار .

وكذلك فعل أحد الخلفاء الأمويين ، عندما واجهته ظروف مشابهة .

وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ من هذا القبيل .

لكن الإمام الحسين بن علي (ع) تراه يبدأ خطبته في مثل هذه الظروف بروحٍ مختلفةٍ تماماً فيقول : « أُثني على الله أحسن الثناء ، وأحمدُهُ على السراء والضراء . اللهم إني أحمدُكَ . . . . »

إذاً ، في ظل كل تلك الظروف الصعبة والعسيرة ، ترى الحسين (ع) ينطق بالرضا والتسليم للظروف والعوامل الموضوعية ! لماذا ؟

لأنه يعيش ظروفاً معنوية قوية وعالية ، إنه موحّد بالله عقيدياً وعملياً ، وعابد وساجد لله ، إضافةً لكونه واعياً وعارفاً بالنتيجة النهائية لعمله .

إنه لم يكن يبغي مثل نابليون والإسكندر ، السيطرة على العالم ، حتى يرى نفسه مهزوماً ، وهو يقترب من ساعة الحسم في كربلاء .

إنه كان يحمل هدف إعلاء كلمة الحق ، ولذلك تراه ينظر إلى نتائج أعماله بعين الرضا والقبول ، في كل الأحوال .

* * * *

موضوعات حول النهضة الحسينية

١ ـ إنّ الواقعة حصلت بسبب عدم استعداد رائدها لبيع عقيدته ورأيه . .

٢ ـ إنّ عبارة « آثروا الموت . . . » تصدق على أصحاب كربلاء حقيقة وحقّاً . « قارن بين أصحاب كربلاء ، وبين أهل بدر وصفّين ، وأصحاب طارق بن زياد » .

٣ ـ إنّ الدرس المهم في حادثة عاشوراء هو إدراك ما إذا كان الدين قوة أم ضعفاً ؟ قيداً أم حرية ؟ أفيوناً للشعوب . أم قوة دافعة لها ؟

معاوية ، وقميص عثمان ، واغتصاب الخلافة

يقول (العقاد) في كتابه (أبو الشهداء) الصفحة ١٢ :

« إنّ الذين انخدعوا أو تخادعوا . . والآجام » ومن خلال نظرة سريعة على هذا الموضوع يمكن تسجيل الملاحظات التالية (لا سيما بخصوص الفرق بين أصحاب معاوية ، وأصحاب ابن زياد) .

ألف ـ هناك فرق كبير بين الأجواء التي حارب فيها أصحاب معاوية في صفين ، والأجواء التي حارب فيها أصحاب يزيد في كربلاء ، فمعاوية كان قد خدع جمهوره ، وصوّر لهم أنّ المعركة مع علي (ع) إنما تهدف للانتقام لدم الخليفة المظلوم عثمان ، ولم يكن الرأي العام يعرف مآرب معاوية ، وأهدافه الحقيقية من وراء تلك المعركة .

بينما لم يكن الحال كذلك بالنسبة لأصحاب يزيد ، ولذلك ترى أنّ موقف النفاق في المواجهة التي كانت دائرة بين معاوية ، وكل من الإمام علي (ع) ، ومن ثم الحسن (ع) ، لم يكن واضحاً كما كان لحظة المواجهة ، بين يزيد ، والإمام الحسين (ع) .

لكن الناس يبدو أنها كانت قد تراجعت في وعيها ، وتخلّفت كثيراً عن

الموقف الإسلامي ، خلال فترة العشرين سنة التي أعقبت حكم الإمام علي (ع) ، حتى إنه يمكن القول بأنّ من الصعب التصور بـأنّ الناس كـانت ستقف إلى جانب بني أمية ، فيما لو كانت واقعة كربلاء ، قد حصلت ، في عصر معاوية .

ب ـ إنّ مـا حصل في قضيـة معاويـة ، لا شك أنـه كان يقـوم على قـاعـدة الثـأر ، وطلب الانتقام ، وهي الـروح العصبية ، والجـاهلية ، والميـل الباطني ، الذي كان قد حرّك الناس للمطالبة بالدم ، وهو نفس الميل الذي كان متأصـلاً في العصر الجاهلي ، ألاّ أنه ظهر هذه المرة بلون إسلامي ، وتحت شعارات إسلامية !

ج ـ لقد ارتكب معاوية في عهده حمـاقة كبـرىٰ هي التي أدّت في الواقـع إلى زوال حكومة بني أمية ، وهي أنّه عين يزيـداً ولياً للعهـد من بعده ، وتلك فعلةً لا تُغتفر .

أولاً : لأنّ يزيد كان أسوأ خيار ممكن لمنصب الخلافة .

وثانياً : لأن فكرة ولاية العهد كانت تعني تحويل الخـلافة إلى لعبـة سياسيـة سُلطانية ، مضادة لروح الخلافة تماماً .

ثم إنه أضاف إلى ذلـك أنه قـام بأخـذ البيعة لابنـه ، في زمن حكمه هـو ، وكان معاوية قد حوّل في الأساس منهـج الحكم في عصره إلى منهج سُلطاني بـرز في المجالات كافة وسائر مستويات الحكم وهو الأمر الذي كان يستعدّ له بنو أميـة منذ عهد عثمان عندما كانوا يُصوّرون الخلافة بأنها ملك خاص لهم .

د ـ إنّ عمل أعوان بني أميـة في واقعة كـربلاء ، كـان يُمثل قمـة الدنـاءة ، ومنتهى التقهقر ، والانحطاط الأخلاقي ، للأمـة الإسلاميـة ، وإن وقفة كـربلاء الشجـاعـة ، بقيـادة الحسـين بن عـلي (ع) ، هي التي شكّلت الشرارة ، والمبـدأ اللذين أشعلا نور المعرفة ، والوعي ، والحرية ، لدى الأجيـال المتتابعـة بعد تلك الواقعة .

ومـا قيام المـدينة ، وثـورات الكوفـة ، لا سيـما ثـورة (عبـد الله بن عفيف الأزدي) ، إلاّ مثالاً لتلك التجليات الروحية الإسلامية ، التي انبعثت من معـركة الطف .

صحيح أنّ أعوان بني أمية لم يكتفوا بدناءتهم في واقعة كربلاء ، بل استمروا في إبراز تلك الخسة والدناءة بعد الواقعة أيضاً ، إلاّ أنّ شرارة الوعي والانطلاق كانت قد أُشعلت في ضمير الأمة ، على يد الحسين بن علي (ع) .

أصحاب بني أُمية يُحاربون دينهم في كربلاء

إنّ الأمر العجيب الذي يلفت النظر في كل من واقعة كربلاء ، ووقعة الحرة في المدينة ، هو أنّ أعوان يزيد قد أظهروا دناءةً وخسةً نادرتين في كِلَا الواقعتين .

فهُم كانوا يُمارسون تلك الجرائم ، في الوقت الذي لم يكونوا فيه ينطلقون من موقع الكفر المطلق ، إذ كانوا يُقيمون الصلاة ، وينطقون بالشهادتين .

يقول العقّاد في كتابه الآنف الذكر :

« بَل حَسْبُكَ من خِسّةِ ناصريه (يزيد) أنّهم كانوا يُرعدون من مواجهة الحُسين بالضرب في كربلاء ، لاعتقادهم بكرامته وحقّه ، ثم ينتزعون لِباسَهُ ، ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلابٍ ، ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه ، وبرسالة جَدّه ، لكانوا في شريعة المُروءة أقل خِسّةٍ من ذاك » .

ومن هنا يتضح أنّ حرب أصحاب ابن زياد مع الحسين بن علي (ع) لم تكن حرباً عقائدية ، بل حرباً ضد العقيدة .

أي إنهم أعلنوا الحرب ضد دينهم وعقيدتهم من أجل إشباع بطونهم ، وأنفسهم ، بالشهوات ، والجاه ، والسلطان ، ولهذا فإنهم من هذه الناحية أسوأ من كُفّار بدر وأُحُد ، وأحقر ، ذلك أنّ حرب أولئك كانت على الأقل حرباً من أجل العقيدة .

كرامة آل علي (ع) في استخدامهم لأدوات النصر

كما يختلف آل علي مع مخالفيهم في الغاية والهدف ، فإنهم يختلفون معهم أيضاً في استخدام وسائل ، وأدوات الحرب والمواجهة .

فهم لم يكونوا على استعداد لاستخدام أية وسيلةٍ كانت بغرض الوصول إلى تحقيق أهدافهم .

بينما كان معاوية يستخدم وسيلة السم ، وهي من الأعمال الجبانة ، ومن أدوات الغدر ، والخديعة ، في محاربة الأعداء ، فتراه يسمّم الإمام الحسن (ع) ، والأشتر النخعي ، وسعد بن أبي وقّاص ، بل وحتى عبد الرحمن بن خالد ، وهو الصديق والنصير المفضّل لديه ، لا لسبب ، إلاّ لأنه فكّر في تولي الخلافة من بعده ، فسمّمه وهو يقول : « إنّ لله جنوداً من عسل » .

لكن آل علي امتنعوا عن استخدام مثل هذه الطرق والأساليب ، لأنها كانت تتناقض وأهدافهم السامية ، التي كانت تتمثل في إشاعة الفضيلة ، خلافاً لمعاوية ، الذي لم يكن يحمل هماً ، سوى هم الحفاظ على السلطة ، وتوريثها لبني أمية من بعده .

هذا في حين أنّ آل علي كلهم لم يكونوا على استعداد لاستخدام طرق الغدر ، وأساليب الخداع ، للقضاء على عدوهم .

وها هو مسلم بن عقيل يرفض قتل ابن زياد غيلةً وغدراً ، عندما حانت له تلك الفرصة في بيت هاني إذ قال : « إنّا أهلُ بيت نكرهُ الغدر »[1] ، أو عندما قال : « تذكرتُ قول رسول الله (ص) : « الإيمان قيد الفتك »[2] .

تحليل روحية قتلة « سيد الشهداء »

إنّ تحليل روحية أعوان ابن زياد ليس بالعمل السهل ، فهل كان هؤلاء غير مؤمنين بأصول الإسلام حقاً ؟ أم إنهم كانوا مؤمنين بالإسلام ، وكانوا يتصورون أنّ الإمام الحسين ما هو إلاّ فرد طاغٍ ، ومتمرد ، خارج على إمام زمانه ، وإنه يجب إعلان الجهاد عليه حسب حكم الإسلام ؟ وهو ما جاء في ظاهر حديث عمر بن سعد إذ قال : « يا خيل الله اركبي ، وبالجنة أبشري ! » .

---

(١) العقاد ص ١٨ .

(٢) رأسمال الحديث الجزء الثاني للعقاد .

أو إنّ الأمر لم يكن يتجاوز الطمع ، والحرص على الدنيا ، أو لمخض الجهل ، وعدم وجود الوعي الكافي ، والتشخيص غير الدقيق ؟ .

في الظاهر يبدو أنّ أكثرهم كان يحمل نوعاً من الإيمان التقليدي السطحي ، أي إنهم لم يكونوا منكرين للإسلام ، ولا للإمام الحسين في باطنهم ، وفي ضمائرهم ، لكن رؤساءهم كانوا غارقين حتىٰ آذانهم ، ومعميةً أبصارهم بسبب الرشوة ، وحُب الجاه والمقام ، تماماً كما وصفهم ذلك الرجل للإمام الحسين (ع) إذ قال :

« أمّا رؤساؤهم ، فقد أُعظمت رشوتهم ، ومُلئت غرائزهم » . وهذا بدوره لُغز عجيب ، وسر من أسرارِ ابن آدم ، إذ ترىٰ المرء يُقاتل ضد عقيدته ، ودينه ، وفطرته ، طمعاً بالدنيا ، وحرصاً على المال والثروة ، وهو أمر لا ينسجم مع غريزة الإيمان لدى بني البشر .

وهناك اليوم في زمننا من تراه يُصلي ، ويصوم عن قناعة ، ويُبدي نوعاً من العلاقة والرغبة بتعاليم القرآن الحكيم ، لكنه في نفس الوقت تراه خادماً للأجانب ، وصانعاً لحوادث أشبه ما تكون بواقعة الحرة في المدينة المنورة ، أو حملات المغول .

كأن هناك انفصاماً قد وقع بين دينهم وعملهم ، أو بعبارة أخرى كأنّ هناك انفصاماً في الشخصية يطبع سلوكهم .

وأمّا أولئك المرؤوسون منهم ، فإنهم مثال التابع الذي تُحرّكه روح التقليد الأعمىٰ ، والتبعية العمياء ، للرؤساء ، وكأن لسان حالهم يقول : ﴿ رَبّنا إنّا أطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبراءَنَا فَأضَلُّونا ﴾[1]

باختصار يمكن القول إنّ : « قُلُوبهم معكَ ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك » نبوءة صدقت في كربلاء ، وهي لغز كبير .

وكما يرى (العقّاد) فإنّ كلا الطرفين كانا يؤمنان بالعقيدة وبالآخرة ، مع

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٧ .

الفرق في أنّ العقيدة والإيمان في أحدهما كانتا تسريان في روح كريمة ونبيلة ، بينما العقيدة والإيمان في الطرف الآخر كانتا تسريان في روحٍ لئيمةٍ ودنيئةٍ .

فكانت الروح الأولى بالضرورة ، روحاً رفيعةً ، وسامية ، وصاحبة مبدأ ، وعقيدة ، بينما ظلّت الثانية في وحل النفعية ، والمصالح المادية .

منشأ الخلاف بين آل علي (ع) وآل معاوية

إنّ الأسباب والدوافع التاريخية التي حكمت الصراع والخصومة بين آل علي (ع) ، وآل معاوية كانت كثيرة .

بالطبع يمكن الاختصار والقول : بأنّ السبب الأصلي إنما يكمن في الحقيقة في اختلاف الخليقة والفطرة . فهما من طينتين مختلفتين ، ولهذا ترى آل علي (ع) يُعرفون بالإيمان ، والخُلق ، والفضيلة ، بينما آل معاوية يشتهرون بحب الدنيا ، والجاه ، والمقام ، والثروة ، والمال .

ولكن مع ذلك ، يمكن القول بأنّ عدداً من الأسباب والدوافع المُحدّدة ، كانت وراء الخصومة الفعلية بين الطرفين ، والتي يمكن عنونتها بالاختلافات العرقية ، وعقلية المطالبة بالثأر ، والتنافس السياسي ، والعداوة الشخصية والاختلاف في وجهات النظر ، ومنطق التفكير والإدراك ، والعواطف المتفاوتة .

بالطبع ينبغي تنزيه آل علي (ع)عن بعض هذه الأمور ، لكن آل معاوية كانت تُحرّكهم كل تلك العوامل مجتمعةً ، إضافةً إلى حس الحسد والغيرة من موقع الكرامة ، التي امتاز بها آل علي (ع) ، والشرف الشعبي الذي تمتعوا به أمام أعين الجميع ، الأمر الذي جعل أعداءهم يحسدونهم عليه : ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى ما آتاهُم الله مِنْ فَضْلِهِ** ﴾[1] .

والعقّاد يصف موقعية الطرفين في كتابه حول واقعة الطف فيقول :

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٤ .

« وكان هذا التنافس بينهما (الحسين(ع) ويزيد) يَرجعُ إلى كل سببٍ يوجبُ النفرة بين رجلين من العصبية إلى التُراث الموروث ، إلى السياسة ، إلى العاطفة الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة ، والنشأة ، والتفكير » .

نعم فعنصر آل علي إنْ من ناحية أصل الفطرة ، أو طبيعة النشأة والتربية ، أو الحُجور التي ترعرع فيها أبناؤهم ، يختلف تماماً عن عنصر آل معاوية ، وبني أمية .

ثم إنّ قبيلتي أمية وهاشم ، كانتا تتصارعان على الزعامة منذ القِدَم ، وكانت قبيلة أمُية في حينها ، قد خَسِرت الرهان وانتقلت إلى الشام .

وعندما ظهر الإسلام ، فإنّ أبا سفيان الذي كان يُمثل العنصر الأدهىٰ في رجالات قريش، ظل يُقاتل بكل حقد النبي محمداً(ص)، ويصدُه حتى فتح مكة، حيث قرّر في حينها ، بناءً على تكتيك العقل ، وحكمة الدهاء والفطنة ، الرضوخ مؤقتاً للسلطة الجديدة ، بانتظار الفرصة المناسبة .

وأبو لهب الذي وقف بشدة بوجه النبي (ص) هو في الواقع صهر أبي سفيان[1] .

ورد أنّ أبا سفيان لمح يوماً النبي محمداً(ص) وهو يمشي بعد فتح مكة ، فقال بينه وبين نفسه : « ليت شعري بأيّ شيءٍ غلبني ؟! » فما كان من الرسول (ص) الذي سمع قوله هذا ، أو قرأ مكنونه ، إلا أن اقترب منه وبعد أن ربت على كتفه قال له : « بالله غلبتُك يا أبا سفيان ! » .

عداء أبي سفيان للإسلام

في غزوة (حُنين) ما أن رأى أبو سفيان هزيمة المسلمين وانكسارهم ، حتى فَرِح وقال : « ما أراهُم يقفون دون البحر ! » .

وفي حرب الشام حينما كان الروميون يتقدمون كان يقول : « إيه بني

(١) راجع بهذا الخصوص قضية أبي سفيان والعباس ، وفتح مكة .

الأصفر ! » وعندما كانوا يتراجعون كان يقول : « ويلٌ لبني الأصفر ! » ، وهذا منتهى الكفر والحقد على أن يحب أبو سفيان نصرة الشيطان !

صحيح أنّ النبي (ص) الذي كان يُريد تأليف القلوب ، أقدم على تزويج ابنته ، وجعل بيته آمناً ، واعتبره على رأس جماعة المؤلفة قلوبهم (لكنه لم يولّه ، ولم يولّ أولاده على الحكم أبداً . بل اكتفى بجعلهم من المؤلفة قلوبهم ، وهذا أمرٌ يختلف عن تسليم السلطة لهم) .

ومع ذلك فإنّ المسلمين كانوا يتجنبون مجالستهم ، ويحذرونهم ما أمكن ، حتىٰ أنّ أبا سفيان تعِب من هذه المعاملة فطلب يوماً من رسول الله (ص) أن يجعل ابنه معاوية كاتباً لديه (وليس كاتباً للوحي) .

وفي جملة ما يذكره (العقّاد) في كتبه أنه ـ أي أبو سفيان ـ أتى بباب علي (ع) والعباس ، بعد رحلة الرسول الأكرم (ص) ، فردّ عليه علي (ع) : « لا والله لا أُريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً ، ولولا أنّنا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خلّيناهُ ، وإيّاه » . [وهذه الجملة ـ العبارة ـ بغض النظر عن كل شيء تتنافىٰ مع عبارته عليه السلام ، التي وردت في (نهج البلاغة) في باب هذه القضية بالذات حيث قال (ع) : شُقّوا أمواج الفِتن . . .] .

أو ما قاله معاوية لأبيه وقد ورد كالتالي : « . . . ثم ابنُهُ قائلاً يا أبا سفيان ! إنّ المؤمنين قوم نَصَحَة بعضُهُم لبعضٍ ، وإنّ المنافقين قومٌ غَشَشَةٌ بعضُهُم لبعضٍ ، تتخاذلون وإنْ قُربت ديارُهم ، وأبدانُهُم » .

نعم فهو ذاك أبو سفيان الذي قالها صراحةً في اليوم الأول لتسلُّم عثمان الخلافة : « يا بني أُمية ! تلقّفوها تلقُّف الكرة . . . » .

مقدّمات ولاية عهد يزيد

يقول (العقّاد) في كتابه « أبو الشهداء » في الصفحات (٢٩ ـ ٣١) .

إنّ معاوية كان يسعىٰ لتحويل الخلافة إلى مُلك أموي ، وكان يعمل لإيجاد الأرضية اللازمة ، لتولية ابنه يزيد من بعده .

ولمّا رأى نفسه ربما سيموت قبل أن يُحقق هذه الأمنية ، بسبب كبر سنه ، فقد كتب إلى مروان بن الحكم ، ليطلب البيعة لابنه من الناس .

لكن مروان الذي كان يطمع بالخلافة لنفسه ، أبى ذلك ، وصار يُحرِّض الآخرين ضد يزيد ، فما كان من معاوية إلاّ أن عزل مروان ، وعيّن بدلاً عنه ، سعيد بن العاص ، ثم كتب إليه بهذا الخصوص .

بالطبع لم يُلب أحدٌ طلب معاوية ، وكان معاوية قد حمّل سعيد بن العاص هذا رسائل إلى كل من الإمام الحسين (ع) ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، وطلب إليه أن يحمل رسائل جوابية منهم بهذا الخصوص . (وكما يبدو فما من أحدٍ منهم ردّ على معاوية) .

وكتب يومها إلى سعد بن العاص يقول :

« ولتشد عزيمتك ، وتُحسن نيّتك ، وعليكَ بالرفق ، وانظر حُسيناً خاصةً ، فلا ينالُه منكَ مكروه ، فإنّ له قرابةً وحقاً عظيماً ، لا ينكره مُسلم ولا مُسلمة . . . وهو ليث عرين ، ولستُ آمنك إنْ ساورته ألاّ تقوىٰ عليه » .

وقد عانىٰ كثيراً سعيد بن العاص من أجل إقناع الناس ، ولا سيما أولئك النفر الذين كتب إليهم معاوية بالذات لكنه لم يوفق .

وهكذا توجه معاويـة بنفسه إلى المدينة عازماً إليها من مكة ، ولما وصلها دعا أولئك النفر من وجهائها ، وخاطبهم بُلطف قائلاً : إنني أرغبُ أن تُبايعوا ليزيد بالخلافة ، وهو أخوكم وابن عمكم .

وبالطبع فإنّ صلاحيات العزل والنصب ، ستبقىٰ معكم ، وكذلك أمر الجباية ، وتقسيم المال ، لكن اسم الخلافة هو الذي أُريده منكم ليزيد ! .

فردّ عليه ابن الزبير يومها قائلاً : من الأفضل لك أن تفعل كما فعل النبي حيث لم يُعيّن أحداً ، أو تفعل ما فعله أبو بكر عندما انتخب شخصاً للخلافة لم يكن من ولدِه أو ولد أبيه ، أو أن تقوم بما قام به عمر إذْ تركها للشورىٰ .

فتضايق معاوية من كلامه وقال له :

وهل عندك شيء آخر تقوله ؟ .

فقال ابن الزبير : كلّا .

فسأل معاوية الآخرين قائلاً : وأنتم ما عندكم ؟

فردّ عليه جميعهم لا شيء آخر .

فقال : عجباً لأمركم ! إنكم تستغلون حلمي ، فأحياناً تراني أصعد المنبر ، فأخطب بالناس ، وإذ ينهض أحدكم فيُكذّبني ، وأنا أسكت عليه . « والله لئن رَدّ عليّ أحدكم في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها ، حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينّ رجل إلّا على نفسه » .

ثم أمر رئيس شرطته أن يضع رقيبين من الحرس على رأس كل واحدٍ منهم ، وأمرهم بقطع رأس كل واحد منهم يتجرأ من بعد ذلك أن يردّ ، أو يفند قولاً ، وهو جالس تحت منبر معاوية[1] .

بعد هذه المقدمة صعد معاوية إلى المنبر ، وبعد أن حمد الله ! قال : « هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين ، وخيارهم ، لا يُبرم أمر دونهم ، ولا يُقضى إلّا على مشورتهم ، وإنّهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوه على اسم الله فبايع الناس »[2] .

---

(١) أبو الشهداء للعقّاد ص ٣٢ .

(٢) هذه البيعة وهذا الانتخاب أشبه ما تكون بالانتخابات الحرة في بلادنا(*) . فمعاوية هنا كان يُريد تنصيب يزيد وليّاً للعهد ، وخليفةً من بعده ، كما كان يُريد في نفس الوقت أنْ يُعطي هذا التنصيب مشروعية شعبية ، من خلال إدخال عنصر انتخاب الناس له . ولم يكن يومها يوجد قانون يقضي بأنَ من ينصّب ولياً للعهد ، في زمن الخليفة يصبح خليفةً بعد موت الأول ـ عدا حالة الاستثناء التي حصلت في قضية عمر ـ ولهذا كان معاوية مضطراً لاستخدام رأي الناس في المعادلة ، وأخذ البيعة منهم . والبيعة في ذلك اليوم تشبه ممارسة حق الانتخاب في العصر الراهن عندنا . ومعاوية على أية حال ، كان يُريد فرض الموضوع على الناس فرضاً ، تماماً كما هو الوضع اليوم في بلادنا حيث القانون حسب الثورة الدستورية التي حصلت في بلادنا يقول بالانتخابات الحرة النيابية ، لكن الناخب تُفرض عليه أجواء التهديد ، والرُعب ، التي تجعله مضطراً لانتخاب من تريده الحكومة . ولمّا كانت الحالة العميقة اليوم مدنية وحضارية ! أكثر من الماضي ، والمسألة =

ولمّا كان معاوية يعرف أنّ مثل هذه البيعة لا أساس لها فإنه أوصى يزيد بأخذ البيعة من هؤلاء الرهط بعد موته مجدداً ـ بالصورة التي ورد فيها في كتاب « نفس المهموم » ـ .

لكن يزيد الشاب المغرور ، والذي يفتقد خبرة أبيه الداهية ، وكذلك المستشارين الدُهاة من أمثال عمرو بن العاص ، والمُغيرة ، وزياد ، قام بتنفيذ وصية أبيه ، لكن بخشونة خاصة ، وقساوة غير معهودة .

فكتب إلى والي المدينة في عهده الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، يقول له فيها : « خُذ حُسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذاً شديداً » .

وما كان من الوليد إلاّ أن بعث خلف مروان بن الحكم للتشاور وإيّاه ، في كيفية تنفيذ أمر يزيد إلى آخر القصة المعروفة .

استغلال الأمويين لفكرة إلغاء العصبية في الإسلام

وهو الموضوع الذي يُشير إليه (العقّاد) في كتابه بقوله بأنّه من عجائب النفس البشرية ، والغريزة الآدمية حقاً ، أنْ يقوم الأمويون بعد ظهور الإسلام بشن حرب شعواء ، ضد بني هاشم ، وذلك من أجل الدفاع عن مصالح بني أمية ، لكن هذه المرة تحت لواء محاربة العصبية ، والقضاء على التفرقة القبلية ، وضرب الامتيازات العرقية وهي المقولات التي جاء بها الدين الجديد .

الحرب الإعلامية لمعاوية ضد العلويين

وكما يقول (العقّاد) في كتابه أيضاً (ص ٣٧) فإنّ معاوية كان يعرف بأنّه

= فيها صندوق انتخابات ، وأوراق انتخابية ، فإنّ الفرض والتزوير يتم بسرقة الصندوق الانتخابي ـ أي أن الروحية هي هي نفسها ، لكن أدوات الفرض والقمع تغيرت فقط ـ وتُبدَّل النتائج الانتخابية ، كما تشاء الحكومة .

(*) يرجى الملاحظة هنا أن هذه الحواشي قد أُعدت في زمن النظام البائد .

غالب لعلي (ع) في ساحة المال ، والسلاح ، لكنه مغلوب أمامه في الشهرة ، والسمعة ، والعواطف القلبية .

وحتىٰ يتمكن من جذب آل علي ، وتحييدهم قدر الإمكان، لم يتوانَ عن تقديم الهدايا ، والتحف ، والهبات ، إليهم كما لم يبخل عليهم بمال أو عطاء .

كل ذلك بهدف إزالة عائق إحساسات الناس التي كانت تصبُّ لصالح علي ، وحتىٰ يُخرج حكومة علي (ع) من قلوب الناس استعان بالإضافة إلى ذلك بالحرب الإعلامية ، ونوع من الحرب الباردة ضد علي (ع) ، فأمر بسبه ، ولعنه على المنابر وبعد الصلوات .

لكن هذا الجانب أساء إلى معاوية أكثر مما أفاده ، وساهم في انقلاب الرأي ضده ، ولم يكتف معاوية بذلك ، بل عمل على تزوير الحديث على لسان رسول الله (ص) ، وجعل ذلك جزءاً من حربه الدعائية ضد علي (ع) .

قصة زينب بنت اسحق

يقول العقّاد أيضاً بأنه إذا ما صدقت قصة زينب بنت إسحق فعلاً وهي القصة التي ينقلها كثير من المؤرخين ، فإن سبباً آخر يُضاف إلى أسباب الخلاف بين الحسين (ع) وبين يزيد .

التربية الهاشمية ، والتربية الأموية

يقول العقّاد في كتابه (ص ٤٩) : « كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة ، أو الرئاسة السياسية ، وهما ما هما في الجاهلية من الربا ، والمماكسة ، والغبن ، والتطفيف ، والتزييف ، فلا عجب أنْ يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة ، وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الإيمان ، ووسائل الحيلة على النجاح » .

ثم يضيف بعد ذلك بقوله :

إنّ الرئاسة الدينية عند بني هاشم لم تكن تشبه الرئاسة الكهنوتية عند المسيحيين الذين لا إيمان لهم بما يعملون به ، بل مجرّد وظيفة كنسية . كلّا بل كان بنو هاشم أكثر الناس احتراماً وتقديراً للكعبة ، وأكثرهم إيماناً بها وبالله سبحانه وتعالى ، وما قصة ذبح عبد المطلب لابنه إلّا الدليل الواضح على ما نقول .

ثم يضيف قائلاً : بأنّ هذه الأخلاق الهاشمية الرفيعة ازدادت رفعةً وسمواً بعد نبوة محمد (ص) ، واكتملت مع الإسلام ، حتىٰ صار آل علي (ع) نموذجاً ومثالاً أعلى للخلق الرفيع إلى قرون متمادية ، بحيث إنك ما إن تطالع شخصية من شخصيات آل علي (ع) في التاريخ ، إلّا وتجد نفسك أمام صورة مصغّرة لعلي (ع) نفسه . ﴿ ذُرية بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ﴾ .

وهو ما استند إليه أبو عبد الله الحسين (ع) في عاشوراء بقوله : « حُجور طابت وطَهُرَت » . وذلك عند حديثه عن علي الأكبر (ع) ، ومن ثم يتطرق العقّاد إلى قصة يحيىٰ بن عمر العلوي فيذكرها كنموذج على ما يقول[1] .

الخُلُق الهاشمي والخُلُق الأموي

يقول (العقاد) في الصفحة (٥٦) من كتابه المذكور ، بعد أن يذكر بني هاشم ويُعدّد شمائلهم وفضائلهم :

ولم يكن لبني أُمية في المقابل نصيبٌ يذكر من تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ، والشمائل الدينية ، كما أنه لم يخرج من بين قوم بني أُمية نبي ، كما حصل لبني هاشم ، حتىٰ يتمكنوا من الافتخار والمباهاة بمناقبه ، كما فعل أولاد بني هاشم .

أو على الأقل أن يرفع من مقامهم ، ويدفعهم شيئاً فشيئاً باتجاه اكتساب مزيدٍ من المزايا والشمائل ، التي كان يتمتع بها بنو هاشم قبل النبوة .

ولذلك ترى أنّ هيمنة الخلق والسلوك النفعي كان مسيطراً عليهم ، سواء

(١) العقّاد أبو الشهداء ص ٥٢ .

قبل ظهور النبوة أو بعدها ، وذلك بسبب بحثهم وسعيهم الدائم للحصول على المكاسب التجارية ، والمطامع السياسية .

من هنا ظهر في بني هاشم من الوجهاء المعروفين بالخلق الشريف ، والأخلاق الفاضلة ، . بينما تميز بنو أمية في ظهور رموزٍ عُرفت بأخلاق السوء والرذيلة .

وانتشرت بين أولئك (بني هاشم) صفات المقاومة ، والصمود ، والصبر ، والمثابرة ، وحدة الذكاء ، والخلق الحسن .

بينما شاعت بين نقيضهم (بنو أمية) صفات الحيلة ، والخداع ، والنفاق ، والبحث عن مناعم الحياة .

ويمضي العقّاد في الحديث حتىٰ يصل إلى المقارنة بين الحُسين (ع) ويزيد فيقول : إنّ الحسين (ع) ويزيد كانا مثالاً بارزاً لقومين مع فارق أنّ الحسين (ع) كان يحمل كل فضائل بني هاشم ، بينما كان يزيد يفتقد حتىٰ إلى أية صفة حسنة في بني أمية .

أخلاق معاوية لم تكن من الفضيلة على شيء

وهنا لا بد من توضيح هذه المسألة ،وهي : إنّ الحلم ، والصبر ، سواء في ميزان الشرع ، أم من زاوية العقل ، إنما يتم اعتبارهما من الفضائل ، عندما لا يكونان أداة ، أو وسيلة من وسائل خوض المعترك الاجتماعي .

ويبرزان باعتبارهما نتاجاً طبيعياً على طريق النزوع نحو الفضيلة ، والكمال ، والشرف الإنساني .

وما الصبر والحلم الذي يُبديه التاجر ، أو السياسي ، بهدف الوصول إلى تحقيق مآربه الدنيوية ، إلاّ وسيلة من وسائل العيش ، ولا تملك من قيمة ، إلاّ بحدود قيمتها كوسيلة وأداة .

ولا يمكن حسابها في إطار الكمال ، والرفعة ، والسمو الإنساني ، وقيمة

الذات البشرية ، والمقام الإنساني الرفيع ، لخليفة الله في الأرض .

وهذه نقطة مهمة للغاية ، وعليه فإننا عندما نشير إلى وجود بعض الصفات الجيدة في بني أمية ، فالمقصود هو الصفات المادية الجيدة ، وهي أشبه ما تكون بالأخلاق اليومية ، والسياسية ، التي يعيشها رجال السياسة ، في عصرنا الراهن ، وهي نفسها الأخلاق (الماكيافيلية)[1] المعروفة ، بل وحتىٰ أخلاق « ديل كارنجي » يمكن وضعها في نفس الإطار .

وهذه الأخلاق ليست وليدة الالتزام بالمبادىء الربّانية الرفيعة ، بل وليدة الحاجة التجارية ، والسياسية ، والضرورة الحياتية .

في مجلة (دليل العلماء ، الجزء الأول) ، ورد تحت عنوان «حيص بيص» (شهاب الدين ، أبو الفوارس ، سعد بن محمد ، بن سعد ، بن صيفي ، المعروف بابن الصيفي ، والذي يعتبر من فقهاء الشافعية) نقلاً عن (ابن خلكان) : أنّ نصر الله المحلي (أو المُجلي) قال :

رأيت علي بن أبي طالب في المنام وقلتُ له : أنتم فتحتم مكة ، وقلتم من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، ثم رأينا كيف فعل آل أبي سفيان ، ما فعلوه بالحسين (ع) ؟

فردّ عليّ قائلاً : أو لم تسمع بأشعار ابن الصيفي ؟

قلت : لا .

قال : اسمعها منه .

وما أن استيقظت حتىٰ نهضت على الفور وتوجهت إلى منزل (حيص بيص) ، فرويت له منامي هذا ، وإذا بصوته يلعلعُ باكياً وهو يقول لي بأنه قد نظم هذه الأبيات ليلة أمس ، ويُقسم أنه لم يقرأها على أحدٍ من قبل ثم قرأ لي :

---

(١) نسبة إلى ميكيافيلي الإيطالي صاحب كتاب (الأمير) ، وهو كتاب في فن السياسة الكاذبة ، للوصول إلى التسلط على الشعب .

ملكنـا فكـان العفـو منّا سجيـةً ، فلمّا ملكتم ، سـال بـالـدم أبـطحُ
وحـلّلتم قـتـل الأسـارى فـطالمـا غدونا عـلى الأسرى ، فنعفو ونصفحُ
فحسبُكم هـذا التـفـاوتُ بيـننـا ، وكُـلُّ إنـاءٍ بـالـذي فيـه ينضـحُ

النسب الشريف للإمام الحسين (ع) وأثره في واقعة عاشوراء

يقـول العقّاد : إنّ مـوضـوع نسب الإمـام الحسـين ، وحب النبي الأكـرم محمد (ص) الزائد للوصف له ، ينبغي أن لا يغيب عن بالنا ، ونحن نُحلّل قضية كربلاء .

إننا من خلال هـذا المقياس ، نستـطيع أن نفهم تمـامـاً ، كيف كـان جنود يزيد عبارة عن جمهور من العامة ، يفتقد إلى المثل العُليا ، ومستغرق في النفعيـة ، ومستعدّ للقيام بكل تلك الأعمال الشريرة ، على الرغم مما كان يحمله من تقديـر ، واحترام قلبي للإمام الحسين (ع) .

وهذه السمة الخصوصية كانت كافيـة لأن تجعلهم في عداد النـاس النفعيين واللاأخلاقيين .

وهناك قصص وروايات كثيرة يمكن الاستدلال من خـلالها عـلى محبة النبي محمـد (ص) للإمـام الحسين (ع) ، كـما يمكن العودة إلى استـدلال الحسين نفسـه بمحبة النبي (ص) له وهو ما ورد في أحاديث مسندة .

بلاغة الإمام الحسين (ع) في حديثه لأبي ذر رضي الله تعالى عنه

يذكر (العقّاد) في باب ذكر فصاحـة الإمام الحسـين (ع) ، في كتابـه (أبو الشهداء ص ٦٤) أنه قال (ع) مخاطباً أبا ذر : « يا عمّاه إنّ الله قادرٌ أن يُغيّر مـا قد تـرى والله كُلّ يـوم ٍ في شأن ، وقـد منعك القـوم دُنياهم ، ومنعتهم دينـك ، وما أغنـاك عمّا منعـوك ! وما أحـوجهم إلى مـا منعتهم، فـاسـأل الله الصـبرَ والنّصر ،

واستعذ به من الجشع والجزع ، فإنّ الصبر من الدين والكرم ، وإنّ الجشع لا يُقدّم رزقاً ، والجزع لا يؤخر أجلاً » .

ثم يضيف العقّاد قائلاً :

« وكان يومئذٍ في نحو الثلاثين من عمره ، فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملةً منذ أدرك الدُنيا إلى أن فارقها في مصرع كربلاء » .

هذا وهناك من ينسب هذه الأشعار إلى أبي عبد الله عليه السلام وهي :

أغن عن المخلوق بالخالق تَغْنَ عن الكاذب بالصادق
واسترزق الرحمن من فضله ، فليس غير الله من رازقِ
من ظنّ أنّ الناس يُغنونه فليس بالرحمن بالواثقِ



نشأة يزيد ، وصفاته الروحية ، وخلفيته التربوية ، والأخلاقية[1]

أم يزيد هي بنت مجدل الكلبية ، التي لم تحتمل حياة المدينة مع معاوية ، بل كرهتها وقالت قولتها الشهيرة بشأنها :

لـلبسُ عبـاءةٍ وتـقَـرُّ عيـني ... أحبّ إليّ من لُبس الشُفـوف
وبيتٌ تخفق الأريـاحُ فيـه ... أحـبُّ إلي مـن قصر منيـف
وخِـرقٌ من بـني عمي فقيـرٌ ... أحـبُّ إلي من عـلجٍ عنيـف

كان هذا الموقف هو الذي دفع بمعاوية إلى أن يُرسل زوجته مع ابنها يزيد إلى البادية ليعيشا هناك ، وهكذا يكون يـزيد قـد كبر ونمـا في الباديـة ، وبالتـالي فإنـه يكون قد تخلّق بأخلاق الصحراء ، فصار لسانه فصيحاً ، وأصبح صـاحب ديوان شعري خاصٍ به .

وابن خلكان ، كما يذكر المؤرخـون ، يُعتبر من المـريدين لفصـاحة يـزيد ، وكان يزيد بالطبع صاحب هوايات كثيرة من أهمهـا هوايـة الصيد التي كـان متعلقاً فيها أشد التعلق إلى جـانب هوايـة ركوب الخيـل ، وتربيـة الحيوانـات ، ولا سيما تربية الكلاب التي كان مولعاً بـها أشدّ الولع .

---

(١) الإمام الحسين (ع) قال عن يزيد فور تسلُّمه السلطة : « وعلى الإسلام السلام ، إذ قـد بليت الأمة براعٍ مثل يزيد » . والآن لنر من هو يزيد هذا الذي قال عنه الحسين (ع) مثل ذلك الكلام .

وهـذه الصفات إذا مـا وجدت في شخصيـة الـرجـل القـوي ، والمقتـدر ، وصاحب الملكات الفاضلة ، فإنها تزيده كمالاً ورُقياً ، لكنها إذا ما ظهرت في أبناء الأمـراء ، والنبلاء والمـترفين ، وأولاد العشـائر ، فـإنها تكـون سببـاً لبـطالتهـم ، واستغراقهم في الترف ، والتنعم والإسراف .

ونتيجةً للخلق البدوي الفصيح الذي كان يتمتع به يزيد ، فإنـه كان يميـل ميلاً شديداً ، لمعاشرة الشعراء ، ومنادمة أهل اللغو ، والأباطيـل ، ممن كان ينهى الإسلام عن معاشرتهم : (لأن يُملأ بطن الرّجل قيحاً خيرٌ من أنْ يُملأ شعراً) .

وهـذا الغـرق ، والاستغـراق الشـديـد ، في الشعـر والخيـال فيـه أضرار شديدة ، والشعـر بحد ذاتـه مظهـر من مظاهـر الجهال ، ويمكنـه أن يحمل بعض الآثـار الاجتماعيـة المفيدة ، لكنـه في نفس الوقت قـد يحمـل معـه بعض النتـائـج السلبية للمجتمع .

وهنـاك بعض القصص التي تُشـير إلى ذلـك ، فكم من قصـور ، وبـلاط للأمراء ، اشتهرت بالفسـاد ، بسبب شيوع الشعـر ، واللغو ، والخـلاعة ، بـين ثناياها !

والتاريخ الأموي وحـده، فيه الكثير من الأمثلة التي تؤكد تقرُّب عدد كبـير من المتملقين ، إلى البلاط الأموي ، عن طريق الشعر . (وقصة الـوليد الأمـوي وابن عائشة المـذكورة في مؤلف (مـدرسة التشيـع ص ٧٥) مثال بـارز على ذلـك الموضوع) .

على أية حال يمكن القول باختصار: إنّ الشعراء ، وأهل اللغو والأباطيل ، على العموم ، كانت لديهم حظوة خاصة في بلاط يزيد ، ويـزيد بـالذات كـان هو الآخر مولعـاً بالشعـر ونظمـه ، وله في بـاب وصف الخمر ، وسـائر اللغـويات ، أبيات من الشعر نذكر هنا بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر .

فمن شعره :

شميسة كرمٍ ، برجها قعردنّها ، ومشرقها الساقي ، ومغربها فمي

فإن حُرّمت يوماً على دين أحمدٍ ، فخذها على دين المسيح بن مريم .

ومن شعره أيضاً :

دعِ المساجد للعبّاد تسكنها ، واجلس على دكة الخمّار ، واسقينا
إنّ الذي شربا في سكره طَرَبٌ وللمصلين لا دنيا ولا دينا
ما قال ربُّك ويل للألى سكروا لكنه قال : « ويلٌ للمصلينا . .

وله أيضاً :

لما بدت تلك الرؤوس ، وأشرقت تلك الشموس ، على رُبى جيرون
صاح الغراب، فقلتُ صح أو لا تصح، فلقد قضيت من النبي ديوني

إلى جانب تلك الأشعار التي ألحقت بأشعار ابن الزبعري ، وهي كثيرة .

إنّ ولع يزيد الشديد بالصيد ، واللهو ، واللعب ، كان يمنعه من متابعة أمور العباد ، أو القيام بمهما السياسة ، وإدارة شؤون البلاد ، وبالنتيجة كان يضطر لإيكال هذه الشؤون إلى غيره من الحواشي .

وأمّا تعلّقه الشديد بتربية الحيوانات ، واصطحابه لها في كل مكان وزمان ، فقد أظهرته بمظهر يشمئز له الخلق الإنساني الرفيع ، ويسخر منه العقلاء . فهو لم يكتف بتربية الأحصنة ، وركوب الخيل (والذي هو أمرٌ ممدوح في الإسلام) ، بل إنه كان قد تمادىٰ كثيراً في هدا المجال، حتى صار نديمه الدائم قرد كان قد ربّاه هو شخصياً ، وصار يصطحبه في كل الجلسات الرسمية ، والعامة ، في بلاطه ، وصار يُلقب هذا القرد وغيره من القردة بألقاب اعتادت العرب أن تُلقِّب الحيوانات بها ، ويستمتع في مثل هذه الأمور ، وينظم الشعر حولها كقوله :

من ذاكَ أمُّ عِريطٍ للعقرب وهكذا ثُعالةُ للثعلبِ

وقد تُعطى بعض الألقاب ، التي عادةً ما تُعطىٰ للإنسان ، إلى بعض الحيوانات المرافقة .

وهكذا فعل يزيد عندما كنّى قرده المفضَّل بأبي قيس ، وكان يُلبس هذا الحيوان لباس الحرير المُرصّع بالجواهر ، وكل أنواع الحلى ، والذهب ، ويُحضره على الدوام في مجلس شرابه ، ويُجلسه إلى جانبه بحضور الأعداد الغفيرة من

النـدماء ، والأمـراء ، ورؤوس الحكم ، الذين لم يكـونوا يخجلون من أنفسهم ، وهُم يُعاشرون القردة في البلاط ! !

وكان يزيد فوق ذلك يملك حمارةً تعزُ عليه ، يستخـدمها لـركوب قـردته ، وأحيـاناً كـان يفرض مشـاركتها في سبـاق الخيل ، فتشـترك تلك الحمارة، ويكـون الفارس قرده المفضَّل أبو قيس .

وقد كان يرغب كثيراً في أن تكون حمارته تلك هي الرابحـة ، أو الفائـزة في المسابقات ، التي كـانت تجزي (وربمـا كان بعض الفـرسان يـدفعون بـالحمارة إلى الأمام حتىٰ ينالوا رضىٰ سيدهم من وراء ذلك) بإشراف البلاط .

وهناك بعض الأبيات الشعـرية التي تُنسب إلى يـزيد في هـذا المجال (لكن بعضهم كان قد نسبها إلى شخص آخر كما جاء في (تتمـة المنتهىٰ) وعلى أيـة حال يُرجىٰ الرجوع إلى سيرة يزيد في هذا الكتاب) وهذان البيتان من الشعر يُبيّنان مـا ذكرناه :

تَمَسَّك أبا قيس بفضـلِ عِنـانها ، فليس عليهـا إنْ سقـطت ضمـانُ
ألَا من رأى القِرد الذي سبقت بـه جـيـاد أمـير المـؤمـنـين أتـانُ

كانت هذه نبذة مختصرة عن أخلاق يزيد الـذي أراد معاويـة أن يُسلّطه على رقاب المسلمين .

إنّ وضـع حكومـة يزيـد لم يكن بالصـورة التي يمكن تحملها ، أو عقـد أيـة معاهدة صلح ، أو تفاهم ، بأي شكل من الأشكال معها .

صحيـح أنّ الإمام المجتبىٰ الحسن (ع) كـان قد عقـد معـاهـدة صلح مـع معاوية ، إلّا أنّ معاوية كان رجلاً ذا عقل وخُلق ، يستطيـع إلى حد مـا المحافـظة على الظواهر العامة ،عدا الأمور التي ترتبط بملكه وسياسته مباشرةً .

بينـما كان وضـع يزيـد في المقابـل ، يُشكّـل نمـوذجـاً للتـظاهـر بـالفسق والفجور ، والرذيلة ، والدناءة والانفلات .

ولو لم تقم نهضة الإمـام الحسين (ع) ، بـاسم الإسلام ، والقـرآن ، وتُنهي

حكم يزيد بعد أقل من أربع سنوات على تربعه على العرش ، فإنّ خطر قيام تمردات عديدة ضد يزيد ، تحت شعارات ، ورايات غير إسلامية ، كان أمراً محتملاً ، جداً ، الأمر الذي كان سيُهدد مصير العالم الإسلامي في الصميم .

نعم يكفي أن تتصور أنّ يزيد هذا قد مات كما تنقل بعض الروايات أثناء اشتراكه في مسابقة مع أحد القرود ـ وربما أبي قيس قرده المفضّل ـ .

إنّ قيام أهل المدينة ، وثورتهم ضد يزيد ، لم يكن سببهُ ثورة الحسين فقط ، بل إنّ الحالة المتردية التي كان يعيشها يزيد في بلاطه ، كانت سبباً آخر لذلك القيام .

فعبد الله بن حنظلة عندما يتوجه إلى الشام ، ومعه عدد من أهل المدينة ، كممثلين لأهلها ، تراه يرى العجب هناك بحيث إنه لمّا سُئل عمّا رآه هناك قال :

« والله ما خرجنا من عند يزيد ، حتى خِفنا أن نُرمىٰ بالحجارة من السّماء ! إنّ رجلاً ينكحُ الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، ويشرب الخمرة ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً !» .

البعض الآخر يقول : إنّ يزيد قد مات بداء « ذات الجنب » ، وهو في سن السابعة والثلاثين[1] ، ويبدو أنّ إفراطه في شرب الخمر ، والغرق في الملذات ، قد تكون سبباً وراء تلف كبده ، كما ويقال إنّ يزيد كان قد أُصيب بمرض الطاعون ، وهو لا يزال طفلاً في البادية .

يقول العقّاد : إنّ يزيد فتىً وسيم ، طويل القامة ، يُحبّ السباق ، والركض ، والمطاردة كثيراً ، لكن يبدو أن تلك الصفات كانت نوعاً من الهواية ، واللهو ، واللعب لديه ، ولم يكن لها لون جدّي ، أو تعبير عن شجاعة ، ورجولة ، فيزيد لم يكن شخصية تحمل مواصفات الشجاعة ، والجسارة ، والبطولة العربية ، التي كان يتمتع بها بعض أبناء عشيرته ، من أُمه مثل عتبة ، وعمه الوليد ، وشيبة ، بل كان رجلاً مهملاً ، وصاحب لهو ولعب ، وشخصية مبتذلة للغاية .

---

(١) العقّاد ص ٧٨ .

ولهذا تراه يتثاقل مثلاً عن الحرب ، وهو ما حصل مرة عندما أرسل معاوية جيش سفيان بن عوف لفتح القسطنطينية ، أيام حكمه ، فما كان من يزيد إلاّ أن تمارض ، وتثاقل حتىٰ تحرّك الجند ، وانطلقوا .

ومن المعروف أنّه كان قد أُشيع فيها بعد أنّ الجيش قد أصابه المرض والقحط ، فلمّا وصل خبر ذلك إلى يزيد ، الذي كان يعيش حالة الابتذال التامة ، أنشد يقول :

ما أن أُبالي بما لاقت جموعهمُ ... بالفرقدونة من حُمّىً ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مرّان عندي أُمُّ كلثوم

وما أن سمع معاوية بذلك ، حتى أقسم على أنْ يُلحِق يزيد بالجيش ، لرفع عار الشماتة عنه .

وهنا يتضح لنا أمران :

أ ـ إنّ صعود يزيد إلى السلطة ، وهو الرجل الذي لم يكن يملك أية كفاءة ، لا في مجال الخلافة ، ولا في مجال الملك والسياسة ، إنما جاء في سياق حصول الفساد التدريجي في أخلاق المسلمين ، في ذلك العهد . وإذا كان معاوية غير حائز على كفاءة الخلافة ، وجدارتها ، لكنه كان يملك كفاءة السياسة ، والمُلك .

ب ـ هناك فرق ظاهري تميّز به عمر عن معاوية ، وهو أن عمر لم يكن على استعداد لتنصيب ابنه عبد الله للخلافة ، ولا أن يكون عضواً في مجلس الشورى ، الذي اقترحه ، إذ قال يومها : إنّ عبد الله عاجز عن إدارة شؤون منزله .

بينما عمل معاوية على تنصيب ابنه يزيد بالرغم من معرفته بعدم جدارته وكفاءته لذلك .

قُلوبُهُم معك وسيوفُهم عليك » !

لقد قال الفرزدق للإمام : « قلوبُ الناس معك ، وسيوفهم مع بني أُمية ،

والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء »[1] وأمّا مجمع بن عبيد العامري[2] فقد قال :

« أمّا أشراف الناس ، فقد أُعظمت رشوتهم ، ومُلئت غرائزهم ، فهم إِلْبٌ واحد عليك ، وأمّا سائر الناس بعدهم ، فإنّ قلوبهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورةً عليك » . وهو ما ورد عن بشر بن غالب في ـ ذات العرق ـ نقلاً عن (نفس المهموم ص : ٩٣) .

والفرزدق هنا إنما يُبينّ ويُشير إلى نظر العامة الذين كانوا محكومين من قبل رؤسائهم وكبرائهم ، ولا يملكون إرادة من أنفسهم ، في حين حاول مجمع بن عبيد أنْ يفصل بين رأي الأشراف ، غير المؤمنين ، ورأي العامة من المؤمنين الضعفاء ، التابعين ، والمُقلّدين ، في سلوكهم ، لسلوك الأشراف ، والذين هم مأواهم النار أيضاً مثل أسيادهم الأشراف ، حسب المنطق القرآني الشريف .

وفي الحقيقة ، فإنّ معنىٰ جملة الفرزدق هي أنّ قلوب العامة معك ، لكن قلوبهم هذه ليس بوسعها أن تفعل شيئاً لك ، وصحيح أنّ الحاكم معزول لكن بطون هؤلاء مع أعدائِك ، وهم عبيد بطونهم ، وتراهم على استعداد لمحاربة قلوبهم تنفيذاً لأوامر بطونهم ؟ وإن كان مثل هذا الأمر جارحاً لضمائرهم .

وفي الإجمال يمكن القول : إنّ البشري قد يهوىٰ الحق ، ويتمنّاه ، لكنه في الوقت نفسه تراه يسعى لضرب محبوبه بالخنجر ، رغم محبته له ، وتعلّقه به .

يُقال إنّ المأمون كان يقتل شيعة الإمام ـ وهو يدّعي حبه لهم ! ـ

إنّ عامة الناس تُريد الحق ، وتهوي إليه ، لكنها تُعبّر في الغالب عن نوع من الحب الكاذب ، أي الحُب الفاقد للجذور ، وهو أشبه ما يكون بالشهية الكاذبة ، مقابل الشهية الصادقة والحقيقية ، أو الصبح الكاذب ، والصبح الصادق .

تعصي الإلٰه ، وأنت تظهرُ حبّهُ   هذا لعمرك في الفعال شنيعُ

---

(١) نفس المهموم ص ٩١ .

(٢) أو عامر بن مجمع عبيدي ، أو مجمع بن عامر .

الفرق بين أنصار معاوية ومستشاريه وأنصار يزيد ومستشاريه[1]

يصف العقّاد أعوان معاوية الذين كانوا من العقلاء ، بأنصلر الدول ، وبُناة العروش ، في حين يصف أنصار يزيد بالجلّادين ، فيقول :

« فكان أعوان معاوية ساسة ، وذوي مشورة ، وكان أعوان يزيد جلّادين ، وكلاب طراد، في صيدٍ كبيرٍ »[2] .

نعم فالعقّاد هنا لا يجد في وصف أعوان يزيد بالدنيويين ، وعُبّاد الدنيا ، بالأمر الكافي ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويعتبر أنهم أُناسٌ قد مُسخت فطرتهم البشرية تماماً .

بينما أعوان معاوية أمثال عمرو بن العاص ، وسائر دُهاة المستشارين من حوله ، هم الذين تنطبق عليهم مواصفات الدنيويين ، وعُبّاد الدنيا .

أمّا أخلاق وصفات الشمر وعبيد الله ومسلم بن عقبة : فإنّ كل واحد من هؤلاء ، فيه عاهةٌ في جسمه ، أو في نسبه .

وبناءً على القاعدة النفسية المعروفة ، بأنّ كل ذي عاهةٍ ، يحاول بأي شكل

---

(١) من باب تعرف الأشياء بأضدادها . إذْ إنّ معرفة ساسة ذلك الزمان وحكامه تمكننا من معرفة الإمام الحسين (ع) ، وسر نهضته وقيامه .

(٢) العقّاد ص ٨٨ .

من الأشكال ، أن يسدّ النقص الحاصل فيه ، من خلال نشاطٍ ، أو عمل خاص يقوم به[1] .

وأحياناً يكون ذلك التعويض من خلال احتقار الآخرين، أو إحلال الكوارث بهم ، من أجل حفظ التوازن المفقود لديه .

فبالنسبة إلى شمر بن ذي الجوشن فقد قالوا فيه : « كان أبرص ، كريه المنظر ، قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجي ، (ذلك أنه في ظل مثل هذا المذهب يمكن الانتقام من المجتمع بشكل أفضل) ، يُحارب به عليّاً وأبناءه ، ولكن لا يتخذه حجةً ليحارب به معاوية وأبناءه » .

وأمّا عن مسلم بن عقبة ، فقد ورد عنه أنه : « كان أعور أمغر ، ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحلٍ إذا مشى » .

وأمّا حول عبيد الله فقد قالوا : « كان متّهم النسب في قريش (ومن المعروف أن العربي يفتخر كثيراً بنسبه ، بغض النظر عن مسألة كونه ابن حلال) ، لأنّ أباهُ زياداً كان مجهول النسب ، فكانوا يُسمونه زياد بن أبيه ، ثم ألحقه معاوية بأبي سفيان ـ القصة . . . وكانت أم عُبيد الله جارية مجوسية تُدعىٰ مرجانة ، وربما كان قد تعرّف عليها أثناء ولايته لفارس) ، فكانوا يُعيِّرونه بها ، وينسبونه إليها ، وكان ألكن اللسان ، لا يقيم نطق الحروف العربية ، فكان إذا عاب الحروري من الخوارج قال « هروري » ، فيضحك سامعوه ، وأراد مرةً أن يقول : أشهروا سيوفكم فقال : افتحوا سيوفكم فهجاه يزيد بن مفرِّغ قائلاً[2] :

ويوم فتحت سيفكَ من بعيدٍ أضعت وكُلّ أمركَ للضياع

---

(١) وهو موضوع اصطلح عليه بتعبير ميكانيكية التعويض في علم النفس الجديد .

(٢) راجع عشرون مقالة للقزويني (ص ٣٩) قصة يزيد بن مفرّغ ، وعباد بن زياد والشعر المعروف :

ألا ليت اللحىٰ كانت حشيشاً فتعلفها خيول المسلمينا

كما يطلب الرجوع إلى (الجزء ١٧ من الأغاني ص ٥٦) والطبري (المجلد الثاني ص ١٩٢ ـ ١٩٣) و(طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠) وفي مختصر العشرين مقالة ، كما يمكن الرجوع إلى (المجلد الخامس لابن خلّكان ص ٣٨٤) .

وأمّا مسلم بن عقيل (ع) فقد قال عن ابن زياد : « ويقتل النفس التي حرّم الله قتلها ، على الغضب ، والعداوة ، وسوء الظن ، وهو يلهو ، ويلعب ، كأنه لم يصنع شيئاً » (موت وجدان) .

وكان عبيد الله في سن لا يتجاوز (٢٨ سنة) أثناء واقعة كربلاء .

إن يزيد كان مستاءً من زياد ، وابنه ، لأن زياداً كان قد رفض أخذ البيعة من أهل البصرة ليزيد ، عندما كان والياً عليها[١] .

ومن هنا يمكننا إضافة سبب آخر لسعي عبيد الله ، ورغبته الشديدة في خدمة يزيد ، وإظهار الإخلاص والطاعة له .

بينما لم تكن الحال عند عمر بن سعد كذلك ، إذ إنّ عمر بن سعد لم تكن تُحرّكه سوى غريزة حب المال ، واللذة ، وحب الجاه ، والطمع في الدنيا .



---

(١) في المجلد الأول لكتاب (ضحى الإسلام) لأحمد أمين (ص ١٧٥) ورد ما يلي على لسان يزيد :
« قال يزيد بن معاوية يُعدّد فضل بيته على زياد بن أبيه : لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قُريش ، ومن عبيد إلى أبي سفيان ، ومن القلم إلى المنابر .

رفض الحسين لسلوك الطريق الفرعية

جاء في (نفس المهموم ص ٤٠) : « فقال له أهلُ بيته : لو تنكّبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير ، كيلا يلحقك الطّلبُ ، فقال : لا والله لا أُفارِقُهُ حتىٰ يقضي الله ما هو قاضٍ » .

وهذا مثالٌ آخر يُشير إلى روح الشجاعة ، والفروسية ، والرجولة ، لآل فاطمة .

وجاء أيضاً أنه بعد أن بقي مسلم بن عقيل وحيداً في الكوفة ، قرر ابن زياد أنْ يُصلي في المسجد وقال : « برئت الذمة من رجل في الشرطة ، والعرفاء ، والمناكب ـ رؤوس العرفاء ـ والمقاتلة ، صلى العشاء إلاّ في المسجد » .

ومعنىٰ « مقاتل » : هو الجندي وشرطة : شُرطي ، والجمع شُرط : وهم الطائفة من خيار أعوان الولاة ، وفي زماننا هُم رؤساء الضابطة (المنجد) . و« العرفاء » جمع عريف : القيّم بأمر القوم . ومناكب جمع منكب وهو بمعنىٰ عريف وهنا معناها رؤوساء العُرفاء .

كراهة أبي عبد الله للشروع بالقتال والحرب

عندما وصل الإمام الحسين (ع) ، والحُر إلى (نينوىٰ) ، وجاء كتاب عبيد الله بن زياد إلى الحر ، يقول له فيه : « أمّا بعدُ : فجعجع بالحسين حتىٰ

يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تُنزله إلا بالعراء ، في غير حصنٍ ، وعلى غير ماء » .

عندها اقترح زهير بن القين على الحُسين أن يُباشر في قتالهم ، لكن أبا عبد الله قال : « إني أكرهُ أن أبدأهُم بالقتال » .

فالإمام الحسين (ع) كان ممن يؤمنون بمبدأ عدم الشروع بمقاتلة عدوه . (ولا بأس هنا من تذكر قصة علي (ع) إبّان مقتل كريب بن الصباح ، وقراءة الآية الشريفة يومها : ﴿ الشّهر الحَرام بالشّهر الحَرامِ والحُرُماتُ قِصاصٌ ﴾ وقوله : « لو لم تبدأونا ما بدأناكُم » .

تولي عمر بن سعد المهمة

المقصود في كتاب (نفس المهموم ص ١١٤) على الظاهر وقد ورد ما يلي :

« وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية ، واستولوا على (دستي) بأرض (همذان) ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشاً . . . »

وكما يبدو فإن قيادة الحملة ضد « الديلم » التي كانت بإمرة عبيد الله بن زياد ، أيام ولايته للبصرة ، كان قد أوكلها إلى عمر بن سعد ، قبل انتقاله إلى الكوفة .

كراهة الناس الباطنية للخروج إلى حرب الحسين (ع)

كما جاء في الصفحة (١١٦) : « وكان جنود الجيش (وكما يبدو فإن نواة الجيش التي رافقت عمر بن سعد إلى كربلاء ، كانت هي نفسها التي أُعدت في الأساس لغزو الديلم) ، يتسللون منه ، ويتخلفون بالكوفة ، فندب عبيد الله رجلاً من أعوانه ـ هو سعد بن عبد الرحمن المنقري ـ ليطوف بها ، ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجلٍ جيء به ، وقيل إنه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم إلى المسير » .

فلو أنّ هذه الأعداد من القتلىٰ ، قدّمها أهل الكوفة على طريق معارضة ابن زياد ، بل عُشر ما قدموه فقط ، على طريق تأييدهم له ، والتبعية لحكمه ، لنجحوا في الوصول إلى أهدافهم المرجوة ، وتحقيق رغباتهم القلبية ، المتمثلة بسقوط بني أمية .

لكنهم يبدو أنهم كانوا مقهورين ، ومستسلمين ، ولا حول ولا قوة لديهم ، يستطيعون بها عمل أي شيء يُساعدهم في تجميع قواهم .

وقد وردفي التواريخ أنّ « هاني بن عروة » كان يملك عشرات الألوف من المسلحين المؤيدين له ، لكن العجيب أنّ حملة جسوره واحدة من قبل ابن زياد كانت قد جعلتهم مرعوبين جميعاً ، مع العلم أنّ ابن زياد لم يأتِ بجيشٍ يُسانده ، لا من الشام ، ولا من البصرة .



فلسفة النهضة الحسينية

يقول العقّاد : « . . إنّما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين ، لا يختلفان باختلاف الزمان ، وأصحاب السلطان ، والبواعث النفسية التي تدور على طبيعة الإنسان الباقية ، والنتائج المقررة ، التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال . . . » .

ويوضّح العقّاد العلل والبواعث النفسية على الشكل التالي فيقول :

أولاً : يبدو أنّ ملك يزيد ، لم يكن ثابتاً ومُحكماً ـ كما كان ملك معاوية ـ ذلك أنّ الشخص الوحيد الذي كان متحمساً لولاية عهد يزيد هو المغيرة بن شعبة ، الذي لم يكن أحد يتقبل اقتراحه يومها ، حتىٰ معاوية نفسه .

وعندما تشاور مع زياد ، لم يكن رأي زياد موافقاً لاقتراح المغيرة (على الأقل في ذلك الحين) .

وأمّا مروان بن الحكم ، فقد كان يقف بشدة ضد فكرة تولية يزيد ، لأنه كان هو يسعى إلى مثل ذلك المنصب ، بل وحتىٰ كان يستعد للتمرد على الخليفة ، إلّا أنه قبل بالأمر الواقع من خلال رشوة قدرها (١٠٠٠ دينار) شهرياً له و(١٠٠ دينار) لأصحابه .

وأمّا سعيد بن عثمان ، فإنه خاطب معاوية يومها ، وقال له بأن أباه وأُمه ، أفضل من أم يزيد وأبيه ، لكنه رضي بالتالي بولاية خراسان .

نستنتج من ذلك أنّ حكومة يزيد لم تكن حكومة مستقرة في ذاتها .

وثانياً : فإن حكم يزيد قام في الواقع على قاعدة سب علي (ع) ، وآل علي ، وأي بيعة من الحسين (ع) ، كانت تعني وجوب وفائه بالعهد ، وعقد البيعة ، وهذا كان يعني قطعاً إضفاء الشرعية على هذه السُّنة السيئة ، جيلاً بعد جيل . (إن حكومة يزيد كانت أسوأ من حكومة معاوية مئة بالمئة ، لأنها كانت حكومة مفضوحة العداء للإسلام) .

وأمّا حول نتائج التحرك الحسيني :

أولاً : وقبل كل شيء يمكن القول : إنّ يزيد نفسه لم يهنأ بالحكم ، ولم ير الاستقرار للحظة واحدة بعد اندلاع الثورة الحسينية .

فبعد واقعة كربلاء ، واجهته واقعة المدينة المنورة ، ثم بدأ عبد الله بن الزبير من بعد ذلك حربه الدعائية ضد يزيد ، وجاءت قضية مكة ، ثم تتالت على الحكم الأموي سلسلة تمردات يا «لثارات الحسين» التي استمرت لستين عاماً من حكم بني أمية ، وهي تُزلزل عرش تلك العائلة .

ولهذا ترى البعض أمثال (مارتن) الألماني ، يعتقدون أنّ السياسة الحسينية كانت في الواقع قد وضعت مثل هذه الأهداف نصب عينها من الأساس .

وأمّا بشأن حركة النساء والأطفال في القافلة ، فإنّ العقّاد يقول :

« . . إنما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين تنظر إليها من زاوية واحدة ضيقة المجال ، قريبة المرمىٰ ، وهي زاوية العمل الفردي ، الذي يراض بأساليب المعيشة اليومية ، ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين إليه . . . »[1] .

---

(١) نعم فنحن نستطيع أن ننظر إلى الإمام الحسين (ع) مرةً من زاوية كونه شخصاً عادياً ، مثله مثل سائر الأشخاص العاديين ، وبالتالي فإنه بحاجة إلى الملبس ، والمأكل ، والمشرب ، والراحة ، والسيادة اللازمة ، وتوفير سائر احتياجات الراحة ، والرفاه ، التي يتمتع بها الأفراد العاديون ، وبالتالي نقول إن مصلحة هذا الشخص ، مقابل شخص آخر ، مثل ابن زياد هي في كذا وكذا . . الخ . لكننا إذا ما نظرنا إلى الإمام الحسين (ع) من زاوية أخرى مختلفة ، باعتباره شخصيةً أخرى مختلفة تماماً عن سائر الأفراد العاديين للمجتمع ، فهو شخصية عظيمة نادرة ، في =

ويضيف العقّاد قائلاً بأنّ مسلم بن عقيل إنما كان يقدر في الحقيقة على فعل الكثير مما كان يفعله ابن زياد .

إذ كان باستطاعته أنْ يأخذ الأموال ، ويُعطيها ويوزعها، لكن مثل هذه الأعمال كانت تعني مخالفةً للمبادىء التي كان يُمثّلها مسلم ، فمسلم الذي كان يستعد لاستقبال الموت تراه كان يُفكر في أداء دينه فيوصي ببيع درعه ، وسيفه من بعده ، حتىٰ يُدفع الدين الذي كان عليه وهو(٧٠٠ درهم) ! إذاً لم يكن مسلم يُفكّر في كيفية جمع الأموال من الناس ، والاستغناء بأموالهم ، حتى مع تهيؤ ظروف الحكم المؤقت له ، هذا على الرغم منْ توكيل الحسين (ع) له كان يحمل معه معنىٰ الممثل المالي !

ملاحظة : يُقال إن كلمة كربلاء قد جاءت من الأصل (كور بابل) .

المعنويات العالية لأصحاب الإمام الحسين (ع) ، وعشقهم الصادق وكيفية انتخابهم خيار الموت والإيثار

إنها في الحقيقة من خصوصيات شهداء كربلاء كافة ، ذلك أنهم « آثروا الموت . . . » أي إنهم فضلوا الموت بعزةٍ على حياة العار .

ولم يكن أحد منهم مضطراً لهذا الخيار أو إنّ طرق الخلاص كانت مسدودة أمامه ، فقد تقع أحياناً حوادث في التاريخ كأن يُحاصر جمع من النساء ، والأطفال ، والرجال في مكان ما ، ويتم القضاء عليهم بشكل وحشي للغاية .

لكن خصوصية واقعة كربلاء ، بالمقارنة مع حوادث الكوارث ، والفواجع التاريخية العالمية الأخرى ، هي في كون أنّ جماعة كربلاء ، قد فتحت طريق الخلاص أمامهم ، لكنهم رفضوا ذلك الخلاص الذليل ، والخنوع ، وفضلوا طريق الإيمان ، والفداء ، والإيثار عليه ، في سبيل تمجيد الحق .

= زمانه ، وفي غير زمانه أيضاً . وإن وجوده إنما كان يُعبّر عن وجود سلسلة من المبادىء والأصول ، أي إنّه كان يُمثّل العدل ، والحق ، كما يُمثّل التوحيد ، والصداقة ، والصراحة ، كما الصلاة ، والعبودية ﴿ قُل إنْ كانَ آباؤُكم ، وأبناؤكم ، وأزْوَاجُكُمْ . . . ﴾

فهم قد أدركوا إذاً، جمال الأخلاق ، وحُسن الشهادة ، وكمال العبودية .

وما قضية الأمان الذي أُعطي للعباس بن علي (ع) ، وقصة محمد بن بشر الحضرمي ، وتحرير الإمام رقاب أصحابه من حل البيعة ، وقضية القاسم ، والغلام الأسود ، إلّا شهادات دامغة على انتخاب أصحاب الإمام للموت ، طوعاً واختياراً .

الخصوصية الأخرى لأصحاب أبي عبد الله أنهم اختاروا الموت قبل استشهاد أبي عبد الله ، وقبل استشهاد أفراد بني هاشم ، وهذا دليلٌ على إيمانهم المطلق بقائدهم .

إنّ أصحاب أبي عبد الله ، لم يكونوا يُقاتلون من أجل الأجر ، ولا خوفاً من شيءٍ ، أو أحدٍ ، بل يُقاتلون دفاعاً عن الإيمان ، والعقيدة ، والحرية .

ومن العجائب أنه لم يبدر منهم أي تراجع خلال المراحل كافة التي مروا بها مع الإمام القائد .

يقول العقّاد حول هذا الموضوع في كتابه المعروف (ص ١٥٧) : « ولم يخطر لأحدٍ منهم أنْ يزيّن له العدول عن رأيه ، إيثاراً لنجاتهم ونجاته ، ولو خادعوا أنفسهم قليلاً ، لزيّنوا له التسليم ، وسمّوه نصيحةً مُخلصين يُريدون له الحياة » .

وهو ما فعله ابن عباس وآخرون مع الإمام . « ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ورأوا صدق النصيحة له أن يُجنّبوه التسليم ، ولا يُجنّبوه الموت ، وهم جميعاً على ذلك » .

هذا بالرغم أنهم كانوا يرون العيال ، والأطفال ، وعاقبتهم المُحتّمة ، التي كانوا يعرفونها ، وهو لأمر عجيب حقاً ، مما يدلُّ بالفعل أنّ مدرسة الحسين ، مدرسة العشق الخالص للرسالة : « مُناخ رُكابٍ ومنازل عُشّاق » .

منطق ابن عباس ومنطق الإمام الحسين (ع)

إنّ منطق ابن عباس ، هو منطق السياسة ، واللعبة السياسية ، وهو منطق العقل ، والدهاء ، ورعاية المصالح الذاتية ، وحسب قواعد المنطق العقلي ، يكون كلامه صحيحاً ، حيث يقول : « **إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك ، إنّ أهل العراق قوم غُدر** » ، وعليه فإنه يقترح عليه الغدر بهم أيضاً فيقول : « **أقم بهذا البلد ، فإنّك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدُونك كما زعموا ، فلينفوا عدوّهم** » .

انظروا لهذا المنطق : فليقاتل أهل الكوفة عدوهم لوحدهم ، فإن خسروا المعركة فإلى جهنم وبئس المصير ، وإن غلبوا فقد أصبحت الطريق مُهيأةً لك للحكم !

نعم إنه منطق السياسيين النفعيين بعينه ، وليس منطق الشهداء . نعم : « **ثم أقدِم عليهم فإن أبيت إلاّ أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإنّ لها حصوناً ، وشعاباً ، ولأبيك بها شيعة** » .

ومعنى كلام ابن عباس هنا ، واضح ، فهو يُريد القول إن كان أهل العراق ليسوا بأهل جهاد ، ولم يطردوا حاكمهم ، فدعهم وشأنهم .

إنه المنطق (البراغماتي) ، منطق المعاملة السياسية . بينما منطق الإمام لا هو بمنطق الغدر والكِبْر ، ولا هو بالمنطق النفعي (البراغماتي) ، بل كان محض إيثار وعقيدة ، وشهادة ، في سبيل الرسالة .

والبشر عموماً أمام هذه الخيارات على الدوام ، فإمّا أن يكونوا أصحاب منطق المكر والغدر ، مثل أغلب ساسة الدنيا ، أو أصحاب منطق نفعي وهو منطق الأحزاب السياسية الراهنة ، أو أصحاب منطق الفداء والعقيدة ، وهم من نوادر الجنس البشري ، مثل الإمام الحسين (ع) :

« فقال له الحسين : يا بن عمّ إني أعلم أنك ناصحٌ مُشفِق ، ولكنّي قد أزمعت ، وأجمعتُ على المسير » .

ولم يرد الحسين (ع) بكلامه هذا القول لابن عبّاس ، بأنّ كلامك هـذا يدلُ على حُسن نيةٍ منك ، ولكنني لا أقبل بهذه المقدّمـات ، وهذه النتـائج ، بـل قصد بأنّ هذه المقدّمات والنتائج التي تتبعها إنما هي صحيحـة لمن هو راغبٌ للسـير بهذا الطريق : طريق المعاملة ، والسياسة النفعية ، ولكن طـريقي غير هـذا الطريق ، ومنطقي هو غير هذا المنـطق فمنطقي هـو منطق من يُعـاني حُب الخير والعقيـدة ، ومنطق الطبيب الذي يُعاني هموم المريض ، وأحزانه ، وآلامه : ﴿ **عَزِيـزٌ عَلَيْهِ مـا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم** . . . ﴾ .

وطريقي هو طريق الشهادة ، ومنطق الشهيد هـو منطق آخـر ، يختلف عن منـطق العقل النفعي العمـلي (البراغـماتي) . . وما معنىٰ : « إنّ الله شـاءَ أن يراك قتيلاً » . إلاّ تصديقاً لهذا المنطق الحسيني . أي إنّ الله يُريد أن يرى روح الشهادة فيك . نعم « إنّ لك درجةً ، لن تنالها ، إلاّ بالشهادة » .

الصفات التي برزت من أبي عبد الله في كربلاء

إنّ الصفات التي برزت من أبي عبد الله الحسين (ع) في كربلاء هي :

١ ـ الشجاعة البدنية .

٢ ـ قوة القلب ، والشجاعة الروحية (المعنوية) .

٣ ـ الإيمان التام الكامل بالله ، وبالنبي والإسلام .

٤ ـ الصبر ، والتحمل العجيبان .

٥ ـ الرضا والتسليم .

٦ ـ المحـافظة عـلى التعادل ، وموازنـة الحركـة والمواقف ، وعـدم بروز أي موقف مُتسرّع ، لا من قبله ، ولا من قبل أصحابه .

٧ ـ الكرم ، والنُبل ، والسماحة .

٨ ـ التضحية ، والفداء ، والإيثار .

فلسفة الحرب بين النور والظلام بين البشر

يقول العقاد في الصفحة(١٦٢) من كتابه: «فجيرة كربلاء كانت قديماً من معاهد الإيمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناسٌ يؤمنون بالنضال الدائم بين أور مزد ، وأهرمان (وهما رمزا السواد والبياض) ، ولكنه كان في الحقيقة ضرباً من المجاز ، وفنّاً من الخيال . وتشاء مصادفات التاريخ أن لا ترى هذه البقاع التي آمنت بأور مزد ، وأهرمان ، حرباً هي أولىٰ أن تُسمى حرب النور والظلام ، من حرب الحسين ومُقاتليه . وهي عندنا أولىٰ بهذا الاسم من حرب الإسلام والمجوسية في تلك البقاع ، وما وراءها من الأرض الفارسية ، لأنّ المجوسي كان يدافعُ شيئاً ينكرهُ ، ففي دفاعه شيءٌ من الإيمان بالواجب ، كما تخيله ورآه . [كان الشاميون يُقاتلون آل علي مقاتلةً عقائدية نوعاً ما وقصة عصام بن المصطلق خير شاهد على هذه الدعوىٰ] ولكن الجيش ، الذي أرسله عبيد الله بن زياد ، لحرب الحسين ، كان جيشاً يُحارب قلبه لأجل بطنه ، أو يُحارب ربه لأجل واليه » . [كما أن مشركي بدرٍ وأُحد كانوا يقاتلون الرسول (ص) قتال عقيدة ـ بالطبع عدا رؤسائهم] .



روحية أصحاب ابن زياد ومعنوياتهم

يقول التاريخ : « وركب أناساً منهم ، الفزع ، الدائم بقية حياتهم » . ذلك أن عقيدته ، ووجدانه كانا يوحيان له بشيء مخالف لأعماله ، وبذلك يكون في حالة عذاب دائمٍ للضمير ، مثله مثل كل الذين يؤنبهم ضميرهم على أعمالهم ، إذ ترى وجدانه يُنادي من الأعماق : اقتلوني ! واقضوا على هذا الوجود العار بين جنبيّ ! وما جنون (بسر بن أرطأة) في آخر حياته إلاّ نوعاً من تأنيب الضمير ، وعذاب الوجدان .

وما الملك المخصص لعذاب مثل هؤلاء الأفراد إلاّ عبارة عن وجدان هؤلاء الأفراد لأنهم عرفوا الإثم فيما اقترفوه عرفاناً لا تسعهم المغالطة فيه . . . » .

الخبث الباطني لأصحاب عمر بن سعد

إنّ الجبن والطمع ، لا يُمكنهما أن يكونا السبب وراء أحداث فاجعة كربلاء الجنائية ، ولا حتىٰ العداوة الشخصية ، فأية عداوة شخصية ، كانت لأحد مع الحسين (ع) !

والإمام الحسين (ع) نفسه قال في كربلاء وهو يُخاطب القتلة : ماذا فعلت حتىٰ تقاتلوني قتال عقيدةٍ ، هل تُراني حلّلت حراماً أو حرّمتُ حلالاً ؟!! أو هل تراني أخذتُ مالاً ، أو تسبّبت في هدر دمٍ ، حتى تُقاتلوني لعداوة شخصية ؟

نعم فالجبن ، والطمع ، لا يُمكنهما أن يُبررا أعمال التمثيل ، والتنكيل ، وقتل الأطفال ، ومنع الماء ، ووطء الخيول على ظهر الحسين .

إنّ مثل هذه الأعمال في الواقع لا تخرج إلاّ من مثل (شمر بن ذي الجوشن) ، ذلك الشخص الذي يحمل طينة خبيثة في أصل ذاته ، وحقداً أعمى على كل ما هو خيّر ، وكل ما هو من أعمال المروءة والإنسانية .



النظام والانضباط لدى أصحاب « سيد الشهداء »

طبقاً لما ينقله العقّاد في كتابه(الصفحة ١٨٤)فإنّ هناك نظماً خاصاً كان يحكم تحركات وأفعال أصحاب سيد الشهداء ، ومن هنا فإن الواحد منهم كان يجعل من نفسه درعاً ، لوقاية الحسين (ع) ، وحمايته ، وما أن يقع الواحد منهم ، حتىٰ ترى الآخر قد ملأ الفراغ ، وأخذ محل رفيقه .

وهذا المعنى تراهُ أحياناً يظهر في تعبير الشعراء ، إذ تراهم يُعبرون عن آمالهم ، ورغباتهم في وصل المحبوب ، فيقولون : يا ليتنا نصل الحبيب ولو للحظة ، ثم نموت ! فعند البعض تكون هذه اللحظة جميلةً وعظيمةً إلى الحد الذي تراه فيه ، على استعداد لجمع شمل حياته كلها ، بل الزمان كله على امتداده الأبدي لو يُجمع له في لحظةٍ واحدة ، من أجل وصل ذلك المحبوب ، ولكن بالكيفية التي هو يُريد .

إنّ مثل هؤلاء يُريدون الحياة بكيفيتها لا بكميتها ، وهكذا هو شأن أصحاب أبي عبد الله ، فهُم قد ضحوا بالكمية من أجل الكيفية .

نعم فأنت تراهُم قد جمعوا كل لحظات حياتهم ، وكل سعادات الحياة التي لا يُدركها إلّا العدد الضئيل من أصحاب الروحية العظيمة في نصف نهار وليلة .

والله وحده يعلم كم هي درجة تلك العظمة ، ومقدار ذلك الجلال ، والجمال المتلألىء ، من أعمال التضحية ، والفداء ، والسقوط ، فوق التراب ! أنْ

يعيش الإنسان نصف يوم مستغرقاً في تلك الحالة المعنوية العظيمة ، أفضل له من أن يعيش ألف عامٍ حياة حيوانية ، لا يصدر منه سوىٰ أعمال الأكل ، والشرب ، والنوم .

البعض قال : إنه يطلب عرض العمر ، وليس طوله ، وعرض العمر يعني كيفية العمر ، وعرض العمر هو الآخر يختلف مفهومه من شخص لآخر ، فعند البعض لا يتعدىٰ ملء البطون ، والسكر ، والقمار .

بينما يكون معناه عند الآخرين ، الحرية ، والاستقلال ، وعدم الخضوع لأجواء القمع ، والاستغلال ، ويكون همه فقط العشق الربّاني .

فهذا « موسوليني » يقول : بأن عاماً من عمر الإنسان ، وهو يعيش كالأسد ، أفضل من مئة عام ، وهو يعيش كالخروف ، فهو يُريد عرض العمر وكيفيته .

لكنه يرى كيفية الحياة في استسباع الناس ، وتحويل أجسادها إلى أشلاء بيد وحش كاسر ، بينما الإمام علي (ع) يرى كيفية الحياة في العبادة وخدمة الحقيقة .

شجاعة أصحاب أبي عبد الله وتراجع جُند عمر بن سعد

لقد برزت بعض مظاهر التراجع والتردد ، لدى جند عمر بن سعد في كربلاء ، وإن دلّت على شيءٍ فإنها تدلُّ في الواقع على عجز جيشه أمام ذلك النفر القليل من جنود أبي عبد الله الحسين (ع) ، ومن الأمثلة على ذلك :

١ ـ امتناع جند عمر بن سعد عن مقاتلة جنود الحسين (ع) ، وجهاً لوجه ، والاستعانة برمي الرماح والنبال من بعيد .

٢ ـ مهاجمة معسكر الحسين(ع) من الخلف ، إمّا لحرق الخيم ، أو للطعن من الخلف ، والغدر بالجُند في غير ساحة الوغى .

٣ ـ تهرب عمر بن سعد وجماعته من مقاتلة شخص الحسين (ع) ،وقوله المعروف عن سيد الشهداء : « هذا ابن قتّال العرب » ، وتعليماته بإشاعة جو

من الضجيج والضوضاء ، من أجل منع وصول فحوى خطبة الحسين (ع) إلى جُنده ، حتىٰ لا يتأثر الجُند بذلك ، وينقلبوا عليه .

قائمة بالأعمال الدنيئة التي صدرت عن جيش عمر بن سعد

فيما يلي قائمة بالأعمال الدنيئة التي قام بها أصحاب يزيد ، والتي لا يقبل بها قانون الحرب والفروسية ، وتأباها روح المروءة وهي :

١ ـ قطع المياه (ليس فقط عن المقاتلين بل عن الأطفال ، والنساء) .

٢ ـ قتل الأطفال ، لا سيما أمام أعين أمهاتهم ، وأخواتهم ، وعمّاتهم ، مثل قضية ذلك الطفل الذي ورد ذكره في التاريخ بعبارة « ولهُ قُرطان » .

٣ ـ تعرية جسد الحسين (ع) ، بعد مقتله ، من ردائه ، وملابسه ، طمعاً بالغنيمة بكل شيء .

٤ ـ الهجوم على النساء ، والفتيات ، ونهب الحلي ، والأقراط ، عن أبدانهنّ .

٥ ـ إعداد الحملات البربرية على ذلك العدد القليل من الأصحاب بواسطة الحجارة والنبال .

٦ ـ الشماتة اللاذعة .

٧ ـ تعليق رؤوس الشهداء برقاب الخيل .

٨ ـ السب والشتم .

٩ ـ وطء الخيل لظهر الحسين (ع) .

١٠ ـ محاصرة الأسرىٰ ، والتضييق عليهم ، وضربهم ، ومن ثم نقلهم على جمال غير مُجهّزة بالسروج .

١١ ـ تقييد المرضىٰ من الأسرىٰ بالأغلال (الإمام السجّاد (ع)) .

١٢ ـ تعليق رؤوس الضحايا أمام الأسرىٰ .

١٣ ـ وضع الأسرىٰ في ظروف إقامة سيئة للغاية .

١٤ ـ الشماتة بالأسرىٰ المفجوعين .

١٥ ـ التجاسر على رأس الحسين الطاهر ، والعبث بأسنانه الطاهرة .

١٦ ـ قتل النساء (أم وهب) .

١٧ ـ تسيير قافلة الأسرىٰ من أمام ساحة الوغىٰ ، وأبدان القتلىٰ ، مُلقاة في العراء (إذا كان ذلك بغير طلب الأسرىٰ أنفسهم لغرض الوداع) .

١٨ ـ حرق الخيام في الوقت الذي كان فيه على الأسرىٰ أن يمضوا تلك الليلة فيها .

١٩ ـ منع الخبز ، والطعام ، عن الأطفال الأسرىٰ ، حتىٰ صارت الناس ترمي إليهم بالخبز ، والتمر ، بينما صارت أم كلثوم تمنع الأطفال الأبرياء من أخذ تلك المساعدات .

ثلاثة أعمال ليزيد سببّت زوال مُلك بني أُمية
(أهمها الأثر العظيم لواقعة كربلاء)

يقول العقّاد في كتابه ص ٢١٦ : « لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوىٰ ضربات أُمية لتمكين سلطانهم ، وتثبيت بنيانهم ، وتغليب ملكهم على المُنكرين والمُنازعين ، فلم ينتصر عليهم المُنكرون ، والمنازعون ، بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين حقيقةً حتىٰ ذهبوا بها مضروبين إلى آخر الزمان ، وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء ، فإذا بالدولة العريضة تذهبُ في عمر رجل واحد مديد الأيام » . [نعم : فلولا حادثة كربلاء لطال مُلك بني أُمية بمقدار ما طال مُلك بني العباس] . .

مكافأة « سيد الشهداء » في الدنيا ، وفلسفة تعظيم شعائر عاشوراء

وأما في الصفحة (٢٢٤) فيقول العقّاد : « وتسديد العطف الإنساني منّا فرض من أقدس الفروض على الناظرين في سير الغابرين . (إن فلسفة تعظيم شعائر عزاء سيد الشهداء ، مكافأة يُقدّمها التاريخ لأبطال عاشوراء) لأنّ العطف الإنساني هو كل ما يملك التاريخ من جزاءٍ وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود » . (إنّ فلسفة إحياء ذكر سيد الشهداء ترتبط بنا من إحدى الجهات باعتبار أنّ هذه الذكرى عبارة عن نبع من الفيض الربّاني الذي يمكننا الاستفادة منه ، وهي من جهة أخرىٰ تقدير منّا للشهداء والشهادة ، ومن جهة ثالثة تعبير عن الواجب التاريخي ، والفريضة الاجتماعية ، المُلقاة على عاتقنا أمام المجتمع) .

إنّ المنفعة الفردية عبارة عن عامل تنازع ، وتضارب ، وقبض ، واستخدام للمجتمع .

بينما حس المنفعة العامة ، أو بعبارة أخرى المبادىء الأخلاقية الإنسانية السامية ، تُشكّل في الواقع عامل حفظ ، وتعاون ، وإفاضة ، وإعانة للمجتمع .

وعليه فإنّ أصحاب الخير العام هم الخُدّام الواقعيون للأصول والمبادىء والنواميس الاجتماعية ، ومن هنا وجب على المجتمع تقديرهم ، وإجلالهم ، وإحياء ذكرهم ، على مر الدهور .

* * * *

القسـم الثـاني
ملاحـظـات حـول ماهية النهضة الحسينية

ملاحظات في ماهية النهضة الحسينية

١ ـ إنّ البحث هنا يدور حول نوع واقعة عاشوراء ، وعن أي مفهوم أو مقولة تُعبّر ؟ فهل هي نوع من الانفجار غير الهادف من الناحية الاجتماعية ، مثلها مثل كثير من الانفجارات التي تحصل على أثر تفشي الظلم ، وتشديد القمع ، وربما يساهم بحركتها الانفجارية تلك الأوضاع والحالات السائدة ، أم إنها خيارٌ واعٍ ، وتصميم يقظ ، تجاه الأوضاع ، والأحوال الموجودة آنذاك ، وتجاه الآثار والنتائج المترتبة على مثل ذلك التصميم ؟

وفي الحالة الثانية فهل هي نهضة وثورة مُقدسة ، أم خطة دفاع مشرّفة طاهرة ؟

بعبارة أخرى هل هي تعبير عن هجوم أم دفاع ؟

وهل هي بالتالي عمل شرع به الإمام وأرادت السلطة القائمة آنذاك ، صدّه ، والقضاء عليه أم أنّ الذي حصل هو أنّ الإمام قد تعرّض للعدوان من قبل السلطة الحاكمة آنذاك ، الأمر الذي دفع الإمام للدفاع المشرّف عن نفسه ، بدلاً من التسليم ، والسكوت ، والركون إلى الأمر الواقع ؟

بعبارة أخرى هل كان شيء من سنخ التقوى موجوداً في المجتمع ، وكان الإمام هو المظهر الكبير لمثل تلك التقوائية ، إلى الحد الذي يتم فيه التضحية

بـالنفس ، أم أنّ الإمام لم يكن إلاّ تعبيـراً عن نوعٍ من الإحسـان ، والعصيـان ، والقيام أو النهضة المقدسة ؟

أم أنّ حـركتـه كـانت نـوعـاً من عمـل المحـافـظة عـلى الـذات ، وإثبـات وجودها ، أو نوعاً من نفي الآخرين ، وإنكار جبهة المعارضين [١] ؟

وتأسيساً عـلى الاحتمال ، أو الفـرضـية الأولى ، فـإن المطروح هـو الأهداف والمبادىء الاجتماعية ، في حين أنّ التأسيس على الاحتـمال الثاني لا يكـون عندهـا للإمام سوى هدف المحافظة على شرفه ، وكرامته الإنسانية ، وإذا ما قُلنا بأنّه نوع من التحرك الابتدائي ، والثورة الواعية فماذا ستكون هذه الثورة ؟

هل هي محض تجاوب مع دعوة أهل الكوفة ، وأنّه لـو لم تكن تلك الدعـوة قائمة لَمَا قام الإمام ، وثار ضد السلطات ، (وبالتالي فإنّ مسـألة كمسـألة تـراجع أهـل الكوفـة عن دعوتهم ، كـانت ستعني له العـودة عن ثـورتـه ، والسكـوت ، والـتراجع أيضـاً) أم أنّ أساسـاً آخر كـان وراء التحرك الحسيني غـير دعـوة أهـل الكوفة ؟

وإنه حتىٰ لو لم تكن دعوة أهل الكوفة قـائمة فـإنه كـان عليه السـلام ينوي الاعتراض ، ومجابهة السلطات حتىٰ لو أدىٰ ذلك إلى بذل نفسه ، ومهجته في هـذا السبيل ؟

الحقيقة أنّ هناك عوامل متعددة ساهمت في خلق وإيجاد واقعة كـربلاء[٢] ، أي إنّ البواعث المُحرّكة للإمام كانت متعددة ، ولذلك ترى وجود صعوبة واضحة

---

(١) بـل يمكن القول بـإمكانيـة فرض ثـلاثة أنـواع من الماهيـة : الماهيـة التقوائية ، والماهيـة الهجوميـة والثورية ، والماهية التجاوبية ، أي التجاوب مع نـداء مقدس ، وهي المـاهية التعـاونية . وحـركة الإمـام هنا شكلت تعبيـراً عن ردة فعل من النـوع السلبي إذا نظر إلى العمـل من نـاحيـة عـامـل البيعة ، وفيما يخص عامل الدعوة أيضاً يمكن القول بأنّ الحركة كانت عبارة عن ردة فعل لكنها هذه المرة إيجابية . بينما لو نظر إلى العمل من ناحية عامل الأمر بالمعروف، فـإنّ الإمام حينهـا يكون هـو المهاجم والبادىء بالحركة .

(٢) كـما سبق لنا وأشرنـا في محـاضراتنـا في كليـه الآداب بـطهـران ، وجـامعـة الأهـواز ، في محـرم من العام (١٣٩٢) والتي تم طرحها تحت عنوان « تحليل حول قيام عاشوراء » نقول إن معرفة الحوادث الاجتماعية ، كما الحوادث الطبيعية والمـادية ، إنمـا تتطلّب نـوعـاً من التحليـل والتركيب للعنـاصر =

في أمر شرح ماهية هذه الثورة ، وتوضيحها من حيث إنّ ما كان يبدو ، ويظهر من أعمال للإمام ، كان يرتبط مرةً بهذا العامل ، وأخرى بذاك العامل الآخر المؤثّر في النهضة ، الأمر الذي يسبب حيرةً ، وغموضاً ، وتناقضاً ، من قبل المُحللين ، والمُفسرين التاريخيين ، للحادثة .

= الأولية المكونة لتلك الحادثة ، يبقى أن الظواهر المادية تقبل التحليل والتركيب مرة أخرى ، في أحد المختبرات ، بينما الظواهر التاريخية لا يمكن تحليلها وتركيبها ، إلّا بقوة المنطق ، وفي المختبرات المنطقية . وتحليل حادثة مثل حادثة عاشوراء يتطلب منّا القول بتأثير ثلاثة عناصر أولية فيها هي : **أولاً** : البواعث أو العوامل التي حصلت في ذلك المحيط آنذاك ، والتي كانت كافيةً ، لإحداث نهضة ، أو تحمل بالقوة إمكانية نشوء ثورة ، أو نوع من التمرد ، ومن هذه الزاوية لا بد لنا من دراسة عوامل المحيط من الناحية الأخلاقية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وسائر النواحي الأخرى ، وكذلك الأجواء الإنسانية الخاصة لذلك المحيط . **وثانياً** : رد فعل بطل تلك الحادثة ، أو النهضة ، وهو الإمام الحسين(ع) ، وذلك تجاه كل واحدٍ من تلك العوامل المذكورة ، وهذا بدوره أمرٌ يرتبط بشخصية الإمام نفسه ، وأي تغيير في تلك الشخصية ، أو إمكانية ظهور خليفةٍ لها ، كان يمكن أن يُغيّر مسار الحدث عن شكله المعروف لدينا . وفي هذه المرحلة ، لا بد لنا من دراسة أهداف الإمام ، والتي ترتبط بشدة ، بشخصيته المعنوية . **وثالثاً** : هناك مسألة أسلوب ونهج الإمام المتّبع في ردة الفعل المذكورة ، وردة الفعل هنا عبارة عن الأهداف المُحددة للإمام ، مقابل تلك الواقعة . وعليه يكون معنىً أسلوب الإمام ، أو نهجه ، هو بالبحث مثلاً عن طريقة الإمام ، وأسلوبه في الامتناع عن البيعة ، مثلاً ، وإلى أي حدٍ كان على استعداد للمقاومة في هذا المجال ، وعند أي حدٍ كان على استعداد للتسليم مثلاً ، أو عدم التسليم أصلاً ، وهو ما يظهر من حديث الإمام نفسه ؟ ثم ما هو أسلوبه في التجاوب مع دعوة أهل الكوفة ، وتسلُّم شؤون الحكم ؟ وإلى أي حد كان ذلك مطروحاً ؟ وهل كان ذلك يشبه أسلوب التعامل مع قضية البيعة ، أي التضحية بآخر قطرة من دمه ، من أجل هذا الأمر ؟ أم أن مُجرّد انتفاء الموضوع كان يعني تخليه عن هذا الهدف ، والشق الثاني هو الذي ثبتت صحته بالطبع هنا .

وأمّا نهجه في التعامل مع العامل الثالث ، فإنه كان أشد حتى من نهج التعامل مع العامل الأول فالأمر تجاوز حتىٰ مجرّد القتل دون الهدف ، بل تعدّاه إلى حدود توسيع رقعة الثورة ، ودائرة الدم ، حتى الإمكان . فهنا كان منطقه هو منطق الشهيد والشهادة . منطق أحد الثوار ، نعم فمنطقه في التعامل مع عامل البيعة ، والامتناع عنها ، كان يتمثل بمنطق الإنسان الحر الشريف ، وليس أكثر من ذلك . بينما ظل منطقه في التعامل مع عامل دعوة أهل الكوفة ، يدور في دائرة رجل السياسة الصالح والحاذق ، في حين تميّز منطقه في التعامل مع العامل الثالث ، وهو عامل الأمر بالمعروف ، بكونه ارتفع إلى منطق الشهيد والشهادة .

هذا إلى جانب إضفاء طابع التعددية في الوجوه ، والأبعاد المكوِّنة لهذه الحادثة ، وكون كل بُعد يملك ماهية خاصة به (ليس هناك أي مانع في امتلاك الشيء لماهيات متعددة ، إذا كان الأمر يتعلق بالظواهر الاجتماعية ، والمركبة ، وهو أمر أثبتناه ، وبرهّنا على صحته بالذات ، في دروس فلسفة التاريخ) .

إنّ العوامل التي كان من الممكن أن تؤثر ، أو أثرت بالفعل في واقعة عاشوراء ، يمكن تلخيصها على الشكل الآتي :

أ ـ كون الإمام الحسين (ع) الشخصية الوحيدة الجديرة ، والمنصوص عليها ، والوارثة عن حق أمر الخلافة ، والتي تملك مقام الإمامة المعنوية .

ومن هذه الناحية ، لم يكن هناك فرق بينه وبين أبيه أو أخيه ، كما لم يكن هناك فرق من هذه الناحية بين حكومة كل من يزيد ، ومعاوية ، والخلفاء الثلاثة .

وهذا الجانب لوحده ، لم يكن يوجب أية وظيفة خاصة ، أو يُحمّله أي تكليف خاص ، فإذا ما شخصت الناس صلاحيته وبايعته ، وفي الحقيقة إذا ما أعلنت من خلال البيعة له عن صلاحيتها ، وجدارتها ، واستعدادها لقبول حكم هذا الإمام ، فإنه كان سيقبل أيضاً مثل هذه البيعة .

ولكن إذا ما كان الناس ليسوا على استعداد من جهة ، وكانت الأوضاع والأحوال، تسير ضمن سياق المصالح العامة للمسلمين، فإن الإمام وطبقاً لحكم هذين العاملين ، لا تكون لديه مهمة المخالفة والمعارضة ، بل عندها تكون مهمته التعاون ، والترافق مع المسيرة العامة ، وهو ما فعله أمير المؤمنين (ع) . كما ساهم بدوره في الاستشارات السياسية ، والقضائية ، وحضر صلوات الجماعة ، وهو القائل : « لقد عَلِمتم أني أحقُّ الناس بها من غيري ، ووالله لأُسلِمَنّ ما سلِمَتْ أمورُ المسلمين ، ولم يكن فيها جَورٌ إلاّ عليّ خاصةً »[1] .

في قضية كربلاء لم يكن لهذا العامل دَورٌ بحد ذاته ، بل إنه يمكن أن يؤخذ

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ٧٢ .

بعين الاعتبار فقط عندما يوضع إلى جانب العامل الآخر ، وهو عامل دعوة أهل الكوفة للإمام الحسين (ع) ، ذلك أنّ عامل دعوة أهل الكوفة ، كان بقصد استلام الحكم ، ولم يكن له معنىً آخر .

وعليه ، فلا تأثير لهذا العامل وحده ، بل فقط عندما يأتي في سياق عامل الدعوة الكوفية .

ب ـ إنهم كانوا يريدون البيعة من الإمام ، ولم تكن هناك رخصة في الأمر ، فيزيد قد كتب بكل وضوح لعامله : « خُذ الحسين بالبيعة أخذاً شديداً ، ليس فيه رُخصةٌ » . والبيعة هنا كانت تعني المصادقة والقبول ، وإضفاء الشرعية على حكم يزيد[٢] .

ج ـ لقد قام أهل الكوفة بعد أن امتنع الإمام عن المبايعة ليزيد بدعوته إليهم ، وأعلنوا عن استعدادهم لنُصرته ، وتسهيل أمر استلام الحكم ، والزعامة ، والخلافة له ، وهو ما ظهر في رسائلهم ، وكتبهم المتعددة ، والمستمرة له ، وهو الأمر الذي أيّده ، وصادق عليه تقرير سفير الإمام المُرسَل إلى أهل الكوفة .

د ـ العمل بالمبدأ المعروف في الإسلام باسم أصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا سيما إذا ما كان الأمر يتعدى الأمور الجزئية ، وتصبح القضية قضية تحليل حرام الله ، أو تحريم حلاله ، أو ظهور البدع ، أو تهديد المصالح العامة وحقوقها ، أو انتشار الظلم وشيوعه . ففي مكان ما ورد عنه عليه السلام : « إني لم أخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، إنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر[١] وأسير بسيرة جدي وأبي » .

---

(٢) إن البيعة التي يُراد تحميلها للإمام الحسين (ع) هنا ، كانت تعني إضفاء الشرعية على فكرة ولاية العهد اليزيدية ، وهي بيعة تختلف عن بيعة علي (ع) ، والأئمة الآخرين من بعده ، والتي كانت تعبيراً عن نزول الأئمة (ع) ، عند رأي الأكثرية .

(١) سنتطرق فيها بعد إلى موضوع المنكرات التي أوجبت تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لكن عبارة : « وأسيرُ بسيرة جدي وأبي » إنما تأتي في سياق ما حصل في أيام الإمام =

وفي مكان آخر يقول : « سمعت جدي رسول الله يقول : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لِحُرم الله . . . »

أو كما جاء في مكان آخر : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً ، إني لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا بَرَما »

كيف تعامل الإمام الحسين (ع) مع عامل البيعة

إنّ الإمام كان مستعداً لأن يتحمل القتل على أن يُبايع يزيد بأيّ شكل من الأشكال ، وتكليف الإمام من هذه الناحية كان الامتناع عن البيعة فقط .

وهذا التكليف كان يمكن القيام به ، من خلال الخروج من البلاد ، أو التحصن بشعاب الجبال (كما اقترح عليه ابن عباس) ، أو اللجوء إلى أحد المخابىء السرية ، بعيداً عن أنظار السلطات .

بعبارة أخرى فإنّ أُسلوب الإمام في تنفيذ هذه المهمة ، كان يتركز في عدم

= علي (ع) ، حيث طُلب منه العمل بسيرة الشيخين فرفض ، ومن ثم سار آل علي على نهجه أيضاً . والحقيقة أن الأمر يتعلق بالانحرافات التي كان شروعها قد بدأ في عهد الشيخين ، والتي يمكن الإشارة إليها من قبيل تقسيم بيت المال على غير سويةٍ ، أو تحقير فكرة « حي على خير العمل » التي تعني عدم تقدير الصلاة ، بمثابة نوع من الأعمال الخيّرة ، إضافة إلى اجتهادات عمر المعروفة بالاجتهادات المتنورة ! والحقيقة أن الانحرافات التي حصلت آنذاك كانت على نوعين : انحرافات عمرية ، وانحرافات عبد الله العمرية ، والانحرافات العمرية كانت تتلخص بالإقبال على أمر الجهاد ، وإغفال دور العبادة . أي تغليب كفة الفتوحات على كفة المعنويات . وأما الانحراف المتعلق بتيار عبد الله بن عمر ، فقد كان على العكس من ذلك ، إذ كانت الكفة الغالبة هي العبادة ، مقابل إغفال جانب الأعمال الدنيوية ، والجهادية .
وبالتالي فإن الحالة القائمة كانت تُفقد الجهاد معناه ، كما تُفقد الصلاة معناها . بينما كان الإمام الحسين (ع) في ليلة عاشوراء يصف أصحابه وهم يستعدون للقتال بقوله : « لهُم دويٌ كدوي النحل » . وفي يوم عاشوراء عندما يُشير أحدهم إلى الصلاة يقول له : « ذكرتَ الصلاة ، جعلك الله من المُصلين » .

الـرضوخ للبيعـة ، تحت كل الـظروف ، حتىٰ ولو أدىٰ ذلـك إلى ترك البـلاد ، أو حتىٰ مواجهة القتل .

أي إنّ سعي الإمام ، وعمله هنا ، لم يكن باتجاه استلام السلطة والحكم ، كما أنّه ليس محدوداً بعدم التعـرض للقتل ، لكنـه في الوقت نفسـه لم يحمل مهمـة توسيع رقعة الثورة ، أو حجم الدعوة ، كل ما هنـالك كـان الوقـوف بوجـه هدر دماء الآخرين .

ومن هنا كان على الإمام تكليف مركزي ، هو الامتناع عن قبول المبايعة أي رفضها رفضاً حاسماً .

إنّ مبايعة الإمـام ليزيـد في ذلك الـوقت كانت ستـأخذ بكـل جديـة شكل الموافقة الحسينية وبالتالي تعني حقيقةً إضفاء المشروعية على خلافة يزيد .

وهنـاك دلائل وقـرائن تـاريخيـة تشـير إلى أن الإمـام لم يكن عـلى استعـداد للمبايعة ، بأي شكل من الأشكـال . فضيلة الشيخ الصـالحي ينقل في كتـابه عن « مقتـل » الخـوارزمي أنه ورد في الـروايات التـاريخية بـأنّ الإمام الحسـين (ع) قـد كتب إلى محمد بن الحنفية يقول له : « لـو لم يكن في الدنيـا ملجأ ، ولا مـأوىً ، لما بـايعت يزيد بن معاوية » .

كيف تعـامل الإمام مع موضوع الأمر بالمعروف ، والنهي عنَ المنكر ؟

وهنا لابد من النظر إلى الأوضاع الخاصة التي بدأت بالبروز في زمن معاويـة وعلى أثر خلافة يزيد .

قبـل كل شيء ، لا بـد من الإشـارة إلى مـوضـوع الخـلافـة الـوراثيـة التي بتحققها ، يكون أبو سفيان قد حقق آماله القديمـة ، التي سبق وأن عبّر عنهـا أيام عثمان بقوله : « تلقفُوها تلقُّف الكرة ، ولتصيَرَنّ إلى أولادكم وراثةً ، أمـا والذي يحلِفُ به أبو سفيان لا جنة ولا نار . . » .

لقد وقف الإمام معترضاً على هذا الموضوع ، في زمن معاوية نفسه ، إضافةً إلى رفضه لسياسات أخرى كانت قد صدرت من معاوية آنذاك . حتى إنه كتب إلى معاوية ، في إحدى الرسائل ، يقول له فيها :

« ما أردتُ حرباً ، ولا خلافاً ، وإني لأخشىٰ الله في ترك ذلك » .

لكنه كان يُقدم على بعض الأعمال في زمن معاوية مما يدلُ على أنه كان يتحين فرض التمرد عليه[1] .

ولا بد لنا في هذا المجال من الإشارة إلى أنّ مثل هذه الحركات ، بل مطلق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليست من الأعمال التي تأتي في سياق الواجب التعبّدي ، بحيث إنّ الواجب يأمرنا بالنهي عن المنكر كلّما رأيناه ، وإنه ليس من واجبنا النظر إلى الآثار أو حساب النتائج المترتبة على أعمالنا في هذا الاتجاه .

بل إنّ المطلوب منّا أن نحتمل حصول الأثر الإيجابي ، أو نتيقن من حصول نتائج مثمرة ، أي إنّ مثل هذا العمل (أي النهي عن المنكر) يفرض على المكلّف أن يحسب بدقة النتائج المترتبة على قيامه بمثل هذا الواجب ، وإلّا يكون قد أهدر جهداً ضائعاً وانتهى الأمر .

(إن قضية اعتقاد الإمام ومعرفته بنتائج عمله يرتبط بما قلناه سابقاً ، من أنّ الإمام من وجهة نظر عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما كان يُمارس منطق الثورة ، ومنطق الشهيد ، وصاحب مشروع توسيع رقعة الثورة والدم ، وهو بذلك صاحب رسالة أراد أن يكتبها بحبر لا يجف أبداً ، وهو الدم) .

فهل كان الإمام يعتقد ويؤمن بنتيجة وثمرة عمله الجهادي ، وأنّ دمه المُراق لن يذهب هدراً أم لا ؟

---

(١) إن ما ذكرناه لاحقاً من ملاحظات حول كتاب فضيلة الشيخ الصالحي حيث نقل عن « رجال الكشي » و« الإمامة والسياسة » بأن الإمام قد كتب إلى معاوية يقول له : ما أردت حرباً، ولا خلافاً » هو في الواقع ما يتعلق بوجهة نظر الإمام ، في زمن معاوية بالطبع ، وهذا صحيح بدوره إذ إنّ الإمام لم تكن لديه برامج حرب ، أو خروج على معاوية بالتأكيد .

نحن نقول إنه كان يعرف ذلك جيداً ، ويؤمن به ، وهذه أدلتنا على ذلك :

أ ـ في إحدى الرسائل الخاصة ، التي ينقلها « الرياشي » يقول الإمام : « إنّ هؤلاء أخافوني ، وهذه كُتب أهل الكوفة ، وهم قاتلي ، فإذا فعلوا ذلك ، ولم يَدَعوا لله مُحرّماً إلاّ انتهكوه ، بعث الله إليهم من يقتُلُهُم ، حتىٰ يكونوا أذلّ من فرام المرأة »[1] .

ب ـ وأمّا في خطبته إلى الناس في يوم عاشوراء ، فقد ورد أنه قال : « ثم أيمُ الله ، لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفَرسُ حتىٰ تدور بكم دور الرّحى ، وتقلق بكم قلق المحور »[2] .

ج ـ وفي خطاب له مع أهل بيته في يوم عاشوراء ، قال : « استعدوا للبلاء ، واعلموا إنّ الله حافظكم ، ومُنجيكم من شرّ الأعداء ، ويُعذّب أعاديكم بأنواع البلاء » .

د ـ كما قال لعمر بن سعد مخاطباً : والله إن مُلك ري لن يدوم لك ، وإني لأرى فتيان الكوفة يرمون الحجارة على رأسك ، كما يرمون ثمار الشجرة بها .

وأمّا كيفية تعامل الإمام مع موضوع دعوة أهل الكوفة

ماذا أُريد من وراء هذه الدعوة ؟

بالتأكيد جاءت هذه الدعوة لعرض الزعامة ، واستلام السلطة على الإمام ، ومن أجل جعل الكوفة مركزاً للحكَم الإسلامي .

وقد كانت الكوفة بمثابة معسكر للعالم الإسلامي ، والكتب التي وجهها أشراف الكوفة ، وزعماؤها ، كانت كتباً موثقة ، ومبدئية ، لا غبار عليها ، وقد ورد مضمونها في الملاحظة رقم ١٦ في مكان آخر من هذا الكتاب تحت عنوان ملاحظات حول « النهضة الحسينية » . جاء فيها : « أمّا بعد : فالحمد لله الذي

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣

(٢) اللهوف : ص ٤٢

قصم عدوك الجبار العنيد ، الذي انتزى على هذه الأمة ، فابتزّها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمّر عليها بغير رضى منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولةً بين جبابرتها وأغنيائها ، فبُعداً له كما بَعُدت ثمودُ ! إنه ليس علينا إمام ، فاقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ » .

وقد ردّ عليهم الإمام ضمن تعيين مسلم بن عقيل سفيراً إليهم بقوله : « إني بعثت إليكم أخي ، وابن عمي ، وثقتي في أهل بيتي . . . ولعمري ما الإمام إلّا العاملُ بالكتاب ، القائم بالقسط الدائن بدين الله »[1] .

ومن خلال هذه الرسالة يتضح لنا رأي الإمام الخاص بالحكم ، والسلطة ، كما يتبين أيضاً مدى الاهتمام الذي يوليه الإمام لمسألة القيادة ، وبأن المنكر الأكبر هو شخص يزيد ، والموقع الذي احتله .

وفي هذا السياق يكون وضع الحسين (ع) تماماً كوضع أبيه علي (ع) بعد مقتل عثمان ، حيث اعتبر عليه السلام إجماع الأمة على مبايعته ، إتماماً للحجة عليه ، بالرغم من عدم رغبته الباطنية في تسلُّم مقام الخلافة ، من حيث إنه كان يرى المستقبل غامضاً . وهو ما يتضح من قوله : « فإنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان »[2] . . . أو كما ورد في قوله : « لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، لألقيتُ حبلها على غاربها ، ولسقيتُ آخرها بكأس أولها »[3] .

وإتمام الحجة هنا ليس بمعنى إتمام حُجة الله ، عالم السر والخفيات ، على الناس : ﴿ لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيّنةٍ ، ويَحْيَىٰ من حيّ عن بيّنةٍ ﴾[4] ، بل بمعنى إتمام حجة الإمام على الناس في الحاضر والمستقبل ، ذلك أنه لو لم يتجاوب الإمام مع تلك الدعوة ، لقال عنه جمهور ذلك العصر ، والعصور المستقبلية أيضاً ، بأنّه قد ضيّع فرصةً تاريخية مناسبة .

---

(١) ورد هذا النص في إرشاد المفيد ص ٢١٤ مع اختلاف بسيط .

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ٩٠ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة الثالثة .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

الشيء نفسه ينطبق على الإمام الحسين (ع) في النهضة الحسينية ، إذ إنّ دعوة أهل الكوفة تأتي كحجة تاريخية على الإمام ، ومما يتطلب عملاً مقابلاً من الإمام ، يُتمُ فيه حجته على الناس أمام التاريخ .

وهنا لا بد من الإشارة إلى بعض المسائل :

أ ـ إنّ حركة الإمام من مكة إلى الكوفة ، لم تكن بسبب دعوة أهل الكوفة فقط ، بل إنّ هناك دلائل قطعية ، تشير إلى أنّ الإمام لم يكن بمقدوره بأي حالٍ البقاء في مكة والقرائن التي تشير إلى ذلك هي :

أولاً : لم يُكمل الإمام حجه في تلك السنة ، ونحن نعرف أنّ حج التمتع إذا ما شرع به الشخص وجب عليه إتمامه ، ولا يجوز له تركه ناقصاً ما لم تكن هناك ضرورة قصوى ، تستدعي ذلك ، كالخوف من القتل ، إلاّ إذا افترضنا أنّ الإمام لم يكن قد أتىٰ عمرة التمتع إلى ذلك الحين ، وأنه كان قصد العمرة المفردة من الأساس ، لأن الإمام كان قد دخل الإحرام بالتأكيد في تلك الأيام ، وبحركته تلك خرج من طور الإحرام .

ثانياً : حينما خرج الإمام من مكة ، شبّه حالته بحالة موسىٰ بن عمران وهو يعبر صحراء سيناء متجهاً من مصر إلى فلسطين لأنه قرأ في حينه هذه الآية الكريمة : ﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبْ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوجَّه تِلْقَاءَ مَدْيَنِ ، قَالَ : عَسَىٰ رَبِّي أن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيل** ﴾[1] .

وتأتي حركة موسىٰ (ع) هنا بعد أن أخبروه : ﴿ **إنّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إني لَكَ مِنَ النّاصحينَ** ﴾[2] .

ثالثاً : في ردّه على أبي هرة الأزدي ، يقول الإمام : « إنّ بني أمية قد أخذوا مالي ، فصبرتُ ، وشتموا عِرضي فصبرت ، وطلبوا دمي فهربت »[3] .

---

(١) سورة القصص : الآيتان ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) نفس السورة : الآية ٢٠ .

(٣) اللهوف ص ٢٩ .

كما أنه جواباً على الفرزدق قال : « لو لم أعجل لأُخذتُ » .

كما يقول الشيخ المفيد : « ولم يتمكن من إتمام الحج ، مخافة أن يُقبض عليه بمكة ، فيُنفذ به إلى يزيد بن معاوية »[1] .

ويذكر العقّاد أيضاً في كتابه (رأسمال الحديث) أنّ عمرو بن سعيد بن العاص ، كان قد توجّه مع جماعة ، وهم يحملون أمراً بقتل الإمام .

كما ورد في كتاب « الطريحي » أيضاً بأن ثلاثين شخصاً من بني أمية ، كانوا قد تلقّوا الأوامر لتنفيذ مهمة اغتيال الإمام .

وقد أوردت في هذا الكتاب ، في فصل ملاحظات حول « النهضة الحسينية » مزيداً من الأدلة بهذا الاتجاه أرجو مراجعة الملاحظتين (١٠و١١) بهذا الخصوص .

ب ـ كم كانت قيمة وأهمية هذه العوامل من وجهة نظر الإمام ؟ وأيٌّ منها كان هو العامل المهم ، والهدف الأساسي في النهضة ؟

نقول : إنّ العاملين الأولين لم يكونا تابعين لبعضهما البعض بالتأكيد ، أي إننا إذا ما افترضنا جدلاً ، أنّ الإمام لم يكن مُطالباً بالبيعة ، فإنه قد يكون معترضاً من باب العمل بالأمر بالمعروف .

ولو أنه لم يكن معترضاً على الحكم من هذا الباب ، لكنه ليس في عداد المُبايعين أيضاً ، إذن فالبحث ينحصر في مدى أهمية وأصالة العامل الثالث .

من الممكن أن يتصور البعض أنّ العامل الأساس هنا كان في رغبة الإمام لاستلام السلطة ، وأنّ العاملين الآخرين وهما : الامتناع عن البيعة ، والمعارضة والنقد تحت شعار الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ما هما إلاّ مقدّمةً لذلك .

ومن ثم فإنه يصبح من الطبيعي لمن يرى أنّ الأوضاع تميل لصالحه ، وقد

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢١٨

وضع نصب عينيه استلام السلطة ، أن لا يبايع ، حتى لا يُخرب الأرضية اللازمة لمخططه ، وأن يبحث في الوقت نفسه عن عنوان دِعائي ، يستند إليه في معارضة السلطة ، وإنّ أفضل يافطة يمكن التوسل بها في ذلك العصر تتمثل في المبدأ الإسلامي المعروف بمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

باختصار فإن الامتناع عن البيعة ،ورفع لواء المعارضة ، تحت يافطة الأمر بالمعروف ، كانتا المقدمة الطبيعية للتوجه إلى الكوفة .

وبالتالي فإنّ النتيجة ستكون العودة عن التمسك بذينيك العاملين ، أو اليافطتين ، في اللحظة التي يشعر فيها الإمام بأنّ الأوضاع لم تعُد مناسبة لمخططه في الكوفة ، أي إنه يصبح مستعداً للبيعة كما هو على استعداد لوقف المعارضة ، ونقد أوضاع السلطة الحاكمة .

هذا هوالانطباع الذي يُعطيه كتاب فضيلة الشيخ الصالحي . في حين أنّ المسألة ليست بهذه الصورة أبداً . وهذا هو الخطأ المركزي الذي يرتكبه الصالحي في تحليله للواقعة .

فالإمام لم يكن مستعداً للتسليم بالأمر الواقع لحكومة يزيد ، ولم يكن على استعداد لمبايعته تحت كل الظروف ، وهو القائل : « . . . ولو لم يكن ملجأ ، ولا مأوىً » . أي سواء كانت الكوفة مهيأة لاستقبالي ، أم غير مهيّأة، ففي الحالتين لن أُبايع .

كما أنّه لم يتراجع عن نقده ، واعتراضه على الأوضاع العامة ، حتىٰ بعد أنْ يئس من مناصرة الكوفيين له .

فخطبه الحماسية إنّما ألقاها بعد أن واجه جيش الحر ، واطّلع على أوضاع الكوفةعن قُرب ، وعندما وصله نبأ استشهاد سفيره « مُسلم بن عقيل » أو « قيس بن مُسهّر » ، أو « عبد الله بن يقطر » ، تراه يقرأ الآية الشريفة : ﴿ مِنَ المؤْمنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدوا الله عَلَيْهِ فَمِنهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَه ، ومَنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر . . . ﴾[1] .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .

وقد يكون أحد أسباب إصرار الإمام ، وصموده حتىٰ النهاية ، بعد أن انقلب الوضع في الكوفة لغير صالحه ، هو محاولته لإفهام الرأي العام بأنّ الامتناع عن البيعة ، ونقد الحكم لم يكونا مقدمةً لاستلام السلطة ، والسيطرة على الكوفة .

وأمّا ما يُنقل عن انصراف الإمام وطلبه تغيير مسيره ، فهو الانصراف عن التوجه إلى الكوفة ، وليس التراجع عن موقفه القاضي بعدم المبايعة ، أو نقد الحكم والحكومة ، والعمل بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وخلافاً لوجهة نظر الصالحي فإنّ الامتناع عن البيعة ، وإعلان النقد والمعارضة ، ليسا الأرضية المرجوة للوصول إلى الكوفة ، حتىٰ يكون تغيُّر أوضاع الكوفة سبباً في تراجع الإمام ، واستعداده للبيعة ، أو التوقف عن المعارضة والنقد .

نعم فهو كان يعرفُ تماماً خطر النقد ، والاعتراض ، وآثاره الدموية المترتبة عليه ، بل إنه كان يُريد تسجيل مثل هذا الاعتراض بالدم حتىٰ لا يمحىٰ أثره مُطلقاً .

ثم إنه لم ينتخب طريقاً يُجنّبه على الأقل، مقتل أبنائه وأنصاره، إذا افترضنا أنّه كان يَعلمُ بأنّ الخطر مُحدِق به لا محالة ، لكنه كان يعرف أيضاً بأنّ الخطر لم يكن مُحدقاً تماماً بأصحابه ، وبأهل بيته .

وعليه فكيف تساهل إذاً، في مقتل هؤلاء ؟!

أضف إلى ذلك ، فإنه ، وحتىٰ بعد اصطدامه بجيش الحر بن يزيد الرياحي ، تراهُ يطلب المزيد من الدعم ، والنصرة ، من أهالي المنطقة ، لا سيما من بني أسد ، وبالذات في ليلة العاشر من مُحرّم ، من خلال إرساله عبيد الله بن حر الجعفي ، والضحاك بن عبد الله المشرفي (راجع التواريخ ، وستجد أنّ هذا الأمر قد حصل بعد المواجهة مع الحر) .

ج ـ هل إنّ الإمام كان قد وضع ثقته الكاملة في أهل الكوفة ، وحَسُنَ ظنه بهم ، وبعبارة أخرىٰ كان يحسب حساباً لأهل الكوفة ، أم لا ؟

إنّ البعض أمثـال « ابن خلدون » و« القـاضي ابن العـربي » ، والبعض الآخر ، ومنهم الشيخ الصالحي ، اعتبروا أنّ العامل الأسـاس في نهضة الإمـام ، هو في الوضع الكوفي ، ودعوة أهل الكوفة ، للإمام ، وبالتأكيد فإنهم يكونون قـد فرضوا حصول الثقة والاطمئنان لدىٰ الإمام ، تجاه الوضع الكوفي .

ولذا تراهم قد عابوا على الإمام حُسن ظنه بأهل الكوفة ، الـذي لم يأتِ في الموقع والوقت المناسب ! أو كما اعتقد الصالحي بأنّ حُسن الظن ، والثقة ، وتقدير الموقف لدىٰ الإمام ، كانت سليمة ، لكن تغيير الأوضاع الفجائية هناك ، والتي لم يكن بالإمكان التنبؤ بهـا من خلال القنـوات العاديـة ، والسُبل الـطبيعية كـان هو السبب في وقوع الهزيمة ، تمامـاً كما حصـل للرسول (ص) في (غـزوة أحد) حيث سبب خطأ رُماة الجبل ، تلك الهزيمة المعروفة .

وبديهي القول هنا إنّه لو كان العامل الأساس في نهضة الإمـام ، هو الـدعوة الكوفية بالفعل ، لوجب على الإمام اتخاذ مزيدٍ من الحيطة والحذر ، قبـل التوجـه إلى هناك ، ولكان قد وجب عليه العمل بنصيحة ابن عباس ، وعدم الثقـة بأهـل الكوفة ، لا سيما وأنّ الناصحين بذلـك كانـوا كثيرين ، وهم يقـولون : « قلوبُهُم معك ، وسيوفُهُم عليك » .

وكان الإمام نفسـه يقول : « لا يخفىٰ عـليّ الأمر » ، وفي ردّه عـلى الفرزدق تراهُ يقول : إننا نشكر الله أن جاءت النتائج وفق مُرادنا ولكن « وإنْ حال القضـاء دون الرّجاء ، فلن يتعدّ (يعتد) من كان الحقُ نيّته ، والتقوىٰ سريرته » .

هذا بالإضافة إلى أنّ خُطباً كثيرة تُروى عن الإمام ، أنّه قد أوردها ، وهـو في طريق العراق ، والتي تُشـير جميعاً إلى أنّ الإمـام ، لم يكن يعتبر رحلتـه رحلة آمنةً بعيدة عن المخاطر ، بل على العكس من ذلك .

فإذا أخذنا خطبة : « خُطّ الموت على ولد ابن آدم . . » .

وعبارة : « وإنّ من هوان الدنيا أنّ رأس يحيى بن زكريا ، أُهـدي إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل » .

وكذلك منامه المعروف : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً » .

وأيضاً مقولة : « إنّ لك درجةً عند الله لن تنالها إلاّ بالشهادة » .

مــع هذه النصـوص التاريخيـة باعتبـارها وثـائق صحيحـة ، ومُسنـدة فـإن الموضوع يصبح واضحاً للغاية .

د ـ هل إنّ الإمام قد تحرك قاصداً كربلاء منذ البدايـة أم لا ؟ وإذا افترضنـا بأنه لم يكن يقصد كربلاء ، فهل كـان يستهدف القتـل من حركتـه تلك ، وبعلمٍ مسبق بأنّه سيُقتل في هذه الرحلة أم لا ؟

ليس هناك دليل تاريخي يُثبت لنا أنّ الإمام كان ينوي التوجه إلى كربـلاء في رحلته من مكة نحو العراق ، كما أنّه ليس من الممكن إثبات كونـه كان عـالماً بمقتله منذ البداية .

كل ما هنالك يمكن القـول من الناحيـة التاريخيـة ، وبالاستنـاد إلى ظواهـر الأمور ، إنه قد تحرك بقصـد التوجـه إلى الكوفـة ، ولّما كـان قد اصـطـدم بجيش « الحُر » ، وعدم سماح الحُر له بالخروج من الأراضي العراقية مرة أخرى ، ورفض الإمام كذلك لاقتراح الحُر أن يذهب مخفوراً إلى الكوفة ، الأمر الذي دفع بالحُر أن يجعجع بالإمام غرباً ، وبمحاذاة الجادة الرئيسية ، حتىٰ وصوله إلى كربلاء .

وعندها وصل كتاب ابن زياد ، الذي أمر بإيقـاف القافلة هنـاك . هذا من الناحية الأولى .

وأمّا من الناحية الثانية فإنّ التاريخ لا يؤكد لنا سـوىٰ أمر خـطورة الرحلة ، وعدم الاطمئنان لها .

في الوقت نفسه فـإنّ هذا الأمـر لا يتنافىٰ ولا يتـعـارض مع فكـرة أنّ الإمام ومن خلال البعد الآخر لشخصية الإمام ، وهو البعد المعنوي للإمامـة ، أن يكون عارفاً بأنّه سيحل بكربلاء في النهاية ، وأنه سيستشهد هناك .

هـ ـ ماذا يعني قرار الإمـام بالانسحـاب لعدة مـرات سواء بعـد اصطدامـه بجيش الحر مباشرةً أو بعد وصوله كربلاء أيضاً ؟

لقد سبق وقلنا إنّ قرار الإمام هـذا ما هـو إلاّ عبارة عن تـراجع الإمـام عن

هدف التوجه إلى الكوفة ، وإعلان الحكومة هناك ، وليس قراراً بالتراجع عن فكرة عدم مبايعة يزيد ، ولا قراراً بالتراجع عن مبدأ النقد والاعتراض على الحكم في سياق مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وخلافاً لوجهة نظر الصالحي فإن الإمام لم يتراجع عن هدفيه الآخرين بعد سقوط الكوفة ، إذ إنه لم يكن يرى في مقولة عدم المبايعة ، ومبدأ النقد والاعتراض على الحكم ، كسلاح تكتيكي ، من أجل الوصول إلى الزعامة ، كما إنه كان عالماً بخطر تحركه ذلك تماماً .

كل ما هنالك فإنه كان يُريد إعلان رفضه للمبايعة ، ونقده للحكم وللأوضاع الفاسدة ، وإيصال رسالته وصوته إلى الرأي العام بالدم ، الذي لا يمكن محوه أبداً .

و ـ من البديهي القول إنّ انتفاضة الإمام من زاوية عامل الدعوة الكوفية تعتبر نوعاً من الثورة الابتدائية ، بل وحتى نوعاً من التحرك الذي يستهدف الإمساك بالسلطة ، ولا يقتصر الأمر على كونه نوعاً من التمرد ضد الحكم الذي يستهدف إضعافه ، أو إصلاحه ، في حين أنّ المسألة من زاوية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يمكن اعتبارها حركة تستهدف الإصلاح ، سواء حصل ذلك الإصلاح من خلال إضعاف الحكم ، أو بسقوطه ، أو من خلال إصلاحه فقط .

ز ـ يتضح مما سبق أنّ الإمام كان يحمل تكليفاً خاصاً ، بموجب كل عاملٍ من تلك العوامل .

كما يتضح أيضاً بأنّ أهمية النهضة الحسينية تكتسب بُعداً وقيمةً خاصة ، من خلال كل عامل من تلك العوامل .

فمن خلال عامل الدعوة الكوفية ، واحتمال نجاحها الذي لم يكن يبلغ أكثر من (٥٠٪) فإنّ أهمية النهضة الحسينية لا تتجاوز أكثر من بروز فرصة مناسبة للإمام للتحرك ، وفي إطار ذلك أيضاً يتبين نهج الإمام الخاص بالحكم ، والذي يظهر بوضوح من خلال رسالته إلى أهل الكوفة ، والتي حملها إليهم مسلم بن عقيل ، وخطبته المعروفة بالبيضة .

وأمّا من زاوية عامل البيعة ، فإنّ أهمية عمل الإمام ، من هذه الناحية ، وحتى قبل إعلان النُصرة من جانب أهل الكوفة ، ينحصر في الواقع في رفض الإمام لطلب الحكومة القمعية والدموية وهي المبايعة ، واستعداده أنْ يموت على أن يبايع تلك الحكومة .

واستناداً إلى هذا العامل ، فإنّ الحكومة لو لم تطلب منه شيئاً ، وكانت قد تركته وشأنه ، فإنه لم يكن يُريد منها شيئاً .

وأمّا من ناحية العامل الأول فإنّ عدم دعوة أهل الكوفة له ، وعدم إعلانهم الاستعداد لنصرته ، ربما كان يعني عدم تمرد الإمام على الحكم ، بل وحتىٰ مبايعته كذلك .

على كل حال نقول : إنّ عامل الامتناع عن المبايعة ، أكثر أهميةً من عامل قبول دعوة أهل الكوفة ، ذلك أنّ عامل قبول الدعوة الكوفية كان يحمل معه احتمال النجاة والفرار بالجلد ، إضافة إلى احتمال النجاح والموفقية ، في إسقاط الحكم ، واستلام السلطة ، في حين أنّ عامل الامتناع عن المبايعة ، لا سيما في الأيام الأولى من طلب البيعة ، كان يحمل معه نسبة عالية من الخطر ، بل إنّ احتمال الموت المحقق كان عالياً جداً .

وأمّا عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والذي يستند إليه الإمام كثيراً في خطبه ، ويذكره منفصلاً عن أية إشارة إلى عامل الامتناع عن المبايعة ، أو عامل الدعوة الكوفية ، فإنه في الواقع العامل الأكثر أهميةً وقيمةً ، من كلا العاملين الآخرين ، ذلك لأنّ الإمام في هذه الحالة ، هو الذي يتّخذ قرار المواجهة مع الحكم الراهن آنذاك وأنّ تلك المواجهة نوع من الهجوم ، الذي يبدأه الإمام بنفسه ، وليس الحكومة ، ولا حتىٰ الناس .

وكما قلنا : فإنّ الإمام في إطار هذا العامل عنصر مهاجم ، ومعترض ، وليس مدافعاً ، وعمله نوع من العمل الابتدائي ، وليس محض رد فعل سلبي على طلب البيعة ، أو ردّ فعل إيجابي على طلب الدعوة الكوفية له لتشكيل الزعامة .

واستناداً إلى هذا العامل فإنّ الإمام عنصر معارض ومتمرد ويريد تغيير

الأوضاع الفاسدة ، سواء أطلبت منه الحكومة البيعة ، أم لم تطلب .

وسواء كذلك أن يكون أهل الكوفة قد دعوه إليهم ، وأعلنوا نصرتهم لـه ، أم لم يفعلوا ذلك .

فإنّه رجل المعارضة والتغيير في كل الحالات ، ومن هـذه الناحيـة فهو درسٌ كبير وغنيٌّ ومفيد للغاية لنا .

وعليه ، فإنّ هذه العوامل الثلاثة ، تختلف عن بعضها البعض ، وتتفـاوت أهميتهـا سواء من زاويـة تكليف الإمام ، وردّ فعله تجـاه كل واحـدٍ منهـا ، أو من زاويـة قيمتها ، وصـلاحية مـوضوعهـا للإحيـاء والتخليد ، أو من زاويـة آثارهـا التعليمية والتربوية .

وكما سبق وأن ذكرنا مراراً فإنّ الإمام من زاوية هذا المنطق صاحب ثـورة ، ورسالة ثورية عامة ، وشاملة .

أسئلة حول النهضة الحسينية

١ ـ هـل إنّ الانتفاضـة الحسينية نـوعٌ من الانفجار العفـوي ، أم نوع من الإرادة الواعية ؟ .

وفي حالة الاحتمال الثاني ، فهـل هي ثورة ، وقيـام ابتدائي منـاهض لجهاز الحكم والسلطة ، أم نوعٌ من الدفاع والمقاومة مقابل جهاز السلطة ؟ .

وإذا كـان دفاعـاً ، فهل هـو دفـاعٌ مقابـل محاولـة الحكم النيل من الإمـام واغتياله ، أم مقابل مطالبتهم إيّاه بالبيعة ؟ .

وإذا ما كان التحرّك عبارة عن ثورة ابتدائية ، فهل كانت الثورة قد حصلت بسبب دعوة أهل الكوفة لـلإمام أم إنّ الثـورة كانت ستحصـل حتى ولو لم تحصـل الدعوة ؟ .

٢ ـ هل كان الإمام يعلم أنّه سيقتـل (وهل كـان ذلك من علم الإمـامة أم من خلال القرائن الحتمية)، أم أنّه لم يعلم بذلك ولم يتصوّر أنه سيُقتل ؟ .

وفي الحالة الثانية أي إذا كان لا يعلم ، فهل كان سيتصرف بغير ما تصرف به أم أنّه كان سيتصرف كما تصرّف بالفعل ؟ .

وبالتالي فإنّه بعد أن عَلِم بأنّه سيُقتل هل ندِم على ما فعل أم لا ؟ .

٣ ـ هل إنّ الإمام الحسين (ع) كان قد قصد كربلاء منذ البداية (وبالتالي نحو مكان قتله بالضرورة) ، أم إنّه حتى إذا ما افترضنا معرفته الواعية بالذهاب نحو القتل ، فإنّه لم يكن يقصد كربلاء بالذات ؟ .

وإذا لم تكن كربلاء وجهته ، فأين كانت وجهته إذن ؟ أم هل كانت وجهته العراق ، ومعسكر المسلمين ، ومركز الشّيعة على العموم ، حتى يتخذ منه مقراً عاماً لتحركاته المقبلة ، أم إنّه لم يكن يقصد نقطة معينةً بالذات بقدر ما كان يهدف الخروج من الحجاز ، وربما كان يهدف التوجّه إلى الشام أيضاً ؟ .

وفي كل الأحوال إذا كانت وجهته ليست كربلاء ، فهل كان يعلم بأنّه سيستشهد في هذه الرحلة أم لا ؟ .

٤ ـ هل اقترح الإمام مشروعاً أو خطة للصلح أم لا ؟ .

وإذا كان الجواب بالنفي ، فهل إنّ الطرف المقابل اقترح الصلح على الإمام ، ولم يقبل به الإمام ؟ .

وإذا ما افترضنا أنّه اقترح الصلح ، فعندها ينبغي الاستنتاج بأنّه لا فرق بين الحسين (ع) وأخيه الحسن (ع) ، إنّما الفرق يكمن في الطرف المقابل ، فمعاوية قَبِل بالصلح ، بينما يزيد رفض صلح الحسين .

وإذا ما كان قد اقترح الصلح بالفعل فلماذا لم يبايع منذ البداية ؟ .

الأستاذ الصالحي النجف آبادي يعتقد أنّ الإمام اقترح الصلح خمس مرّات .

٥ ـ إذا كان الإمام الحسين (ع) لم يُقدِّم اقتراحاً بالصلح ، ولم يقبل كذلك باقتراح الصلح من الطرف المقابل ، فما هو السبب وراء ذلك ؟ ثم ما هو السبب في قبول الإمام الحسن (ع) للصلح ؟ .

٦ ـ هل يمكن لعبارة : « إنّ الله شاءَ أن يراكَ قتيلاً » . أن تكون صحيحةً حقّاً ؟ .

٧ ـ لماذا أبدى الإمام الحسين (ع) كل تلك المقاومة تجاه مطالبة السلطات له بالبيعة ، بينما لم تظهر مثل تلك المقاومة من قبل أمير المؤمنين ، والأئمة الآخرين ؟ .

وهل يمكن القول بأنّ بيعة علي (ع) كانت نوعاً من التسليم للأكثرية ، وإنْ كانت على خطأ ، بينما كانت بيعة الإمام الحسين ليزيد ستعني التسليم بفكرة ولاية العهد ، وإضفاء الشرعية على الحكم الوراثي ؟ .

٨ ـ هل هناك فرقٌ بين البيعة والصلح أم لا ؟ .

أي هل يمكن لنا القول بعدم جواز البيعة في ظروف معينة ، لأنّ البيعة قد تعني هناك إضفاء الشرعية على الحكم ، وتأييده ، بينما الصلح ممكن وجائز باعتبار أنّ الصلح عادةً ما يحصل بين طرفين متخاصمين ، ولا يحمل معه أي مفهوم بالتأييد ، أو إضفاء الشرعية على الطرف الآخر بل يُفيد معنى التخاصم ؟

وعليه هل يمكن القول بأنّ الإمام الحسين (ع) لم يكن مستعداً للمبايعة ، بينما أبدى استعداداً للصلح باعتباره رجل المعارضة ، أو الخصم المعارض للسلطة المركزية ؟

٩ ـ هل توجد قرائن تاريخية تدلّ على أنّ الإمام الحسين (ع) كان بصدد استلام السلطة ؟ .

أم أنّه لم يكن أكثر من رافض لفكرة المبايعة ، أو في أحسن حالاته واحداً من العاملين بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ .

ونحن من جهتنا نعتقد بأنّ الردّ الإيجابي للإمام على دعوة أهل الكوفة وكتبهم خيرُ قرينةٍ على أنّ الإمام كان بصدد استلام السلطة والزعامة ، ومجيء « مسلم » إلى الكوفة إنّما حصل من أجل ذلك .

وتأسيساً على ذلك يطرح السؤال التالي نفسه وهو : هل إنّ توجه الإمام من

المدينة إلى مكة ، كان لمجرد الامتناع عن البيعة ، أم بسبب وجود إمكـانية للعمـل والنشاط من أجل الزعامة ؟ .

١٠ ـ هل إنّ بيعة السجّاد ليزيـد في وقعة « الحـرة » قد حصلت عن طـريق مسلم بن عقبة ؟ .

١١ ـ إنّ أحد الأسئلة المطروحة على الدوام ، هو التسـاؤل عن سبب تكرار الإمام لاقتراح العودة إلى الحجاز ، بعـد اصطدامـه بجيش الحُرّ ، والمـواجهة مـع عمر بن سعد ؟! .

١٢ ـ هـل إنّ اقتراح الإمـام بالعـودة إلى المـدينـة بعـد مـواجهتـه للحـرّ ، ولعمر بن سعد ، كان يستهدف توسيع رقعة الثورة ؟ .

١٣ ـ إذا كـان الإمام لا يُـريد الانتفـاضة والثـورة ضد الحكم ، فلماذا إذن يدعو أهل البصرة للقيام ، ويكتب الكتب إليهم ؟ .

وهـل قام الإمـام بكتابـة مثـل هـذه الكتب إلى أهـالي المنـاطق والـولايـات الأخرى ، مثل اليمن ، وخراسان ، ومصر ، وغيرها أم لا ؟ .

ربما يكون قد حصل مثل هذا الأمر لكنه ظـل طي الكتمان ، والمعـروف أنّ رسائل البصرة قد تمّ الكشف عنها بواسطة « المُنذر بن جارود » .

١٤ ـ يطرح الأستاذ الغفاري في مقدمة مؤلفه « تحقيق في تاريخ عـاشوراء » القضايا التالية على بساط البحث ويقول :

هـل إنّ عمل الحسـين بن علي ، وتحـركه ، كـان نتيجةً لقـرار الامتناع عن البيعة ، أم تحركاً استهدف التجاوب مع الدعوة الكوفية ، أم إنّه كان انتفـاضةً ، ونهضة ، وثورةً ، كما يُعبّر عنها في العصر الحديث ؟ .

وهل كان يعلم بأنّه سيُقتل أم لا ؟ .

وهـل كان يتحـرك بناءً عـلى مخطط مـدروس سلفـاً ، أم أنّـه كـان يتخـذ القـرارات ، والإجراءات ، سـاعة بسـاعة ، وحسب نـوع الحـدث الآني في كـل مرة ؟ .

ولماذا تراهُ أحيـاناً يُـرخِّص رفاق دربـه ويُخيِّرهم بـين البقاء ، أو الـذهاب ، وأحياناً أخرى تراهُ يطلبُ المزيد من العناصر للدعم والمساندة ؟ .

فقد اقترح مثلاً على جماعته تـركه وحيداً ، والذهاب وشأنهم ، بعد سماعِـه نبأ استشهاد مسلم ، لكنـه طلب من « عُبيد الله بن حـر الجُعفي » ، و « زهير بن القين » ، و« الضحاك بن عبد الله المشرقي » أنْ يلتحقوا به ، ويدعموه ، بل إنّـه تراهُ يطلب من الضحّاك أن يقدّم له الدعم والمساندة ، حتى النهاية ، ثم يذهب .

وفي ليلة العاشر من محرم تراهُ يُحرِّر أَنصاره وأهل بيته كافة من عقد البيعة ، بينـما يـطلبُ النصرة والاستمـداد من قبيلة بني أسـد ، عن طـريق « حبيب بن مظاهر » .

ثم إنّ الـذي يعلم مدى خـطورة مثل ذلـك العمل ، الـذي أقدم عليـه ، واحتمال مقتله في ذلك الـطريق ، كيف يا تُـرى يأخـذ عيالـه وأولاده معه إلى تلك الموقعة ؟ .

البعض تصوّر أنّ ذلك إنّما قد حصل بدون خطة مسبقة ، وكـل ما هنـالك أنّه أصبح أمراً واقعاً بالتدريج .

وبرأي هذه الفئة فإن تحـرك الإمام قـد بدأ في الـواقع عنـد ما رفض البيعـة ليـزيد والأمـر الذي تـطلّب توجهـه إلى مكة بـاعتبارهـا محلاً آمنـاً لـه ، ولأهله ، وعياله ، وأولاده .

لكن الـذي حصل فيـما بعد من تـطورات لا سيما أمـران أجبرا الإمـام على ضرورة مغـادرة مكة ، وهمـا الخوف من اغتيـاله في مكـة وهتك حُـرمة الكعبـة ، والثاني دعوة أهل الكوفة له بالتوجّه إليهم .

ومـع هزيمـة مسلم التي تصادفت مع وصول الإمـام إلى حدود العـراق فـإنّ الإمـام قد قـرّر العـودة من حيث أتى ، لكن الإمـام منـع من ذلـك ، وتـورط في كربلاء ، وقُتل هناك .

البعض قال إنّ الإمام لم يكن يعلم بأنه سيُقتل ، وإلاّ فإنّه لم يكن يُقدم على

مثل ذلك التحرك ، وإنّ الإمام لم يكن يتصور أنّه وهو القريب من رسول الله (ص) سيتعرض للقتل والتصفية .

البعض الآخر قال بالعكس فالإمام كان متيقّناً بأنّه سيُقتل في كل الأحوال ، وعليه فإنّه اختار الشهادة بعزةٍ على القتل ذليلاً .

والأستاذ الغفاري نفسه يرى هنا بأنّ حركة الإمام الحسين ، وأعماله ما هي في الواقع إلاّ نهضة ، وانتفاضة ، وانقلاباً ، وثورة .

وإنّ هناك بعض المقدمات التي توافرت في زمن معاوية ، والتي كانت تستوجب من الإمام ، القيام ، والثورة .

ومن زاوية أخرى فإنّ هناك الكثير من القرائن والدلائل التي تُشير إلى أنّ الإمام كان يُعدُ لمثل تلك الأيام ، منذ ذلك الحين .

ونحن بدورنا سنشير إلى تلك الاستعدادات في أوراقنا التي سيأتي ذكرها في فصل « ملاحظات حول النهضة الحسينية » تحت الرقم (٣٨) .

ملاحظات حول النهضة الحسينية

١ ـ يقول الأستاذ صالحي نجف آبادي في مقدمة كتابه[1] : « في موضوع واقعة كربلاء ، توجد وجهتا نظر : إحداهما إفراطية، وأخرى تفريطية ، فواحدة تقول بأنّ الانتفاضة الحسينية ما هي في الحقيقة سوى ثورة غير ناضجة ، وانتفاضة ، أو تمرد لم يُحسب له حساب دقيق ، أو قل انقلاب فاشل ،تسبَّب في إشاعة الفوضى ، وتخريب النظم العامة للبلاد ، الأمر الذي أجبر الطرف المقابل على قمع ذلك التمرد ، حفاظاً على النظام العام ، والاستعانة بقوة السيف ، والترس ، وسائر الأسلحة بهدف إرجاع سلطته ، وذلك عملاً بتعاليم النبي التي تُفيد بضرورة قمع كل من يُريد إيجاد الفرقة ، بين المسلمين ، وأُمة الإسلام .

(١) وهو الكتاب المعروف « بالشهيد الخالد » .

بينما تقول وجهة النظر الثانية : إنّ الحسين بن علي (ع) ، إنما تحرّك بتعليمات خاصة موجهة إليه شخصياً من عالم الغيب ، وأودى بنفسه إلى القتل ، تطبيقاً لتلك التعاليم التي لم يطلّع عليها أحد .

ونحن نقول : دعونا نفترض أنّ الثورة الحسينية كانت تحركاً غير ناضج ومُتسرعاً ، كما تدعي الفئة الأولى لكننا لا يجوز هنا أن نبرر للطرف المقابل قمعه لها ، وضربه إياها ، والتعبير عنها ، بمثابة نوع من الإخلال بالنظم العامة ، لأنه في الحالات التي يظهر فيها فساد الحكم ، وتكون الإمكانات للقيام مفقودة ، فإنّ ذلك لايكون دليلاً على شرعية قتل من يتمرد ، أو يقوم على ذلك النظام ، وإنْ كان الحكم العام هو بعدم القيام .

وثانياً : فإنّ هناك شقاً ثالثاً في القضية ، وهو أن يكون الإمام الحسين (ع) قد قام ضد الوضع ، عملاً بالتعاليم الكلية للإسلام ، وهي التعاليم التي لا تفرض حتمية توفر النجاح ، وحصول الموفقية التامة ، بل يكفي أن يكون هناك **احتمال بتحقق أهداف القيام ، حتى يصبح ذلك جائزاً ، إضافةً إلى أنّ عدم تحقق** نتائج القيام لا يُلحق ضرراً بالإسلام ، بل عساهُ يكون قد دفع بالأوضاع خطوةً متقدمة نحو تحقيق أهداف الثورة والإصلاح .

وهذا ما يتبين أيضاً من كلام الإمام نفسه في جوابه إلى الشاعر المعروف « الفرزدق » حينما التقاه في الطريق بعد الخروج من مكة ، إذ قال له : « وإنْ حال القضاء ، دون الرجاء ، فلن يتعدى من كان الحقُ نيّته ، والتقوىٰ سريرته »[1] .

وأمّا الشق الرابع ، فإنه ينبغي القول بأنّ العلم بالقتل لا يعني العلم بعدم تحقق أهداف النهضة والقيام .

لأننا لا نستنتج ذلك من تصور الإمام إلّا إذا كانت أهداف الثورة منحصرةً بتحقق زعامة الإمام ، فعندها فقط يكون القتل مساوياً لعقم الثورة ، وفشلها ، وهزيمة أصحابها .

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢١٨ ، وقد جاء فيه « فلم يبعد » مقابل « لن يتعد » .

بينما لو كان الهدف هو إضعاف الحكم الأموي ، وإظهاره بمظهر المخالف للإسلام ، وإحياء سنة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فعندها لا يكون القتل مساوياً لفشل الثورة ، وعدم تحقق أهدافها[١] .

ولو لم يكن قد حصل مثل هذا القيام الذي تبعه انتفاضات أخرى ، فإنه لم يكن بالإمكان فصل الإسلام ، والأموية عن بعضهما البعض ، مما يعني أنّ زوال الأموية يوماً ، كان سيعني زوال الإسلام أيضاً .

٢ ـ عندما يُبحث في أسباب النهضة الحسينية ، فإنه يتم البحث حولها ، مرةً من زاوية الأسباب التي دفعت الإمام إلى مثل ذلك القيام ، وأحياناً يمكن النظر إليها من زاوية الأسباب والبواعث ، التي كانت تدفع بالعدو ، للضغط على الحسين بن علي (ع) ؟ والأستاذ الصالحي يرىٰ أنّ عوامل الضغط ثلاثة :

أ ـ ترسيخ دعائم الحكم من خلال أخذ البيعة له ، وبيعة الإمام بالذات كانت تعني الكثير بالنسبة ليزيد ، بينما امتناعه عن المبايعة كان يُلحق الضرر البالغ به وبحكومته .

ورفض البيعة من قبل الإمام كان بمثابة الأمر الأكثر إثارةً في ظل سقوط حكم معاوية الديكتاتوري الذي دام لأكثر من عشرين عاماً .

ب ـ عقدة الحقارة التي كانت تُحرّك مشاعر يزيد ، وتوجهُ تحركاته ، وهي المشاعر التي بدت بوضوح عندما آتوه برأس الإمام من الكوفة ، فإذا به يقرأ الآية الكريمة : ﴿ قُلْ اللهمّ مَالِكُ المُلْكِ . . . ﴾[٢] .

ج ـ حس الانتقام الذي يعود إلى ماضي الصراع بين بني هاشم وبني أُمية ،

---

(١) تماماً كما يحصل في عصرنا الراهن ، عندما يقوم أفراد معنيون بحرق أنفسهم ، أو في الحقيقة يُشعلون بأنفسهم شعلة الثورة ، فيكونون الشرارة الأولى للقيام ! حتىٰ وإن كان مثل هذا العمل غير جائز في الإسلام ، لكنه في الوقت نفسه لا توجد هناك ضرورة بضمان عدم الموت حتىٰ يصبح القيام ضرورياً . وهذا ما فعلُه قيس بن مُسهّر الصيداوي ، وعبد الله بن يقطر ـ وهما من سفراء الحسين إلى أهل الكوفة ـ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

وما فعلة (هند) في أكلها لكبد حمزه بن عبد المطلب ، وردود فعل أبي سفيان المختلفة ، على مر التاريخ ، إلاّ خير شاهد على ما نقول .

وقد تركت حرب (بدر) آثارها أيضاً في أعماق بني أمية ، وحفرت الأحقاد في قلوبهم ، ولذلك ترى يزيد بعد مقتل الحسين (ع) يقرأ ذلك الشعر المعروف وهو يتشفى بقتل الحسين فيقول: « ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا . . . »[1] .

٣ ـ لا بد من عمل مقارنة بين وضع الإمام الحسين بعد رحيل معاوية ، واستغاثة الناس ، واستمدادهم البيعة منه ، مع وضع أمير المؤمنين علي ، بعد مقتل عثمان ، ومطالبتهم إيّاه بقبول المبايعة له بالخلافة . . . المقارنة نفسها ينبغي أن تحصل بين الناس ، وحالتهم في العصرين .

٤ ـ برأي الأستاذ الصالحي لا بد للثورة الابتدائية ، أن يكون فيها احتمال النجاح أكثر من احتمال الفشل ، وإلاّ فإنّ الثورة لا تجوز . بينما يرى أنّ مثل هذا الاحتمال مهما كان ضعيفاً في حالة الدفاع ، فإن ذلك أمرٌ مشروع ، وجائز شرعاً .

والصالحي هنا لا يرى القضية إلاّ من جانب الاحتمال ، ودرجة الاحتمال ، وإنه لو كان الظن غالباً يجوز التحرك ، وإلاّ فالتحرك غير جائز .

بينما يجب رؤية الموضوع من زاوية الأمر المحتمل نفسه ، ففي بعض الحالات التي يكون فيها المحتمل في دائرة الفقدان والتصفية فإن درجة الاحتمال هنا حتىٰ لو كانت مرتفعة جداً ، فإنّ التحرك يصبح غير جائز في هذه الحالة .

في حين أنّ بعض المحتملات تتطلب القيام والتحرك من أجلها، حتىٰ لو كانت درجة الاحتمال بالموفقية ، ضعيفة للغاية .

٥ ـ برأي الأستاذ الصالحي فإنّ تحرّك الإمام قد بدأ في الواقع ، من خلال هجوم أجهزة السلطة الحاكمة ضده ، وكان ذا مراحل أربع :

---

(١) وهو الشق الرابع للقضية ، أو دليل آخر على صحة المطالب الثلاثة الآنفة الذكر ، وهي أنّ العرب الجاهليين ، لا سيما أمثال ابن زياد وزياد ذوو سلوك خشن ، ودموي .

أ ـ ابتداءً من ذهابه إلى مكة ، إلى أن كان القرار لا يزال هو البقاء في مكة .

ب ـ ابتداءً من قرار التوجه إلى الكوفة إلى لحظة المواجهة مع جيش الحر .

ج ـ من لحظة اصطدامه بالحر حتىٰ شروع الحرب .

د ـ مرحلة الحرب والقتال ، وإن من بين المراحل الأربع ، يمكن اعتبار المراحل الأولى ، والثالثة ، والرابعة ، بمثابة مراحل دفاعية ، بينما تعتبر المرحلة الثانية مرحلة شبه دفاعية ـ شبه ابتدائية (هجومية ـ المترجم ـ)

٦ ـ يدّعي الأستاذ الصالحي في كتابه[١] أنّ الإمام الحسين (ع) ، لم يكن يقصد إعلان معارضته للحكم قبل مطالبة الحكم له بالمبايعة ، وإنه لو لم يطلب الحكم منه ذلك لما قرّر إعلان الثورة ، ولسلك المنهج نفسه الذي سيسلكه أيام خلافة معاوية ، حيث ورد في رسالة له عليه السلام (نقلاً عن رجال الكشي طبع النجف ص ٤٩) وعن « الإمامة والسياسة » الجزء الأول ص ١٨١) أيضاً إذ قال : « وما أُريد لك حرباً ، ولا عليك خلافاً »[٢] .

وإنه لا فرق بين حكومة كل من يزيد ومعاوية .

وردُّنا على هذا الادّعاء هو :

---

(١) النسخة الخطية ص ٦٤ .

(٢) لكن الأستاذ الغفاري يُشير إلى هذا الموضوع في مقدمة كتابه « تحقيق تاريخ عاشوراء » فيقول إنّ الإمام قد كتب إلى معاوية أيضاً في نفس الرسالة : « واني لأخشى الله في ترك ذلك ـ أي الحرب ـ » وفي مكان آخر : «وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك . . . . وإن لم أفعله فأستغفر الله لديني . . . »وأقول : أنّ جمع هذين المطلبين يعني أن الإمام كان ينتظر الفرصة المناسبة للقيام . كما ورد في نفس الكتاب الصفحة ٧٣ أن معاوية كتب إلى الحسن (ع) وهو خارج من الكوفة إلى المدينة يقول له فيها إنه ينبغي عليه الذهاب أولاً إلى قتال فروة بن نوفل الخارجي قبل التوجه إلى قتاله ، فيرد عليه الحسن (ع) قائلاً : « لو آثرت أن أُقاتِلُ أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك فإني تركتك لصلاح الأمة وحقن دمائها » . وبما إن قتال أهل القبلة يكون واجباً بعض الأحيان لذلك نستنتج أن صلح الإمام الحسن كان معاهدة صلح عسكرية . من هنا نُدرك أيضاً وحدة الخط والمنهج الحسني والحسيني .

أولاً : إن هنـاك تفاوتـاً واضحاً بـين ظروف تـأسيس كلٍ من الحكـومتـين فحكـومة يـزيد تُعتـبر حكومـة حديثـة العهد ، وأي سكـوت مقابـل هذا الـوليـد الجديد ، كان سيعتبر نوعاً من المداهنة ، خـلافاً لحكـومة معـاوية ، التي اختلفت ظروف تشكيلها ، هذا إضافة إلى الظروف الواقعية لكل من الحكومتين .

فحكومة معاوية كانت حكومة لا دينية ، لكنها عاقلة خلافاً لحكومة يزيد ، التي كانت بالإضافة إلى مناهضتها للدين ، واقعة تحت تأثير النفوذ المسيحي .

وأمّا ثانياً : فإنّ هذا الادّعاء يتناقض مع قـول الإمام الحسـين (ع) نفسه إذ يقول :

« وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » وهو مـا ينقله الصـالحي نفسه في كتـابـه الصفحـة ٣٦ نقـلاً عن مقتـلِ الخـوارزمي . [والـذي يُستنتـج منـه أنّ الإمـام نفسـه قـد وضـع تفـاوتـاً بـين حكـومـة كـل من يــزيـد ومعـاوية] .

٧ ـ وفي كتابه ص ٦٧ أيضاً ، ينقل الصالحي نقلاً عن « مقتل الخوارزمي » أنه ورد في رد الإمام على محمد بن الحنفية أنه قال : « لو لم يكن في الـدنيا ملجـأ ، ولا مأوىٰ ، لما بايعت يزيد بن معاوية » .

وهذه العبارة تبين لنا التصميم القاطع للإمام ، عـلى عدم المبـايعة ليـزيد ، وهـذا يتناقض مـع دعوىٰ الصـالحي من أنّ الإمام صـار مستعداً للبيعـة في الأيام الأخيرة .

٨ ـ يقارن الصالحي في كتابه الصفحـة (٧٠) بين خـروج الإمام من المـدينة إلى مكة مع هجرة النبي (ص) السرية من مكة إلى المدينة !

٩ ـ يُلاحظ في كتاب الأستاذ الصالحي اهتمامه بأمرين :

الأول وهو الاجتناب عن سفك الدمـاء ، قدر الإمكـان ، مع الحفـاظ على الأمن العام .

والثـاني وهـو : إنّ النجـاح والنصر محصـورٌ في الـواقـع في التغـيّر الفـوري للحكم ، وانتقال الزعامة للإمام .

١٠ ـ وفي الصفحة (٧٦) من كتابه ينقل أيضاً نقلاً عن « مقتل الخوارزمي » ص ٧٦ أنّه ورد أنّ الإمام في ردّه على ابن عباس قال : « يا بن عباس ! فما تقول في قومٍ أخرجوا ابن بنت رسول الله من وطنه ، وداره ، وموضع قراره ، ومولده ، وحَرمِ رسوله ، ومجاورة قبره ، ومسجده ، وموضع مهاجرته ، وتركوه خائفاً مرعوباً ، لا يستقرّ في قرار ، ولا يأوي إلى وطنٍ ، يُريدون بذلك قتله ، وسفك دمه » .

١١ ـ وفي الصفحة (٧٩) من كتابه ذكر نقلاً عن « تاريخ اليعقوبي » (ج٢ ص ٢٣٥) أنه ورد أنّ ابن عباس ، وفي رسالة له إلى يزيد ، بعد أن شكره الأخير على عدم مبايعته لابن الزبير ، قال له فيها : « وما أنس من الأشياء فلستُ بناسٍ إطرَادَكَ الحُسين بن علي من حرم رسول الله إلى حَرم الله ، ودسّك إليه الرجال ، تغتاله فأشخصته من حرَمِ الله إلى الكوفة » .

وهذا الكلام هنا يأتي مؤيداً لوجهة نظر « الطريحي » التي تقول بأن الإمام الحسين كان مُلاحقاً ومُهدداً بالقتل ، وقد أُرسل إليه ناسٌ من ثلاثين شخصاً ، في مهمة لاغتياله ، وهو في مكة ، الأمر الذي اضطره لمغادرتها متوجهاً إلى الكوفة بالرغم من عدم اعتماده ، وثقته بأهل الكوفة .

وهو الأمر الذي يردُ في (إرشاد المفيد ص ١٩٩) أيضاً حيث جاء في رد الإمام على الفرزدق أنه قال : « لو لم أعجل لأخذت » تعليق الشيخ المفيد على ذلك بقوله : « ولم يتمكن من تمام الحج مخافةً أن يُقبض عليه بمكة ، فيُنفذ به إلى يزيد بن معاوية » .

كما ورد أيضاً عن « مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٢٦ » ، أنه عليه السلامُ في ردّه على « أبي هرة الأزدي » قال : « إنّ بني أمية ، أخذوا مالي ، فصبرتُ ، وشتموا عرضي ، فصبرتُ ، وطلبوا دمي فهربتُ » . والأستاذ الصالحي يرى في كل هذه الشواهد دليلاً على أنّ الإمام إنما كان متوجهاً إلى الكوفة ، بهدف تشكيل الحكومة ، ولكن الذي يبدو للعيان أنّ كلّ تلك الشواهد ، متعلقة في الواقع ، بامتناع الإمام عن البيعة ، وعدم وجود الأمن في مكة .

١٢ ـ إنّ الإمام أراد من تحركه الإمساك بالأوضاع العامة ، ففي رسالته الموجهة إلى أهل الكوفة بيد مسلم كتب فيها يقول : « ولعمري ما الإمامُ إلاّ العاملُ بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق » .

وفي خطبة له أمام الحر وجيشه قال : « ونحن أهل البيت أولىٰ بولاية هذا الأمر من هؤلاء المُدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان » .

كما أنّ خطبة « زهير بن القين » في يوم عاشوراء ، ترى فيها إشارة إلى عدم أهلية الأمويين بالولاية ، مقابل صلاحية الحسين (ع) ، وجدارته ، لمثل هذا المقام .

١٣ ـ برأي الأستاذ الصالحي ، فإن تكليف الإمام منذ اللحظة التي اصطدم بها بجيش الحر ، قد تغير باتجاه آخر ، وإنه صار مُكلفاً بالمحافظة على نفسه ، وعقد الصُلح ، ولهذا فإنه عليه السلام قد قال : « وإنْ لم تفعلوا ، وكُنتم لمقدمي كارهين ، ولقُدومي عليكم باغضين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئتُ منه إليكم » .

وهنا لا بد من طرح الأسئلة التالية :

أولاً : لا بد من التذكير بأنّ المفروض هو أنّ مكة بالنسبة للإمام ، مثل الكوفة ، وليس له فيها أمان .

وثانياً : فيما لو كان الإمام قد بايع ابن زياد بالفعل حتىٰ وإن كانت البيعة بواسطة الحر ، فهل كانوا سيتعرضون له ؟

أم أنهم كانوا سيتركونه وشأنه ؟ أم أقصىٰ ما هنالك سيُنفذونه إلى يزيد ؟

فلماذا لم يُبايع الإمام في ظل تلك الظروف الصعبة ، وهو الذي كان كل همُّه الصلح ، كما يقول الأستاذ الصالحي ؟

عين هذا الموضوع يتم التطرق إليه في (تاريخ الطبري) ، و(إرشاد المفيد) (والأخبار الطوال) ، إذ ينقلون عن الإمام في جوابه إلى عمر بن سعد أنه قال : « فأمّا إذ كرهتموني فأنا أنصرفُ عنكم » .

كما أن تعبيراً آخر مشابهاً ورد على لسان الإمام في خطبة عاشوراء حيث يقول : « أيها الناس ، إذ كرهتموني ، فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض » .

والمخاطب في هذه العبارات كما يبدو هم أهل الكوفة فقط ، وليس حكومة يزيد .

كما ينقل الصالحي أيضاً في كتابه (ص ٨٨) عن (ذخائر العقبى ص ٨٨) وعن (تاريخ ابن عساكر الجزء الرابع ص ٣٣٤) وعن (سير النبلاء ص ٢٠٩) أنّ الإمام قد قال لهم أيضاً : « ألا تقبلون مني ما كان رسول الله يقبل من المشركين ؟ كان إذا جنح أحدهم للسلم قبل منه . قالوا : لا . »

وهذه عبارة مستبعدة من الإمام خاصةً ، وإنّ مفاد عبارة « إن جنحوا للسلم » هنا لا يعني الصلح بالضرورة ، بل إنّ ظاهرها يُفيد معنى الاستسلام ، في حين أنّ أقوال الإمام الأخرى كلها تُشير إلى عدم استعداده للرضوخ والاستسلام أبداً .

١٤ ـ في كتابه المذكور في الصفحة (٩٣) نرى أن الأستاذ الصالحي يقبل بوجهة نظر الطبري القائلة بأنّ الإمام قدّم ثلاثة اقتراحات لحكام الكوفة بالفعل وهي :

أ ـ عودته إلى الحجاز [هذا بالرغم من أن الحجاز لم يكن مكاناً آمناً بالنسبة إليه . (لو تُركَ القطا لنام] .

ب ـ التوجه إلى أحد الثغور .

ج ـ اللقاء بيزيد .

١٥ ـ استناداً إلى قراءته لكلٍ من « السيد المرتضى » في كتابه « تنزيه الأنبياء » والشيخ الطوسي في أثره « تلخيص الشافي » فإنّ الأستاذ الصالحي يدّعي :

أ ـ بعد اطلاع الإمام على مُجريات الأوضاع في الكوفة ، وهزيمة القوات العراقية ، وعدم قدرته على العودة إلى الحجاز، فإنه أظهر تمايلاً لملاقاة يزيد .

ب ـ وذلـك أملاً في أن لقـاء يزيـد يمكن أن يجعل الأمـور تسير نحـو الحـل السلمي ، لكن الأستاذ الصالحي لا يوضح هنا هل إنّ ذلك كان سيحصل بالبيعة أم بدونها ، خاصـةً وأنّ الشـق الأول لا يقبل به الحسين بينـما الشق الثاني يـرفضه يزيد ؟ !

ج ـ إنّ يـزيد كـان أكثر تسـامحاً مـع الإمام من ابن زيـاد ، وإنـه لم يكن في الحقيقة يرغب في قتل الحسين ، وهو لم يأمر بقتل الإمام .

د ـ كـان الإمام متيقنـاً من أنّه لـو استسلم لابن زياد، لكـانوا قـد قتلوه شر قتلة .

والنتيجـة التي يتوصل إليها من كـل ما تقـدم ، أن الإمام لم يكن لـديه أي طريق للفرار ، وهو كان لديه الأمل بالنصر قبل سماع أخبار الكوفة ، وكان الأمـل كبيراً ، لكنه بعد فشل برنامج الكوفة ، كـان على استعـداد للعودة إلى الحجـاز ، فمنعوه من ذلك ، ثم كان على استعداد للتوجه نحو يزيد فمنعوه أيضاً . وبـالتالي فإنه لم يكن يملك خياراً غير القتل !

كل ما هنالك فإنه كان مُخيراً بأن يقبل بـالقتل بـذلةٍ عـلى يد ابن زيـاد ، أو القتل بكرامة في المعركة ، وقد اختار القتل الشريـف .

في حين أنّ مسلم بن عقيل قـد خُدع بـأمان ابن زيـاد ، وقد قُتـل بطريقـة مُذلّةٍ !

وعليـه لا يبقى مع هـذا التحليل أي شـأنٍ ، أو مقامٍ ، أو مكـان للحماسـة الحسينية !! .

ويضيف الأستاذ الصالحي بأنهم لو كـانوا قـد سمحوا لـلإمام بـالتوجـه إلى الشام ، لكان فعل ، وبايـع ، وأنّ مثل تلك البيعـة لم تكن تُحسبُ بيعةً مُضـرةً ، وأنّ الإمام إنما لم يبايع لأنه كان يتصور أنّ بإمكانه أن ينتزع الخلافة من يزيد، لكنه في الوقت الذي رأى فيه عدم إمكانية حصول ذلك صـار مُستعداً للمبـايعة . كـما ويدعي أن السجّاد (ع) قد بايع يزيد فيما بعـد بواسـطة مسلم بن عقبة . [وهـذا منافٍ لما ورد في الملاحظات رقم (٥)و(٧)] .

١٦ ـ إنّ كتب أكابر أهل الكوفة إلى الإمام الحسين (ع) ، قد وردت في التواريخ بهذا المضمون :

« أمّا بعدُ : فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد ، الذي انتزىٰ على هذه الأمة ، فابتزها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمّر عليها بغير رضىً منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقىٰ شرارها ، وجعل مالَ الله دُولَةً بين جبابرتها وأغنيائها ، فبُعداً له كما بَعدت ثمودُ ؛ إنه ليس علينا إمامٌ فأقبل ، لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ » .

وهذا الكتاب قد ورد في تواريخ كل من « الطبري » و« الإمامة والسياسة » ، و« الكامل » لابن الأثير ، « وإرشاد » الشيخ المفيد ، و« مقتل » الخوارزمي ، وغيره .

كما وصل إلى الإمام كتابٌ آخر يشبه في مضمونه هذا الكتاب والذي كان وراءه رجالٌ أمثال سليمان بن صرد الخزاعي ، وحبيب بن مظاهر ، وغيرهم ، والذي يمكن أن يكون هو المُحرّك للإمام الحسين (ع) .

والخطبة التي وجهها الإمام إلى أصحابه وأصحاب الحُر في « ذو حَسَم » تُشير إلى هذا المعنىٰ المذكور .

١٧ ـ يذكر الأستاذ الصالحي نقلاً عن « الأخبار الطوال : ص ٢١٠ » ، وعن « إرشاد » المفيد ص (١٨٢) بأن أول رسالةٍ وصلت إلى الإمام ، من أهل الكوفة ، كانت بتاريخ (١٠ شهر رمضان) أي بعد وصول الإمام إلى مكة بحوالي الشهر تقريباً .

١٨ ـ كما ويذكر الصالحي بأنّ مسلم قد عزم التوجه إلى الكوفة بتاريخ (١٥ شهر رمضان) وأنه قد وصلها بتاريخ (٥ شوال)[1] ، وأنّه قام بالتحقيق ، ودراسة أوضاع الكوفة لمدة شهر ، وسبعة أيام إلى أن كتب إلى الإمام كتابه المعروف بتاريخ (١٢ ذي القعدة) ، (إرشاد المفيد ص ٢٠١) ، وبالتالي

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦ .

فإنّ رسالة مسلم حسب القاعدة تكون قد وصلت إلى الإمام بعد مرور (١٤) يـوماً تقريباً أي في (٢٧ ذي القعدة) فهل تحرّك الإمام في (٨) ذي الحجة ؟

١٩ ـ وفي الصفحة (١٦١) من كتابـه يكتب الصالحي نقـلاً عن « تذكـرة » السبط و« تاريخ » ابن عساكر ، ما يُشير إلى أن هذه التواريخ قد أوردت مـا يُفيــد بأنّ يزيد قد كتب رسالةً إلى ابن عبـاس ، يُستشف منها بـأنّ يزيـد على علمٍ تـام بالتحركات ، والعلاقـات التي كانت جـارية بـين مكة ، والكـوفة ، وأنها تتضمن النصيحة ، من جهة والتنبؤ بالمستقبل من جهة أخرى .

٢٠ ـ وفي الصفحة (١٧٦) من كتابه ينقل الصالحي عن الإمام قوله :

« فهلاّ لكم الويلاتُ تركتمونا ، والسيف مشيمٌ ، والجأش طامِنٌ ، والرأي لما يُستحصف » . وإذ يستشف منها بأنّ الإمام قد توجه إلى الكوفة ، وهو على ثقةٍ من نصرتهـا له فـإنه يـذكر أيضـاً بأنّـه لو كـان أهـل الكـوفـة ، قـد أعلنـوا عـدم استعدادهم لاستقبال الإمام لما كان الإمام قد اتخذ مثـل ذلك القـرار ، ولم يتوجـه إلى الكوفة أبداً ، وعليه يمكن القول :

١ ـ إنّ الإمام لم يكن يقصد التـوجه إلى كـربلاء ، ولا كـذلك كـان يقصد القتل (لنفسه) .
٢ ـ كان الإمام على ثقةٍ من نصرة أهل الكوفة له .

٣ ـ ولو لم يكن مثل هذا الاطمئنان موجوداً لدى الإمام ، لما كان قـد توجـه إلى الكـوفة أبـداً ، بل إنـه كان قـد فعل شيئـاً آخر ، كـأنْ يبايـع مثلاً ، أو يسلّم للحاكم الخليفة !

(ولكن هذه الاستنتاجات خاطئة تماماً، إن مجيء الإمام إلى الكوفة كـان أقل الخطّرين ، أم أقل الأخـطار ، وهذه العبـارات تأتي في إطـار تكليف أهل الكـوفة وليست من باب قرار الإمام) .

٢١ ـ يذكر الصـالحي أيضاً بـأنّ منشأ التصـور القائـل بأنّ الإمـام إنما كـان يقصد كربلاء في الأساس ، وإنـه قد تـوجه مـع العلم ، بأنّـه سيُقتل هنـاك وهذا راجع في الحقيقة إلى الأسباب الخمسة التالية :

أ ـ المنام الذي يُذكر أنه عليه السلام قد رآه عند قبر النبي (ص) .

ب ـ حديث : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً » :

ج ـ خطبة : « خُطّ الموتُ على ولد آدم . . . » .

د ـ الخطبة التي وردت فيها عبارة : « لا أرى الموت إلاّ سعادةً . . . » .

هـ ـ الحديث المنسوب لأم سلمة ، وقصة التراب والقارورة .

ثم يقول : فأمّا قصة المنام ، فإنّ « الخوارزمي » قد نقلها عن « ابن الأعثم الكوفي » وهو سندٌ لا يُعتمد عليه . والآخرون الذين نقلوا تلك القصة أمثال الأمالي (الصدوق) نقلاً عن البحار (ج ١٠) فإنه جاء أيضاً بسند محمد بن عمر البغدادي ، الذي هو الآخر قد وقع تحت تأثير ابن الأعثم الكوفي[1] وهو ما وقع فيه كل من : « روضة الصفا » ، «وروضة الشهداء»، و« تسلية المجالس » لمحمد بن أبي طالب الحسيني ، و« نفس المهموم » وناسخ التواريخ » ، سواء مباشرةً أو بشكل غير مباشر برأي الأستاذ الصالحي .

---

(١) لكننا نقول إنه علاوة على سند ابن الأعثم الكوفي ، والصدوق ، فإنّ ابن الأثير قد نقل مثل هذه القصة في (المجلد ٣ ص ٢٧٧) من تاريخه حيث يقول ما مضمونه بأنّ الإمام في جوابه . . . قد ذكر أنه قد رأى مناماً ، وأنه لن يُحدّث به . لكننا كما نعلم فإنّ روايات الأئمة قد نقلت هذا المنام ، وقد ورد في مقتل أبو مخنف أيضاً : « وذكر عمّار في حديثه : إنّ الحسين (ع) لما خرج من المدينة أتىٰ قبر الرسول (ص) فالتزمه وبكىٰ بُكاءً شديداً ، وسلم عليه ، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد خرجت من جوارك كرهاً ، وفرّق بيني وبينك ، وأخذت بالأنف قهراً أن أبايع يزيد بن معاوية شارب الخمور ، وراكب الفجور ، وإن فعلت كفرت ، وإن أبيت قُتلت أنا خارج من جوارك ، على الكره مني ، فعليك مني السلام يا رسول الله ! ثم عنّ عليه الكرىٰ ساعةً ، فأجزعته أنّه رأى رسول الله (ص) في منامه ، وقد وقف به ، وسلم عليه ، وقال : يا بني لقد لحق بي أبوك ، وأمك ، وأخوك ، وهم مجتمعون في دار الحيوان ، ولكنّا مشتاقون إليك ، فعجل بالقدوم علينا ، واعلم يا بني إنّ لك في الجنة درجةً مغشاةً بنور الله ، فلست تنالها إلاّ بالشهادة ، وما أقرب قدومك علينا . هذا بالإضافة إلى أنّ المرحوم آيتي في كتاب « دراسة تاريخ عاشوراء » يدّعي أيضاً بأنّ الإمام ، وفي ردّه على عبد الله بن جعفر ، الذي كان قد أتاه برفقة حاكم مكة ، يطلب منه البيعة قد قال : لقد رأيت جدي في المنام ، وعندما سألوه ما هو ذلك المنام ؟ قال : ما دمتُ حياً فلن أذكره لأحدٍ .

٢٢ ـ يدّعي الأستاذ الصالحي بأن خطبة : « خُطَّ الموتُ . . فمن كان باذلاً فينا مهجته . . . » بشكلها المعروف وبأنها قد وردت أثناء حركة الإمام من مكة ليس لها سندٌ تاريخي قوي ، وهي لم ترد بهذا الشكل ، وبهذا المضمون ، إلاّ في كتاب (اللهوف لابن طاووس) ، وأنّ الخوارزمي الذي ينقلها في مقتله ، فإنه ينقلها مع اختلاف بالألفاظ بالإضافة إلى قوله إنها قد وردت في يوم عاشوراء . وهي تفتقر إلى عبارة : « فمن كان باذلاً فينا مهجته » . ثم ينقل ما ورد من نص الخوارزمي للخطبة المذكورة على الشكل التالي :

« أيّها الناس ! خُطَّ الموت على بني آدم ، كمخطّ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف ، وأنّ لي مصرعاً أنا لاقيه ، كأني أنظر إلى أوصالي تقطّعها وحوشُ الفلوات ، غُبراً ، وعفراً ، قد ملأت مني أكراشها ، رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبرُ على بلائه ليُوفينا أجور الصابرين ، لن تَشُذّ عن رسول الله لُحمتُهُ وعترتُه ، ولن تُفارقه أعضاؤه ، وهي مجموعة له ، في حظيرة القدس ، تقرّبُها عينه ، وَتَنْجزُ فيهم عِدّتُهُ » .

٢٣ ـ ينقل الصالحي عن « إثبات الوصية » للمسعودي (ص ١٣٩) ، الرواية المعروفة لأم سلمة وقصة « القارورة » ، وكيف أن أبا عبد الله قد نقل مشهد كربلاء إلى أم سلمة ، لكنه يستنتج أنّ مثل هذه القصة تتنافىٰ مع الحياة التقليدية المعروفة للإمام .

٢٤ ـ ثم ينقل الصالحي في الصفحة (١٩٦) من كتابه ، بعد أن سبق له وأنكر رواية « إثبات الوصية » ، روايات كثيرة ، تتحدث عن أنّ رسول الله (ص) قد أهدى مقداراً من التراب إلى أم سلمة ، طالباً منها أن تحتفظ به ، كعلامة على شهادة الإمام الحسين (ع) ، ويقبل بها .

٢٥ ـ إنّ أحد الأسئلة الهامة التي تبرز هنا هو لماذا يا ترىٰ يستمر الإمام في حركته باتجاه الكوفة ، بعد سماعه بنبأ شهادة مسلم في الكوفة ، وهيمنة ابن زياد عليها ؟ لا سيما أنه وبعد أن يستمع إلى نبأ شهادة مسلم ، تراهُ يقرأ الآية الكريمة التالية : ﴿ مِنَ المؤمنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدوا الله عليه ، فَمِنْهُمْ من قَضَىٰ

نَحْبَهُ ، ومِنْهُم من ينتظر ومَا بَدَلوا تبديلا ﴾[1] .

السؤال الآخر هو : إنه لو كان الإمام ، حسب ادعـاء الأستاذ الصـالحي ، يفتش حقاً عن سبيلٍ لعدم إراقة الـدماء ، وإنّ السبب في عـدم استسلامـه هو : علمـه المؤكد بـأنّه كـان سيُقتل عـلى يد ابن زيـاد ، فلماذا لم يقف إذاً، بوجـه مقتل أصحابه ، وأبنائه ، وأهـل بيته ؟ وقـد جاء الأمـان للعبّاس بن عـلي وإخوتـه من طرف ابن زياد ،والآخرون أيضاً من جماعته حسب نص الإمام لا يُريد أحدٌ منهم شيئاً ، فلماذا ترك الإمام جماعته يُقتلون إذاً ؟

كما أن تسليم الإمام لابن زياد كان يعني نجـاة مئات الأشخـاص من جيش معكسر ابن زياد الذين قُتلوا في المعركة ، وهو نوع من تجنب إراقة الدماء على كـل حال !

٢٧ ـ بعد أن يصل الرسول الخاص من طرف محمد بن الأشعث ، وبوصية من مسلم إلى الحسين (ع) ، ليُخبره بفشل مهمة الدعوة الكوفية ، تـرىٰ أنّ الإمام يجمع أصحابـه ، ويخطب فيهم ، وبـالتالي فـإنّ عدداً ممن لحقـوا بالإمـام في وسط الطريق ، طمعاً في الحصول على المغانم ، يفترقون عنه ، لكنـه رغم ذلك يستمـر في تحريك القافلة نحو الكوفة عجباً لماذا ؟ .

٢٨ ـ يـرىٰ الأستاذ الصـالحي بأنّ لحظة المواجهـة بين الإمـام والحر ، إنمـا أدخلت الإمام في مرحلة جـديدة ، لأنّ الحـر كان يحمـل مهمة تسليم الحسـين إلى ابن زياد ، يداً بيد ، وهو الأمر الذي يجعـل دعم الناس للحسـين ونُصرته ، غـير ممكنين عملياً .

٢٩ ـ كما يكتب الأستاذ الصالحي نقلاً عن « الأخبار الطوال » ص ٢٢٧ أنه وبعد بلوغ كتاب ابن زياد المعروف إلى عمر بن سعد لـلإمام والـذي يُخيّر فيـه بين التسليم ، أو القتال ـ الشهادة ـ فإنّ جواب الإمام يكون : « فهل هو إلاّ المـوت ؟ فمرحباً به » .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .

٣٠ ـ كذلك يكتب الأستاذ الصالحي ، بأنّه (تقريباً) في اليـوم الخامس من شهر محرم ، يصل كتاب ابن زياد القاضي بضرورة مبايعة الحسـين ليزيـد ، حتىٰ نـرى بعد ذلـك ماذا نفعـل به ، ثم يكـون جواب الإمـام في آخر سـاعات اليـوم السادس من شهر محرم تقريباً ، وهو جواب عدم التسليم بالبيعة مطلقاً ، وبـالتالي فإنّ القرار يكون من طرف المعسكر الآخر بقطع الماء عن الحسين ، وذلك بدءاً من الساعات الأخيرة من اليوم السابع من شهر محرم .

٣١ ـ ألا يمكننا القول هنا بأنّ اقتراح الإمام ـ إلى عمر بن سعد ـ بأن يتركـه يعود من حيث أتىٰ ، وهو الذي جاء بنفسه إلى مثل هذا المكان ، هـو كون الإمـام كان يُفكر في تلك اللحظة في طريقة يوسّع فيها رقعة الثورة ، ويزيدهـا تأجيجـاً ، بعد أن حوصر في الصحراء ؟ .

وهو الأمر الذي استشفه شمـر بن ذي الجوشن ، من كتـاب عمر بن سعـد إلى ابن زيـاد ، الذي يعـرضُ عليه انصراف الحسـين ، إذ قـال لابن زيـاد الـذي أوشك أن يقبل باقتراح عمـر بن سعد : « والله لئن رحـل عن بلادك ، ولم يضـع يده في يدك ، ليكونن أولى بالقوة ، ولتكونن أولى بالضعف ، والعجز . . . » .

٣٢ ـ إنّ إحدى التساؤلات الأخرى في هذا المجال هي :

لماذا كتب الإمام إلى أهل البصرة ، ودعاهم فيه إلى الالتحاق بحركته ؟

وبالتالي ألم تكن هـذه الدعـوة نوعـاً من التحريض عـلى الثورة ضـد الحكم المـركزي ؟ ونوعاً من التمرد والثورة ؟

وفوق ذلك لماذا أرسل حبيب بن مـظاهر في ليلة العـاشر من شهر محـرم إلى بني أسد ، يطلب إليهم المشاركة في القتال إلى جانبه ؟

ولمـاذا لم يلزم أبناءه ، وإخـوانه ، وأعـوانه من الخـواص ، بـترك القتـال ، والانسحاب ، في ليلة العاشر ، ضماناً لنجاتهم ، ومنعاً لمزيد من سفك الدماء ؟

٣٣ ـ العجيب في تحليل الأستاذ الصـالحي أنه ، وهـو الذي يسعىٰ في كـل كتـابه ، إلى إثبـات النهج الـدفـاعي في تحـرك الإمـام ، ونفي الـطابـع الهجـومي

ـ الابتدائي ـ عن نهضته ، تراه في الصفحة (٢٩٩) من كتابه ـ القسم الرابع ـ وبعد أن يُفصّل في شرح أوضاع حكومة يزيد ، وتحليلها لحرام الله ؛ ، وتحريمها لحلاله ، وأعمال الظلم ، والاستبداد ، والاستغلال ، التي تمارسها ، تراهُ فجأةً يُطبّق مضمون خطبة البيعة للإمام على هذه الأوضاع المتردية ويقول : لو لم يخرج نداء للمعارضة ، والنقد في مثل تلك الظروف ، ولو افترضنا جدلاً أنّ الإمام الحسين كان قد استسلم بدون قيد أو شرط ليزيد بن معاوية ، فإنّ الدول الأخرى كانت سترىٰ في يزيد الممثل الشرعي للإسلام ، ذلك أنّ العالم الخارجي لا يُمكنه إلّا أن يرىٰ في الخليفة ، ورئيس الدولة الإسلامية ، سوى ممثل الروح الإسلامية ، ما لم تر معارضةً تنازعه على هذا اللقب ، وعندها كانت الأجانب ستقول إنّ بلاد الإسلام هي في الواقع بلاد الظلم ، والاستبداد . . .

ولمّا كان أُفق الحسين بن علي (ع) ، ونظره بعيداً ، وثاقباً خلافاً ، لرؤية الناس العاديين ، لذلك تراه قد وضع الإسلام في المعيار العالمي ، والنظرة الكونية ، وعندما يأتون يطالبونه بالبيعة يقول لهم : « وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد »[1] .

وهذا العرض الذي يُقدّمه الصالحي هنا ، دليلٌ على أنّ هناك من الأمور القيّمة للغاية ، والتي تستأهل سفك دماء المئات من الأفراد في سبيلها ، ولكن لماذا يبقىٰ الأستاذ الصالحي مُصرّاً ، مع ذلك ، على أنّ الإمام لم يكن مُعترضاً ، ولا صاحب خطة هجومية ؟

ثم يضيف الصالحي أيضاً :

ومن هنا ترى الحسين بن علي يُصمّم على المقاومة . . . حتىٰ يعلم العالم الخارجي ، ويُدرك أنّ معرفة الإسلام لا تحصل إلّا من خلال أفكار الحسين بن علي ، وفي إطار وجود ابن النبي ، وليس بقالب يزيد . . . . وحتىٰ يُدرك العالم الخارجي أيضاً أنّ الإسلام ، قد أخرج من تعاليمه ابناً باراً ، يقف بصلابةً ، دفاعاً عن الإنسانية والعدالة ، ويُقدّم الغالي والنفيس في سبيل الحرية ،

---

(١) مقتل الخوارزمي ج ١ ص ١٨٤ .

والتحرر ، والتقوىٰ ، والفضيلة ، بنفس طيبة خالصةً .

وبناءً على ذلك يجب أن نضع مقولة الدفاع عن الموقع العالمي ، والدولي للإسلام ، كجزء لا يتجزأ من الأهداف الشاملة والكلية ، لابن بنت النبي (ص) .

٣٤ ـ يرى الأستاذ الصالحي أنّ البعض مثل (ماربين) الألماني ، في أثره « السياسة الحسينية » يعتقد بأن الإمام الحسين أراد أن يصنع مشهداً مأساوياً من واقعة كربلاء ، وأنه قد أعدّ مقدمات تلك الشهادة التراجيدية ، إعداداً خاصاً ، ليتمكن من تحريك عواطف الناس ، وتوظيفها حد الإمكان ضد بني أمية ولصالح بني هاشم .

وإن « ماربين » هذا قد قال : « إنّ الحسين (ع) خطط لمقتله على مدىٰ سنوات ، وكان يطمح لتحقيق أهداف سامية للغاية ، من وراء ذلك العمل »[1] .

كما قال أيضاً : « بما أنّ الحسين بن علي لم يكن يطمح سوى أن يُقتل في تلك الواقعة ، وقد أعدّ هو بنفسه المقدمات الغيبية المقدسة ، لذلك فإنه اختار أفضل وسيلة لإنجاز تلك المهمة ، وهي الظهور بمظهر المظلوم والغريب ، حتىٰ تأخذ الواقعة موقعها المؤثر في القلوب على أحسن وجه »[2] .

وقال كذلك : « إنّ الحسين (ع) لم يتوان لحظة في فضح ظلم واستبداد بني أمية ، وإبراز طموحاتهم العدائية ضد بني هاشم ، وأولاد محمد (ص) »[3] .

وحول الطفل الرضيع يقول : « بالرغم من كل المصائب ، والمعاناة العميقة ، والاضطراب ، والعطش ، والجراحات الكثيرة ، فإنه ـ عليه السلام ـ لم ينس أهدافه العالية (تحريك عواطف الرأي العام) ، ورغم معرفته المسبقة بأنّ بني أمية لن ترحم ابنه الصغير ، لكنه من أجل رفع درجة المصيبة حمل ذلك الطفل

---

(١) السياسة الحسينية ـ ماربين ص ٣٣ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٥ .

(٣) نفس المصدر : ص ٢٦ .

على يديه متظاهراً بطلب الماء له ، فجاءه الجواب سهماً قاتلاً ! » .

٣٥ ـ وفي قسم آخر من كتابه في الصفحة (٣٠٩) يتطرق الأستاذ الصالحي إلى موضوع آخر ، ويضيف مغالطة أخرى عندما يقول :

« إننا لن نستطيع تصور معنىً صحيح ومقبول ، لعبارة : بمقتل الإمام الحسين تم إحياء الإسلام . ذلك أن إحياء الإسلام إنما يتم بتطبيق أحكامه ، أو بنجاحه في إضافة فتوحات جديدة ، أو بضعف حكومة بني أمية ، أو بجمع صفوف الشيعة ، أو فضح مخطط بني أمية .

[وعليه كيف يمكن القول بأنّ مقتل قائد المسلمين وحافظ القرآن قد أحيا الإسلام ؟] .

٣٦ ـ وينقل الصالحي في كتابه أيضاً أنّ : « عبيد الله كان قد طلب من عمر بن سعد أن يُعطيه الأمر الصادر بقتل الحسين ، لكن عمر لم يُعطه إياه ، بل صار يُلقي بالمسؤولية على ابن زياد [حصل هذا بعد استشهاد الحسين ، وهو جانب من نزاع حول مسؤولية مقتل الحسين] .

وأنّ عثمان بن زياد قد قال : « صدق والله لوددت أنه ليس من بني زياد رجلٌ إلّا وفي أنفه خُزامة إلى يوم القيامة ، وأنّ حسيناً لم يُقتل »[١] .

وأنّ « مرجانة » ، أم ابن زياد قد قالت : « يا خبيث ! قتلت ابن بنت رسول الله ، والله لا ترى الجنة أبداً »[٢] .

وأنّ يحيي بن الحكم (شقيق مروان بن الحكم) قد قال : « حُجبتم عن محمد يوم القيامة لن أجامعكم على أمر أبداً»[٣]، وأنّ يحيىٰ بن الحكم هذا لمّا رأى رؤوس القتلىٰ من آل بيت رسول الله قد وضعت أمام يزيد قال :

---

(١) الطبري : ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٢) تذكرة السبط : ص ٢٥٩ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٥٦ .

لَهَــامٌ بـجنـبِ الــطف أدنىٰ قــرابــةً　　من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سُميــة أمسىٰ نسلهــا عــددَ الحصىٰ ،　　وليس لآل المصطفى اليوم من نسلِ[1]

وأنّ هند امرأة يـزيد ، عنـدما سمعت بمـا جرى للحسـين (ع) ، وقد أتـوا برأسه بين يدي يزيد ، تقنّعت بثوبها ، وخرجت وقالت : يا أمير المؤمنين ! أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ؟

قال : نعم ، فأعولي عليه وحُـدّي على ابن بنت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وصريحة قريش ، عجّل عليه ابن زياد فقتله ، قتله الله ! ![2] .

وبرأيي فإنّ الأشد من كل هذا هو أنّ معاوية بن يزيد ، قـد خلع نفسه من منصب الخـلافـة ، وصـار يلعن يـزيـد وأبـاه معــاويـة ، ويضــع الحق بجـانب الحسين (ع) ، وعلي (ع) .

وعليه فإنّ الأثر الكبير الذي تركته واقعة كـربلاء ، كـونها قد رفعت الستـار عن نفاق الأمويين ، وفصلت تماماً بين مقولة السلطنة والحكم ، وبين الدين .

ولـو لم تكن واقعة كـربلاء لكـان الأمويـون قـد حكمـوا النـاس ، وتسلّطوا عليهم باسم الدين ، وصحيح أن البعض كان يرىٰ أنّ حكمهم باسم الـدين كان سيُـبرئهم من أعمالهم ، لكن كثيـراً آخرين كـانوا يـرون أنّ ذلك كـان سيؤدي إلى تلويث الدين .

باختصار يمكننـا القول : إنّ الحـد الأدنىٰ الذي تـركته النهضـة الحسينية من آثار هي أنها قد فصلت تماماً ملف الحكم والخلفاء ، عن ملف الدين إلى الأبد .

وإنّ واحدة أخرى من النتائج والآثار الهامـة لتلك النهضة ، أنها قـد رفعت من درجـة محبوبيـة الإمام الحسـين (ع) إلى أعلى مـرتبة ممكنـة . إذ أصبـح الإمـام « شهيـد الأمة » و« الفـدائي البطل » في عـالم الإسلام ، بـل وصار بمثـابـة القـوة المقدسة ، ومصـداقاً لـلآية الشريفـة : ﴿ إنّ الذينَ آمنـوا وعَمِلوا الصالحـاتِ ،

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٥٢ .
(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٥٦ .

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدّاً ﴾[1] .

وهذا هو الإمام نفسه يقول في يوم عاشوراء إنـه : « وأيمُ الله إني لأرجو أن يُكرمني الله بهوانكم »[2] .

٣٧ ـ بـرأي الأستاذ الصـالحي أنّ امتناع الإمـام عن الاستسلام ، ورفضـه الرضوخ ، إنما المقصود به هو الرضوخ لابن زياد ، وهذا أمرٌ يختلف عن البيعة مع يزيد .

فالصالحي يـرى أنّ الإمام كـان على استعـداد لمبايعـة يزيـد ، لكنه لم يكن مستعداً بالمقابِل للاستسلام بدون قيد أو شرط لابن زياد .

ذلك أنه كان على يقين أنّ ابن زياد سيقتله شر قتلة لا محالة .

٣٨ ـ وأمّـا الأستاذ الغفـاري فإنـه بعد أن يـطرح سلسلة من التساؤلات في مقدمة كتابه « تحقيق في تـاريخ عـاشوراء » ، وذلـك من قبيل هـل كان عمـل أبي عبد الله هروباً من المبايعة ليزيد ؟ .

أم استجابة لدعوة أهل الكوفة ؟

أم قياماً ونهضةً وثورةً ؟

تراه يأخذ بالاحتمال الثالث ثم يدعي حصول بعض المقدمات والبـواعث ، التي أوجبت على الإمام ضرورة القيـام ، وأنّ الدلائـل والقرائن التـاريخية ، تُثبت أنّ الإمام كان يُخطط للنهضة وللثورة من الأساس .

وأنّ ذلك ما كان ليتم كما تم إلاّ بعد وقوع بعض الوقائع والأحداث الهـامة في زمن معاوية :

أ ـ المسألة الأولى والأكثر أهميةً ، مسألة جعل الخلافة وراثية ، والتي كـانت من أشهر البدع ، وأكبرها على الإسلام ، والتي كـانت تعني في الواقـع تحقق أماني

---

(١) سورة مريم : الآية ٩٦ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٤٦ ومقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٣٤ .

ورغبات أبي سفيان ، وهو صاحب القول الشهير : « تلقفوها تلقُّف الكرة أما والذي يُحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار » .

وبالتالي فإنّ السكوت على مثل هذه البدعة ليس جائزاً أبداً .

ب ـ المسألة الأخرى هي تفاقم وضع الشيعة بشكل لا يُطاق ، خلافاً لمعاهدة الصلح التي أُبرمت بين الحسن ومعاوية ، والتي كانت تحفظ حقوقهم في البداية .

لكن معاوية سرعان ما نقضها ، وسارع إلى تطبيق سياسة ترمي إلى قلع جذور الشيعة ، وهو ما يُلاحظ في تعميم له بهذا الخصوص : «من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به ، واهدموا داره » .

كما ورد أيضاً في تعميم آخر له :

« انظروا إلى من قامت عليه البيّنة ، أنه يُحب علياً ، وأهل بيته ، فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقهُ »[1]

ج ـ سب علي (ع) ، ولعنه في صلوات الجمعة ، بشكل علني ورسمي .

د ـ عدم قبول شهادة الشيعة ، وحرمانهم من الحقوق الاجتماعية .

هـ ـ قتل أكابرهم ، أمثال حجر بن عدي ، ورشيد الهجري ، بتهمة التشيع .

و ـ ازدياد الحملة الدعائية ، والإعلامية المناوئة لآل البيت من جهة ، والتي تُبلّغ لصالح معاوية من جهة أخرى ، وتضعه في مصاف الصحابة الكبار ، مما كان يحمل معه إمكانية خلق جيل لا يعرف الإسلام ، إلاّ بالصورة التي صوّرها له معاوية ، لو كانت الأمور قد استمرت هكذا دون معارضة ، أو قيام مضاد .

وأمّا بصدد الحديث عن أنّ الإمام الحسين كان يُخطط للثورة ، والقيام من الأساس ، فإنه ينبغي القول أولاً قبل كل شيء ، إنّ نهج أمير المؤمنين علي (ع) ،

(١) ابن أبي الحديد : ج ٣ ص ١٥ ط مصر .

والحسن المجتبىٰ(ع) ، وسيد الشهداء الحسين(ع) ، كلهم إنما ينبع في الحقيقة من استرشادهم ، وتبعيتهم لركن أساسي واحد ، وهو أنهم ، وبالرغم من اعتقادهم بأحقية الخلافة لهم ، لم يكونوا على استعداد يوماً للتخطيط ، والتدبير ، لقيام ، أو نهضة ، أو ثورةٍ ، تُعيد لهم هذا الحق المغتصب ، بل إنّ مثلهم الأعلى في هذا الخصوص هو العمل بسيرة واحدةٍ مثالها الواضح والصريح ، ما فعله علي (ع) في زمن خلافة عثمان عندما قال : « والله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليّ خاصةً »[1] .

تم الانتهاء من القسم الثاني بعون الله



(١) وهنا يرجى مراجعة الملاحظة الخاصة بعنصر الأمر بالمعروف . . . رقم (٢٣)

القسم الثالث
الامام الحسين عليه السلام
و
عيسى المسيح عليه السلام

ولادة « سيد الشهداء » (ع)

١ ـ ﴿ قال إني عَبْدُ الله آتاني الكِتابَ وَجعَلَني نَبيّاً * وَجعَلني مُباركاً أين ما كُنْتُ وَأوصاني بِالصلاة والزكاةِ ما دُمتُ حياً * وَبرّاً بِوالِدَتي وَلَمْ يَجْعَلني جَبّاراً شَقِيّاً * والسلامُ عَلَيّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، ويَوْمَ أموتُ ، ويَومَ أُبْعثُ حياً ﴾[١] .

٢ ـ إنّ هناك أوجه تشابه بين مقام السيد المسيح في أُمة المسيح ، ومقام الإمام الحسين في أُمة الإسلام ، ومن تلك الأوجه تشابه مقام أم السيد المسيح المعروفة « بسيدة النساء » ، وفاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين .

والقرآن الكريم يذكر السيدة مريم بقوله : ﴿ وإذ قالَتِ المَلائِكةِ : يا مَرْيَم ! إنّ الله اصْطَفَاكَ ، وطَهّرَكِ ، واصْطَفَاكِ على نساء العالمين ﴾[٢] .

كما جاء في الحديث الشريف أنّ مثل هذا المقام قد خُصت به فاطمة الزهراء عليها السلام كذلك . وفي هذا الخصوص يقول الشاعر :

(١) سورة مريم : الآيات ٣٠ ـ ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

فـإنّ مريم أحصنت فـرْجَهـا وجـاءت بعيسىٰ كبـدر الـدُجىٰ
فقـد أحصنت فاطم وجهها وجـاءت بسبـطي نبي الهُـدىٰ

كما أنّ صفة الصدِّيقة قد منحها القرآن لمريم أيضاً إذ قال تعالى :

﴿ **مـا المَسيحُ ابن مـريَمَ إلاّ رسـولٌ قـد خلتْ من قَبْلِهِ الـرُّسُـلُ ، وأُمُّـهُ صِدّيقة ، كانَا يَـأكُلانِ الـطّعامَ** . . . ﴾[1] ، وهي كـذلك صفـة السيدة الـزهراء المعروفة بالصديقة الطاهرة .

هذا بالإضافة إلى اشتراكهما في صفة « العذراء البتول » أيضاً .

٣ ـ أمّا وجه التشابه الآخر فيتمثل في مدة الحمل :

لقد جاء في الحديث الشريف[2] ، بأنّ مدة حملِ فاطمة (ع) بسيـد الشهداء كانت ستة أشهـر فقط ، وأنه ليس هنـاك ولدٌ حملتـه أُمُّه ستـة أشهر فقط ، وبقي حياً عدا الحسين ، وعيسىٰ عليهما السلام .

وفي الحـديث إنّ الآية الشريفـة ، ﴿ **وَوَصّينا الإنسـانَ بِوَالِـدَيْهِ إحسـاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرهاً ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهـاً ، وحَمْلُهُ وَفِصَالُـهُ ثَلاثـونَ شَهْراً ، حَتّى إذا بلغ أَشُـدُه ، وبَلَغَ أربعـين سنـةً قـالَ : رَبِّ أَوْزِعْني أنْ أشكُـرَ نِعْمَتَـك التي أنْعَمْتَ عَلَيّ ، وعلى والِدَيّ ، وأن أعمل صَالِحاً تـرْضَاهُ ، وأصْلِحْ لي في ذُرّيتي ، إني تُبتُ إليكَ ، وإني من المسلمين** ﴾[3] إنما تشير في الواقع إلى ولادة سيد الشهداء .

وهكذا يأتي التعبير عن عيسىٰ : ﴿ **بَراً بِوالِدَتي** ﴾ وبالمقابـل يأتي التعبـير عن الحسين : ﴿ **وَصَيْنا الإنْسَانَ بِوالِدَيْهِ إحسـاناً** ﴾ ، وإنّ عيسـىٰ قـال : ﴿ **إني عبدُ الله** ﴾ ، وبالمقابل يأتي التعبير عن الحسين (ع) : ﴿ **إنّي من المُسلمين** ﴾ .

وعندما كتب حاكم مكة « عمـرو بن سعيد بن العـاص الأشدق » ، كتـابه إلى سيد الشهداء ، يُحذّره فيـه من عدم المبايعة وكما جـاء في التواريـخ : « وحذّرهُ

---

(١) سورة المائدة : الآية ٧٥ .

(٢) نفس المهموم : ص ٦ بحار الأنوار : ج ١٠ باب ١١ .

(٣) سورة الأحقاف : الآية ١٥ .

من النفاق والشقاق » ، فإنه عليه السلام قد ردّ عليه قائلاً : « لم يُشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال : إني من المسلمين » .

وهو بذلك يُشير إلى الآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قولاً ممّن دَعَا إلى الله ، وعمِلَ صالحاً ، وقال : إنّني من المُسلمين ﴾[1] .

طبعاً هناك من يقول بشان مدة الحمل بعيسىٰ ابن مريم ، إنها كانت تسعة أيام ، وتسع ساعات ، فقط[2] .

بالطبع إذا تأكدت الروايات القائلة بأنّ سيد الشهداء (ع) قد ولد في (٣) شعبان ، وأن أخاه الحسن قد ولد في (١٥) من شهر رمضان ، فإن القول بفارق ستة أشهر وعشرة أيام ، بين المولودين يصبح أمراً غير ممكن . وهذا الفارق يصبح ممكناً فقط ، إذا ما أخذنا بالرواية القائلة بأن ولادة الحسين (ع) قد حصلت في أواخر شهر ربيع الأول[3] .

٤ ـ وجه الشبه الآخر بين الشخصيتين : هو تلك النظرة التي تشكّلت لدى الناس حيث كان كلّ منهما قد برز بمثابة الفادي أو المخلّص[4] لأمته ، حتى صارت الناس تُفكّر بأنّهما إنما قتلا نفسيهما لأجل تحرير الآخرين من الذنوب ، وإسقاط التكليف الشرعي عنهم .

في حين أنّ قضية مقتل عيسىٰ (ع) لا أساس لها من الصحة ، وأمّا حول مقتل الحسين (ع) ، فإن فلسفة استشهاده شيء آخر تماماً .

---

(١) سورة فُصلت : الآية ٣٣ .

(٢) كما يمكن الإضافة في هذا السياق ، بأن طريقة الحمل ، والوضع ، كانتا في الحالتين تحملان صفة : كُرهاً وفي حالة مريم فإنه قد حصل ذلك بسبب ظهور الملائكة عليها إذ قالت : ﴿ إني أعُوذُ بالرحمن منكَ إنْ كُنْتُ تقياً ﴾ كما قالت : ﴿ يا لَيْتني مُتُّ قبلَ هذا ﴾ ؛ وبالمقابل فإن الحالة بالنسبة لفاطمة الزهراء (ع) إنما جاءت بسبب إخبار الرسول (ص) لها بأن ولدها سيُقتل . لكنها سرعان ما رضيت بقدر الله ورضيت به ، بعد أن أضاف (ص) بأنّ الأئمة والأوصياء سيكونون من ذُرية الحسين (ع) .

(٣) راجع نفس المهموم .

(٤) ورد في « المنجد » : « الفادي لقب سيدنا يسوع المسيح الذي افتدانا بدمه الكريم » .

وأمّا وجه التشابه الآخر فهو انطباق صفة الزكي والمبارك على كليهما . أي إنّ وجود كل واحد منهما ، كان بحد ذاته سبباً للبركة الكثيرة والوافرة[1] .

والبركة عبارة عن كثرة الخير ونموّه ، وهو ما تُفيد به تفسيرات (مجمع البيان) و(الصافي) وغيرها .

وقد جاء في مفردات الراغب :

« ولمّا كان الخير الإلهي يصدُرُ من حيث لا يُحسُّ ، وعلى وجهٍ لا يُحصىٰ ولا يُحصر ، قيل لِكُلّ ما يُشاهَدُ منه : زيادةً غيرُ محسوسةٍ ، هو : مبارك وفيه بركةٌ » .

وهو ما ينطبق على الأرض المباركة أيضاً كأرض فلسطين : وباركنا حوله . . .

يُقال إنّ إسرائيل تستثمر فاكهة الأرض المحتلة في فلسطين ، وتُدخل فائضاً من الربح في دورتها الاقتصادية ، بمقدار أرباح النفط الإيراني ، وهو ما يرد ذكره أيضاً حول المياه المباركة كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ **ونزّلنا من السماء ماءً مُباركاً** ﴾[2] .

كما يمكن الحديث عن بعض الحيوانات المباركة مثل الأغنام ، أو أن يكون وجود بعض الإنسان ، وجوداً « مباركاً حقاً » كما أنّ هناك أرضاً مباركةً تُعطي محاصيل كثيرة كل عام ، ومناخاً مباركاً دائم المطر .

وقصة الملك (فُطرُس) وكيفية توسُّل شفاء أجنحته المتكسّرة بوجود الحسين المبارك ، في الحقيقة ما هي إلّا تعبير آخر من تعابير بركة الوجود الحسيني[3] .

ولو أن الأفراد والشعوب يتّبعون المنهج الحسيني حقاً ، ويتوسلون بفكره ،

---

(١) جاء في تحف العقول إن الله سبحانه وتعالى ، وفي سياق مناجاته مع عيسىٰ (ع) قال : « يا عيسىٰ أوصيك وصية المتحنن عليك بالرحمة حتىٰ حقّت لك الولاية بتحرّيك مني المسيرة ، فبوركت كبيراً ، وبوركت صغيراً حيثما كنت » .

(٢) سورة ق : الآية ٩ .

(٣) كذلك الأمر في عبارة : « جعل الشفاء في تربته والإجابة تحت قُبته والأئمة من ذُريته » . [راجع الملاحظة رقم ٩] .

وبـركة نـوره ، لتحققت آمالهم في الحـرية والتحـرر ، وإن كانـوا في أقصىٰ نقـاط الأرض بُعداً .

مما لا شك فيه أنّ المدرسة الحسينية هي الـطريق لنجاة الأمـة وخلاصهـا ، ذلك أنّ منبر الحسين ، هو منبر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وكـما يُستنبط من « سورة الشعـراء » فإنّ ظهـور الأنبياء مـا كان يحصـل إلاّ بسبب ظهور المفاسد وشيوعها في الأرض .

أمّا اليوم ، وبحمد الله ، فنحن نرى أن الوجود الحسيني ، ومدرسته الحية الدائمة تُمثّل ظهوراً دائماً ، ومستمراً ، لمدرسة الأنبياء في العصور كافة ، أي إنّه ما من عام يمر ويأتي شهر مُحرّم الحرام ، إلاّ ويظهر علينـا الحسين (ع) ، وهـو بشكل ذلـك المُصلح الكبير الـذي يُنادينـا بأعـلى صوتـه : « ألا ترون أنّ الحق لا يعمـل به . . . » أو « الموت أولى من ركوب العار . . . » .

نعم ، إنه يُنسب إلى الإمام الحسين (ع) قوله :

سبقت العـالـمين إلى المعـالي ،	بِحُسن خليـقـةٍ ، وعُلوّ هِمّـة
ولاح بحكمتي نـور الهُدى في	ديـاجٍ من ليـالٍ مُـدْلهـمّـة
يُـريد الجـاحـدون لِيُطفئـوهُ ،	ويـأبىٰ الله إلاّ أن يُـتـمّـه

٥ ـ الـوجه الآخـر للتشابـه يمكن أن يكون في أنّ المسلمـين كـما المسيحيـين يُكـرّمـون يـومي ولادة ووفـاة الحسـين (ع) وعيسىٰ المسيـح (ع) ، مـع فـارق أنّ المسيحيين إنّما يكـرمون هاتين الليلتين، ويحيـونهما بالـرقص ، والدبكـة ، وشرب الخمور [١] .

بينما لا يخرج المسلمـون عن طورهم في كـلا الحالتـين ، بل تـراهم يُقيمون الاحتفالات الأكثر وقاراً بمناسبة ولادة الحسين (ع) ، ذلـك أنّ الإسلام لا يسمـح بخفة السلوك ، وضياع الشخصية ، بالنسبة لأتباعـه ، وأمّا بمنـاسبة الـوفاة فنحن

---

(١) بالطبع توجـد لدى المسيحيـين بعض الشعائـر الدينيـة التي يؤدونها أيضاً ليلة ولادة المسيـح يوم ٢٤ ديسمبر .

نبكي ، ونسكب الدمع على رحيل سيدنا الحسين (ع) .

في حين أنهم يُقيمون الأفراح بمناسبة عروجه إلى السماء أي ثلاثة أيام بعد مقتله كما يتصورون[1] .

وربما يوجد شبه آخر بين سيد الشهداء وعيسىٰ عليهما السلام ، وذلك من حيث عدم وجود سابقة في اسميهما ، لكن ذلك قد يكون بين الحسين ، ويحيىٰ عليهما السلام ، وليس عيسىٰ (ع) ، وعندها نقول بأن الحسين ويحيىٰ (ع) يتشابهان في أمرٍ آخر أيضاً هو كون أنّ شهادة كليهما قد حصلت على يد رجلٍ فاسدٍ للغاية ، وأنها ذهبا بالتالي ضحية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : « وإنّ من هوان الدنيا ، أنّ رأس يحيىٰ أُهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل » .

٦ ـ وجه التشابه الآخر يمكن أن يكون في جماعة كلٍ منهما وحوارييهما : ﴿ كَمَا قَالَ عِيسىٰ بن مريم لِلحوارِيينَ من أنصاري إلى الله . . . ﴾[2] وهو ما فعله الحسين (ع) عندما جمع أصحابه وحوارييه ، في ليلة العاشر من شهر محرّم ، وجعل يُخاطبهم .

« وفي وصية موسىٰ بن جعفر عليهما السلام لهشام قال :

وقال الحُسين بن علي عليهما السلام : إنّ جميع ما طلعت عليه الشمسُ في مشارق الأرض ، ومغاربها ، بحرها ، وبرها ، وسهلها ، وجبلها ، عند وليٍّ من أولياء الله ، وأهل المعرفة بحق الله ، كفيء الظلال . ثم قال (ع) : ألا حُرٌّ يدعُ هذه اللُماظةَ لأهلها ! ليس لأنفسكم ثمنٌ إلّا الجنة ، فلا تبيعوها بغيرها ، فإنه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخسيس »[3] .

وقد ذكر الشاعر الكبير (مولوي) قصة ظهور روح القدس على مريم عليها السلام في أثره « المثنوي » بأسلوب رفيع ، وسلاسةٍ فائقة .

باختصار يمكن تلخيص أوجه التشابه كالتالي :

---

(١) راجع الملاحظات رقم (٧) و(٨) .

(٢) سورة الصف : الآية ١٤

(٣) الأنوار البهية للقمي : ص ٤٥ .

من ناحية الأم ، فإن كلاً من فاطمة الزهراء ومريم عليهما السلام ، تُطلَق عليهما مواصفات سيدة النساء ، والصدّيقة ، والعذراء ، والبتول ، كما أنّ كلتيهما قد خاطبها الملائكة ، إضافةً إلى اشتراكهما في مدة الحمل ، وكراهة الحمل .

وأمّا من ناحية الإمام الحسين ، وعيسىٰ عليهما السلام ، فإنّ كلاهما ذُكرا بأنهما برا بوالديهما ، كما أنّ أحدهما ورد ذكره في المُقدسات بعبارة «إني عبد الله » ، والآخر « إني من المسلمين » هذا إضافةً إلى اعتقاد الناس فيهما بمثابة الرمز الفادي لهم .

وإلى جانب ذلك يشتركان أيضاً في كونهما رمزين مباركين ، تُقام لهما الأفراح ، والاحتفالات ، والأعياد ، في الولادة ، والوفاة ، ولا يوجد من سبقهما في هذا الاسم ، ولا يوجد أمثال حوارييهما ، وكذلك الطريقة التي استشهد فيها الحسين من جهة ، ويحيىٰ من جهة أخرى .

٧ ـ قلنا في الملاحظة رقم (٥) : إننا نحن والمسيحيين نشترك في كوننا نقيم الاحتفالات لكل من سيد الشهداء والمسيح عيسىٰ ابن مريم مع فارق ، أنّ المسيحيين يحتفلون ويفرحون في كلتا المناسبتين ، الولادة والوفاة ، بينما نحن لا نحتفل إلّا بولادة الحسين (ع) في حين أننا نقيم المآتم بمناسبة وفاته واستشهاده .

بينما المسيحيون بالمقابل كما ذكرنا يُعلنون فرحهم ، ويُظهرون سرورهم ، في اليوم الذي تم فيه العروج المسيحي إلى السماء (وذلك بعد مقتله بثلاثة أيام كما جاء في عقيدتهم) .

أضف إلى ذلك أنّ احتفالاتهم بهذه المناسبات الدينية أشبه ما تكون بالاحتفالات الوطنية والقومية ، الفارغة من أية معنوية ، أو روحانية ، أو أخلاق ، ذلك أنها عبارةً عن رقصٍ ، وشراب ، وسكر ، وعربدةٍ ، وفسق ، وفجور .

بينما بالمقابل ترى حفل ولادة الحسين (ع) غالباً ما يقترن بمظاهر العظمة المعنوية ، وتشكيل مجالس الوعظ ، والإرشاد ، والخطبة ، وسكب دموع الشوق ، وطلب التقرّب لله ، واستمداد التربية والتعليم منه .

إنني أتذكر الآن كتاباً قد قرأته في أيام إقامتي في مدينـة « قم » لمؤلفه « محمـد مسعود » الذي بدا أنه مهتم بوضع مقارنة بـين الطريقـة التي يحيي بها المسيحيـون ذكرىٰ مقتل عيسىٰ ـ بزعمهم طبعاً بينما نعتقد نحن المسلمين كما أعلمنـا القرآن : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ، ومَا صَلَبُوهُ ، ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[1] ـ والطريقة التي نحيي فيها نحن المسلمين شهادة أبي عبد الله الحسين (ع) .

وقد استنتج في ذلك الكتاب أنّ طـريقة المسيحيـين هي الأفضل بـاعتبارهم يرون في استشهاد قائدهم ومعلّمهم نصراً ، بينما نحن نراه فشلاً وهزيمةً .

ولذا تراهم يفرحون بتلك المناسبة بينما نحن نبكي .

هـذا بالإضـافـة إلى أنني سمعت مثـل هـذا الاعـتراض من أفـرادٍ آخـرين أيضاً ، مع اعتقاد ذلك البعض بـأنّ أحد أسبـاب تقدم المسيحيـين وتأخـرنا نحن المسلمـين ، إنما يكمن في هذه النظرة .

لكنني أقول لهؤلاء جميعاً :

إنكم تغفلون عن نقطة هامة للغاية أثناء تعرضكم لهذا الموضوع ألا وهي :

إنّ لا أحد يُنكر ما تقولون لو أنّ القضيـة كان لهـا بعد واحـد ، وهو البُعـد الشخصي ، والأخلاقي الفردي !

وهي قضية مؤكدة ومنـطقية في منـطق الإسلام نفســه ، فالشهـادة من هذه الناحية نصر وفوز ، وليست هزيمة وفشلاً .

فهذا علي (ع) كان يتمنىٰ الشهادة ويُحبذها لنفسه ويقول :

« لألف ضربةٍ بالسيف أهون عليّ من ميتةٍ على فراش »[2] .

وهو القائـل أيضاً : « والله لابن أبي طـالب آنسُ بالمـوت من الطفـل بثدي أمّهِ »[3] .

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٧ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢١ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٥ .

ثم أليس هو القائل بعد نزول ضربة ابن ملجم على رأسه : « فُزتُ وربّ الكعبة »[1] ؟

وهو القائل أيضاً على فراش الموت : « وما كُنتُ إلاّ كقاربٍ وَرَدَ ، وطالب وجدٍ »[2] .

ثم ها هو سيد الشهداء الحسين (ع) يقول أيضاً : « وما أولهني إلى أسلافي ، اشتياق يعقوب إلى يوسف »[3] .

كما أنه القائل كذلك : « لا أرى الموت إلاّ سعادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلاّ برماً »[4] .

لكننا نقول : إنّ هذه القضية لا بد وأن يُنظر إليها ، من زاوية أخرى ، وبمقياس آخر هو المقياس الاجتماعي .

فإنك ربما لن تجد في تعليمات السيد المسيح كافة برنامجاً اجتماعياً واحداً[5] .

بينما تجد الإسلام قد وضع سلسلة من التعليمات الاجتماعية في برنامجه العام ، وبالتالي فإن الإسلام قد طرح عدداً من التصورات الخاصة بمفاهيم الحب والبغض المنطقية .

وعليه فإن تعليمات الأئمة الأطهار عليهم السلام ، بشأن إقامة العزاء الحسيني ـ كما سبق وأن تطرقتُ إلى ذلك في محاضرات عاشوراء من العام (١٣٨٢هـ) ، والتي أوردتها تحت عنوان « الخطابة والمنبر »[6] ، وأعود فأكرر هنا ـ ليست من أجل مواساة السيدة الزهراء (ع) . مثلاً فالسيدة الزهراء أجلّ شأناً ، وأرفع مقاماً من هذا ، إنها تعليمات من أجل إحياء نوايا وأهداف

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج ٣ ص٣١٢ .

(٢) نهج البلاغة الرسالة ٢٣ .

(٣) اللهوف ص ٢٥ .

(٤) تحف العقول ص ٢٤٥ .

(٥) عدّا ما ورد في أواخر « تحف العقول » بعض من تعليمات السيد المسيح (ع) حول مسألة الظلم .

(٦) لقد تم طبع هذه المحاضرات للشهيد المطهري تحت عنوان (عشرة مقالات) .

سيد الشهداء ، والسيدة الزهراء عليهما السلام .

من هنا يأتي تأثرنا على وقوع مثل تلك المأساة ، والحادثة التاريخية ، وهو تأثر يهدف التصريح بقلقنا ، وخوفنا من إمكانية تكرار مثل تلك الفاجعة .

ولهذا فنحن نشحذ أنفسنا بالتأثر حتىٰ نتشوق إلى النضال ، ونقوّي روح الكفاح في صفوفنا ، وبالطبع هذا لا يُنافي كون الاحتفال بيوم استشهاد الحسين (ع) ، وإذا ما تم بأخذه أشكالاً معنوية ، وأخلاقية عالية ، وليس كما هو متّبع عند المسيحيين ، في ذكرى السيد المسيح ، ربما يكون وسيلةً للتشويق والحضّ على الجهاد والنضال ، لكن التشجيع على الجهاد لا نعتبره أمراً كافياً ، إذ إننا نرى ضرورة اندماج الحب والبغض (الكراهية) حتىٰ تتولد روح النضال لدىٰ الأشخاص[1] .

إنّ إحياء روح النضال والكفاح لا يحصل إلّا بعرض مظاهر الظلم والكفر ، وبلورة أشكالها أمام الناس ، حتى تحصل اللعنة عليها ، وتُشحذ النفوس بالرغبات الشديدة لرؤيتها ، وقد مُحيت من الوجود ، ولم تَعُد تتكرر ، تماماً كما يحصل في فعل رمي الجمرات في الحج ، حيث إننا نتصور الشيطان ونبلوره أمامنا ، ثم نرميه بالحصىٰ .

فليس صحيحاً أنّ نُلقّن الناس وأنفسنا بالرغبة والاشتياق إلى الموت ، فالطموح إلى نيل مرتبة الموت وحدها ليس أمراً جيداً ، والهدف هو الوصول إلى درجة الشهادة ، وأُمنية الشهادة ، لا تتحقق إلّا عندما يرى الإنسان نفسه أمام صف الأعداء ، وقد بدأت مشاريعهم تتحقق ، وخططهم تأخذ مجراها العملي في المجتمع ، وبالتالي فإنه يحزن ويتأثر لذلك ، مع ما يرافق ذلك من رغبةٍ في سكب

---

(١) بعبارة أخرى نقول إن مدرسة العزاء الحسيني ، ليست مدرسة محض حزينة ، إنها مدرسة تمرد وثورة . فقد كانت واقعة كربلاء على مر التاريخ الإسلامي سبباً ومنشأً لحدوث الثورات ، وانهدام قصور الظلمة والطواغيت ، وقد لعب عامل شحذ النفوس بالبغض والحزن المنطقي ، والاجتماعي ، دوراً كبير في تلك الحوادث ، وهي مرشحة لتلعب مثل هذا الدور في المستقبل أيضاً .

الدمع على الأخيار ممن سبقوه ، والمُثل الإنسانية العُليا التي كانوا يُدافعون عنها ، ويُمثلونها ، فيمتزج هذا الشعور مع شعور الغضب ، والبغض ، والكراهية ، ضد مظاهر الكفر والظلم .

وإنني بصدد التطرُّق في أبحاثي المستقبلية إلى مثل هذه المواضيع ، تحت عنوان « التعليمات الاجتماعية »[1] ، والتي سأتناول فيها موضوعات الحب والكراهية في السياق المنطقي ، إلى جانب الحب والكراهية في السياق العاطفي إن شاء الله .

إذاً، نقول : إنّ الشهادة إذا ما قيست بمقياس فردي ، فإنها علامة موفقية ونجاح ، ولا بد أن يُحتفل لها ، ويُفرح من أجلها .

لكننا إذا ما وضعناها في المعيار الاجتماعي العام فلا بد أن نرى فيها علامة للهزيمة والفشل ، لذلك المجتمع الفاسد ، والمُنحط ، الذي يقول عنه سيد الشهداء نفسه : « وعلى الإسلام السلام إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد »[2] ، إلى غير ذلك من أمثال هذه المقولات الخالدة في تاريخنا لذلك نقول : إنه ومن أجل المصالح الاجتماعية تلك ، ومن أجل تجديد وإحياء روح النضال والكفاح على طريق الحق ، لا بد من إيجاد مدرسة الحزن والبكاء ، لأنها المدرسة الأكثر نفعاً ، والأعمُّ فائدةً في هذا المضمار .

وقد تطرقتُ إلى مثل هذه الموضوعات في شرح حديث : « العدلُ أفضل أم الجودُ » في محاضرة (١٩ من شهر رمضان من العام (١٣٨١هـ) [3] .

٨ ـ عودة إلى النقطة الخامسة نقول :

إن ولادة السيد المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام لدى المسيحيين تصادف يوم (٢٥ كانون الأول) أي خمسة أيام قبل عيد رأس السنة الذي يصادف الأول من كانون الثاني .

---

(١) سيتم نشر هذه الموضوعات تحت عنوان : أوراق وملاحظات للأستاذ الشهيد المطهري .

(٢) مقتل المقرم ص ١٤٦ .

(٣) تم طبع هذه المحاضرة في كتاب « عشرون مقالة » .

وقد جرت العادة أن يوجه البابا في هذه المناسبة رسالة إلى الرأي العام العالمي يدعو فيها إلى المحبة والسلام ، ثم يقرأ بعض الدعاء ، وقيل إنه يصعدُ أحياناً على عرش ذهبي ، ويوجه منه رسالة ، ودعوةً عامة للاهتمام بالفقراء !!! .

ويمكن ملاحظة أمرين يتكرران على الدوام في أعياد الميلاد من كل عام :

الأول : حتمية حضور شجر الصنوبر في كل بيت مسيحي بهذه المناسبة ، وإذا لم تحضر الشجرة كلها فلا بد من غصن على الأقل ، ويكون سوق هذا النوع من الأشجار في أوجه في مثل هذه الأيام ، وعندما تدخل هذه الشجرة إلى البيوت فإنها تُزيّن بالألوان المزركشة ، وتُحاط بالألوان البراقة ، وتُشعشع الأنوار حولها ما استطاع المواطن في ذلك .

وأما الأمر الثاني : فهو ظهور بابا (نويل) الذي يأتي ليزور الأطفال في ليلة العيد ، كما جرت العادة ، حاملاً معه هدايا إلى الأطفال وقد أتىٰ بها من السماء ، فيدسّها في جيوبهم ، أو في أحذيتهم وهم نائمون .

وقد قرأت مرةً في صحيفة إطلاعات إعلاناً بهذه المناسبة ، يُفيد بأنّ كثيراً من المراكز العامة ، والنوادي ، والفنادق ، قد أعدّت برامج خاصة للأطفال للاحتفال بهذه المناسبة .

نستنتج من كل ذلك أنّ ليلة عيد الميلاد تشمل في الواقع مجموعة من العقائد ، والأفكار الخرافية ، إضافة إلى أعمال الفسق والفجور .

بينما نحن في المقابل لا وجود لمثل هذه العقائد الخرافية ، ولا مجال لأشكال الفسق والفجور ، في مناسباتنا ، وأعيادنا الدينية .

٩ ـ عودة إلى النقطة الرابعة نقول ونؤكد :

إنّ المدرسة الحسينية لا شك هي الطريق لخلاص الأمة ونجاتها ، ذلك أن العلة المبقية للدين ، والتي هي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتي تشمل بالمعنى الواسع للكلمة أنواع الأعمال المُشجّعة للمعروف ، وأنوع الكفاح ضد

المنكرات ، هذه العلّة قد ارتبطت في الحقيقة ارتباطاً عضوياً بالحسين (ع) حتىٰ قيل : « إنّ الإسلام نبوي الحُدوث ، وحسيني البقاء » .

١٠ ـ عودة إلى النقطة الخامسة نقول :

إنّ واقعة الإمام الحسين في الواقع موضوع وعنوان تبليغي هام للعالم الإسلامي ، وهي نوع من الإحياء الدائم لمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وشكل من أشكال الظهور السنوي لسيد الشهداء في مظهر الخطباء ، والقُرّاء الحسينيين ، أو في مظهر المُصلحين ، والثوريين الصُلحاء .

١١ ـ عودة إلى النقطة الثامنة : أرى أن نقرأ سوية ما ورد في صحيفة (كيهان) من العام (١٩٦٣م) بمناسبة أعياد الميلاد . إذ كتبت الصحيفة تقول :

« منذ أسبوعين تقريباً ، وأشجار الصنوبر المرصوفة بجوار جدران سفارة الاتحاد السوفياتي ، والسفارة الإنجليزية ، وسائر شوارع (طهران) الشمالية ، تُنبىءُ باقتراب موعد الاحتفال الكبير للمسيحيين في (طهران) .

فالمسيحيون هنا من خلال اهتمامهم بهذا النوع من الأشجار، وتزيينه ، والسهر إلى جانبه ، في ليلة عيد الميلاد ، إنما يحتفلون بهذه الطريقة بميلاد نبيّهم .

ففي ليلة أمس وقبل موعد ساعة الميلاد التي تصادف حسب عقيدة المسيحيين ، الساعة الثانية عشرة ليلاً ، من يوم (٢٤/ ٢٥ كانون الأول) توجه المواطنون المسيحيون إلى كنائسهم ، وأدّوا فرائض الدعاء ، والعبادة ، ثم توجهوا إلى بيوتهم لتناول طعام خاص أُعدّ لهذه المناسبة .

إنّ المسيحيين الكاثوليك الذين يعتقدون أنّ السيد المسيح قد وُلد تحت شجرة الصنوبر ، ـ علماً بأن القرآن يُصرّح بتولده تحت النخلة ـ ، تراهم يُقدّسون هذه الشجرة ، لا سيما في ليلة الميلاد ، ويُزيّنونها بأحسن وجه ممكن ثم يُحافظون عليها ، هكذا تُشعشع وتنور بيوت الكاثوليكيين ، حتى نهاية أعياد كانون الثاني القادم .

وأمّا بابا (نويل) فإنّه ، واستناداً إلى حكايات الأطفال ، فهو سيركب

العربة الذهبية منتصف الليلة الماضية ، ويتوجه إليهم ، انطلاقاً من الأراضي المغطاة بالثلوج ، حاملاً معه الهدايا الخاصة بالأطفال .

فالأطفال المسيحيون كانوا قد وضعوا جواربهم منذ الليلة الماضية تحت دواخين البيوت ، حتىٰ تتلقف هدايا بابا (نويل) ، التي فرحوا بها هذا الصباح ، وهي الهدايا التي عادةً ما يضعها الآباء والأمهات ، لهم ، وكما يبدو فإنّ هذه القصة الخرافية تعود في الواقع إلى فكرة ألوهية السيد المسيح لدى المسيحيين الذين يحاولون تلقين أطفالهم بها بهذه الطريقة .

إنّ مقاهي (طهران) ، وملاهيها ، ونواديها الليلية ، كانت قد امتلأت بالأمس ، بأولئك الذين يقضون ليلتهم الاحتفالية في مثل هذه الأماكن ، وعادةً ما يحضر الكثير من أهل (طهران) غير المسيحيين إلى هذه الأماكن إنْ بدعوة من أصدقائهم المسيحيين ، أو بدون دعوةٍ ، ليُمضوا هذه الليلة هناك » .

في الختام لا بأس من تلخيص أوجه التشابه الواقعية الموجودة بين هذين الوجودين الطاهرين ، من زاوية الشخصية الواقعية لهما ، والتي هي عبارة عن :

أ ـ من ناحية الأم :

حيث إنّها كلاهما من أم يُطلق عليها سيدة النساء ، وصدّيقة وعذراء وبتول وقد خاطبها الملائكة .

ب ـ اشتراكهما في مدة الحمل .

ج ـ اشتراكهما في كراهة الحمل .

د ـ اعتبار كل من عيسىٰ والحسين شخصيتين مباركتين : [فعيسىٰ (ع) ورد بشأنه : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبارَكاً ﴾ . والإمام الحسين (ع) : وجعل الشفاء في تربته ، والإجابة تحت قُبته ، والأئمة في ذُرِّيته .

لولا صوارمُهم وقطع نبالِهِم ... لم تسمع الآذان صوتَ مُكبِّرِ

هذا بالإضافة إلى عددٍ آخر من أوجه التشابه المتعلقة بالنظرة الخاطئة للناس

حول كل من الـوجودين الـطاهرين ، وهي الصـور المُضلّلة عنها وهـو مصداق : ﴿ يَهْدِي بِهِ كَثيراً ، وَيُضِلُّ بِهِ كَثيراً ﴾ .

وهنا يرجى مراجعة (الميـزان في تفسير القـرآن ـ المجلد ٣ ص ٣٢) حيث ورد بهذا الخصوص : « المسيحُ من الشفعاء عند الله ، وليس بفادٍ » .



القسم الرابع
ملاحظات حول عامل الأمر بالمعروف
في
النهضة الحسينية

مدخل إلى الملاحظات

١ ـ أولاً : ما معنى المعروف وما معنىٰ المنكر؟ وما معنىٰ الأمر بالمعروف ؟ وما معنى النهي عن المنكر ؟ .

إنّ كلمة « المعروف » تشمل في الواقع كل الأهداف والمفاهيم الإسلامية الإيجابية ، وبالمقابل فإنّ كلمة « المنكر » تشمل كل المفاهيم السلبية من وجهة نظر الإسلام .

ولهذا نرى أنّ التعبير عن تلك المفاهيم العامة قد ورد هنا باستخدام مصطلح عام ، وعنوان عريض .

وأمّا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فرغم أنهما قد وردا من خلال مفهومي الأمر ، والنهي ، إلّا أنّ النص الفقهي ، ونص الحديث ، واستناداً إلى التاريخ الإسلامي المؤكد ، فإنّ المفهوم هنا يشمل كل وسيلة مشروعة يمكن الاستفادة منها في تحقيق هذه الأهداف ، والحفاظ على الجسم الإسلامي العام ، وتوسيع رقعته .

٢ ـ ما هي القيمة الواقعية ، والثبوتية ، للأمر بالمعروف ، من وجهة نظر الإسلام ؟

وما هو مدىٰ الأهمية والقيمة التي يضعهـا القرآن والسنـة النبويـة لمثل هـذا الأمر ؟

(إنّ آيـات القرآن الكـريم الواردة بشـأن هذا المـوضـوع ، كثيرة وهـامـة للغاية ، وكذلك الأحاديث والروايـات الواردة بهـذا الشأن ، فـإنها من الأحاديث العجيبـة والملفتة) ، من ذلـك نستنتج بـأنّ هذا الأصـل له قيمـة أصيلة في غايـة الأصالة في المتون الإسلامية ، وفي مقام الثبوت ، وأنه بالتالي من أركان التعليمات الإسلامية .

٣ ـ إنّ العـوامل المؤثـرة في النهضة الحسينيـة ثلاثـة ، وهذه النهضـة تأخـذ مدلولها وأهميتها وقيمتها الخاصة حسب كل عامل من هذه العوامل .

٤ ـ إنّ قبول هذه المسؤولية بحاجة إلى تحمل شروط خـطيرة وهامـة ، سواء من ناحية المعلومات والمعرفة اللازمة ، أو من ناحية القوة التنفيذية .

ومشكلتنـا نحن لم تكن حتىٰ الآن بعدم اهتـمامنا الكـافي بهذا الأصـل ؛ بل المشكلة الأكـبر كانت في عـدم استعدادنـا للقيام بمثـل هذه المهمـة الخـطيرة ، التي اسمهـا المسؤوليـة الاجتـماعيـة العـامـة[1] ، والمـطلوبـة لأجـل تحقق الأهـداف الإسلامية .

فمعرفتنا لم تكن كاملة ، وكذلك حالة قدراتنا التنفيذية .

ولهذا أقول : إنّ الضرر الذي لحق بنا نتيجة تطبيقنا الساذج ، والجـاهل ، لهذا المبدأ ، كان أكثر من الضرر الذي لحق بنا نتيجةً لتركنا هذا الواجب .

إنّ مظاهر نشاطنا في هذا المجال ، قد أثبتت مدى القـدرات التي نمتلكها في هـذا الخصوص ، وبعبـارة أخـرى إنّ سجلّنـا في الأمـر بـالمعـروف ، والنهي عن المنكر ، سجل أسـود ، وسيّىء للغاية ، وهو يُـظهر لنـا جيداً مقـدار المعرفـة التي

---

(١) بعبارة أخرى مسؤولية التضامن التام ، وعلامـة كمالـه في العمل بقـول رسول الله (ص) : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضاً ، المسلمون تتكـافأ دماؤهم . . . » باختصار نقول إنّه لا بـد من التضـامن فيما بيننـا نحن المسلين، وجمـع القوىٰ ، واستعـادة الذات ، والهـويـة ، والشخصيـة المستقلة .

نمتلكها بهذا الخصوص ، إلى جانب مقدار القوة والقدرات الذاتية .

وهنا لا بد من التأكيد بأنّ مشكلتنا كانت على الدوام في النقص الظاهر في معرفتنا ، أكثر مما هي في النقص الموجود في قدراتنا[1] ، وكلاهما بالطبع شرطا وجود لا شرطاً وجوب ، كما هو مصطلح ، أي إنهما من الشروط التي لا بد من اكتسابها والحصول عليها .

ومثال ذلك نجده ونلمسه في مقدار تحسسنا للأمور والقضايا المحيطة بنا ، فنظرة سريعة على نوع الكتب التي ننشرها ، ومدى مطابقتها للأهداف الإسلامية المطلوب متابعتها ، والأموال التي نُنفقها ، والدعاية والإعلانات التي نقوم بترويجها ، والأفكار التي تشغل بالنا ، وتأخذ من وقتنا أكثر من غيرها ، كلها مسائل نستطيع من خلالها فهم وإدراك مدىٰ الأهمية التي نضعها لهذا المبدأ .

٥ ـ وهنا نتساءل عن سجّل أعمالنا مع هذا الركن ؟ وللأسف ينبغي القول إننا لا نملك سجّلاً ناصعاً بهذا الخصوص ، وإنّ أعمالنا التي تندرج عادةً تحت هذا العنوان ، بدلاً من أن تكون أعمالاً من نوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تراها نوعاً من أعمال المنكر .

ونظرة سريعة على نشاطاتنا في هذا المجال سواء التبليغية منها ، أو الإعلامية ، والطباعية ، أو الوفود المتجوّلة في الخارج ، أو إنفاق الأموال ، أو نوع المؤسسات ، وما شابه ، تثبت لنا أنها بمستوى الصفر ، أو أقل من الصفر .

٦ ـ إنّ لكلٍ من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مراتب وأقساماً : فهناك القسم اللفظي ، والعملي ، والمباشر ، وغير المباشر ، والفردي ، والاجتماعي . . .

٧ ـ وأخيراً فإننا بعد أن عرفنا قيمة هذا الأصل ، من وجهة نظر الإسلام ،

---

(١) وذلك من زاوية أننا لسنا مُحيطين بأوضاع زماننا ، ولا يتوقف الأمر عند عدم إدراكنا لاتجاهات الحركة الاجتماعية المستترة في بطن الأحداث ، وبالتالي عدم نمونا وتقدمنا ، بل إننا نعجز حتىٰ عن رؤية الظواهر السطحية جداً .

وفي مقام الثبوت ، وبعد أن عرفنا أيضاً أنّ أهمية النهضة الحسينية إنما تأتي في الواقع من زاوية هذا العامل في الغالب[1] ، وبعد أن عرفنا كيف أنّ النهضة الحسينية من خلال تقديمها الغالي والنفيس ، من عرض ، ومال ، وأهل ، وأصحاب ، وكل شيء ، في سبيل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد رفعت ودعمت من أهمية ومقام ومدلول هذا الأصل الإسلامي[2] .

وإنه في الوقت الذي توقف فيه الآخرون لدى تطبيقهم لهذا الأصل عند حدود منع الضرر الشخصي ، وبذلك يكونون قد حطُّوا من قيمة هذا الأصل وأهميته ، فإن النهضة الحسينية لم تعرف حدوداً لتطبيق هذا الأصل .

بعد هذا لا بد لنا أن نتساءل عمّا يجب علينا عمله حتىٰ نرتفع إلى مستوى المسؤولية ، ونرفع من مقامنا لدى الله تعالى ، ولدى نبيه الكريم (ص) ومن ثم الحفاظ على ماء وجه أمتنا الإسلامية لدى سائر الأمم ، والشعوب ، في العالم ، وكسب بعض الأهمية ، والاحترام ، والتقدير العالمي ، لشعوبنا ، ماذا ينبغي علينا عمله حتىٰ نرفع من قيمة عزاء الحسين ودرجة أهميته ؟ وهل أن المطلوب منا انتخاب وإحياء الشعارات الحسينية الحية ، أم تكرار شعارات العجائز الخاوية أمثال : أين شباب علي الأكبر ، والوداع ، الوداع يا زينب المضطرة ؟!

إنّ الجواب على ذلك ، قد ورد في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ ، تأمُرُونَ بالمعرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[3] .

نعم بالتعاون والتعاضد الاجتماعي ، وبالتضامن والإحساس بالمسؤولية ،

---

(١) هذا العامل المؤثر في توسيع رقعة الثورة بأي شكل ، وبكل ثمن كان ، حتىٰ وإن سالت الدماء الزكيه الطاهرة من خلال مزيد من تقدم الشباب إلى ساحة الوغىٰ ، والوقوف أمام حد السيوف ، وهو العامل الذي يدفع إلى اتساع حجم المعارضة ، والتمرد ، والنقد ، وتسمية المعتدي ، ورفع نداء العدالة بالدم الذي لا يمكن محو أثره على مر العصور ، ذلك أنّ أي نداء للعدالة والإنسانية ، يكتب بهذا الحبر الثمين والنفيس ، لا يمكن أن يُمحى أثره أبد الدهر .

(٢) المقصود أنّ النهضة الحسينية قد رفعت من قيمة مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في عيوننا ، وفي تصورنا ، وليس أساس مبدأ الأمر بالمعروف و . . . فهو أساس ثابت في الأصل .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

أمام المجتمع الإسلامي ، نكون خير أُمةٍ أُخرجت للناس .

فعلينا أن نتحين الفرص ، وندرس الواقع ، ونُدرك المرحلة التي نمر بها ، وينبغي علينا أن نعرف كما ورد في قولٍ « للسيد شرف الدين » ـ ما مضمونه ـ : « لا يُقضىٰ على الباطل إلّا من حيثُ جاء » .

قلنا إننا لسنا فقط عاجزين عن إدراك سبر الأحداث المستترة ومدلولاتها ، بل حتىٰ أبسط الظواهر الواضحة نعجز عن إدراكها .

وقلنا أيضاً إنّ مشكلتنا في نقص معرفتنا ، أكثر ممّا هي في نقص قوتنا ، فمن المستحيل التصور بأنّ (٧٠٠ مليون مسلم)[١] مسلم لا وزن لهم في العالم .

فهذا مثال واضح لكلا المسألتين ، يُثبت لنا مدى جهلنا من جهة ، ومدى توفُّر إمكانية القوة عندنا من جهة أخرى ، ومثالي هو تلك القصة الحزينة ، لكنها المُحرّكة ، والتي تهز الضمير في الوقت نفسه ، ألا وهي قصة تعاملنا مع القضية الفلسطينية في السنوات الثلاثين السابقة .

فهل تعرفون سابقة اليهود في فلسطين ؟

إنهم لم يُشكّلوا دولةً في حياتهم إلّا في زمن داوود وسليمان ، وبعد ذلك لم يكن لهم دولة تُذكر في أي مكان ، ولم تكن حتى في زمن فتح المسلمين لفلبسطين . . .[٢] .

* * * *

(١) طبقاً لأحصائيات ذلك العام .

(٢) هكذا ورد في النسخة الخطية للأستاذ الشهيد .

ملاحظـات عامــة

١ ـ لماذا بعث الإمام بكتبه إلى البصرة يدعوهم فيها إلى التحرك ؟

ألم يكن هذا نوعاً من أنواع العمل باتجاه توسيع رقعة الثورة والدم ؟

وأكثر من ذلك ، لماذا أرسل في ليلة العـاشر من محرّم « حبيب بن مـظاهر » إلى بني أسد ، يطلب منهم التحرك والقدوم إلى ساحة الوغىٰ ؟

ولماذا أخيراً لم يُلزم أصحابه ، وأهل بيته ، وعياله ، بعـدم تعريض أنفسهم للموت ؟

إنّ الإمام قد تحمل كل هذا من أجل أن يُسجّـل اعتراضـه وتمرده ، ويكتب نداء العدالة والحق بدمه الذي لا يمكن محـوه أبداً ، وتـرىٰ الإمام قـد أورد معظم خُطبه الحماسية ، بعد اصطدامه بجيش الحر ، وبعد أن أطبقت عليه الجيـوش من كل جانب[1] .

وبشكـل عام أثبت التـاريخ أن الـرسالـة التي تكتب بالـدم لا يمكن محوهـا أبداً ، لأنها تُحدِّث عن عمق في التفكير ، وعزم لا يلين .

٢ ـ إنّ ما بيّناه في الملاحظة السـابقة يـأتي تأكيـداً على أن الإمـام الذي بنىٰ

---

(١) راجع الملاحظة السابقة رقم (٣) .

تحرُّكه على مبدأ الأمر بالمعروف ، إنما يكـون قد اختـار منطق الشهيـد والشهادة ، والذي هو ما فوق المنطق النفعي العقلاني .

هذا الاختيار الذي يعني أنّ كل شيء يهون أمام تحقق أهداف التحرك ، في حـين أن عاملي البيعة ، والدعوة الكـوفية لتشكيـل الحكومـة ، لا يمكن أن يصل تأثيرهما إلى حدود توسيع رقعة الثورة والانتفاضة .

٣ ـ عطفاً على الملاحظة الأولى نقول :

إنّ كثيـراً من السـلاطـين كـانت لـديهم الـرغبـة في تخليـد أسـمائهم ، وخطاباتهم ، وأقـوالهم ، وإن كانـوا فارغـين في التاريـخ ، ولذلـك تراهم كـانوا يسعـون إلى كتابـة آثارهم تلك فـوق الصخور ، واللوحـات الصخريـة ، ونحت أسـمائهم ، وأسماء سـلالاتهم الحـاكمـة . (وهـو مـا نجـده في آثـار النحت عـلى الصخـور وأمثال ذلـك) إلى غير ذلـك من التُرهّـات ، التي لا يبقى منهـا شيء في القلوب أبداً ، بل سرعان ما تذهب مع ذهابهم تحت الأنقاض .

بينما استطاع الإمـام الحسين (ع) ، من دون أن ينحت اسمـه ، أو عمله ، عـلى لوحـة فلزية ، أو صخـرية ، وبـالرغم من أنـه قـد أرسـل نـداءه إلى أعـالي السماء ، وسجّل أعماله فوق لوحة الهواء المهتزة ، لكن قصته ، وحكـايته ، طُبعت في القلوب ، وخُلّدت في الصدور ، وبقيت حيّة إلى الأبد ، في قلوب أولياء الله ، كأنها خطوط الوحي النورانية الأبدية .

وهكذا : فـ « إنّ للحُسين محبةً مكنونةً في قلوب المؤمنين » .

واسـم الحسين قد طُبع في الواقـع في أرقىٰ مقام ، وأرفـع مركـز حسي ممكن للروح ، بحيث إنّ ذكر اسمه لوحده ، يكفي لأن تسيل الدموع من أجله .

لـماذا ؟ ذلك أنّ نهضتـه ، وقيامـه لم يكن شخصيـاً ، بـل لله ، وهـدفـه ، ومقصده ، وغايته ، إنسانية رفيعة ، تسمو إلى تحقيق العدالة ، وإشاعة التقوى .

٤ ـ عندما يهيمن حكم الفساد ، والفسق ، والفجور ، على رقاب الناس ، وتشيع الفاحشة والمنكر ، وينتشر الظلم ، والفساد ، والاستبـداد ، ولا يخرج أي

صوت يعترض على تلك الحالة ، بحجة الحفاظ على النفس والكرامة ، فإنّ حكم الناس البعيد عن ذلك المجتمع ، زماناً ، أو مكاناً ، سيكون بلا شك القول برضا أفراد المجتمع ، وقبولهم لمجريات الأحداث في زمانهم ، وقد يذهبون أبعد من ذلك ، ويعتبرونه نوعاً من الإعراض عن الإسلام ، أو الثورة المضادة له .

٥ ـ إنّ ردود فعل الأمويين أنفسهم ، التي سبق أن أوردناها[١] ، والتي جاءت على لسان كل من عثمان بن زياد ، ومرجانة ويحيى ابن الحكم ، وهند زوجة يزيد ، ومعاوية بن يزيد ، تشير كلها إلى الأثر العظيم الذي تركته واقعة شهادة أبي عبد الله (ع) على نفوس الرأي العام ؛ وكيف أنّ هذه الحادثة قد مزّقت ستار النفاق من حول الأمويين ، وكشفت عن حقيقة باطنهم ، وفصلت إلى الأبد بين ملف الإسلام وملف الأمويين .

وهذا بحد ذاته دليل ساطع على أحقيّة الإمام الحسين (ع) في اختياره منطق الشهيد والشهادة .

٦ ـ إنّ قول الإمام الذي ورد عنه في يوم عاشوراء : «إني لأرجو أن يُكرّمني الله بهوانكم » ، يأتي تأكيداً آخر على أنّ الإمام كان مطمئناً إلى حُسن الأثر الذي ستتركه شهادته ، وأنّها ستكون الوسيلة التي بها تتراجع أهداف الأمويين ، وتنكسر شوكتهم ، ويذهب ماء وجههم ، بينما تُشرق صفحة أعماله ، وتزداد ضياءً بها ، وهذا دليلٌ آخر على ما ورد في الملاحظة السابقة .

٧ ـ إنّ العوامل الخاصة المؤثرة في حدوث قيام الأمر بالمعروف هي التالية :

أ ـ جعل الخلافة والحكم وراثياً ، وبالتالي تحقيق أمنية أبي سفيان التاريخية .

ب ـ نقض اتفاقية الصلح المعقودة بين الإمام الحسن ومعاوية من قبل الأمويين ، والظروف التي لم تَعُد تطاق بالنسبة للشيعة ، والتي كان الأمويون قد فرضوها على أنصار علي (ع) ، من خلال التعميمات الحكومية ، التي أُصدرت في

---

(١) فصل ملاحظات حول النهضة الحسينية : رقم (٣) .

زمن معاوية ، والتي كان يؤخذ فيها الشيعي بالتهمة والظنة ، ويُخرج فيها محّو علي من الديوان الحكومي ، ويُحرم فيها من يثبت ولاؤه لعلي (ع) ، من كل شروط الحياة الاجتماعية ، من حقوق ، وقضاء ، وشهادة ، وإمامة جمعة وجماعة ، هذا إضافة إلى قتل أكابر الشيعة ورجالها ، من أمثال حجر بن عدي ، وعمرو بن الحمق الخُزاعي ، وغيرهما .

ج ـ سبُّ علي (ع) على المنابر .

د ـ اتساع حملة الدعاية ، والترويج لصالح الأمويين ، ولا سيما معاوية بالذات ، ووضعه في مقام كبار الصحابة .

٨ ـ عطفاً على الملاحظة السابقة نقول :

إنّ سياسة الأمويين بشكل عام ، كانت تقوم على قاعدة المحافظة على الإسلام في الظاهر والشكل ، مع العمل على تفريغه من الجوهر ، والعمق الداخلي .

وبعبارة أخرى فإنّ سياستهَم كانت تعبيراً عن تحقق نبوءة النبي الأكرم (ص) ، التي أفادت بقدوم يوم ، يكون الناس فيه لا يزالون يُقبلون على الإسلام ، في حين يأتي من يُبعدهم عنه .

* * * *

القسم الخامس
ملاحظات حول التحريفات الحاصلة
في
واقعة عاشوراء التاريخية

التحريف في واقعة عاشوراء

١ ـ تأتي كلمة ـ تحريف ـ من جذر ـ حرف ـ بمعنى حرف الشيء ، والدفع به نحو الاعوجاج ، وإخراجه من مسيره الأصلي .

والتحريف على نوعين : لفظي أو هيكلي ، ومعنوي أو روحي ، وهو أشبه بعمل المغالطة الذي هو الآخر على نوعين ، لفظي ومعنوي .

إنّ للتحريف وللمغالطة سابقة تاريخية طويلة . والقرآن الكريم يُحدّثنا عن التحريف بحق الكتب السماوية ، وهو ما سجّلته من خلال مطالعاتي في أوراقٍ تحت عنوان « تحريف الكلمة »[1] .

كما أنّ التحريف من زاوية نوعه يشتمل على قسمين : لفظي ومعنوي ، فإنّ التحريف من زاوية العامل المُحرّف ، يشتمل على قسمين أيضاً : فهناك تحريف الأصدقاء إلى جانب تحريف الأعداء .

بعبارة أخرى إمّا أن يكون منشأ التحريف جهل الصديق ، أو عداوة العدو .

(١) سيتم نشر موضوع هذه الأوراق في سلسلة مذكرات وأوراق الشهيد .

كما أن الموضوع المُحرّف يمكن أن يشتمل على أقسام عديدة :

فمرةً يكون الموضوع المُحرّف عبارة عن أمرٍ فردي لا أهمية له ، كالتحريف في رسالة شخصية ، أو ما شابه ، وقد يكون مرةً الإساءة والتلاعب بأحد الآثار القيّمة ، سواء الأدبية ، أو الاجتماعية ، أو التاريخية ، أو الوثائقية ، كما في اختلاق حرق كتب الإسكندرية ، أو التلاعب الذي يحصل في كثيرٍ من الوثائق الأخلاقية ، والتربوية ، أو الاجتماعية .

٢ ـ يقول المرحوم (آيتي) في محاضرته الخامسة المنشورة في كتاب « تحليل تاريخ عاشوراء » بأنّ أسر أهل بيت الإمام ، شكّل عاملاً مهماً في انتقال وقائع عاشوراء الحقيقية إلى الناس ، ومنع تحريفها وقلبها .

ثم يضيف إلى ذلك في محاضرته السادسة الواردة في نفس الكتاب (ص١٥١) القول :

« ينبغي الملاحظة بأنّ تاريخ أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، يُعتبر نسبةً إلى كثير من التواريخ الأخرى ، تاريخاً محفوظاً من التحريف ، ومُصاناً منه » ، لا سيما وأنّ خصوصية الفاجعة ، والحالة المأساويّة ، التي صاحبتها ، إضافة إلى عظمة الحادثة ، وجلال وهيبة أهل بيت النبي (ص) ، أمران قد ساعدا أولئك الذين درسوا هذه الواقعة من هاتين الزاويتين ، أن يحرصوا وبشكل دقيق ، واهتمام بالغ ، على درج التفاصيل الجزئية والدقيقة للواقعة .

فترى أن جزئيات الواقعة ، ودقائق أحداثها ، قد وردت بأسانيد متواترة ، ومحكمة ، في عدة تواريخ أمثال (الطبري) ، و(ابن الواضح اليعقوبي) ، و(الشيخ المفيد) و(أبو الفرج الإصفهاني) ، الذين عاشوا في القرون الثاني ، والثالث ، والرابع ، للهجرة ، وقد نقل جميع هؤلاء وقائع عاشوراء على لسان رواة موثقين ، لا يرقى إليهم الشك .

إنّ المرحوم آيتي يؤكد كذلك في « ص ١٦٨ » من كتابه ، بأنّ اهتمام نساء أهل البيت ، بالخطبة والخطابة ، في المناسبات المختلفة ، التي كانت تتاح لهنّ بالتكلّم ، على الرغم من وجود الإمام علي بن الحسين (ع) معهنّ ، ما هو في

الحقيقة إلّا محاولةً منهنّ لمنع وقـوع ، وحصول ، أي نـوع من أنواع التحـريف في الواقعة ، (سواء أكان تحريفاً لفظياً ، أو معنوياً) .

نعم من أجل أن لا تقلب الحوادث، فقد حرصْنَ على القيام بتلك المهمـة، وشرح تفاصيلها ، وأهداف الإمام من وراء ذلك التحرك ، عـلى شكل خـطابات عامة .

٣ ـ في بداية محاضرته التاسعة (ص١٧٥) ، وضمن إشارته إلى أهمية خطب وأقوال أهل بيت الإمام يقول المرحوم (آيتي) :

« إننا إذ نستطيع اليوم الاطلاع الدقيق على جزئيات واقعة عاشوراء ، فـإنما نطّلع عليها من خلال خطب الإمـام ، وأهل بيتـه ، في مكة ، أو في الـطريق بين الحجاز والعراق ، وفي كربلاء ، وفي الكوفة ، والشام ، والمدينة .

ومن خلال أقواله التي وردت في ردوده على أسئلة الآخـرين ، أو من خلال الرجز الذي ردده الإمام وأصحابه في يـوم عاشـوراء في مواجهـة الأعداء ، أو من خلال أقوالهم المثبتة في الأسانيد المُعتبرة ، والموثقة ، أو من خلال الرسائل المتبـادلة بـين الإمام وأهـل الكوفـة ، أوأهل البصرة ، وكـذلك من خـلال الرسـائل التي تُبـودلت بين يزيـد وابن زياد ، وابن زيـاد وعمر بن سعـد ، أو رسالـة ابن زياد إلى حـاكم المـدينة ، وغـيرها من الـرسائـل ، والتي سجّلتها جميعـاً التواريـخ المُعتبرة ، والتي ستصـل حتماً إلى أسـماع وعقول النـاس في المستقبل ، وتبقىٰ محفـوظـةً رغم تبـدُّل الظروف ، والتي من خلالهـا يمكننا كـما ذكرنـا قراءة الـوقائـع والجزئيـات الدقيقـة لأحداث عاشوراء ، دون التفتيش عن مزيد من المصادر في هذا الباب » .

٤ ـ من جملة الأمور التي حرّفها العدو القـول الذي ورد في التـواريخ من أنّ يـزيداً قـد كتب إلى ابن زياد (بعـد وصول أخبـار ورود مسـلم إلى الكوفـة إليه) يقول له ـ في الأمر الذي وجهه إليه في تولية الكوفة ـ :

« إنه كتب إليّ شيعتي (أي جواسيسي) من أهل الكوفـة ، يخبرونني أنّ ابن عقيل بالكوفة ، يجمع الجموع لشق عصا المسلمين . . . » .

وهو ما ورد عـلى لسان ابن زيـاد نفسه ، وهـو يخاطب مسلم بن عقيـل بعد

القبض عليه : « إيه يا بن عقيل ! أتيت الناس ، وأمرُهم جميع ، وكلمتهم واحدةً ، لِتُشَتتهم ، وتُفرّق كلمتهم ، وتحمل بعضهم على بعض . . . » .

لكن هذا التحريف قد ردّ عليه مسلم في الحال عندما قال لابن زياد :

« كلّا لستُ أتيت ، ولكن أهل المصر زعموا أنّ أباك قتل خيارهم ، وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمُر بالعدل ، وندعو إلى حكم الكتاب . . . . » .

على أية حال ، فإنّ مثل هذا التحريف لم يخدع أحداً من المؤرخين في الدنيا ، عدا واحدٍ فقط كتب شيئاً من هذا هو القاضي ابن العربي . . . .

٥ ـ وأمّا التحريفات التي لحقت بواقعة عاشوراء فهي على نوعين (قسمين) لفظية ومعنوية :

التحريفات اللفظية[١]

أ ـ قصة الأسد وفضّة[١] ، والتي وردت حتىٰ في كتاب « الكافي » للأسف الشديد .

---

(١) ما هي الدوافع التي تقف وراء مثل هذه التحريفات اللفظية ؟ نقول إنه وبشكل عام ، هناك تقليد لدى عوام الناس بصناعة الأساطير حول الشخصيات العظام في العالم ، والأمة التي تصنع الأساطير حول ابن سينا ورستم وسهراب وتحيط حياتهم بالخرافات ليس هناك عجبٌ بعد ذلك أن خلقت مثل تلك الأساطير حول شخصيات مثل علي بن أبي طالب والحسين بن علي (ع) : فتراهم يحدثونك عن ضربة علي بالسيف التي نزلت بحق على رأس ابن عبد ودّ ، لكنها أُحيطت على الفور بخرافة جرح أصاب جبرائيل أثناء المعركة ، حتى لا تنشق الأرض من شدة ضربة علي ، إلى جانب المبالغة في أرقام جيش العدو في عاشوراء فيقولون إنه (٧٠٠) ألف ، وإن يوم عاشوراء كان بطول (٧٢) ساعة ، وإنّ حربة سنان بن أنس كانت ذات ستين شقاً ، وعندما تجادلهم يقولون إنها أُرسلت له من الجنة !! بالطبع هناك عامل آخر خاص هو موضوع البكاء على الحسين الذي سأتناوله بالبحث في مكان آخر .

(٢) وردت القصة في (منتخب الطريحي) وفي كتاب « أسرار الشهادة » للدربندي ، كما نُقلت على لسان رجل أسدي وفحواها : أنّ رجلاً كان يأتي فضة على شكل أسد في الليالي، وقد تبيّن فيها بعد أنه علي بن أبي طالب (ع) ـ العياذ بالله ـ .

ب ـ قصة عرس القاسم ، والتي كما يبدو أنها من الخرافات الحديثة العهد منذ زمن السلسلة القاجارية (من زمن الملاّ حسين الكاشفي) .

ج ـ قصة فاطمة الصغرى في المدينة ، وإبلاغ الطير الأخبار لها .

د ـ قصة الفتاة اليهودية التي كانت مصابة بالفلج ـ الشّلل ـ وكيف أنها قد شُفيت ، بعد أن تم تزريق نقطة دمٍ من دماء أبي عبد الله الحسين (ع) في بدنها بواسطة الطير .

هـ ـ قصة حضور ليلى في كربلاء ، والادّعاء بأن الحسين (ع) قد أمرها ، أن ترجع إلى إحدى الخيم ، وتنشر شعرها ، بعد أن خرجت من المخيم ، والشعر المختلق بهذا الخصوص على لسانها :

نـذرٌ عـليّ لئنْ عـادوا وإنْ رجعـوا   لأزرَعَنّ طـريق الـطفّ ريحـانـاً

وغيرها الكثير .

و ـ قصة الطفل الذي كان لأبي عبد الله (ع) في الشام ، وكيف أنه أراد رؤية أبيه فجاؤوه برأس الحسين ، ومات هناك[١] .

ز ـ قصة زيارة الأُسراء لقبر الحسين (ع) في كربلاء ، في يوم الأربعين ، وملاقاة السجّاد (ع) لجابر ، وذلك بعد أن وصل الأسرى إلى مفترق طريق ، بين المدينة والعراق ، والاستعانة بالنعمان بن البشير ، لمعرفة طريق كربلاء ! في حين أنّ حقيقة الزيارة المعروفة هي زيارة جابر وعطيّة العوفي لقبر الحسين لا غير .

ح ـ خرافات من قبيل كون جيش عمر بن سعد كان يبلغ (٨٠٠) ألف نفر أو حتى (مليون و٦٠٠ ألف) نفر ، وأنّ يوم عاشوراء كانت ساعاته (٧٢) ساعة ، وأنّ الواحد من أصحاب الحسين كان يقتل (عشرة آلاف) رجل بضربة واحدة ، إلى حكايات كون حربة هاشم المرقال تحتوي على (١٨) شقاً ، وكذلك حربة قاتل القاسم ، في حين أنّ حربة سنان (٦٠) شقاً . . . الخ .

---

(١) راجع نفس المهموم .

ط ـ بعض القراءات ، أو العبارات التي تـرد في المآتم ، والتي تـظهر أهـل البيت ، أو أصحاب الحسين يلتمسون شربة الماء ، بكل ذل من الأعداء .

ى ـ قصة الطفل الأسير الذي سحله أحد الفـرسان بـواسطة الخيـل ، حتىٰ خنق ومات .

التحريفات المعنوية

أ ـ إنّ أول تحريف يتبادر إلى الذهن بهذا الخصوص هو الادّعـاء بأنّ نهوض الحسين وقيامه ، كان حالة استثنائية ، وبأمر خـاص سري اختص به من قبـل الله سبحانه وتعالى .

وأنّ الإمام الحسين (ع) بعمله هذا ، قد افتدى ذنوب الأمة جميعاً ! وهـذا الادّعاء من دون شك نوع من التأثير المسيحي على أفكارنا ، وهي نظرة تمسخُ فكر الحسين (ع) ، وتجعله متراساً لذنوب الآخرين ، ودرعاً لجرائم المجرمين ، وكفّارة أعمال السوء الصادرة من الآخرين :

فالإمام الحسين بنظر هؤلاء المُحـرّفين قـد قُتل حتىٰ يضمن خـلاص العُصاة والمذنبين من عذاب يوم القيامة ! وحتىٰ يكون شفيعاً لهم لغفران معاصيهم[1] .

(قيـل لأحـد الأشخـاص : تُـرى لمـاذا لا تُصـلي ، ولا تصـوم ، وتشرب الشراب ؟ .

قال : أنا ؟ ألا تروني ليلة الجمعة ، وقد اشتهرت بـالضرب ، واللطم على الصـدر ، وهـل هنـاك أحـد يجهلني ؟ ! ثم ، أبعـد ذلـك تـطلب مني أكـثر من هذا) ؟!

هـذه هي حالـة هؤلاء القوم وقـد حاول (الـبروجردي) أن يُقنـع أهل قم بالامتناع عن القيام بأعمال الشبيه المليئة بالخرافات والأساطير و . . . لكنه فشل في

---

(١) ألم أقل لكم : إنّ الحسين (ع) قد استشهد ثـلاث مرات مرة جسمياً، ومـرة استشهد اسمـه ، ومرة استشهدت أهدافه ! .

ذلك إذ أجابته رؤوس القوم : إنهم يُقلّدونه طوال العام عدا ذلك اليوم !

فـرْقُنا الـوحيد عن المسيحيـين ، بهذا الخصـوص ، هو أننـا نقول بضرورة نـزول ، ولو دمعـة واحدة عـلى الحسين ، فـإنها تكفي لغفران ذنـوبنا كـافة ، من كذب ، وخيانة ، وشرب للخمر ، وتعامل بالربا ، وقتل وظلم !

فيالأسف كيف تحوّلت مدرسة الإمام الحسين (ع) ، وتبدّلت ! فعوضاً عن أن تكـون مدرسـة : « أشهدُ أنـك قـد أقمت الصـلاة وآتيت الـزكـاة ، وأمـرت بـالمعروف ، ونهيت عن المنكـر » . وكما يقـول هو عليـه السلام : « أُريـد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر » ، صارت مدرسةً لصناعة الرجال من أمثال يزيد ، وابن زياد .

وعلى أساس مثل هذه الأرضية قامت الأساطير والخرافات ، وصارت تُروى الحكايات الخرافية ، فقيل مثلاً .

إنّ رجلاً من قُطاع الـطرق المعروفـين ، والمشتهرين بـالسرقة ، والنصب ، والاحتيـال وقتل المؤمنـين ، والإغارة عـلى أموال النـاس ، صادف أن كمن يـومـاً لقافلة من المؤمنين ، ممن كانوا يقصـدون زيارة الحسـين ، وأخذته الغفـوة فمرت القـافلة من جانبـه ، دون أن ينتبه ، ولّما أفاق ، كـانت قد ابتعـدت عنه القـافلة كثيراً ، وإذا به يُحدِّث أنّه رأى في المنام ، أنّ يوم القيـامة قـد حان ، وإنـه لّما أخـذ بيـده إلى النار نتيجـة الأعمال الكبـيرة التي ارتكبها طـوال حياتـه ، وليأخـذ جزاءَه المنصـوص عليـه في القــرآن الكـريم : ﴿ **وإنّمـا جَـزَاءُ الّـذينَ يُحـاربـوَن الله وَرَسُوله . . . أن يُقتّلوا ، أو يُصلّبوا ، أو تُقطّع أيـديهم** . . . ﴾[1] رفضت النار استقباله ، وجاء الأمر بإرجاعه ، ذلك أنه قد أصابه من غبار زوار الحسين شيء ، وهو في تلك الغفوة !! وهكذا نظموا :

فـإن شئتَ النجـاةَ ، فـزُر حسيناً   لـكـي تـلقـىٰ الإلـه قــريــر عَــينِ
فــإنّ الـنــار لـيس تمسُّ جـســماً   عــليــه غُـبــار زوّار الحـســينِ

(١) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

وإذا كان غُبار زوار الحسين كافياً لأن يُنجي القاتل ، والمجرم من عذاب يوم الآخرة ، ويُنقذه من نار جهنم ، فما بالك بجزاء زوار الحسين أنفسهم ! حتماً سيكونون أرفع مقاماً من إبراهيم الخليل ![1] .

٦ ـ لقد قلنا سابقاً إنّ دوافع التحريف شيئان . والآن نقول : بل هي أشياء :

أ ـ أغراض الجهات المُعادية الساعية على الدوام إلى قلب الحقائق وتحريفها ، وهو ما سبقت الإشارة إليها في الملاحظة رقم (٤) .

ب ـ الدافع الثاني هو : عادة صناعة الأساطير ، وخلق الخرافات والأبطال ، لدى عامة البشر ، والذي سبق لنا الإشارة إليه ، وهو ما تفضل وبيّنه على أحسن وجه الأستاذ الدكتور شريعتي ، في خطبة عيد الغدير .

وقد قلنا إنّ هذه الخلفية هي التي دفعت الناس لخلق أسطورة الضربة الخرافية التي ألقى بها علي بن أبي طالب (ع) على رأس « مرحب » ، وقصة تدخل جبرائيل لتخفيف حدة تلك الضربة على الكرة الأرضية ، الأمر الذي أدىٰ إلى حصول جراح شديدة في جناحه ، الأمر الذي تطلّب منه الاستراحة أربعين يوماً للشفاء منها !!

ج ـ وأمّا بالنسبة لواقعة عاشوراء بالذات فإنّ هناك دافعاً خاصاً آخر ينبغي إضافته إلى العاملين السابقين ، والذي يقوم على الفلسفة الخاصة التي خصّ بها أولياؤنا وأئمتنا هذه الواقعة المأساوية ، وتوصيتهم إيّانا بإحيائها وذكرها بالبُكاء باستمرار .

وفلسفة التذكير والإبكاء هذه . إنما تهدف إلى إحياء هذه الذكرىٰ العظيمة ، وفلسفة الإحياء بدورها تهدف إلى تخليد هذه النهضة على مر العصور والدهور ، وهذا يعني أنّ الحسين (ع) سيظهر على الناس في كل عام ، وهو ينادي الرأي العام ويصيح بالعامة :

---

(١) [ثم ينقل الأستاذ الشهيد المطهري هنا أعداداً كثيرة من أبيات الشعر بالفارسية تدور كلها في إطار غفران الذنوب مهما كانت كبيرة مقابل البكاء على الحسين !!] .

« ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه » .

وسيكون نداؤه الذي يُسمع في الآفاق :

« لا أرى الموت إلّا سعادةً ، والحياة مع الظالمين إلّا برما » .

نعم إنه النشيد الحماسي الألحان ، والتاريخ المكتوب بالدم .

ولكن للأسف ينبغي القول بأنّ الهدف من البكاء والإبكاء قد وضع جانباً مع الزمن ، وصار البكاء نفسه هدفاً بحد ذاته لدى البعض ، بل إنه صار فناً خاصاً لا يجيده إلّا الخواص ، بحيث إنّ العادة قد غلبت على أهل المنبر وقُراء التعزية الحسينية أن يُركزوا على الحاشية والتعليقات ، أو الحكايات التي تُثير البكاء لدى المستمعين ، أكثر من اهتمامهم بأصل الموضوع الحسيني .

وكما يبدو فإنّ الهدف المُعلن هو الحصول على مزيد من الثواب بواسطة البكاء والإبكاء ، حتى وإن كان هذا الأجر والثواب ، يأتي من طريق التعزية الكاذبة والقصص المختلقة .

ولمّا كان الناس عندنا قد أصبحوا أشبه بشارب الشاي الذي اعتاد على الشاي الغليظ ، ولم يَعُد يستأنس بالشاي الرقيق ، فإنهم اعتادوا كما يبدو على التعازي الحماسية ، والمليئة بالقصص الخيالية ، الأمر الذي شجّع بدوره عدداً من أهل المنبر على اختلاق عددٍ من التعازي الكاذبة ، والقصص الخيالية المختلفة وإذا أردنا استخدام تعبير محترم نقول الروايات الضعيفة لإبكاء الناس وإرضائهم .

وسأورد لكم هنا مثالين بهذا الخصوص :

يُحكى أنّ أحد علماء (آذربايجان) كان ينزعج كثيراً من سماع التعازي المليئة بهذه القصص الخيالية التي لا أساس لها ، وكان يعترض على الدوام على أهل المنبر ، ويقول لهم بلغته الخاصة :

ما هذه التعازي التي تقرأونها للناس ، كأنها سُم الأفعىٰ ، أو قل الشعوذات المنبرية ؟!

لكن أحداً لم يسمع له ، أو يصغي إلى نصائحه ، ولكن صادف أنه قرر أن

يُقيم في إحدى السنين مجلساً حسينياً في مسجده الخاص ، فدعا إليه أحد الوعّاظ ، وطلب منه أن يتعهد بقراءة المأتم الحسيني في مجلسه ، بشرط أن تكون قراءته خاليةً من تلك الشعوذات المنبرية .

فوافق القارىء الحسيني على مضض ، مع تأكيده للعالم المذكور بأنّ أحداً لن يبكي في مجلسك هذا .

وجاء اليوم المُقرر بالفعل ، وصعد القارىء إلى المنبر ، والعالم جالسٌ في محرابه أمام القارىء ، وبدأ يخاطب الناس ، وهو يُحدّثهم عن أهداف الثورة الحسينية ، وكُلما أراد العالم أن يسمع صوت البكاء ، أو النحيب ، لم يصل أسماعه شيء ، فالمجلس كالثلج ، وليس فيه جنس الحماس ، وربما صار يُفكّر في تلك اللحظة بأنّ أتباعه سوف يُغادرون المجلس ، ولن يعودوا إليه في الأيام القادمة ، بل ويُشكّكون في نوايا العالم ، وإخلاصه لأبي عبد الله حتىٰ صار مجلسه هكذا ! !

فما كان من العالِم إلاّ أن نظر إلى القارىء الحسيني وأشار عليه بخلط بعض السموم ، أو الشعوذات المنبرية في الحديث ، حتى يسخن المجلس ، ويدخل الحماس إليه ، ويُبكي الناس ! .

وأمّا القصة الثانية فإني قد سمعتها بنفسي وهي تدور حول حكاية إحدى النساء المُحبّات لآل البيت اللاتي استطعن اختراق الحصار الذي كان مفروضاً على زيارة قبر أبي عبد الله (ع) ، في زمن المتوكل العباسي ، حيث كانت السلطات تُطارد كل من تُسوّل له نفسه زيارة قبر الحسين .

وهي قصة مفصلة على كل حال تنتهي بإلقاء تلك المرأة بالبحر عقاباً على عملها ذلك وهناك تُنادي يا أبا الفضل العباس ! .

فيظهر فارس من بعيد ، ويقترب منها ، ويقول لها تمسكي بركابي حتىٰ أنقذك من الغرق .

فتقول له ولكن لماذا لا تمدّ يدك إليّ وتنقذني ؟ فيقول لها بأنّ يديّ مقطوعتان !

من هنا يتضح أنّ الناس أنفسهم كانوا عاملاً مساعداً ، أو مُشجّعاً لمثل هذه الخرافات ، والتحريفات .

إذ ترى كثيراً منهم هو الذي يخلق مثل هذه القصص أحياناً .

فتصور مثلاً أنّ الحسين (ع) يجلس ليندب حظه ، ويطلب من أرض كربلاء أن تؤنِسُه ،وتُسعِفُه، وتلعب دور الأم بالنسبة إليه ، لأنه قد فقد أمه عليه السلام ، وهو بحاجة إليها في تلك اللحظة ! كما ورد في بعض الأشعار . ماذا يعني هذا ؟!

إنّ مثل هذه الكلمات ، والعبارات لا تخرج من أبي عبد الله ، ولا هي من شأن الإمام والإمامة، ولا من شأن مطلق أحد .

فرجل يبلغ من العمر (٥٧) عاماً حتىٰ لو افترضنا أنّه أراد التعبير عن معاناة الوحدة ، والغربة ، والوحشة ، فهو لا يُطالب بحضور أمه .

فالطفل الذي لا يزال بحاجة إلى حضن أمه يُنادي أمه وليس الرجل البالغ !!

وفي هذا المجال لا بد لي من ذكر كتاب « اللؤلؤ والمرجان » الذي يُعتبر كتاباً فريداً ، ولا مثيل له في هذا الباب كما أنّ مؤلفه المرحوم يُعتبر من المتبحرين في دراسة شؤون آل البيت ، وقد قسّم كتابه المذكور إلى موضوعين رئيسين هما : الإخلاص ، والصدق ، وتناولهما بجدارة الباحث المسؤول حقاً وحقيقةً .

فقد ابتدأ مبحثه حول الصدق في الصفحة (٨٢) من الكتاب وذلك بالإشارة إلى بعض الآيات القرآنية التي تُحذّر من الافتراء والكذب ، حيث وردت الآية الشريفة : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلّذينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بأَيْدِيهِمْ ، ثم يَقُولُونَ : هذا مِنْ عِنْدِ الله ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمناً قليلاً ، فَوَيْلٌ لَهُم مِمّا كَتَبَتْ أيدِيهِم ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسَبُونَ** ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات الخاصة بهذا الموضوع .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٩ .

٧ ـ وأمّا في الصفحة (٩٢) من الكتاب فإنه يتطرق إلى بعض المقاطع من القراءات الحسينية المُحرّفة والكاذبة من قبيل :

أ ـ دعوىٰ أنّ الإمام قد أمر « ليلى » أمّ علي الأكبر ، أن تتوجه إلى إحدى الخيم المنفردة ، والدعاء لابنها أن يعود سالماً من الميدان ، وذلك لأنه عليه السلام قد سمع من جده بأنّ دعاء الأم مستجاب بحق ابنها !

ب ـ دعوى قدوم السيدة زينب ، ووقوعها على جسد أبي عبد الله ، وهو يحتضر وقيل :

« فَرَمَقها بطرفه ، وقال لها أخوها : ارجعي إلى الخيمة ، فقد كسرت قلبي ، وزدت كربي ! » .

ج ـ دعوى أنّ الإمام قد حمل على الأعداء عدة مرات ، وكان يقتل في كل مرةٍ (عشرة آلاف) نفرٍ منهم !!

٨ ـ ثم يُعرّج الكتاب المذكور في الصفحة (١٤٢) منه على آراء الشيخ المفيد ، فيذكر خطأ الشيخ المفيد الذي يقول بعدم جرح الإمام علي (ع) ، ثم يورد في الصفحة (١٤٩) قصة عبور الأسرىٰ من أرض كربلاء ، وهم عائدون من الشام إلى المدينة ، وهو ما تفرّد فيه كتاب « اللهوف » لابن طاووس ، ولم ينقلها من بعده أحد سوى « ابن نما » في كتابه « مثير الأحزان » . وقد تم تأليف هذا الكتاب بعد وفاة السيد ابن طاووس بأربعة وعشرين عاماً .

٩ ـ وأمّا في الصفحة (١٦٣) من الكتاب فينقل هذه المرة بعض الأقاصيص والحكايات المزيّفة ، والأسماء المختلقة ، الواردة في كتاب « مُحرق القلوب » لمؤلفه الملاّ مهدي النراقي ، والذي كما يبدو أنّه قد نقلها بدوره عن « روضة الشهداء » للكاشفي .

وأنقل لكم هنا مقطعاً قصيراً منها للاطّلاع : « يقول الراوي : لمّا سقط الكثير من أصحابه عليه السلام ، صرعىٰ في الميدان ، وإذا بفارس ضخم الجثة ، مسلّح بكل أنواع السلاح ، وقد أطلّ كالطود الشامخ ، من وسط الصحراء وكشف عن درعه المُستدير ، وسيفه المرصّع بالجواهر اليمانية ، والذي انفلقت

مقدمته إلى ثمانية عشر فلقةً ، وانطلق إلى جيش الأعداء مهاجماً كالبرق اللامع ، والبدر الساطع ، وبعد طراد وجولان ، بدأ يرتجز ويقول : من لم يعرفني بعدُ فأنا هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص ابن عم عمر بن سعد ، ثم أدار وجهه نحو الإمام الحسين وقال : السلامُ عليك يا أبا عبد الله . . . إذا كان ابن عمي عمر بن سعد . . . » .

١٠ ـ وأما في الصفحة (١٦٦) من الكتاب المذكور ، فيشير الكاتب إلى الأكاذيب الواردة في كتب . . . القزويني . .

١١ ـ وأمّا في الصفحة (١٦٧) فيقول :

« في أيام مجاورتي للعتبات المُقدسة في كربلاء ، كنت أحضر دروس العلامة ، علامة عصره ، الشيخ عبد الحسين الطهراني ، وإذا برجل دين سيدٍ من عرب الحلّة ، يأتي إلى العالِم المذكور ، ويعرض عليه مجموعةً من أجزاء مؤلفٍ ، وجده بين كتب أبيه ، ولم يكن في الكتاب أي أثرٍ يُشير إلى عنوانه ، أو اسم مؤلفه ، أو أي شيء آخر ، ولكن الشيخ العلامة بعد مطالعته لتلك الأوراق ، ورغم أنه قرأ في أحد حواشي الكتاب ، بأنّ مؤلفه إنما هو العالِم الفلاني ، من علماء جبل عامل ، وهو تلميذ صاحب المعالم . . . الخ ، إلاّ أنه رحمة الله عليه رفض أن يعترف بصحة نسبة ذلك الكتاب إلى ذلك العالم من أهل جبل عامل ، لأنه بعد التحقيق لم يجد ما يثبت وجود (مقتل) من آثار ذلك العالم .

إضافةً إلى أنّ محتويات الأوراق كانت مليئة بالأكاذيب ، والقصص المختلقة ، التي لا يمكن معها نسبة ذلك الكتاب إلى ذلك العالم الجليل من جبل عامل .

ولذلك أمر الطهراني رضوان الله عليه ذلك السيد بعدم نشر تلك الأوراق مطلقاً .

ولكن كما يبدو فإنّ هذه الأجزاء قد وقعت بيد المرحوم الدربندي ، فنقلها جميعاً في مؤلفه « أسرار الشهادة »[1] ، وبذلك يكون قد زاد في الأكاذيب ،

---

(١) قبل حلول مناسبة المحرم بيومين أو ثلاثة أيام من هذا العام (١٣٨٩ هـ . ق) طلبت بواسطة =

والحكايات المزوّرة الواردة في كتابه ، ذلك الكتاب الذي يشتهر في أخباره الواهية ، والضعيفة الإسناد ، والمختلقة تماماً ، كأن يذكر عدد أنفار جيش الكوفة الذي خرج لحرب الحسين (ع) بـ (مليون و٦٠٠ ألف) نفر بين فارس وراجل .

١٢ ـ وأمّا في الصفحة (١٦٨) (من كتاب اللؤلؤ والمرجان) فيذكر الكاتب :

بأن المرحوم الدربندي نقل مرةً كلاماً قال إنه كان يسمعه في الأيام الغابرة من عمره ، لكنه لم يكن يُصدّقه ، ومفاد الحديث هو أنّ يوم عاشوراء قد بلغ عدد ساعاته (٧٠) ساعة ، وأنه أي الدربندي كان يستغرب مثل هذا الأمر ، لكنه وبعد التأمل في وقائع يوم عاشوراء أصبح متيقناً ومطمئناً بأن مثل تلك الوقائع لا يمكن أن تحصل إلاّ بذلك المقدار من الزمان .

١٣ ـ وفي الصفحة (١٦٩) يروي حكاية أخرى فيقول :

ذهب أحد الأشخاص من أهل كرمانشاه ، لزيارة العالم الكامل ، الجامع ، الفريد ، السيد محمد علي ، صاحب « المقامع » ، وغيره ، قدّس الله روحه ، وحدّثه قائلاً :

« رأيتُ في المنام إنني أُقطّع بلحم الجسد الطاهر لسيد الشهداء (ع) فما هو تعبير هذا المنام ؟ وكان العالِمْ لا يعرف هذا الشخص ، لكنه بعد أن أطرق هنيهةً وفكر قليلاً ، رفع رأسه وقال : ربما يكون شغلك قراءة المأتم الحسيني ؟ فأجابه الرجل بالإيجاب ، فقال له العالِم : إمّا أن تترك هذه المهنة ، أو تعتمد على الكتب المعتبرة والموثقة .

= الهاتف من مدير مؤسسة الكتاب (صدوق) السيد علي أكبر غفاري ، أن يؤمّن لي أشهر الكتب بالكذب بشأن المقتل الحسيني وذلك بمناسبة إلقائي المحاضرات المتعلقة بالحديث عن التحريفات الحاصلة في واقعة عاشوراء التاريخية . وقد وافقني الرأي بأنّ أشهر الكتب هو كتاب « أسرار الشهادة » ، لكنه وبعد أن وعدني بإحضار هذا الكتاب من إحدى المكاتب العامة ، عاد واعتذر لي عن عدم تمكنه من الحصول عليه بعد بحث دام أكثر من ثلاثة أيام . والسبب كما قال لي هو فقدانه من المكتبات حيث الإقبال الشديد عليه من قبل المهتمين وأغلبهم من أهل المنبر الحسيني !!

١٤ ـ في الصفحة (١٧٠) يُسجّل الكاتب مقدمة عن مسنا بني إسرائيل ، والتلمود ، الذي وصل إلى اليهود ، عن طريق الصدور ، بهدف الإشارة إلى أكاذيب أهل المنبر ، لكنه يقول بأنّ هذا الكتاب قد نقل حقاً بواسطة صدور الواعظين ، ولسان الذاكرين .

١٥ ـ وفي الصفحة (١٧٤) يعود الكاتب ويُعرّج على الموضوع السابق ، من خلال بعض العبارات فيقول :

« لكن مسنا اليهود عبارة عن كتاب مُعينّ ، ومعهود ، وهو قد ظل مصوناً من الزيادة أو النقصان ، بواسطة تفسير (شروح المسنا) .

بينما روايات مسنا أمتنا عبارة عن كيان نباتي قوي ، تراه يتنقل من مجموعة إلى أخرى ، فيزداد ، وينمو ، ويكبر ، وبمحض وصوله إلى مسامع أهل المنبر ، أو أيديهم ، يتحول إلى قوة حيوانية ، فيكتسب جناحاً ، وريشاً ، ويصبح كالطير التي تُحلّق ، وتطير بكل اتجاه .

ونحن هنا ننقل لكم بعض تلك الأكاذيب على سبيل المثال » .

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا سبق أن نقلنا عن لسانه ثلاثة أمثلة : أ ـ ب ـ ج .

١٦ ـ في الصفحة (١٧٥) من الكتاب : يتم نقل اسطورة خيالية عن وضع أمير المؤمنين (ع) بعد الضربة .

هـ ـ خرافة أحد القاصدين من الكوفة ، وهو يحمل رسالة للإمام الحسين (ع) ، يريد جواباً عليها ، حيث يطلب منه الحسين الانتظار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث يكون الإمام قد عزم على السفر ، فيأتي ذلك الشخص لِيُشاهد حركة قافلة شاه الحجاز ! بجلالها وهيبتها ! وأنه يأتي ويرى كيف يجلس الإمام على ذلك المقعد المُجلّل ، وقد أحاط به بنو هاشم من كل جانب ، وهم محاطون بدورهم بالرجال والحراس والأحصنة المزيّنة ، المحمّلة بالأمتعة ، وأنواع الديباج ، والحرير . . . انتهاءً بيوم عاشوراء ، وكيف أمر عمر بن سعد ، عصر ذلك اليوم ، بإعداد الجمال العارية من الأسرجة لنقل أُسراء أهل البيت . . .

و ـ وفي الصفحة (١٧٧) ينقل : دعوى كيف أن السيدة زينب (ع) كانت قلقة ومضطربة ليلة العاشر من مُحرّم ، وهي تسير من خيمة إلى خيمة ، تستخبر أحوال الأقارب ، والأنصار ، والأصحاب ، فتقترب من خيمة « حبيب بن مظاهر » ، فتراه وقد جمع الأصحاب في خيمته، وهو يُحلّفهم على أن لا يسمحوا غداً لأحدٍ من بني هاشم بالتقدم إلى الميدان قبل أن يتوجه هو أوّلاً . . حيث تُسرّ المُخدَّرة زينب من هذه الأخبار ، فتواصل سيرها إلى خيمة أبي الفضل العباس ، فتراه هو الآخر قد جمع بني هاشم ، يُحلّفهم أن لا يسمحوا لأحدٍ من الأنصار بالتقدم إلى ميدان الوغىٰ قبل خروج العبّاس ، فتزداد سروراً ، وتنطلق على الفور ، إلى أبي عبد الله مُتبسمةً ، فيستقبلها الحسين مُتعجّباً ، سائلاً عن سبب تبسُّمها (في مثل تلك الظروف) ، فتشرح له ما رأت وسمِعَت . . .

ز ـ دعوىٰ تعريج الإمام على ابنه الإمام السجّاد ، علي بن الحسين عليهما السلام ، بعد استشهاد أهل بيته ، وأصحابه ، والقول بأنّ السجّاد صار يسأل الإمام عن الحالة التي وصلت إليها القافلة مع العدو ، وردّ الإمام بأنّ الأمر قد تطور إلى الحرب ، ومن ثم سؤال السجّاد عن الأصحاب واحداً بعد الآخر ، وجواب الإمام بأنه « قُتِل ، و . . . . . قُتِل . . . » ، إلى أن انتقل الحديث إلى علي الأكبر ، وأبي الفضل العبّاس ، وانتهى بقول الإمام بأنه لم يبق أحد من الرجال غيري وغيرك . . . ـ مما يعطي الانطباع بأنّ السجّاد ، لم يكن واعياً لما كان يجري طوال تلك المدة لشدة مرضه ! ـ . وهو ما يُفصّله الكتاب في الصفحة (١٧٨) .

ح ـ كما يتعرض الكتاب لدعوىٰ عدم وجود أحدٍ من أصحاب الإمام ، كي يُساعدوه في إحضار راحلته ، أو فرسه لدى عزمه على الخروج إلى البراز ، الأمر الذي دفع بزينب (ع) للقيام بهذه المهمة !

وهنا يتوسع ذهن أهل المنبر ويتسّع خيالهم في سرد الحوادث الطويلة ، التي يُقال إنها قد دارت بين الأخ وأخته ، في تلك اللحظات ، مما يُعطي الموقع حالة حماسية ، ورونقاً مسرحياً خاصاً .

وكما يبدو في الظاهر فإنّ من جملة الأمور التي تُطرح على المنابر في هذه اللحظات ، هو تذكُّر زينب (ع) أثناء وداعها لأخيها ، لوصيةٍ قيل إنها سمعتها من أُمها ، وهي تقول لها : يا زينب قبّلي حسيناً باسمي في عنقه .

كما تنقل هنا حكاية عدم انطلاق الفرس مع الحُسين ، إلاّ بعد وصول أحد أطفال أهل البيت ، ولقائه للحُسين . . . (وفي هذا المجال توجد هناك أشعار كثيرة باللغة العربية ، وبالفارسية ، تتحدّث كلها عن هذه الحالة ، لا سيما أشعار صفي عليشاه التي يشرح فيها قوتي الجذب العقلية والعاطفية ، لدى زينب عليها السلام . . .) ولا بأس هنا من التذكير بأنّ عمر العقيلة زينب لم يكن يتجاوز الخمس سنين لدى وفاة أمها الزهراء عليها السلام .

ط ـ وفي الصفحة (١٧٩) من الكتاب يذكر المؤلف : دعوى قدوم زينب إلى جانب أبي عبد الله الحسين (ع) ، وهو صريع على أرض المعركة : « ورأته يجودُ بنفسه ، ورمت بنفسها عليه وهي تقول : أنت أخي ، أنت رجاؤنا ، أنت كهفُنا ، أنت حِمانا » .

ي ـ وفي الصفحة (١٧٩) أيضاً تتم الإشارة إلى الخرافة المنسوبة إلى « أبو حمزة الثمالي » ودعوى أنه قدِم يوماً لزيارة السجّاد (ع) ، ودق باب بيته ، ففتحت له إحدى الإماء ، وعندما عرفت بأنه أبو حمزة حَمِدت الله وشكرته ، بقدوم من يُسلّي الإمام المضطرب ، والغائب عن الوعي ، ثم إنّ أبا حمزة قد دخل على السجّاد ، وأخذ يواسي الإمام ، ويُذكّره بأنّ الشهادة إنما هي وراثة في آل بيت الرسول (ص) ، ويجيبه السجّاد لكن الأسر ليس وراثةً عندنا ، ثم يُطلعه على حال الأسرى من النساء ،والأطفال، والأهل ! .

أو تلك الحكاية التي تُنقل على لسان « هشام بن الحكم » وخلاصتها : قول ابن الحكم إنّه ،في الأيام التي قضاها الإمام جعفر الصادق (ع) في بغداد ، كنت أزوره يومياً . وإنه صادف أن دعاني أحدهم مرةً لحضور أحد مجالس العزاء ، فاعتذرتُ له بأنني ملتزم بزيارة الإمام ، لكن الرجل ألحّ عليّ قائلاً : دعنا نسأل الإمام ! فقلتُ له : لا يمكننا ذكر هذا الموضوع أمام الإمام ، لأن حاله ستنقلب ، وبعد إلحاح شديد أخذني الرجل بالقوة .

وفي اليـوم التالي عنـدما زرتُ الإمـام ، واستفسر عن سبب غيابي ، وبعـد تردد قصير أفصحت له عن السبب فقال لي الإمام :

وهـل تعتقد أنني لم أكن حـاضراً في ذلـك المجلس ، أو أنني لا أحضر مثـل تلك المجالس ؟ .

فقلتُ له ولكنني لم أرك هناك .

قال : عندمـا خرجت من الحجـرة ألم تَرَ شيئاً قرب نِعـالَكَ وقـد وقع عـلى الأرض ؟

قُلْتُ بلىٰ رداءٌ لم أعرف سبب وجوده هناك فقال :

إنها عباءتي وقد وقعت عن كتفي أثناء خروجي !

إلى آخر تلك الخرافات المشابهة مثل قولهم عن اشتراك السجّاد (ع) في أحد مجـالس التعازي ، وأنهم لـمّـا أطفأوا النور لقراءة المـأتم الحسيني ومن ثم أشعلوهُ ، وإذا بهم يرون أحذية الناس ، وقد رُتّبت أحسن ترتيب من قبله عليه السلام) !

١٧ ـ وفي الصفحة (١٨٣) يقول الكاتب : « هناك سببان وراء تجرؤ هـذه الجماعة على تلفيق مثل هذه القصص والحكايات الخرافية ، أو نسج الأكاذيب؛ ، وتزوير الروايات وخلقها :

وهو أن الأخبار والـروايات التي وردت في مـدح الإبكاء ، لم تُفصِّـل ، ولا بيّنت طريقة الإبكاء المطلوبة ، ولا الموضوع الخاص ، والجزء المعيّن الـذي به يتم الإبكاء ، وعليه فإنّ الجماعة تستنتج بـأنّ أية وسيلة تـوفّرت لـلإبكاء ، وإسكـاب الدمع ، ستكون بالضرورة مستحسنة وممدوحة . وأنّ أخبار منع الكذب أو تحريمه قد وردت في غير مقام التعزية .

وبهذا البيان يمكن إبـاحة كثـير من المعاصي الكبـيرة ، بل وحتىٰ جعلهـا من الأمـور المستحبة ، كـأن نجعل الأخبـار الواردة في فضيلة إدخال السرور على قلب المؤمن ، سبباً ووسيلةً لقول الغيبة ، أو تقبيل النســاء الغريبـات ، أو عمل اللواط أو أي عمل آخر .

١٨ ـ وفي الصفحة (١٨٦) يقول « ينقل لي أحد الثقات ، من أهل العلم من مدينة (يزد) ، أنه عندما توجّه مشياً على الأقدام من (يزد) إلى مدينة (مشهد) عبر تلك الطريق الصحراوية الشاقة ، صادف أن عرّج على إحدىٰ القرى القريبة من خراسان ، بالقرب من مدينة (نيشابور) ، ودخل المسجد لأداء فريضة الصلاة .

وبعد أن انتهى إمام الجماعة من إداء صلاة المغرب والعشاء، بجمع من أهل القرية ، صعد إلى المنبر ليُحدّثهم ، وإذا بخادم المجلس يأتي بإناء كبيرٍ مليء بالحصىٰ ، ويضعه إلى جانب القارىء ، فعجبت لأمر هذه الحصىٰ وهذا القارىء ؟ !

وإذا بالشيخ يبدأ بقراءة التعزية ، وما أن مَرّ وقت قصير حتىٰ نهض الخادم ، وأطفأ النور ، فتعجبت أكثر !

وإذا بي أسمع أصوات رمي الحصىٰ من على المنبر والحاضرون من أهل القرية ، كُلٌّ يصيحُ من جانب ، ويبكي ، ويولول .

وبعد هنيهةٍ أُشعلت الأنوار من جديد بسبب نفاد الحصىٰ ، وإذا بالقارىء يقرأ الدعاء ، ويختم التعزية .

ورأيت الناس تخرج من الجامع ، والدم يسيل من وجوههم ، والدموع تنسكب من عيونهم .

يقول صاحبي الغريب ، فذهبت إلى إمام الجماعة أسأله عن سبب ما جرى وعن حقيقة الأمر فقال :

إن هذه الجماعة التي رأيتها من أهل هذه القرية لا يبكون بأي شكل قرأت لهم التعزية الحسينية ، فرأيت أنها الوسيلة الوحيدة لإبكائهم ! (طبعاً من أجل أن يحصلوا على ثواب وأجر البكاء على أبي عبد الله (ع)) .

١٩ ـ وفي الصفحة (١٨٧) يقول بأنّ السبب الثاني وراء انتشار مثل هذه الخرافات : « هو في استقرار سيرة العلماء في مؤلفاتهم على نقل الأخبار والروايات

الضعيفة ، بل وتسجيل الروايات غير الصحيحة ، في أبواب الفضائل ، والقصص ، والمصائب ، وتسامحهم في مثل هذه المقامات لا سيما الموضوع الأخير ، وهو الأمر المحسوس ، والملموس لدينا » .

ثم ينتقل المرحوم الحاج لمناقشة موضوع التسامح في الأدلّة ، والرد على مثل هذه الأحاديث ، ويقول بأنّ هناك فرقاً بين الحديث الضعيف ، والموهون ـ الواهي ـ وإذا كان مسموحاً بنقل الأحاديث الضعيفة ، فإنه من غير المسموح به نقل الأحاديث الواهية .

٢٠ ـ وفي الصفحة (١٩٣) يقول : « فمثلاً ترى قصة عرس القاسم ، قد طُرحت في (منتخب الطُريحي) مثلاً ، وهو المنتخب الذي يحوي بالمناسبة على حكايات واهية من قبيل قصة دفن حضرة السيد عبد العظيم حياً مثلاً ! » .

٢١ ـ وفي الصفحة (١٩٤) يقول أيضاً : « إنّ قصة عرس القاسم أول ما طُرحت في أثر الكاشفي ، ولم تظهر في أي كتاب آخر قبله . وأمّا قصة زبيدة ، وشهر بانو، والقاسم الثاني في أرض ري ، وأطرافها وهي القصة المنتشرة على ألسنة العوام ، فإنها من تلك الخيالات الواهية . . . وإنّ علماء الأنساب كافة مُتفقون على أنّ القاسم بن الحسن لم يُخلّف ذريةً من بعده (بل إنه مات ولم يبلغ بعد) .

٢٢ ـ وفي الصفحة (١٩٥) يقول : « إن المسعودي وهو المؤرخ الشيعي المعاصر للكليني كتب في « إثبات الوصية » بأنّ عدد المقتولين على يد الإمام الحسين قد بلغوا (١٨٠٠) قتيل حيث جاء : « ورُوي أنه قتل بيده ذلك اليوم ألفاً وثمانمئة » ، وأمّا محمد بن أبي طالب فقد ذكر أنهم (١٩٥٠) نفراً . لكن مؤلفاً يأتي بعد ألف عام على ذلك التأريخ ، ويدوّن عدد المقتولين بثلاثمئة ألف إلى جانب خمسة وعشرين ألفاً على يد العبّاس و(٢٥) ألفاً آخرين على يد سائر الأصحاب (أسرار الشهادة للدربندي) (فلو فرضنا أنّ الإمام كان يحتاج في قتل كل واحد إلى ثانية واحدة من الزمن ، فهذا يعني أنّ ذلك العدد من القتلىٰ بحاجة إلى (٨٣) ساعة و(٢٠) دقيقة ، وهذا الحساب لا يُلائم حتىٰ تلك الأكذوبة التي تقول بأنّ عدد ساعات يوم عاشوراء قد بلغت (٧٢) ساعة .

أضف إلى ذلك الخمسين ألفاً الآخرين ، والذين هم بحاجة إلى ما يُقارب الـ (١٤) ساعة أخرىٰ !

ثم كيف يتّسع ميدان المعركة ذاك لمليون وستمئة ألف مقاتل ! من جيش عمر بن سعد ، ومن أين جاؤوا لهم بالتجهيزات القتالية ؟ وتصوّروا أنهم جميعاً من أهل الكوفة ، إذ ليس بينهم جندي واحد من أهل الشام ، أو الحجاز[1] . . . سبحان واهب العقول !)

٢٣ ـ في الصفحة (٢٠٢) يُشير الكتاب إلى خرافات أخرى منها :

أ ـ القول بأنّه حصل ذات مرةٍ وفي أثناء خطبةٍ للإمام علي (ع) أن طلب سيد الشهداء عليه السلام قليلاً من الماء ، فأمر علي خادمه قنبر بأن يأتي للحسين بالماء ، ولكن في هذه الأثناء سمع العباس ، وكان طفلاً صغيراً في ذلك اليوم نداء أخيه الحسين ، فذهب إلى أمه ، وعاد ، وهو يحمل إناءً من الماء فوق رأسه ، ودخل المسجد قاصداً الحسين فوقعت عينا علي (ع) على العبّاس ، فبكىٰ وصار يُحدّث الحاضرين عن يوم عاشوراء ، وماذا سيحصل من أحداث . . .

بالطبع لا بد وأن تكون مثل هذه القصة ـ الحكاية ـ قد وقعت في الكوفة ، لأن الحديث يدور عن المنبر والخطابة (أي في زمن حكم علي (ع)) ، وهذا يعني أن الحسين كان له من العمر حوالي (٣٣) عاماً آنذاك ، فهل يُعقل أن يطلب من مثله الماء ، وسط ذلك الجمع المحتشد لسماع خطبة أبيه ؟! هذا إضافةً إلى عدم وجود أي سندٍ تاريخي ، بخصوص هذه الحكاية .

ب ـ القول بأنّ أبا الفضل العبّاس قد قتل في حرب صفين ثمانين نفراً من جيش معاوية ، وأنه قد قام بشقهم إلى نصفين ، وهم لا يزالون في الهواء ، وقبل أن تصل أية جثةٍ منهم إلى الأرض . . .

---

(١) إنّ هذه الخرافات تذكّرنا بتلك الحكاية ـ الخرافة ـ المتعلقة بمبالغة أحدهم بكبر مدينة هرات في أحد الأزمان ولمّا أراد أن يشرح ذلك قال : تصوروا أنه في مدينة هرات وحدها كان عندنا واحد وعشرون ألف أحمد من العوران الطباخين ! وهي خرافات تكررت بشأن تعداد بني إسرائيل وتعداد جيش فرعون أيضاً .

ج ـ « اختلاق بنات من الذرية الطاهرة ، لا سيما لأبي عبد الله (ع) ومنهنّ من قالوا إنها قد بقيت في المدينة ، وأخرى زوّجوها في كربلاء ، وثالثة أماتوهـا من العطش تصديقاً لكلام جبرائيل . . . صغيرهم يُميتُهم العطش . . . وأُخرى قُتلت في ساحة الوغى مثل عبد الله بن الحسن . . . » .

٢٤ ـ وفي الصفحة (٢٠٨) : وفي الخاتمـة أرى من الضروري الإشارة إلى الآيات القرآنية الواردة في ذم المنافقين واليهود ، وتبيان الصفات القبيحة والخبيثة لهم ، وهي من الآيـات التي يمكن أن تصـدق في ذم من يستمـع إلى الأخبـار الكاذبة ، والحكايات ، والقصص المزوّرة ، بشأن مجالس العزاء الحسيني ، يقـول تعالى : ﴿ سَمّاعون لِلكِذب أكّالون لِلسُّحت ﴾[1] .

وأمّـا في وصفـه لأهـل الجنـة فيقـول : ﴿ لا يَسْمَعُـونَ فيهـا لَغْـواً ، وَلاَ كِذّاباً ﴾[2] .

وأمّا حول من اعتاد قول الكـذب في هذا العـالم ، ولم يقبل العـودة عن هذه الأعمال ، فحسابه في يوم الآخـرة : ﴿ وَيومَ تَقُـومُ السّاعـةُ ، يُقسِمُ المُجرِمُـونَ ما لَبِثُوا غيرَ سَاعةٍ ، كَذَلكَ كانُوا يُؤفَكُونَ ﴾[3] .

وأيضـاً : ﴿ يَـوْمَ يَبْعَثُهُم الله جَميعـاً ، فَيَحلفونَ لَـهُ كَـمَا يَحْلفُـونَ لَكُمْ ، وَيَحْسِبُونَ أنهمْ عَلَىٰ شيْءٍ إلاّ إنّهم هُمْ الكَاذِبُونَ ﴾[4] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاّ أنْ قَالُوا : وَالله رَبّنَا مَـا كُنّا مُشرِكينَ * أنْظُر كَيْفَ كَذَبُوا على أنْفُسِهِمْ ، وضَلّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[5] .

وأيضاً : ﴿ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور ﴾[6] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٢) سورة النبأ : الآية ٣٥ .

(٣) سورة الروم : الآية ٥٥ .

(٤) سورة المجادلة : الآية ١٨ .

(٥) سورة الأنعام : الآيتان ٢٣و٢٤ .

(٦) سورة الحج : الآية ٣٠ .

وكذلك : ﴿ وَالّذينَ لاَ يَشْهدُونَ الزُّورَ ﴾[1] !

٢٥ ـ وفي الصفحة (٢١٣) ورد :

كما أنّ استقراء أغلبية المعاصي الخارجة عن اللسان كأغلب أنواع الكذب ، مثل الغيبة ، والغناء ، والسب ، والبهتان ، والاستهزاء ، وغيرها ، تدل أيضاً على قبح وذم سماع مثل تلك الخرافات والحكايات المختلقة بشأن المنبر الحسيني ، إذ إنه كما أنّ الغيبة حرام ، فإنّ سماعها حرام أيضاً ، وكما أنّ الغناء حرام ، فإن سماعه حرام أيضاً ، وكما أنّ سبّ أولياء الله ، أو المؤمنين ،كفرٌ، فإنّ سماع ذلك حرام أيضاً .

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الكِتَابِ : أنْ إذا سمعتُم آيات الله يُكفَرُ بها ، ويُستهزأُ بِها ، فَلاَ تَقْعُدُوا معهم حتىٰ يَخُوضُوا في حديث غيرِهِ ، إنّكم إذاً مِثلهُم . . . ﴾[2] .

٢٦ ـ وعليه يُستحسن في هذه الحالة أن يُقدم القائمون على مهمة العلم ، والتعليم ، والتربية الحسينية ، على تجميع ، وتبويب ، وتنظيم ، مجالس المصائب الجديدة ، والأضرار التي لحقت بأبي عبد الله (ع) من زوّاره ، ومجاوريه ، وخدمه ، وحاملي علومه ، والمتعبدين ، والناسكين ، والمتصدين لهذا الأمر من الأنواع والأقسام كافة ، والعمل ليل نهار على إعداد كل ذلك ، ووضعه في متناول من يَعزّ عليهم دينهم ، حتىٰ يقرأوها على أسماع أهل التقوىٰ ، والدين ، والإيمان ، وأهل الغيرة والالتزام ، حتىٰ يبكوا على الحسين حق البكاء ، ويطلبوا من الله تعالى ، أن يُعجّل فرج ظهور سلطان الزمان ، وناشر العدل والأمان ، وباسط الفضل والإحسان ، وقامع الكفر والنفاق ، والعدوان ، (المهدي) صاحب الزمان .

٢٧ ـ يتم تبيان هذا المبحث وشرحه وتفسيره في أربعة صور وأقسام :

أ ـ معنىٰ التحريف ، وأنواع التحريفات الموجودة ، والقول بأنّ واقعة

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٠

عاشوراء قد لحق بها أنواع عديدة من التحريفات .

ب ـ أسباب التحريف بشكل عام ، وأسبابه بشكل خاص في واقعة عاشوراء ، وبعبارة أخرى البحث عن مسؤولية التحريف في الوقائع التاريخية بشكل عام ، ومسؤولية ذلك في واقعة عاشوراء بشكل خاص .

ج ـ شرح وتوضيح التحريفات الواقعة لفظاً أو معنىً ، شكلاً أو روحاً ، في واقعة عاشوراء ، والفلسفة الحسينية للنهضة .

د ـ واجب علماء الأمة تجاه التحريفات بشكل عام ، وواجبهم تجاه واقعة عاشوراء بشكل خاص :

« إذا ظهرت البدع ، فعلى العالم أن يُظهر عِلْمَهُ ، وإلاّ فعليه لعنةُ الله »[1] .

وكذلك : « وإنّ لنا في كُلِّ خلفٍ عدولاً ، ينفون عنا تحريف الغالين ، وانتحال المُبطلين »[2] .

وإن واجب الأمة الإسلامية في هذا المجال بشكل عام ، ولا سيما ما يخص واقعة عاشوراء ، هو حرمة الاشتراك في الاستماع لمثل هذه الخرافات ، والنضال العملي ضدها ، والعمل بواجب النهي عن المنكر .

٢٨ ـ معنى التحريف : ورد في « المفردات » للراغب قوله : « حَرْفُ الشيء طَرْفُهُ . . . وتحريف الشيء إمالتُهُ كتحريف القلم ، وتحريف الكلام : أن تجعله على حرف من الاحتمال ، يُمكن على الوجهتين . قال عز وجل : ﴿ **يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِه** . . . ﴾ ومن بعد مواضعه . . .

كما ورد في تفسير الرازي (ج ٣ ، ص ١٣٤) ذيل الآية (٧٥) من سورة البقرة قوله : قال القفّال : التحريفُ : التغيير والتبديل ، وأصله من الانحراف

---

(١) أصول الكافي : ج ١ ص ٥٤ .

(٢) أصول الكافي ج ١ ص ٣٢ وجاء فيه (ينفون عنه) .

عن الشيء ، والتحريف عنه ، قال تعالى : ﴿ **إلاّ مُتَحرّفاً لِقِتَالٍ ، أو مُتَحَيِّزاً إلى فئةٍ** ﴾ .

والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه ، يُقال : فلمٌ مُحرّفٌ ، إذا كان رأسه قط مائلاً غيرُ مستقيم .

قال القاضي : إنّ التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنىٰ ، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنىٰ . . . » .

قال القاضي : « إنّ التحريف إمّا أن يكون في اللفظ أو في المعنى ، وحملُ التحريف على تغيير اللفظ أولىٰ من حَمِلِه على تغيير المعنىٰ . . . » .

والتحريف اللفظي هو زيادة شيء على اللفظ ، أو التنقيص منه ، أو التلاعب بالكلمة ، أو الجملة ، أو العبارة ، بتقديم أو بتأخير ، وهو بكل الأحوال يُساهم في تغيير المعنىٰ زيادةً أو نقصاناً ، لكن الخطر الأكبر في الحقيقة هو في التحريفات التي تُغيّر من المعنىٰ .

ومثل هذه التحريفات كثيرة في الكتب والكتابات ، سواء النثرية أو الشعرية منها ، لا سيما من قبل أولئك الذين يتعهدون بأمر التصحيح والتعليق .

والتحريف المعنوي يمكن أيضاحه بثلاثة أمثلة :

أ ـ يا عمّار تقتلك الفئة الباغية .

ب ـ لا حُكم إلاّ لله .

ج ـ إذا عرفت فاعمل ما شئت .

والمثال الأول هو ما وقع موضع استغلال معاوية .

بينما وقع المثال الثاني موضع استغلال الخوارج .

وأمّا الثالث فهو ما وقع موضع استغلال الشيعة لحديث الإمام الصادق (ع) ، مع العلم أنّ الصادق قد وضّحه أحسن توضيح .

في القرآن الكريم لم يقع تحريف من النوع اللفظي إذ ظل القرآن محفوظاً

من هذه الزاوية ، لكن آياته كانت موضع تحريف معنوي دائم من سوء تفسير ، وتلاعب في التأويل والتحليل .

قال المنطقيون في باب المغالطة : إنها إمّا لفظية ، أو معنوية وقد ذكروا أقساماً لها ، وهي مفيدة لما نحن فيه خصوصاً من زاوية البحث عن أمثلة ، سواء بالعربية أو بالفارسية .

يتعرض القرآن الكريم لموضوع تحريف « الكلمة » في آيات كثيرة وينهى عن مثل هذا العمل ، ولكن كما أنّ « الكلمة » في اصطلاح القرآن لها أكثر من معنىً الكلمة التقليدي ، فهي الجملة ، والشخصية التاريخية ، والواقعة ، فإن التحريف بالطبع سيأخذ أشكالاً ، وأبواباً متعددة : فهناك التحريف بالعبارات ، والتحريف بالوقائع ، والتحريف بالتأريخ ، والتحريف بالشخصيات .(ولفهم القسم الثالث يرجىٰ العودة إلى محاضرة السيد مرتضى الجزائري بهذا الخصوص) .

٢٩ ـ وبحثنا هنا يدور حول القسم الثاني : أي التحريف الذي تتعرض إليه الوقائع ، والذي يمكن أن يكون من النوع اللفظي ، أو أن يكون من النوع المعنوي ، كأن تُنقل عبارة ما ، مع نقصان في الكلمات ، أو زيادة فيها ، فيكون لفظياً .

وقد يكون التحريف لروح القضية من خلال التلاعب بالعوامل ، والدوافع ، والأهداف ، والغايات ، فيحصل نوع من المسخ للواقعة .

من هنا يتضح لنا أنّ أهمية التحريف مرتبطة بأهمية الموضوع المُحرّف نفسه ، كأن يكون موضوعاً إنشائياً عادياً ، أو واقعة ، أو حدثاً عادياً ، أو شخصية من شخصيات المجتمع العادية ، أو أن يكون التحريف قد نال من قول ، أو حادثة ، أو شخصية ، يدور حولها بحث تاريخي ، وأخلاقي ، وتربوي ، وديني هام ، وأساسي ، يتعلق عليه مصير المجتمع .

ولهذا ورد في التشريع أنّ الكذب على الله والرسول ، من أشنع أقسام الكذب ، وعملٌ مُبطِلٌ للصيام .

كما أنّ تحريف وتزوير وجعل الوثائق ، والسندات الرسمية ، يُعتبر جناية من الناحية القانونية ، وليس جُنحة .

٣٠ ـ إنّ الوقائع التاريخية الأخلاقية ، والحركات الإلهية الكبرىٰ هي فعلاً آية من الآيات الإلهية في كتاب التكوين المقدّس للكون .

وإنّ الشعب مُكلّف شرعاً برعاية هذه الظواهر ، وصيانتها ، وحفظها بكل دقة ممكنة ، لأنه في غير ذلك سينطبق علينا جميعاً مفهوم حكم : « مَنْ فَسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[1] ، أو مفهوم الآية الشريفة : **﴿ فَبِما نَقْضِهِم ميثاقَهُم لَعَنّاهُم ، وجَعَلنا قُلُوبَهُم قاسِيَةً ، يُحرّفون الكَلِمَ عن مَواضِعِهِ ، وَنَسوا حَظاً مِمّا ذُكّروا بِهِ ﴾**[2] .

وكذلك : **﴿ فَوَيْلٌ لِلّذينَ يَكتُبُونَ الكِتَاب بأيدِيهم ، ثُمّ يَقُولُونَ : هذا من عند الله لِيَشْتَروا بِهِ ثمناً قليلاً ، فَوَيْلٌ لَهُم مِمّا كَتَبَتْ أيْدِيهم ، وَوَيْلٌ لَهُم مِمّا يَكْسِبُونَ ﴾**[3] .

٣١ ـ فيما يخص واقعة عاشوراء ، حصل الكثير من التحريف اللفظي ، ودخل على الحادثة كثير من الإضافات ، أو النقائص ، التي لا تُعَدّ ولا تُحصىٰ ، فما أكثر الأصحاب ، والأصدقاء ، والأعداء ، والأولاد ، والعبارات ، والأعمال ، والأقوال ، التي نُسبت إلى الإمام الحسين (ع) ، والتي إن سمع بها الإمام نفسه ، فسوف لن يتمكن من تشخيص صاحبها .

هذا مع العلم أنّ واقعة كربلاء ، وخلافاً لتصورات البعض ، هي الواقعة الأكثر وضوحاً ، وخلوّاً من الغموض والإبهام بين الوقائع التاريخية ، وهي الحادثة التي يندر أن نجد مثلها من زاوية الأسناد الصحيحة ، التي تؤيد وتُثبّت وقائعها ، وذلك لأهمية الحادثة ؛ لا سيما وأن أهل البيت قد كشفوا جزئياتها ودقائقها فيما بعد[4] .

---

(١) تفسير الصافي ـ المقدمة الخامسة ـ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٧٩ .

(٤) إنّ المسألة المهمة هنا هي كون كل تلك التحريفات إنما تسعىٰ في الواقع إلى التقليل من شأن ، ومقام =

٣٢ ـ دوافـــع الـــتحريف

لقــد سبق وقلنا : إنّ عـوامل التحـريف تنقسم بشكل عـام إلى قسمين : عامل العداوة والحقد الشخصي ، والآخر عامل الخرافة وحُب صناعة الأساطير .

وهنـا لا بد من إضـافة عـامل ثـالث مؤثر ، وهــو : عـامـل المحبـة والميـل الشخصي .

وقـد قلنـا إنّ المثـال عـلى عـامـل الأغـراض الشخصيـة يتمثـل في تحـريف المسيحيـين لشخصية الـرسول الأكـرم محمد (ص) ، والتحـريفـات الصـادرة من الأمويين بشـأن أمير المؤمنـين عليٍ (ع) ، وأمّـا مثال عـامل المحبـة والميل الشخصي فهي الأكاذيب كافة ، التي عادةً مـا يؤلفها الأفـراد، والأقوام ، بشـأن الأخيار من أمتهم .

كما ويمكن الإشارة إلى مثال تحريف الأعداء لفلسفة قيام الإمام الحسين (ع) من خـلال اتهامـه بالتفـرقة والتمـرُّد على سلطة الإسـلام ، وهو مـا سبق ذكـره في الكتاب .

وأمّا حول « صنـاعة الأسـطورة » فإنـه في الواقـع حسٌ بشري أصيل لـدى الأجيال المتعاقبة ، وهو ما أشرنا إليه أيضاً ، وذكرنا أمثلة كثيرة عليه مثل :

جـرح جبرائيـل في معركـة خيبر ، وخـرافـة انشـطار جسم « مـرحَب » إلى شطرين متساويين تماماً من دون أن يشعر هو بضربة سيف علي .

إضـافة إلى خـرافة قتـل العباس لثـمانـين شخصـاً في لحـظة واحـدة وشـطر أجسامهم جميعاً إلى نصفين قبل أن يسقط أحدهم على الأرض !

إلى جانب خرافة المليون والستمئة ألف مقاتل ، والزعم بـأن عدد سـاعات يوم عاشوراء قد بلغت (٧٢) ساعة ! .

= سيد الشهداء (ع) ، وتحويل الإمام إلى رجل عادي وبسيط ، بل وساذج ـ والعياذ بالله ـ بحيث إنه يطلب الماء ، ولا يتحمل العطش ، وهو في سن تزيد على الثلاثين ، وفي أثنـاء خطبـة أمير المؤمنـين علي (ع) أو تشويه صورة أصحابه وأنصاره من أهل بيته ، كقضية عرس القاسم مثلاً !

وأمّا فيما يتعلق بالعامل الخاص بحادثة عاشوراء بالذات ، فقد قلنا أيضاً بأن أئمتنا ، وأولياء ديننا ، قد أوصونا بضرورة إقامة العزاء ، وإحياء المجلس الحسيني كل عام ، وزيارة قبر الحسين (ع) ، وتخليده بطلاً ، وفدائياً ثائراً على مر العصور .

لكن هذه الخصوصية بالذات شكلت حافزاً لدى البعض من قرّاء التعزية ، والمرثيات الحسينية ، ممن تخصصوا في هذا المجال ، ودافعاً لهم باتجاه تحويل المنبر الحسيني إلى حرفةٍ ، وفنٍ ، ووسيلة للعيش ، وهو الأمر الذي ساعد ويُساعد من جهةٍ أخرى على نمو فكرة الاستفادة من كل الطرق ، والوسائل ، حتىٰ غير المشروعة منها ، بهدف إبكاء الناس على الحسين (ع) ، وذلك تأسيساً على قاعدة « الغاية تبرر الواسطة » وهو أمرٌ خاطىء وخطير بالطبع . إذ إنه صار باباً واسعاً لدى البعض لحياكة الكذب ، والحكايات المختلقة ، والجعل ، والتزوير .

وكما يقول الحاج (نوري)[1] : فإنه لو كان الأمر كذلك لأصبحت الغيبة ، وتقبيل من نُريد من النساء ، وسائر المُحرّمات الأخرى ، حلالاً علينا ، استناداً إلى قاعدة أنّ إدخال السرور إلى قلب المؤمن ، أمرٌ مُستحب ومحمود .

والعجيب في الأمر أنّ هذه التُرهات والأباطيل ، ظهرت فجأةً قبل خمسة قرون تقريباً عندما ظهر إلى الوجود رجلٌ متلون ، لم يُعرف عنه هل هو شيعي أم سُني ، وكان يُطلق عليه اسم مُلا حسين الكاشفي ، وكتب في حينه كتاباً تحت عنوان « روضة الشهداء » .

وهذا الرجل كان من الوعّاظ ولمّا كان يسكن بين أهالي (سبزوار) و(البيهق) وهم من الشيعة ، فقد كان يقرأ عليهم التعزية الحسينية .

وقد قام هذا الرجل بخلق ما يشاء من القصص ، والحكايات الخيالية ، واختلاق عددٍ من الأسماء والشخصيات التي لا يمكن أن تكون إلّا من إفرازات خياله المحض .

---

(١) صاحب كتاب (اللؤلؤ والمرجان) الذي سبق ذكره .

ثم لمّا كان هذا الكتاب باللغة الفارسية ، فإنه قد وقع بيد قُرّاء المرثية الحسينية ، وأصبح شيئاً فشيئاً مصدرهم وسندهم في المنبر الحسيني ، ولمّا كانوا يقرأونه قراءةً من على المنبر كما هو ، لذا صار يُطلق على قُراء التعزية عندنا بـ قُـرّاء الروضة « روضة خوان » .

وهكذا صار هذا الكتاب الكاذب أصلاً ومصدراً ، لكل أنواع المراثي والتعازي ، بدلاً من كل تلك المصادر الصحيحة ، الموجودة في تاريخنا .

وكما يبدو فإنّ هذا الكتاب قد كُتب في أوائل القرن العاشر ، أو أواخر القرن التاسع الهجري ، ذلك أنّ الملا حسين الكاشفي ، قد توفي في العام (٩١٠ هـ .ق) .

ولكن ما أن نصل إلى أواخر القرن الثالث عشر ، أو أوائل القرن الرابع عشر ، حتىٰ يظهر علينا كتاب آخر غطىٰ على كتاب « روضة الشهداء » بالكذب ، والاختلاق وهو كتاب « أسرار الشهادة » ، وتصل الأمور إلى ما وصلت إليه .

وبالطبع هناك كتب أخرى ليست بعيدة التأثير في هذا الاتجاه مثل « مُحرِق القلوب » الذي لَعِب دوره كذلك في إذكاء عالم التحريف والتزوير .

وهنا يمكن لنا أن نُعيد عليكم فهرست التحريفات اللفظية الأساسية التي لحقت بواقعة عاشوراء ، فنذكر قصة ليلى وعلي الأكبر ، وعرس القاسم ، وقصة جلب الماء للحسين (ع) أثناء خطبة أمير المؤمنين ، ومجيء زينب قرب جسد الحسين ، وهو في حالة الاحتضار ، وعبور الأسرىٰ من كربلاء وهم متوجهون من الشام إلى المدينة ، والمبالغة في عدد قتلىٰ الواقعة ، وشخصية هاشم بن عتبة مع سيفه ذي الثماني عشرة شعبة، وعدد ساعات يوم عاشوراء، وخروج قافلة الإمام بديباج الملوك ولباس الأباطرة ، وعدم اطلاع السجّاد على ما دار من وقائع في كربلاء ، وخرافة تحضير زينب لراحلة أبي عبد الله في يوم عاشوراء ، وتقبيلها إيّاه في عنقه ، نيابة عن الزهراء (ع) ، وغيبوبة الإمام السجّاد (ع) ، وقصة حضور الإمام الصادق (ع) كلّ المجالس الحسينية .

وهي تحريفات منها ما يتعلق بحوادث ، وقعت قبل واقعة عاشوراء ، ومنها ما يتعلق بيوم الواقعة نفسها ، وأخرى ما يتعلق بوقائع أعقبت الواقعة نفسها .

٣٣ ـ وأمّا التحريف المعنوي

التحـريف المعنـوي : يعني حـرف روح ومعنىٰ الشيء ، أو العبـارة ، أو الواقعة .

ولمّا كان البحث يدور هنا حول حرف الواقعة ، يصبح عندهـا الحديث عن التحـريف المعنوي للواقعـة يساوي الحـديث عن التحريف في العلل والـدوافع ، وكذلك الأهداف والغايات الموضوعة لتلك الواقعة ، من عنديات المُحرّفين .

مثال ذلك :

إنّك تذهب لعند شخص ما بهـدف زيارتـه والاطمئنان عليـه ، ولكن يأتي شخص ويقول : وهل تعرفون سبب زيارة فلان لفلان ؟ إنه يُريد تزويج ابنـه من ابنة ذلك الرجل مثلاً !

بشأن التحريف المعنوي للجمل والعبارات هناك ثلاثة أمثلة تاريخية معروفة سبقت الإشارة إليها .

إنّ كثيراً من وقائع التاريخ العالمي تمّ تحريف أهدافها وغايـاتها عمـداً ، أو جهلاً ، لكننا هنا لسنا بصدد تناولها .

لكن واقعة عاشوراء العظيمة والخطيرة ، فإنها ناهيك عمّا أصابها من تحريف في اللفظ والشكـل العام ، قـد وقعت في الحقيقة مـوضع سلسلةٍ من التحـريفات الأكثر خطراً ، وهي تحريفات الروح ، والمعنىٰ ، والتفسير ، والتحليل .

فنحن نعرف بأن نهضة الإمام الحسين (ع) ، إنما تقوم في الواقـع على ثـلاثة أعمدة عظيمة هي :

أ ـ إنها نهضـة مقـدّسـة ، وبعيـدة عن أي نفـع شخصي ، بـل في منتهى الإنسانية المتلازمة مع الفداء ، والتضحية ، والتخلي عن المصالح الفردية ، ولهـذا

ترى البشرية تعتبر مثل هـذه الرمـوز التاريخية جزءاً لا يتجـزأ منها ، وهي نفسهـا منهم ، وتـرى فيهم ذلـك الفـدائي الـذي يضحي بكـل شيء من أجـل الأمـة ومصالحها .

ب ـ إنّ قائد تلك النهضـة ذو بصيرة ثـاقبة ، ونـظر حاد ، وصـاحب نبوءة مستقبلية ، أي إنه كان يرى ما لا يراه الآخـرون ، ويقرأ مـا يعجز الآخـرون عن قراءته ، وبعبارة أخرى كان قد خُلق متقدّماً على زمانه .

ج ـ إنّه نور هائل مقابل الظلام الدامس الذي كان سائداً في عصره ، وهـو ما تم شرحه سابقاً .

من جهة أخرى نحن نعرف أيضاً ، بأنّ الأولياء والأئمة قد أوصونا بقوةٍ ، بضرورة إحيـاء هذه الـذكرى ، وإقـامة مجـالس العزاء الـدائمة لهـا ، وزيارة قـبر رائدها وقائدها ، حتىٰ تبقى الحادثة خالدةً أبداً ما بقيت الدنيا .

لكن الذي حصل هـو أنّ تحريفـاً أساسيـاً أصاب هـذه الواقعـة ، كما سبق وأشرنا إلى ذلك ، وهو القول بأنّ الإمام الحسين (ع) قد قتـل نفسه بـواسطة هـذه الواقعة ، بمثابة الكفّارة التي دُفعت عن ذنوب الأمة ، وبالتالي صار الحسين متراس العُصاة ، ودرع المُذنبين ، وحصنهم ، وضمانهم ! !

وأمّا التحريف الثاني فهو : زعمنـا بأنّ هـذه الحادثـة كان لهـا طابـع خاص وفردي ، أي إنّنا رفعناها إلى السماء ، وبهذا نكون قد جعلناها غير قابلة للاستفادة عـلى الأرض ، وبالتـالي نكون قـد أخرجنـاها من دائـرة كونها مـدرسـة تـربـويـة وتعليميـة ، مما يعني أننـا لم نضعها في متنـاول الأحوال والأوضـاع التي نمـر بهـا في العصر الراهن من جهة ، ونفينا علاقتها الوثيقـة بالتعـاليم الإسلاميـة الخاصـة في هـذا المجال من جهـة أخرى ، حيث لم تَعُـد مدرسـةً ، ولا عبرةً ، ولا تجـربـة ، نستلهم منها الدروس والعِبَر .

أي إننـا همّشناهـا ، وحجّمناهـا مرتـين : مرةً عنـدما أخـرجناهـا من دائـرة التجربة البشرية التاريخية ، والدروس التي لا بـد أن تستقيها الأمـة منها من خـلال فرض الخصوصية على طابعها .

ومرةً من خلال تشويهها ، ومسخها ، بقولنا ، وزعمنا ، أنها الكفّارة التي دفعتها الأمة باستشهاد الحسين (ع) ، أي إننا حوّلنا المدرسة الحسينية إلى مدرسة لصناعة الذنوب والمعاصي .

التحريف الآخر الذي وقع هو بشأن التعليمات الخاصة بفلسفة إقامة مجالس العزاء .

وهنا ترانا مرةً نقول بأنها قد وضعت من أجل مواساة الزهراء (ع) التي هي بحاجة إلى من يُصبّرها لهول الفاجعة ، وما نحن إلاّ وسيلةً لهذه المواساة من خلال بُكائنا ونحيبنا وبالتالي فإن الهدف هو تقديم خدمة خاصة للزهراء ، أو مرةً قُلنا بأنّ الهدف من وراء هذا البكاء هوالحُزن على الحسين (ع) نفسه ، والتأثر لما وقع له ، ولأهل بيته ، من فاجعة في عاشوراء ، حيث أُزهقت روحه ، وأهرق دمه بيد الظلمة ، وهو البريء ، دون نتيجة تُذكر ، ناسين أنّ الوحيد الذي لم يذهب دمه هدراً هو الحسين (ع) ، وأنه قد دفع أثمن المبالغ ، وأغلى الأثمان ، على كل قطرة أُريقت من دمه الطاهر الشريف ، فكيف يكون دمٌ مثل دم الحسين ، وهو الدم الذي كان سبباً في زلزلة العروش والقصور ، ولم يزل ، وسيكون ، واسم مثل اسم الحسين الذي كان ، ولم يزل ، وسيظل عنواناً للحرية ، والعدالة ، والمساواة ، والتوحيد ، والربوبية ، ومحاربة عبادة الذات ، أن يكون مثل هذا الدم ، قد ذهب هكذا هدراً ، أي دماً ضائعاً ؟! نحن الذين نُضيع أعمارنا في الذل والهوان والحياة المنكوبة !

إنّ أهداف نهضة الإمام قد بيّنها الإمام نفسه أفضل من أي شخص آخر، إنّ أهدافه هي أهداف النبي (ص) ، وخُطب الإمام خير ما يشرح أهداف النبي . إنّ الإمام كان قد وضع نصب عينيه هدفاً مركزياً ، وهو إصلاح وضع الأمة الإسلامية ، وقد صرّح بذلك بكل وضوح ، وهو أراد بذلك أن يُعلّم الأجيال الدروس الإسلامية الأساسية ، ويُفهم العالم أجمع بأنّ أهل بيت النبوة وهم أقرب الناس إلى النبي أكثر الناس التزاماً بتعليماته ، وهذا بحد ذاته دليل قوي على حقّانية رسالته .

وأمّا لماذا يطلب منّا أئمتنا وأولياؤنا، إقامة العزاء الحسيني ؟ فإننا نقول :

إنه ليس هناك في الدنيا مشهد ولا لوحة للعطاء أرقىٰ ، وأرفع ، وأفضل ، وأسمى من لوحة كربلاء ، وذلك :

أولاً : لأنها درسٌ فريد من نوعه في تعليم التوحيد ، والإيمان الكامل بعالم الغيب ، ومظهر رائع للنفس المطمئنة ، وبالتالي فإن روحها روح التوحيد الحق .

ثانياً : إن كل المدارس التربوية والتجارب البشرية كافة تهدف في الواقع إلى منح الروح البشرية حالة من المقاومة والثبات أمام حوادث الزمان .

وها هو الحسين (ع) وقد تقطّع جسده بالسيوف والنبال ، وذهب كل ماله ومُلكه ، وتوزّع أهله وعياله ، بين قتيل ، وأسير ، لكن روحه ظلت ثابتة مُحكمة اليقين .

ثالثاً : هناك فرق كبير بين الادعاء والعمل ، فمدّعو الحرية ، والتحرر ، وحقوق الإنسان ، والعدالة ، كثيرون في العالم ، لكن الرجال الربّانيين مثل الإمام الحسين (ع) ، وأنصاره ، وأصحابه ، أثبتوا بالفعل والعمل ، أنهم قادرون على الوقوف إلى جانب الحق والحقيقة ، مهما كان الثمن المطلوب دفعه مقابل ذلك ، سواء أكان مالاً ، وثروة ، أو أهلاً وعيالاً ، أو النفس بذاتها ، وإن كان المطلوب تقطيعها قطعةً قطعةً .

هذا في الوقت الذي كانت فيه علائم انكسار العدو شاخصةً على الرغم من كل ذلك ، وهذه بعض علائم الانكسار تلك :

أ ـ فرار العدو من أسلوب المواجهة الفردية .

ب ـ الاحتماء واللجوء إلى أسلوب الرمي بالنبال؛ ، والحجارة من بعيد .

ج ـ تعليمات ابن سعد إلى جنده ، بعدم مواجهة الحسين بن علي (ع) بقوله الشهير : « هذا ابن قتّال العرب ،والله نفس أبيه بين جنبيه » .

د ـ تعليمات ابن سعد إلى جنده ، باستخدام أسلوب التشويش على خُطب الإمام الحسين (ع) ، لأنه كان يعرف تماماً عدم استطاعة جيشه الصمود أمام كلام الإمام وخطبه .

بينما في المقابل نرى العلامات المعاكسة لهذه الروح المنهزمة وقد ظهرت من قبل الإمام :

أ ـ شجاعة بدنية فائقة .

ب ـ قوة قلب وروح عالية .

ج ـ الإيمان بالحق ، وبالقيامة ، والشوق المتزايد للقاء الله ، ساعة بعد ساعة .

د ـ الصبر والتحمل الرائعان .

هـ ـ الرضا والتسليم لله .

و ـ طمأنينة للنفس نادرة ، واستقرار روحي فريد ، وعدم بروز أي مظهر من مظاهر الغضب ، أو العصبية ، أو الانهزامية من طرفه .

ز ـ الروح الحماسية التي كانت سبباً وأرضية لتلك الخطب المعروفة .

وأمّا ما كان يُعطي الثقة ويقرّ عين الإمام فهما عاملان :

أ ـ أهل بيته .

ب ـ أصحابه : « هَهُنا مُناخُ رُكّابٍ ، ومَصارعُ عُشاق » .

ولا بد من التأكيد هنا على أنّ أهل بيت الإمام وأصحابه كانوا بالفعل قد أثبتوا أنهم من عُشّاق العمل الخالص لله ، وبالتالي فإنه لا بد لنا أن نستخلص من كل ذلك :

إن فرادة ذلك المشهد التاريخي ، ومضمونه التربوي العميق ، كان العلة الأساسية ، والفلسفة الحقيقية ، من وراء تعاليم إقامة مجالس العزاء الحسيني .

٣٤ ـ مسؤولياتنا

والمسؤولية هنا على قسمين :

مسؤولية العلماء ، ومسؤولية العامة ، وهي المسؤولية التي لا بد من القيام بها من الطرفين بلغة هذا العصر ، ولأجل جمهور هذا العصر . أي رسالة العلماء (الخواص) ، ورسالة الجماهير (العوام) .

ومعروف هنا أنّ العلماء يُلقون باللائمة بهذا الخصوص على عامة الناس ، ويعتبرون جهل العامة وتقصيرهم ، هو الأساس .

وفي المقابل فإن العوام يُلقون باللائمة على العُلماء ويقولون : « إنّ السمك إنما يفسد من رأسه وليس من ذيله » .

لكن الحقيقة هنا هي أنّ الطرفين مسؤولان عمّا وصلنا إليه ، فهذه السمكة فاسدة من الرأس ومن الذنب أيضاً .

وقبل أن نُشخّص واجب الخواص ومسؤوليتهم ، وواجب العوام ومسؤوليتهم ، لا بد من تعيين المُقصّر والمُذنب الذي تقع عليه مسؤولية الحالة المرضية الراهنة .

لأن الحديث عن مسؤوليتنا الراهنة شيء ، وعن السبب الذي أوصلنا لما نحن فيه شيء آخر .

وبعد أن أكّدنا المسؤولية المشتركة في إيصال الحالة إلى ما نحن عليه الآن ، فإننا سنبيّن أيضاً مسؤولية الطرفين تجاه الواقع ، فنقول :

إنّ كلا الطرفين مسؤول ، وعليه واجب وتكليف القيام والنهوض بالوضع الراهن ، وإصلاحه ، وبالتالي فإنّ الذنب مشترك كما أنّ المسؤولية مشتركة .

وقبل أن نُبيّن الواجب والمسؤولية المُلقاة على عاتقنا جميعاً ، وحتى نُدرك أهمية هذه المسؤولية لا بد من شرح الأخطار المتعلقة بالتحريف :

بشكل عام نقول : إنّ كل شيء توجد إلى جانبه آفته من جماد ، ونبات . أو حيوان ، أو إنسان .

فالكتاب مثلاً آفته العث ، كما هو حال الخشب .

والزرع آفته الجراد .

وأمّا الحيوان والإنسان فتُشكّل الميكروبات عدواً لهما .

والدين بدوره توجد إلى جانبه آفته وها هـو رسول الله (ص) يقـول : « آفة الدين ثلاثة : فقيه فاجر ، وإمام جائرٌ ، ومُجتهد جاهل » .

بديهي أنّ آفة كل شيء تكون متناسبةً مع ذلك الشيء : فـالدودة لن تكـون يوماً آفة الدين ، ولا الجراد سيأكـل الدين يـوماً ، كـما أنّ السرطان لن يكـون هو المرض الذي يهدّ الدين .

التحريف وقلب الحقائق والبدعة هي الآفة الكبرىٰ للدين[1] . فـالتحريف يُبـدّل الصورة ويعكسهـا ، ويأتي بـالضلالـة بدل الهـداية ، ويقضي عـلى الهـويـة الأصلية للشيء ، ويحوّل الشيء من عامل مشـوّق ومشجّع للعمـل الصالـح ، إلى عاملٍ يدفع إلى المعصية وارتكاب الذنوب .

والتحريف كضربة الخنجر من الظهر ، إنه الضربـة غير المبـاشرة والتي هي أخطر من الضربة المباشرة .

واليهود الذين هم أبطال التحريف في التـاريخ ، كـانوا يُسـددون ضرباتهم على الدوام بطريقة غير مباشرة .

وعلي (ع) يمكن تشويه صورته عن طريق المُحبّين ، ومن باب المحبة ، أكثر مما يمكن تشويهه بواسطة الأعداء .

وبالتأكيد فإن الضربـات التي تلقّاهـا علي (ع) من قبـل أصدقـائه الجهلة ، كانت أقوى وأمضىٰ من ضربات أعدائه .

التحريف كفاح ضد الشيء من دون بروز ردّ الفعل ، لكونه يستغل طاقات الموضوع نفسها .

---

(١) وخير مثال على كيفية لعب التحريف دوراً مُخرباً للدين ، وإعطاء النتيجة المعكوسة من وراء التعاليم الدينية هو قصة الحديث « إذا عَرفت فاعمل ما شئت » . [وهذه القصـة تم شرحها بـالتفصيل في كتاب « الحق والباطل » للأستاذ الشهيد في قسم « إحياء التفكير الإسلامي »] .

التحريف يُبدّل صورة الشيء ، ويقلب صورة الإنسان ، وسيماءه ويُغيّرها كُلياً ، فعليٌ مثلاً يتحول إلى هيئة بطل مهيب الجانب ، مروّع ، ضخم الجثة والهيكل ، صاحب عضلات ، وشوارب ، أشبه ما تكون بتصوراتنا عن أشقياء الحي ، حتىٰ أنّنا لا نستطيع أبداً أن نتصور علياً (ع) الحقيقي ، وهو عليُ المحراب ، والخطابة ، والحكمة ، والقضاء ، والزهد ، والتقوىٰ ، والخوف من الله .

والتحريف هو الذي صوّر لنا الإمام السجّاد بصورة الرجل المريض والعليل ، ولم يُعرف عن السجّاد مثل تلك الصفة إلاّ في وسط الناطقين باللغة الفارسية ، بحيث صار الواحد منّا عندما يُريد اتهام شخص بالعجز . والضعف يقول له : ما بالك وقد أصبحت مثل الإمام زين العابدين ، عليلاً ومريضاً ! في حين أنّه عليه السلام لم يُعرف عنه أنّه مَرِضَ يوماً ، إلاّ أيام وقائع عاشوراء ، وليس كما يُصوره البعض ، وكأنما كان دائم المرض ومُقيماً على الفراش دائماً !

يقول المرحوم آيتي في محاضرته التي ألقاها في الجمعية الدينية الشهرية بعنوان « منهج التبليغ » ، والتي نشرت في مجلة الجمعية (الجزء الثاني ص ١٦٠) : « قرأت نقداً نُشر لأحد الأشخاص في صحيفة (اطلاعات) ، موّجهاً إلى وضع الحكومة ، وأجهزة السلطة ، يعرض فيه لموظفي الدولة بأنّ أغلبهم إمّا يفتقد إلى الكفاءة ، أو خائن ، وغير نظيف ، في الوقت الذي نحن بحاجة إلى أفراد سالمين وأكفاء في العمل .

وقد عرض الموضوع بهذا الشكل في الصحيفة : « إنّ أكثر رجالاتنا وموظفينا إمّا من نوع الشمر ، أو من نوع الإمام زين العابدين العليل ، في حين أنّ بلدنا اليوم هو بحاجة أكثر من أي وقت مضىٰ إلى رجال من نوع العبّاس . أي رجال أكفاء وسالمين في الوقت نفسه » .

وهذا يوحي للقارىء بأنّ الشمر كان رجلاً كفؤاً وحاذقاً ، لكنه سافل ، بينما زين العابدين الطاهر والنظيف ، يفتقر إلى الكفاءة والجدارة . والعبّاس هو المطلوب لأنه نشط وفعّال وطاهر كذلك .

وهنا تبدو أهمية معرفة الإمام : « أي عارفاً بحقه . . » كما جاء في الخبر بمعنىٰ أننا مطالبون بمعرفة فلسفة الإمامة أولاً ، حتىٰ نستطيع أن نجعلهم أئمتنا ، وطليعتنا ، ومثلنا الأعلى ، في كل شيء ، لا أن نُعبّر عن أئمتنا تلك التعبيرات الهزيلة .

إنّ الإمام إنسان وبشر يسبحُ في العلىٰ ، وليس بكائن ما فوق الإنسان ، ولهذا يُمكن أن يكون مثلنا الأعلى ، لأنه لو كان كائناً فوق الكائنات ، لما كان بإمكانه أن يصبح مثلاً أعلى يُحتذىٰ به .

ولهذا نقول إننا بمقدار ما نمنح صفة الإعجاز لشخصياتنا ووقائعنا التاريخية ، بمقدار ما نُخرجها من دائرة العبرة ، والتجربة ، والقيادة العملية .

وحتىٰ نتمكن من الاستفادة من تاريخنا ، وجعله مثلاً أعلى لنا سواء في شخصياته أم في وقائعه ، لا بد من حيازة المعلومات الصحيحة عن ذلك التاريخ .

بينما المعلومات الخاطئة والمُحرّفة ، لا يمكن لها إلّا أن تترك الأثر المعكوس على حياتنا .

ولن تستطيع أن تكون ملهمةً لعمل الخير ، ومُحرّكةً للتاريخ باتجاه الفعل الصحيح ، إنها ستكون فاقدة لأية قوة مُحرّكة .

ونعت الإمام زين العابدين بالعليل لا يأتي علينا إلّا بقاعدة أنّ كل من يئنُ أكثر ، ويقعدُ في الفراش أكثر ، كلما كان أقرب إلى الإمام زين العابدين ، وكلما زاد تقديس الناس له !

إلى هنا اتضح لنا خطر التحريف .

والآن دعونا نبحث عنِ المسؤول ؟ نقول :

إن الخواص ، أي العلماء ، كما العوام ، أي الناس العاديون ، كلاهما مُقصّر ومسؤول .

فالعلماء مسؤولون لأنهم يدورون في فلك الشريعة الخاتمة ، والتي تتطلب

منهم مواجهة التحريف ، ورفعه ، وإزالته ، ومنع حصوله كما جاء في الحديث .

« إذا ظهرت البدع ، فعلىٰ العالِم أن يُظهر عِلمهُ ، وإلاّ فعليه لعنةُ الله » .

وكما ورد في (الكافي) أيضاً : « وإنّ لنا في كل خلف عدولاً ، ينفون عنا تحريف الغالين ، وانتحال المُبطلين » .

إنّ الواجب الأول ، والمهمة الأولى للعلماء هي في محاربة نقاط الضعف لدى الناس ، وليس استغلالها . ففي قضية مثل قضية عاشوراء ، وكيفية التعامل معها نرى أن الناس لديها تصوّر خاطىء عنها . إذ إنّ الغالبية تريد لمجلس العزاء الحسيني أن يكون حاشداً وغاصاً بالجمهور أولاً ، وأن يكون تراجيدياً ، ومُحزناً ، ومأساوياً ، قدر الإمكان ثانياً .

وهنا نرى الخطيب أمام مفترق طرق :

فهل ينبغي عليه أن ينجر لهذا التصور ، ويجعل مهمته الأولى حشد الناس حول مجلسه ، وعرض القضية بالشكل المأساوي والفجيع ؟

أم أن يجعل مهمته قول الحقيقة والواقع ، حتىٰ وإن خَسِر الحشد ، وافتقر مجلسه إلى العرض المأساوي والفجيع .

إنّ من واجب العلماء النضال ضد عوامل ظهور التحريفات ، والوقوف بوجه دعاية الأعداء وإعلامهم ، وقطع يدهم عنّا ، وإعلان الحرب ضد فكرة صناعة الأساطير والخرافات .

وهذا كتاب « اللؤلؤ والمرجان » للحاج نوري مثل أعلى في هذا السبيل ، وهو نوع من النهوض بهذه المسؤولية بأحسن شكلٍ قام بها ذلك الرجل العظيم ، وها نحن نستثمر من هذا النهوض النتيجة الطيبة .

إن على العلماء واجب فضح أولئك الكذّابين ، والدجّالين ، والمُزوّرين للتاريخ . (ولهذا قيل إنّ من الموارد التي تجوز فيها الغيبة هي جَرح الراوي ـ رواة الحديث ـ) .

يجب على العلماء أن يضعوا المتون الواقعية للحديث المُسند بيد الناس ،

ويعرضوا على الجمهور الوجه الحقيقي للشخصيات الكبرىٰ في التاريخ ، ويُسلطوا الأضواء على المتون الواقعية لحوادث التاريخ ، ويكشفوا الكذب ، ويُصرّحوا عنه ، بكل وضوح .

إنّ نظرة سريعة لأحوالنا الراهنة ، تُبيّن لنا مدى التحريف الذي لحق بشخصياتنا التاريخية ، وبرجالنا العظام .

صحيح أنّ البعض قد وفّى حق تلك الشخصيات ، وعرضها على أحسن وجه كما عَمِل « إقبال اللاهوري » في أشعاره ، و« حجة الإسلام التبريزي » كذلك ، لكن البعض منهم قد أساء إليها ، وحرّفها ، ومثال ذلك من نظم ذلك البيت من الشعر الذي يُقرأ على المنابر ومضمونه ، « أسفاً لفقداني لأمي أين هي . . . فيا أرض كربلاء مثلّي الدور والعبي . . . » .

إنّ هذا ليس فقط لا يمكن أن يكون لسان حال الإمام الحُسين (ع) في كربلاء ، وهو ذلك الرجل العظيم ، وتلك الشخصية الفريدة .

إنه لا يمكن أن يكون لسان حال أي إنسان آخر ، وهو في سن السابعة والخمسين ، ففي تلك السن تكون الأم هي التي تأوى إلى ابنها .

نعم الإمام الحسين (ع) تذكر أُمه في كربلاء وذكرها ، .ولكن بصورة حماسية ، وباسلة حيث قال : « أنا ابن علي الطُّهر من آل هاشم . . . . وفاطمُ أُمي . . . ، ويأبى الله ذلك لنا ، ورسوله وحُجورٌ طابت وطهُرت ، ونفوسٌ أبيّة ، وأنوفٌ حمية » ومثال ذلك . . .

مسؤولية العوام وواجباتهم

أولاً : أريد أن أذكر هنا مبدأ عاماً سبقني للإشارة إليه الحاج نوري في كتابه « اللؤلؤ والمرجان » وهو :

إن الموضوع الذي يكون قوله حراماً (على العموم أو في الغالب) فإن الاستماع إليه يكون حراماً أيضاً . مثل الغيبة ، والسب ، واللعن ، وقول

السوء ، حول المؤمن ، أو الإساءة بالقول إلىٰ أولياء الحق ، أو الغناء الباطل ، أو الاستهزاء .

وعليه فإنه إذا كان قول الكذب في مجالس العزاء الحسيني حراماً ، فإن سماعه ، والإصغاء إليه حرام أيضاً .

وثانياً : فإنه ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[1] .

و﴿ وَالَّذِيْنَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾[2] .

و﴿ سمّاعُونَ لِلْكذِبِ ، سمّاعون لِقَومٍ آخرين ﴾[3] .

و﴿ سَمّاعُونَ لِلْكذبِ ، أكّالونَ لِلسُحتِ ﴾[4] .

وأيضاً : ﴿ وَقَدْ نَزّلَ عَلَيْكُمُ في الكِتَابِ : أنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ الله يُكفَرُ بها ، ويُستَهْزأُ بِهَا ، فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّىٰ يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْره ، إنكُمْ إذاً مِثْلُهُم ﴾[5] .

بشكل عام نقول :

إنّ العامّة هم الطرف المستهلك لهذه الأقوال والحكايات المُحرّفة ، وواجبهم أن يتجنبوا الاستماع إلى مثل هذه الخرافات ، ويرفضوها ، وعند ذلك سترى الذي يعرض مثل هذه البضاعة مضطراً للتراجع عنها .

لكن المشكلة هي أنّ العامة يُشجعون مثل هذه الأمور ، وترى جمهور العامة بدلاً من محاربته لمثل هذه الظواهر ، ينهض بقوة لحمايتها ، والدفاع عنها ، فمثلاً تراهُ يواجهك بالسؤال :

وما المانع في أن يكون عرس القاسم صحيحاً ؟ عندما تنهاه عن تصديق

---

(١) سورة الحج : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٤٠

مثل هذا الأمر ، بل تراه يُصرّ على ذلك حتى عندما تقول له :

إنّ مثل هذا الأمر أولاً لا يمكن أن يقبل به أي عقل .

وثانياً لا وجود لمثل هذا الخبر في أي مصدر من المصادر التاريخية القديمة ، ولم يأتوا على ذكره ، لا بسند موثق ، ولا شبه موثق .

ويقول لك : حتىٰ وإن افترضنا عدم وجود سند تاريخي بشأنه ، فما المانع من أن يكون مثل هذا الأمر قد حصل ؟ !

ولكن إذا جاء أحدهُم وقال : وما المانع أن يكون أهل البيت قد بدأوا يومهم في العاشر من مُحرّم بالترفيه عن أنفسهم بإحدى الألعاب المعروفة للأطفال مثلاً ؟

نقول إنّ المسألة أنّ مثل هذا لم يحصل ، وهذا هو الأساس والمعيار .

وهنا لا بد من البحث والحديث حول موضوع الرشد الاجتماعي للأفراد ، بل الأفضل أن يكون البحث حول رشد المجتمعات نفسها ، فرشد المجتمعات مثل رشد الأفراد ، ولكن أولاً دعونا نُفسّر الرشد ، فما معنى الرشد ؟ .

والرُشد هو بلوغ الإنسان في ناحية من نواحي الحياة ـ مثلاً في أمر الزواج (الرشد المعتبر في الزواج) ـ إلى الحد الكافي من العقل والفكر بحيث يتمكن فيه من اختيار الشريك المناسب له في إدارة الحياة الزوجية ، وإدراك مصالحه في ذلك الاختيار .

وبعبارة أخرى إدراك القيم اللازمة لأمر الزواج : أي إدراك ما تتطلبه الحياة العائلية من أشياء ، وما ترفضه الحياة العائلية من أمور ، وأي الأشياء مهمٌ وأيُّها ليس مهماً ، وما هي الأشياء التي لها طابع الدرجة الأولى من الأهمية ، وما هي تلك التي لها طابع الدرجة الثانية أو الثالثة ؟ أي أن يتمكن من إدراك نفعه وضرره ، وتشخيص عوامل النفع والضرر ، إذ لا يمكن للرشد الجسمي (البدني) والجنسي ، أن يكونا كافيين لتشكيل الوحدة الاجتماعية المعروفة بالعائلة .

وعندما يكون الحديث عن الرشد الاقتصادي فنقول : إنه البلوغ المطلوب من الإنسان أن يصله ، بحيث يستطيع فيه المحافظة على مصالحه ، وتشخيص العوامل اللازمة والمطلوبة للحفاظ على ثرواته ، بل وزيادتها ، وإلاّ فإنه ليس برشيد حتىٰ وإنْ كان قد بلغ سن الرُشد من ناحية العمر ، فهو إن لم يستوفِ شروط الرُشد نسمّه سفيهاً .

ولكن الطفل غير المستوفي لشروط الرشد ، لا يُدعى بالسفيه طبعاً ، لأنه تحت سن الرشد ، قال تعالى : ﴿ **وابْتَلُوا اليَتَامَىٰ حَتّىٰ إذا بَلَغوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُم رُشداً فَادْفَعُوا إلَيْهِم أمْوالَهُم** ﴾[1] .

إذن الرشيد في أية ناحية : هو ذلك الشخص الذي يُدرك النفع والضرر المتعلقين به في تلك الناحية ، إضافةً إلى إدراكه للقيم المتعلقة بذلك الموضوع .

فما لم يتم إدراك القيم ، لن تكون هناك قُدرة على المحافظة على الموضوعات ، والأشياء ، ولا يؤدىٰ الواجب بالتمام .

والرشيد في أمر الزواج مثلاً ، فتىً كان أم فتاة ، هو من أدرك القيم المطلوبة لتشكيل العائلة .

أما الفتى الذي يُريد الزواج من الفتاة الفلانية ، لشفاهها الجذابة فقط ، أو لمشيتها ، أو بسبب قدّها وقامتها ، وأمثال ذلك ، فهو ليس بالفتى الرشيد .

فهو في هذه الحالة لا يعرفُ بعد أنّ العوامل اللازمة والمطلوب توفّرها ، لسعادة العائلة ، هي بالمئات ، والتي ليس من بينها الشفاه الجذّابة للفتاة .

وبالتالي يكون لم يُدرك قيمة عوامل السعادة الزوجية بعد .

وكذلك هي الحال مع من لم يُدرك قيمة العوامل المؤثرة في المحافظة على الثروة ، فهو لا يستطيع ممارسة العمل التجاري .

ومَنْ لا يُشخص الفرد الخائن عن المخلص ، ومَنْ مِن الأشخاص ينبغي

---

(١) سورة النساء : الآية ٦ .

تقريبه ، وعن أيّ منهم ينبغي الابتعاد ، مثل هذا الفرد لا يكون رشيداً أيضاً .

الـرشد الإجتمـاعي

وكما أسلفنا فإنّ الأفضل هو أن نبحث في رشد المجتمعات ، لكـون البحث في الرشد الاجتماعي مسألة مرتبطة بحدود الفرد ، وإطار الفرد في المجتمع .

وكما الفرد فإن المجتمع أيضاً ، قد يكون رشيداً أحياناً ، وقد يكون سفيهاً ، أو غير ناضج في أحيان أخرىٰ .

والمجتمعات التي لا تُدرك كُنه وجودها كوحـدة متكاملة ، ولا تعـرف قيمة ثرواتها المتمثلة في الشخصيات التاريخية ، والوقائع التـاريخية ، هي مجتمعـات غير رشيدة قطعاً .

ومن بين تلك الثروات شخصيات التاريخ الغابر ، ومن بينها كـذلك الآثـار الفنية ، والعلمية ، والصناعية ، والأدبية الماضية ، إلى جانب التاريخ التليد .

وأي تـاريخ يمـاثل التاريـخ المملوء بالتجـارب ، والخبرات ، والسعـادة ، والفخـر ، وما حـوادث التاريـخ الغابـر إلاّ وثائق أخـلاقية ، وتـربويـة ، لأجيال المستقبل .

وقد تظهر آثار فنية وصناعية لدى أمـة من الأمم ، لكن أفراد تلك الأمـة لا يُدركون قيمة تلك الآثار بل ويخرّبونها ، وما أكثر ما يحصل أن تقع مخطوطة نفيسـة بيد أحد البقّالين ، فيستخدمها ورقاً لمبيع لوازمه ، وقد تقعُ بعض الآثـار الفنية ، والصناعية كـاللوحات ، أو القـطع الصخريـة ، أو البلورية ، أو مـا شابـه ، بيد أناس غير صالحين ، فتراها تصبحُ لعباً بيد الأطفال ، يرمونها هنا وهناك .

وهكذا هو حال التاريخ ، فقد تمر على بعض الأمم منعطفـات تاريخيـة مليئة بـالحماسـة ، والفخر ، والتجـارب الغنية ، والجـمال ، والعـظمـة ، والقصص ، والـدروس المُلهمة ، لكنّ حـالها كحـال لوحـة فنية نفيسـة وقعت بيد الأطفـال ، فراحوا يلعبون بها فأتلفوها ! .

كذلك حال التاريخ الذي يُلحقون به ما شاءت إرادتهم من الأساطير والخرافات ، حتىٰ يعدموا قيمته وقدره ، من العظمة ، والجمال ، والحماسة ، والإلهام ، والغنىٰ ، والفخر كُلياً ، ويتحول من مادةٍ ملهمةٍ للعظمة ، والحماسة ، والشجاعة ،وروح النضال ، والكفاح ، إلى مادة توحي بالعجز ، والشقاء ، والاستسلام مقابل الحوادث .

وما واقعة كربلاء التاريخية إلّا واحدة من تلك الحوادث التي مُسخت ، وبُدّل مفعولها ، بسبب فقدان الرشد الاجتماعي المطلوب لدىٰ الأمة ، فنُسيت عظمتها ، وغُضّ النظر عن جمالها ، وقُضي على صور الشجاعة ، والحماسة ، والفخر فيها ، واستبدل كل ذلك بالعجز ، والضعف ، والجهل والهوان .

وهذه علامة من علائم تخلّف الأمة ، وفقدانها للرشد اللازم في سبيل الحفاظ على تاريخها المليء بالفخر ، والعظمة .

هذا من ناحية مسؤولية المجتمع على العموم ، وأما مسؤولية جمهور العامة على الخصوص ، فينبغي القول : إنّ مسؤولية حفظ وصيانة التاريخ ، والماضي التّليد ، ليس أمراً مختصاً بالعلماء وحدهم ، بل إن كل فردٍ من أفراد المجتمع ، ينبغي أن يتحمل هذه المسؤولية على عاتقه .

فكما إلصاق الكذب والتزوير ، بهذه الحوادث ، أمرٌ حرام كقول الكذب ، فإن سماعها ، والاستماع إليها من قبل العامة حرام أيضاً .

قال تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[1] وقال كذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾[2] .

وجاء في تفسير الكشاف تعليقاً على الآية الأولى : « وجُمع الشرك وقول الزور في قِرانٍ واحدٍ ، وذلك أنّ الشرك من باب الزور ، لأنّ المُشرك زاعِمٌ أنّ الوثن تحقُّ له العبادة ، فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور » . ثم يضيف : « الزُور من الزّور ، والازورار ، وهو : الانحراف » .

---

(١) سورة الحج : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

وأما في التعليق على الآية فقد ورد : « يحتمل أنهم ينفرون عن مجالس الكذابين ، ومجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها ، ولا يقربونها ، تنزُّهاً عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانةً لدينهم عمّا يثلُمه ، لأن مشاهد الباطل شِركُه فيه .

ولذلك قيل في النظارة إلى كُل ما لم تُسوِّغه الشريعة : هم شركاء فاعليه في الإثم . لأنّ حضورهم ، ونظرهم ، دليلُ الرضا به ، وسببُ وجوده ، لأنّ الذي سلّط على فعله ، هو استحسان النظّارة ورغبتهم في النظر إليه وفي مواعظ عيسىٰ (ع) : إيّاكم ومُجالسة الخطّائين » .

وعليه تكون دعوة الآية الأولى موجهةً في الأساس إلى اجتناب قول الزور ، سواء حصل ذلك قولاً ، أو استماعاً ، والقول هنا هو أظهر المصداقين .

لكن الآية الثانية تدعونا صراحةً إلى عدم الحضور في مجالس الباطل ، سواء أكان الحضور بهدف السماع ، أو بهدف الرؤية ، والمشاهدة ، وهي آية تنهانا في الواقع عن إعانة الإثم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُم فِي الكِتَابِ أن إذا سَمِعْتُم آياتِ الله يُكفَرُ بِهَا ويُستهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعْهُمْ حَتىٰ يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غيرهِ** ﴾[1] .

وفي تفسير الصافي : « عن الصادق (ع) :

وفرض الله على السمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله ، وأن يُعرض عمّا لا يحلُّ له مما نهىٰ الله عنهُ ، والإصغاء إلى ما أسخط الله ، فقال في ذلك : وقد نزّل عليكُم . . . » .

كما ورد في الصافي أيضاً : « القمي : آيات الله هم : الأئمة عليهم السلام » .

والظاهر أنّ المقصود من الآيات هو : المفهوم الأعم للآية من آيات تدوينية ، وآيات تكوينية إلهية ، سواء أكانت الشخصيات التاريخية مثل الأئمة

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

عليهم السلام ، أو حوادث التاريخ التي هي الأخرى من الآيات الإلهية التكوينية .

والوقائع التاريخية التي تُبيِّن مجرى ومظهر جلاء الروح الإيمانية هي الأخرى يمكن اعتبارها من آيات الله .

وقد ورد في تفسير الصافي تعليقاً على الآية :

﴿ وإذا رأيْتَ الّذين يَخوضُون في آياتِنَا ، فأعرِض عنهُم ، حَتىٰ يَخُوضُوا في حديث غيره ﴾[1] . قوله : العيّاشي ، عن الباقر عليه السلامْ في هذه الآية قال : الكلام في الله ، والجدال في القرآن . قال : منه القُصّاص » .

وعن الصافي تعليقاً على ما سبق أيضاً :

« في العلل ، عن السجّاد (ع) : ليس لك أن تقعد مع من شئت ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : وإذا رأيت الذين يخوضون . . . . » .

وخلاصة البحث في مسؤولية العامة هو :

أ ـ هناك مبحثُ أخلاقي وإسلامي يدور حول أنّ ما يكون قوله حراماً فإنّ سماعه حرامٌ أيضاً ، فالأذن واللسان من زاوية معينة يشتركان في وظيفة واحدة ، ذلك أنّ الأذن هي الأداة المُستهلكة لبضاعة اللسان ، ولو تخلّت الأذن عن الاستهلاك لما كان بوسع اللسان أن يستمر في الإنتاج ، وإذا ما قرّر أهل الأذن وأصحابها ، الانصراف عن استهلاك الأكاذيب ، والتزوير ، والغيبة ، والنميمة ، واللعن ،وأقوال السوء ، فإن بضاعة أهل اللسان ستبور فيسكتون ، تماماً كما العين ، والقراءة ، من أدوات استهلاك الكُتّاب ، ومُخرجي الأفلام ، وامتناع أولئك عن الاستهلاك ، يعني انقطاع هؤلاء عن الإنتاج .

ب ـ الآيات القُرآنية الواردة في هذا المجال وقد مرّ ذكرها .

ج ـ جانب البحث الاجتماعي : وخلاصته هي كما أنّ هناك فرداً رشيداً ، وآخر غير رشيد ، وأنّ شرط الزواج ، أو حيازة الثروة ، كون شروط الرشد قد

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٦٨

تحققت عند الفرد ، فإنّ حال المجتمعات أيضاً كذلك فهناك مجتمع رشيد ، وآخر سفيه .

ومعنى الرشد هو : إدراك القيم ، والثروات ، وطريقة الاستفادة منها ، واستغلالها بالشكل الصحيح .

والرشد في أمر الزواج هو : معرفة الشخص في للأسس اللازمة لإقامة الحياة العائلية ، وقيمة كل واحدة من تلك الأسس ، كأن تتم معرفة الفتاة ، والبحث عن أصولها ، ومدى مناسبتها للزواج .

كذلك الأمر بالنسبة لرشد الفرد في حالة منحه اختيار التصرُّف في الثروات .

وأمّا رشد المجتمع : فإنه يقوم أولاً على ضرورة إدراك المجتمع لنفسه كوحدة متكاملة ، ثم ضرورة إدراكه لأهمية القيم والثروات العامة ، التي هي بمثابة تراث وثروة وطنية وعامة للجميع ، ثم ضرورة السعي للحفاظ على تلك الثروات وصيانتها .

وهذه الثروات يمكن أن تكون شخصيات تاريخية عظيمة ، أو آثاراً علمية ، وفلسفية ، وفنية ، وصناعية ، وأدبية ، أو من نوع التواريخ والوقائع التاريخية الحماسية ، التي توحي بالفخر والاعتزاز .

إنّ مجتمعاً يملك تاريخاً مثل تاريخ الحسين بن علي ، وهو تاريخٌ مليء بالمفاخر وآيات الحماس ، والعظمة ، والجمال ، والتجارب الغنية والمُلهمة ، فيُبدِلَهُ بتاريخٍ مليء بالحكايات ، والخرافات الوهمية ، من جعبة « روضة الشهداء » و« أسرار الشهادة » ، هو مجتمع سفيه حقاً ، وليس رشيداً . ونحن اليوم مطالبون بالحفاظ على تاريخنا ، كما نقوم بصيانة آثارنا التاريخية والوطنية .

ملاحظـات

١ ـ التحريف في القرآن ، في تفسيره وتأويله ـ كتفسير الصافي وعلي بن إبراهيم .

٢ ـ التحريف في شخصية الإمام علي (ع) ، كقصة الأسد الذي كان يظهر في كربلاء ، ثم تبيّن أنه الإمام علي !

٣ ـ التحريف في تاريخ الإسلام : كالقول بأنّ الإسلام قد انتشر وتقدّم بثروة خديجة وسيف علي !

٤ ـ التحريف في الشخصيات المعادية والشقية ، والذي يمنع أخذ العبرة من سلوكهم ، من خلال تصويرهم في الغالب بأنهم من أولاد الزنى الذين يملكون سبعة أثداء . . . وبالتالي يصبح من الصعب على الناس أخذ العبرة من معاوية ، قبل أربعة عشر قرناً ، فمثلاً فقد اشتهر قولهم عن الشمر بأنّه يملك سبعة أثداء مثل الكلب ، أو كما قال بعضهم عنه بأنّ اسمه عبد الله . . .



القسم السادس
نقد كتاب
« الحسين وارث آدم »

« الحسين وارث آدم »

هذا الكتاب هو من تأليف الدكتور علي شريعتي . في إحدى سفراتي إلى مشهد ـ في العام (١٩٧٣م) ـ قدمته لي (انتشارات طوس) فقرأته ، وأنا في طريقي إلى طهران ، وإنّ ما استخلصته من هذا الكرّاس الذي عرض فيه كاتبهُ أفكاره بشكل مُبطّن وبتعبيره هو كما ورد في الكراس بأنه : « إنما أردتُ أن أقول كل عُقدي وعقائدي في هذا الكراس هو التالي :

١ ـ إنّ هذا الكراس ما هو إلاّ شكل من أشكال التفسير المادي الماركسي للتاريخ ، بل نوع من التعزية الماركسية التي تُقرأ على الإمام الحسين ، وهي تعزية مستحدثة .

[واستناداً إلى هذا الكراس] فإنّ بداية التاريخ البشري ، كانت مع الاشتراكية والمساواة .

ثم بدأت اللامساواة ، وصراع الحق والباطل ، يغزوان البشرية ، وظهرت الملكية ، والتي قسمت بدورها المجتمع البشري إلى قسمين ، تماماً كما هو حال نهري دجلة والفرات اللذين ينبعان من منبع واحد ، ثم يتشعبان إلى رافدين منفصلين .

وانقسـام الإنسان إلى قسمـين يعني إلى طبقتين : طبقـة مستغِلة ومستثمرة، وطبقة محرومة ومستغَلّة .

والطبقة الحـاكمة والمستغلّة ذات ثـلاثة وجـوه : سياسيـة واقتصاديـة ودينية (مذهبية) ، أو أصحاب الذهب والقوة والتزوير (الخداع) .

وإن مهمة الفئة الأولى (أي الحكام) هي : صناعة العبيد .

والفئة الثانية (أي الاقتصاديون) هي النهب .

والفئة الثالثة (أي رجال الدين والمـذهب) هي الخداع والتضليل .

وهكذا يكون القصر والدكان والمعبد عبارة عن ثلاثة شُعب أو فروع لمكتب واحد .

وإنّ السيف والذهب والمسبحة يؤديان نفس الوظيفة .

وقد كانت هذه هي السمة الملازمة للنظام الحاكم في التاريخ على الدوام .

وأي شيء آخـر غـير ذلـك كـان عبـارة عن حـركـات ، وثـورات مُـدانـة ومقموعة .

نعم لقد قامت ثورات ، ونهضات ، وحركات صميميـة ومُخلصة ، ولكنها يائسة ، لأن النظام التحتي نظام فاسد .

ولهذا ترى أنّ كل تلك الحركـات والثورات التي وقعت عـلى يد إبـراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ ، ومحمد ، وعلي ، والحسين ، قد ولّدت آثاراً معاكسة .

ومـا كان يُنتـظر منه أن يكـون إدام خبز البشريـة ، تحوّل إلى بـلاءً ومعانـاة مضاعفة ، وقيد جديد أُضيف إلى القيود السابقة .

نعم فحـرية القبيلة ، والعشـيرة الأولى ، لم تدم طـويلاً (ص٢٢) . ونـداء الإمام الحسين قد أُطفىء بينها ظل رنين ناقوس العجل السامري يُدوي عالياً عـلى الدوام (ص٢٤) ، وما المصير المحتوم لـورثاء آدم كـافة ، سـوى الأسر والمعانـاة (ص ٢٨) .

وما إرث الحرية ، والعدالة ، والنهوض سوى الثورات المدانة في التاريخ أبداً .

وما إرث العبودية ، والظلم ، ودين النوم ، سوى النظام الحاكم في التاريخ (ص ٣٩) .

والإمام الحسين مظهر لانكسار آدم وهزيمته (ص٤٧) .

والكاتب يُصوّر ، في كراسه هذا ، الأرض بين النهرين بمثابة التعبير الرمزي لكل الأرض وأضحى تاريخها مظهراً لتاريخ الأرض كلها .

وإن دجلة والفرات تعبير عن الجناحين المتضادين للمجتمع البشري اللذين انشعبا بعد خروجهما من منبع واحد ، وأوحيا باتصالهما وتلاقيهما الوهمي والكاذب قرب بغداد ، وهو أشبه بتلك الوحدة الكاذبة بين جناحي البشرية في دورة الخلافة الإسلامية ، حيث ظهرت تلك الوحدة الكاذبة أيضاً[1] ، لكنها سرعان ما تكررت الجناية والمأساة بشكل أكثر فجاعةً مرة أخرى .

إنّ كل جُناة العالم يظهرون ويبرزون في كل واحد من تلك الوجوه الثلاثية للخلافة الإسلامية ، وهكذا يبدأ شقاء العالم ، وهو الشقاء الذي لم يسبق له مثيل[2] .

إنّ مصير دجلة والفرات النهائي هو أن يصبّا في البحر ، ويستقرّا هناك .

ومصير البشرية ، كخاتمة التاريخ البشري هو في الاشتراكية ، وهناك فقط تنجو البشرية من بلاء الملكية والنظام الطبقي ، ويتم تهديم البناء التحتي ، ويحل محله بناء تحتيّ واقعيّ جديد ، قوامه العدل والقسط الواقعيّان .

إنّ جهود الثوريين في التاريخ ، ونضالاتهم ضد البناء التحتي الفاسد ، كانت مُخلصة وصميميّة على الدوام لكنها يائسة ، وغير مثمرة باستمرار .

ولا يمكن الوصول إلى السعادة الواقعية للمجتمع البشري إلاّ بزوال

---

(١) الصفحات : ٩، ٢٩، ٣٩ .

(٢) الصفحات : ١٥، ٢٧، ٢٨، ٣٥.

الطبقات ، ومحو النظام الطبقي[1] ، ألا بالاشتراكية تطمئن القلوب !

فالإمام الحسين ، يتقدم بتسارع نحو الموت ، وحيداً يائساً[2] ـ بنظر الكاتب ـ وإنه مظهر هزيمة آدم وانكساره ، والتزامه غير المثمر[3] .

استنتاج

في هذا الكراس يُلاحظ المرء أنّ كلمة آدم ، أو الإنسان ، ما هي إلّا رمز للإنسان الاشتراكي ، وتوحيد العالم ما هو إلّا تبرير وتفسير ، لتوحيد ووحدة المجتمع .

كما أن الشرك العقيدي أو الاعتقادي ، ما هو إلا ظل من الشرك أو مثنوية الحياة .

وبهذه البيانات ، يتجلىٰ مرة أخرى الطابع الماركسي للكراس ، حيث يتم تفسير وجدان الإنسان على أنه انعكاس ونتاج للوضع الاجتماعي للإنسان ، وهو ما يمكن أن يكون تعبيراً عن وجهة نظر (دوركهايم) وليس (كارل ماركس) .

شيء واحد لا تقع عليه العين في هذا الكرّاس ، هو شخصية الإمام الحسين ، وآثار نهضته .

إنّ أساس فكر هذا الكرّاس مبني على قاعدة أنّ كل الجهود في المجتمع الطبقي ، تبقىٰ دون نتيجة ، وإنّ ثوار التاريخ ، وهم ورثة آدم أي الإنسان الاشتراكي ، وقيامهم هو من أجل الحق ، والحق يعني العدالة والمساواة ، وهذا يعني : الاشتراكية .

إنّ الإمام الحسين في هذا الكراس هو نفسه الإمام الحسين المُدان ، والمظلوم ، من قبل قُرّاء التعزية الحسينية التقليديين ، والذين يرون في الحسين

---

(١) ص٩ .

(٢) ص ٢٣ .

(٣) ص ٤٧ .

رجلاً لا دور له في التاريخ ، مع فارق أنّ الإمام الحسين عند أولئك الوعّاظ ، وقُراء التعزية الحسينية ، قد فرش سُفرته للبكاء عليه ، حتى يحصل البكّاؤون على نصيبهم منها في الآخرة .

بينما الإمام الحسين في هذا الكرّاس ـ بواسطة التعازي ومجالس البكاء ـ وسيلة بيد الجناح الحاكم ، لاستثمار واستغلال الطبقة المحكومة ، والمحرومة .

وفي هذا الكرّاس فإنّ المعبد كان دائماً إلى جانب القصر والدكان ، والروحاني ظل دائماً إلى جانب الحاكم وصاحب رأس المال .

وبالطبع فإن الذي يقع في الحاشية ، أو على الأطراف هو المعبد ـ لاحظ هنا المعبد بشكل عام ، وليس الكنيسة ، أو الدير ، أو الصومعة ، أو محل عبادة الأوثان ـ والذي يشمل بدوره المسجد أيضاً . وبالطبع فإن سياق موقع الروحاني ـ رجل الدين ـ صار واضحاً أيضاً .



القسم السابع
ملاحظات حول الحماسة الحسينية

الحماسة الحسينية

١ ـ من أجل تبيان مفهوم الكلمة أعلاه ، وتوضيح المقصود منها ، وتفسير معناها نعود إلى « نهاية » ابن الأثير (ج١) حيث ورد قوله :

« الحُمْسُ جمعُ الأحمس ، وهُم قُريش ، ومَنْ ولدت قُريش ، وكنانة ، وجديلة قيس .

سُموا حُمْساً ، لأنهم تحمّسوا في دينهم : أي تشدّدوا .

والحماسة : الشجاعة، كانوا يقفون بمُزدلفة ، ولا يقفون بعرفة ، ويقولون : نحن أهل الله ، فلا نخرج من الحرم ، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها ، وهم مُحرِمون » .

وجاء في القاموس :

« حَمِس ـ كفَرِحَ : اشتد وصَلُبَ في الدين ، والقتال ، فهو حَمِسٌ وأحَمَسُ . . . »

وقد اصطلح على بعض الأشعار بـ« الحماسية » . كما تم تأليف بعض الكتب ، وسُميت بالحماسية ، لأنها تضمنت أشعاراً حماسية ،

والمنظومات الشعرية المختلفة عادةً ما يتم تقسيمها إلى منظومات حماسية ، وغنائية ، ورثائية ، ومنظومات المديح ، والوعظ ، والحكمة ، وهكذا سائر الأقسام الأخرى .

والشعر الحماسي هو : ذلك الشعر الذي يثير في النفوس الغيرة ، والشجاعة ، والقوة ، وروح المقاومة ، سواء أكان الشعر نفسه حماسياً ، أو شرح حياة بطل من الأبطال الحماسيين بالذات ، والبشر على العموم يعشقون البطل والبطولة بل ويعبدون البطل أحياناً ويُقدسونه .

وهناك الكثير من أمثلة الشعر الحماسي ، والقصص الحماسية ، التي يمتلىء بها تاريخنا سواء منه الوطني والقومي ، ومنها المعروف بالأساطير والخرافات في التاريخ الإيراني القديم ، أو تلك التي تعود إلى التاريخ الواقعي الإسلامي ، مثل قصة المبارزة بين علي (ع) وعمرو بن ود العامري ، أو قصة جلال الدين الخوارزمشاهي .

وأما الشعر الغنائي ، فيكفي المرور على أشعار حافظ وسعدي ، لنجدها مليئة بأنواع الشعر الغنائي .

وحول الرثاء يمكن الإشارة إلى قصيدة الرثاء التي نظمت بحق السلطان (محمود الغزنوي) في التاريخ الإيراني ، أو القصائد المتعددة والتي نظمت للتعريف بمصائب أهل بيت النبي (ص) .

وأما شعر المديح فالتاريخ القديم والحديث مليء به إلى ماشاء الله من الأمثلة ، وهكذا في الموعظة والتزلُّف إلى الحكام وغير ذلك .

وهذه التقسيمات لا تقتصر على الشعر ، بل هي كذلك تنطبق على النثر أيضاً كقول علي (ع) : « قد استطعموكم القتال . . . »[1] ، كما يمكن الإشارة إلى خطبة طارق بن زياد في هذا المجال ، والقرآن الكريم بدوره أيضاً يحتوي على آيات حماسية : « والعاديات ضبحاً . . . » ، والحوادث والوقائع التاريخية هي

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥١ .

الأخرى يمكن أن تُقسّم إلى حماسية و . . . . . ، وتاريخ الإسلام بشكل عام تاريخ مليء بالحماسة ومثال ذلك قصة أشعار أبي ذر الغفاري في مكة . كما يمكن الإشارة إلى القصص الغنائية ، أو قصص الموعظة ، والحكمة ، في هذا المجال أيضاً ، وهناك بعض الشخصيات التاريخية نفسها يمكن إطلاق صفة الشخصية الحماسية عليها[1] .

والآن دعونا نبحث في الشخصية الحسينية ، وواقعة كربلاء التاريخية ، والشعارات الحسينية .

فالحسين شخصية حماسية فريدة بلا شك ، وواقعة كربلاء واقعة حماسية ، والشعارات الحسينية شعارات حماسية .

٢ ـ خلاصة خطاب للمؤلف الشهيد بعنوان (الحماسة الحسينية)[2] .

قلنا إنه كما المنظومات الشعرية تنقسم إلى حماسية ، أو غنائية ، أو رثائية ، أو منظومات وعظ ، وحكمة ، وغير ذلك ، فإن النثر بدوره أيضاً يمكن تقسيمه بالنحو ذاته ، بل إنّ الوقائع والتواريخ البشرية تراها متعددة الطابع ، وحتىٰ الشخصيات ، وروحية كل واحد منهم ، وكذلك حال الشعارات أيضاً .

ثم قلنا : دعونا نطالع واقعة كربلاء حتىٰ نرى ما هو الطابع العام لهذه الحادثة : هل هو غنائي ، أم رثائي ، أم حماسي ، أم موعظي ، أم ماذا ؟

ثم قلنا : إنّ هذه الواقعة تُبلور صفحتين في التاريخ ، صفحة سوداء ومظلمة ، ومن هذه الزاوية تكون حادثة كربلاء عبارة عن قصة جنائية ، ورثائية ، وهي نوع من التراجيديا الفريدة من نوعها (على الأقل في أرض

---

(١) لقد قرأت مذكرات نشرت عن « سوكارنو » في صحيفة (إطلاعات) ذكر فيها أنه عاشق كبير ، وذكر فيها قصص عشقه التي يفتخر بها . وبالتالي يمكننا القول بأنّ (سوكارنو) شخصية غنائية ، وليس شخصية سياسية

(٢) الخطاب ألقي في حسينية (إرشاد) ليلة ١٣ محرم ١٣٨٨ هـ .ق .

المشرق ، بينما حصل أشنع منها في أرض المغرب ، ومثال ذلك الحروب الصليبية ، وحرب الأندلس) ، وأبطال هذه الرواية الجنائية هم جُناة ومجرمون ، أمثال يزيد بن معاوية ، وابن زياد ، وعمر بن سعد ، وغيرهم .

وأما الصفحة الأخرى ، أو الوجه الآخر فهي رواية حماسية ، وأبطال الرواية من هذه الزاوية يتغيرون ، فهم هذه المرة الحسين (ع) ، وزينب ، والعباس (ع) ، وعلي بن الحسين (ع) والقاسم بن الحسن ، ومسلم بن عقيل ، وزهير بن القين ، وبُرير بن خضير ، وهلال بن نافع ، وحبيب بن مظاهر عليهم السلام .

وإنها من هذه الزاوية معرض ومشهدٌ من مشاهد الجريمة البشرية ، وعلامة من علامات خذلانها ، ومصداق للآية الشريفة : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماءَ** ﴾ .

وأمّا من الناحية الثانية ، فهي مصداق للآية الشريفة : ﴿ **إنّي جاعِلٌ في الأرض خَلِيفةً** ﴾ . وكذلك مصداق : ﴿ **إنّي أعلم مَا لا تَعْلمونَ** ﴾[1] .

وقلنا أيضاً : إننا حتى الآن لم نُطالع إلاّ صفحة واحدة من هذه الرواية ، أي إننا لم نُطالع إلاّ ذلك الجانب الجنائي منها ، وإننا الآن نُريد أن نُطالع الجانب الآخر .

وقلنا إنّ البعض أمثال « محمد مسعود » زعموا بأنّ الطريقة المسيحية في إجلالها لشهادة المسيح ، وفدائيته ، بواسطة احتفالهم بمثل ذلك اليوم ، أفضل من طريقتنا نحن المسلمين الذين نُقيم العزاء في يوم استشهاد الحسين (ع) ، والقول بأنهم يرون في شهادة عيسىٰ نجاحاً ، بينما نرى في شهادة الحسين (ع) انكساراً .

ثم دحضنا هذه النظرة عندما قلنا بأنّ المسيحيين لم يروا في الواقع إلاّ الجانب الفردي والشخصي من عملية الاستشهاد ، بينما وضعناها نحن في المعيار

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

الاجتماعي العام فتصبح خسارةً كبرىٰ عليهم ، ونجاحاً عظيماً لنا .

وإننا نرى فيها انتصاراً كذلك حين النظر إليها من الجانب الشخصي للإمام الحسين (ع) ، ثم إنّ المسيحيين إنما يحتفلون باستشهاد المسيح لأنهم يرون فيه الفادي لذنوبهم ومعاصيهم ! بينما نجد ذلك من غير الممكن قبوله لدىٰ المسلم الواقعي .

وأخيراً كيف نرىٰ في شخصية الحسين (ع) شخصيةً حماسية ، وكيف كانت كلماته وأقواله حماسية أيضاً ، وكيف تكون واقعة كربلاء واقعة حماسية ؟

أولًا : لابد من الإشارة هنا بأنّ هذه الواقعة المليئة بالتحمل ، والصلابة ، والصمود ، والغيرة ، والدفاع عن المثل العُليا ، والتضحية ، والفداء ، والشهادة ، إنما تختلف عن سائر الروايات الحماسية الأخرى . لأنها حماسة مُقدسة ومُطلقة ، مطلقة لأنها لم تأتِ من أجل قوم ، أو شعب ، أو أمة معينة ، بل كانت من أجل الإنسانية ، بل وأسمىٰ من ذلك في سبيل الله ، وهذا يعني أنها جاءت متطابقة مع الأهداف الكلية للخلقة ، أي في سبيل رضا الله سبحانه وتعالىٰ .

وهذا هو المفهوم الحقيقي لرضا الله لأنه سبحانه وتعالى ليس بحاجة ذاتية إلى الرضا أو عدم الرضا .

وهي كما أسلفنا أيضاً مقدسة ، أي إنها لم تحمل في داخلها أي بواعث ، أو دوافع فردية ، وشخصية كالجاه ، أو المصلحة ، أو الرئاسة ، أو هوى النفس لأنها حركة من أجل المقدّسات الكونية ، وفي سبيل التوحيد ، وعلى طريق النضال ، ضد عبادة العباد ، وتحقيق العدل والحرية ، ومن أجل حماية المظلومين والمضطهدين .

وهي لذلك حماسة إلهية وعالمية وإنسانية .

إنّ البطل القومي الذي يعمل من أجل قومه وشعبه فقط ، قد يكون مجرماً كبيراً من قبل الشعوب الأخرى :

فالإسكندر بطل قومي كبير بأعين اليونانيين ، لكنه أحد جُناة التاريخ من وجهة نظر الشعوب المضطهدة .

لكن هـذا لا ينطبق عـلى ذلك الـرمز الـذي يرفـع أهدافـاً ساميـة كالحق ، والحقيقة ، والعدالة ، والحرية ، والله .

بينـما حتىٰ ذلك الـرمز الـذي يرفـع أهدافـاً مثـل اسـترداد الحقـوق المـاديـة المهضـومة ، وإقـامة المسـاواة الاقتصاديـة ، وتكون فلسفتـه وخلفيتـه التي تُحـرّك نضالاته هي المادية ، والفكر الاقتصادي ، بـاعتباره العـامل الأسـاس ، وبالتـالي ستكون المصالح الفردية والشخصية المادية هي المُحرّكة ، وعنـدها لا يمكن اعتبـار حركته حركة مقدّسة .

٣ ـ سبق وأن بيّنـا بأنّ النهضـات المقدّسـة والرجـال العـظام إنمـا يتميـزون بأربعة خصال :

أولاً : العمـومية والإطـلاق . وفي هـذه الخصلة تشـترك بعض الحـركـات الاجتماعية ذات الطابع المادي أيضاً .

ثـانياً : القـدسية . أي أن تكـون الحركـة مُنزّهـة عن الخصـوصيـات ، أو الجوانب الشخصية ، والفردية ، والذاتية ، فرجال مثل الإسكندر ، ونابوليـون ، ونادر شاه ، وشـاه إسماعيـل الصفوي ، وأمثـالهم هم رجال عـظام ولكنهم ليسوا مقدّسين

ثالثاً : أن يكونوا عبـارة عن شعلة وهّاجـة في وسط الظلام ، وحـركة وسط السكـون ، والسكوت المـطلق المميت . ولهذا السبب تـراهم لا يكونـون موضـع قبول عقلاء القوم . . .

رابعاً : البصيرة القويّة والثّاقبة .

٤ ـ وأمـا أقوال الحسـين بن علي (ع) ، فـإنها رمز للغـيرة الإلهية ، ومفتـاح شخصيته الحقيقية يكمن فيها :

أ ـ يسـألونـه عن حـديث سمعَـهُ هـو من النبي فينقـل لهم : « إنّ الله يُحبُ معـالي الأمـور ، ويُبغض سفـاسفهـا . . . » .

ب ـ عن « الأنوار الإلهية » ص ٤٥ . . . عن الحسين (ع) : « إنّ جميع ما طلعت عليه الشمس ، في مشارق الأرض ومغاربها ، بحرها وبرها ، سهلها وجبلها ، عند ولي من أولياء الله ، وأهل المعرفة بحق الله ، كفيء الظلال ، ثم قال : ألا حُر يدعُ هذه اللُماظة لأهلها ! ليس لأنفسكم ثمنٌ إلاّ الجنة فلا تبيعوها بغيرها ، فإنّ من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخسيس . . . » .

ج ـ الناسُ عبيد الدنيا والدين لَعقٌ على ألسنتهم يدورون . . .

د ـ موت في عزٍ ، خيرٌ من حياةٍ في ذُلّ .

هـ ـ وفي خطاب له موّجه إلى أبي ذر الغفاري : « فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فإنّ الصبر من الدين والكرم .

و ـ الصدقُ عزٌ ، والكذب عجزٌ ، والشحُ فقر ، والسخاءُ غنىً .

ز ـ سَبَقْتُ العالمين إلى المعالي . . .

كانت هذه بعض الأقوال المأثورة ، التي سجّلها التاريخ على لسان الحسين (ع) ، قبل واقعة عاشوراء ، وهي ما سمحت به الرقابة ـ رقابة الحكم ، والسلطة ، وأعداء الدين ـ وأمّا أقواله المعروفة في سياق واقعة عاشوراء ، فيمكن الإشارة إليها بشكل رؤوس نقاط على الشكل التالي :

ح ـ سأمضي وما في الموت عارٌ على الفتىٰ . . . .

ط ـ ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به . . . إني لا أرى الموت إلاّ سعادة . . .
وأما في يوم عاشوراء نفسها فكانت أقواله :

ي ـ الموتُ أولى من ركوب العار . . .

ك ـ إن لم يكن لكم دينٌ . . . .

ل ـ ألا وإنّ الدعي ابن الدعيّ . . .

م ـ لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل . . .

* * * *

٥ ـ لقد كانت الحرب في عاشوراء ،حـرب عقيدة وأفكار ، وليست حرب أشخاص .

٦ ـ إنّ حماسة الحق هي في تقديسه :«عـلامة الإيمـان أن تؤثر الصـدق حيث يُضرّك . . . »وبالتالي لا بـد من الامتنـاع عن الحيلة ، والخـداع ، والاستنـاد إلى كرامة النفس .

٧ ـ إنّ ما يبقىٰ ويدوم هو تلك الجاذبية الواقعيـة للنهضة الحسينيـة في قلوب الناس ، وكل ما يُبذل في هذا المجال ناتج عن تلك الجاذبية . . .

« إنّ لقتـل الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبرُد أبداً »[1] .

٨ ـ إنّ المدرسة الحسينية يجب أن تكون مـدرسة إحيـاء الإسلام ، وتجـديد الحيـاة فيه . وبـالتالي لا بـد من حذف شعـارات الحسين المظلوم ، والغـريب ، واليتيم !

٩ ـ لا بـد من التعمق في دراسـة مسـألـة الشهيـد والشهـادة ، وقيمـة دم الشهيد . إذ إنّ كل استشهاد ما هو إلا نورانية جديدة ، تُضاف إلى المجتمع .

١٠ ـ البحث في مفتاح الشخصية .

١١ ـ لم يشـكُ الحسين من الدهر أبداً .

١٢ ـ إنّ إحدى مبادىء التربية ، هي نفخ روح الحماسة في وجود الأفـراد . ولكن المـطلوب طبعاً أن تكـون تلك الحـماسـة ، هي الحـماسـة الإلهيـة ، وليست القـومية ، أو العـرقية ، أي حمـاسة الخـير ، والإحسان ، والتحمس تجـاه العمـل بسنن المجتمع السالمة ، والشهيد بشكل عام ، عامل يُثير الحماسة في المجتمعات . (وإنْ كان ألا فليكن تعصبُكم في محامِد الخصال)[2] .

١٣ ـ إنّ المجتمع الذي يستطيع الاعتماد على ذاته ، هو ذلك المجتمع الذي

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) في نهج البلاغة الخطبة ١٩٠ (القـاصعة) وردت الجملة هكـذا : « فإن كـان لا بد من العصبيـة فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال » .

نُفخت في روح أفراده الحماسة ،والإحساس بالشخصية ، وذلك المجتمع هو ذلك الكيان ، صاحب الفلسفة المستقلة في الحياة ، التي يؤمن بها أفرداه ، ويستندون إليها في نشاطاتهم كافة .

١٤ ـ إنّ لازمة المكر والحيلة ، لدى الإنسان ، والحيوان ، هي الضعف والعجز ، بينما لازمة كرامة النفس ، هي القوة ، والاقتدار .

١٥ ـ ينبغي حذف تلك الشعارات التي توحي بالذل والمسكنة والتي تتباين مع روح المقاومة الحسينية ، والشعارات الأصلية للنهضة ، وبالتالي نتخلىٰ عن القول : يا مظلوم ، ويا غريب ، ويا يتيم !!!

١٦ ـ إنّ الخطبة الحماسية ، والواقعة الحماسية ، والشخصية الحماسية(١) ، إنما تكون حماسية عندما تحرّك روح الغيرة ، والحمية ، والشجاعة ، والكفاح في النفوس ، وتجعل الدماء تغلي في عروق الأبدان من جهة أخرى ، أي أن تبعث الحركة ، والعزم ، والحزم ، والحرارة ، والإصرار ، في بدن الإنسان وروحه ، وبعبارة أخرى أن تمنح حياة جديدة في جسم الإنسان ، أي أن توجد روحية الثورة ، والتمرد ، في النفوس ، وتخلق حسّ المقاومة والدفاع بوجه الظلم ، والاستبداد ، والظالم ، والمُستبد .

١٧ ـ يُعتبر الإمام الحسين (ع) رمزاً فريداً يمكن له أن يلعب دوراً حساساً للغاية في تجديد الحياة الأخلاقية ، والاجتماعية في الإسلام ،وفي سبيل إثارة الأحاسيس الثورية والحماسية ، وإيجاد ، وخلق الشخصية ، والكيان المستقل .

١٨ ـ وإنّ إحدى فوائد وسمات حضور الحماسة الروحية الاجتماعية ، هي إيجاد نوع من الحصانة ، سواء عند الأفراد ، أو لدى المجتمع بشكل عام ، حصانة تمنعنا من الذوبان في الشخصية الأخرى الفردية ، أو المجتمعية ، وذلك بسبب تكوُّن وتبلور الشخصية المستقلة الخاصة بنا .

---

(١) سنوضح فيما بعد كيف أن شخصية الحسين (ع) ، وواقعة الحسين ، كانتا حماسيتين ، أي إنهما نفختا في روح الناس الغيرة ، والحمية ، والرجولة ، والحرية ، والتحرر ، فيما طردتا في الوقت نفسه العبودية ، والخوف ، منهم ، واشعلت الحماس في دماء أفراد الأمة .

١٩ ـ إنّ أيّ شيء ينهار ، أو ينهدم ، في أمة من الأمم ، يمكن التعويض عنه ، أو إصلاحه ، ما عدا شعلة الحماس الوطني ، وروح المقاومة الوطنية ، لأنّ محوها وانهيارها يعني انهيار الأمة . والإمام الحسين (ع) أوقد شعلة الحماس الإسلامي ، وأحيا روح الإسلام في الأمة من جديد .

يقولون إنّ الإمام الحسين قد أحيا الإسلام ، وجدّد الحياة فيه ، وسقى شجرة الإسلام بدمه . وهذا صحيح ، ولكن كيف وبأية طريقة ؟

نقول : بواسطة إحياء حماسة الإسلام ، بواسطة منح النفوس شخصيتها ، وحريتها ، وغيرتها ، ومُثلها كما في جعل الدماء تغلي في العروق ، وتحريك الأرواح ، وبث النشاط والعزم ، فيها لتنهض ، وتقاتل الكفر ، والظلم ، والاستبداد .

٢٠ ـ إنّ دعوة الإسلام قد بدأت بنداء « قولوا لا إله إلّا الله تُفلحوا » . ودعوة الإسلام كان لها حُسن طالع عجيب حقاً .

فهذه العبارة ورغم قصرها ، لكنها بسبب شمولها واحتوائها لمعاني حرية الإنسان ، وتحرره من أي معبود سوى الخالق ، وتحقير أي معبود مقابل الإنسان ، فإنها في الواقع قد أشعلت روح الحماس في الناس ، ومنحت حبّ الشخصية والاستقلال للإنسان :

فإنّ الإنسان لن يركع بعد اليوم لصنم ، ولا لبشر ، ولا لجرم سماوي ، ولا لأي كائن من الكائنات كلها أبداً ، إلّا لرب العباد ، وخالق الكائنات جميعاً .

بالتأكيد استطاع الإسلام أن يهب العرب شخصية كيانية سامية للغاية ، لا تنحصر في شخصيتهم القومية والعربية ، بل أرفع وأسمىٰ من ذلك بكثير إنها الشخصية التوحيدية والإنسانية .

فهو قد حجّم كل شيء في الكون من منظار العبادة والطاعة بينما رفع الله الواحد القهّار وجعله المثل الأعلى .

٢١ ـ لا بد من دراسة الفرق بين صاحب الشخصية ، وصاحب العلم .

٢٢ ـ لا بأس من البحث في مسألة المروءة ، فهي من شروط العدالة .

٢٣ ـ لا بد من استذكار البحوث والنقاشات، حول استقلال الشخصية الوطنية لشعوب المنطقة ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة في هذا المجال ، في بحوثنا الماضية ، منها قضية زواج المرأة البيضاء من الرجل الأسود في إنجلترا ، والضجة التي أثيرت حول هذه القضية ، ثم قضايا أخرىٰ متعددة كقضية تغيير الخط الإيراني إلى الخط اللاتيني ، وتقليد الغرب في عاداته وتقاليده ، وضياع الهوية الإيرانية ، والاغتراب الثقافي ، والروحي ، والاجتماعي ، لشباب العصر الراهن ، مقابل هجمة الاستعمار الثقافي الغربي .

٢٤ ـ إنّ الاستقلال الفكري يعني حيازة أمتنا ، وامتلاكها لمبادىء وأصول ثابتة ، وفلسفة مستقلة في الحياة ، ينبغي احترامها من قبل أفراد الأمة كافة والاعتماد عليها في نهضة البلاد وتقدمها .

وفوق ذلك خلق نوع من العصبية والحماس ، وهو ما يمكن وصفه بالغرور الوطني والاجتماعي تجاهها .

وهذا يتطلب منّا أن نكون مستقلين في اختيار نوع اللباس ، ونوع الطعام ، ونوع العُرف الاجتماعي الخاص بنا ، ولا نقع ضحية التقليد والتبعية للآخرين ، في الاسم ، والخط ، والطعام ، والملبس . . . الخ لأنّ قبولنا شعارات الأجانب ، وبرامجهم ، يعني تخلينا عن روح الحماسة والاستقلال الروحي ، والمعنوي .

وكما يقول (إقبال اللاهوري) : لا بد أن نكون حديداً أو كالحديد حتى نحصل على الخبز . في حين أنّ فلسفة الغرب تستند إلى قول (موسوليني) الذي يقول : لا بد أن نحصل على الحديد حتىٰ نحصل على الخبز .

إذن (إقبال) يدعونا إلى الحماسة ، والصلابة ، بينما يدعونا (موسوليني) إلى امتلاك القوة .

٢٥ ـ إنّ امتلاك الحماسة ، والاستقلال الفكري أمرٌ لا يتناقض مع فكرة

اقتباس الأمور الجيدة ، من علوم ، وفنون ، وصناعة ، من الغير ، شرط أن نستوعب كل تلك الأمور ، ونذوّبها في شخصيتنا ، لا أن نذوب نحن في شخصية من نقتبس منهم .

٢٦ ـ عيبنا نحن الإيرانيين أننا نستسلم بسرعة لشعارات الأجانب الواهية . ففي الوقت الذي لا نحمل فيه أيّ تعصب تجاه حقائق الدنيا ، لكننا نستسلم بسرعة لشعارات الأجانب الواهية .

فالهنود مثلاً ترىٰ عالمهم الذي يُعدّ من الطراز الأول ، يظلُ متمسكاً بزيه ، ولباسه الهندي (راجع تاريخ العلوم لبيير روسو) .

و« نهرو » ، وهو رجل السياسة الهندية ، تراه ظل محافظاً على لبس الهندام الهندي ، ليقول للعالم بأنه هندي ، وسيظل هندياً ، ولن يقبل بذوبان الهندي في هاضمة العالم الأوروبي .

لكننا في المقابل بمجرّد أن رأينا الفرنجة ، قد ربطت على بطونها الزّنار ، ترانا ربطنا أبداننا بزنارين ، بدلاً من الواحد .

وهذا يعني بعبارة أخرى أن لدينا استعداداً كاملاً للاستعمار الفكري .

والاستعمار الفكري أعلى درجات الاستعمار ، لأنّ الشخص في هذا الاستعمار لا يحس بأنّه مُستعمر من حيث إنّه صار يُفكر مثل العدو ، ويحسُّ إحساسه .

لدينا درجة واحدة فوق الاستعمار الفكري ، وهي الاستسباع الفكري أي عندما يصبح الفرد لاهثاً وراء الحيوان السبع الذي يُريد أن ينهشه .

٢٧ ـ إنّ قيمة الاستقلال الفكري ، والاعتماد على الفلسفة الخاصة في الحياة ، واحترام السنن والأعراف ، والنظم الذاتية أثمن وأغلىٰ من العلم .

فالأمة العالمة يمكن أن تذوب في أمة أُخرى ، لكن الأُمة التي تملك الإرادة المستقلة ، وحس الشخصية ، والكيانية الخاصة ، والاستقلال الذاتي ، لا يمكن أن تذوب في الأمم الأخرى .

وعندما نرى الجزائريين ، والفيتكونغ ، يحاربون الاستعمار الفرنسي والأمريكي ، فإنهم لا يحاربونه لأنهم أمم عالمة ، بل لكونهم يملكون حماسة روحية عالية ، متأصلة في أعماقهم .

٢٨ ـ استناداً إلى آراء (إقبال اللاهوري) فإنّ هناك عدة عوامل مؤثرة تُميّز الأمم ذات الشخصية الوطنية عن الأمم الفاقدة لتلك الشخصية .

والعوامل التي تقوي تلك الشخصية هي :

أ ـ **العشق والمُثل** (طبعاً المقصود هنا عشق المبادىء الإنسانية السامية ، وليس العشق الفردي ، والعرقي) .

ب ـ الفَقْر (بمعنى الاستغناء) « استغنِ عمّن شئت تكُن أميره . . . » .

ج ـ الغيـــرة .

د ـ التحمل والمثابرة والصمود .

هـ ـ الكسب الحلال .

و ـ الاشتراك في النشاطات الخلّاقة .

وأمّا العوامل التي تضعف الشخصية فهي :

أ ـ الخوف .

ب ـ التسوُّل والاستجداء (الطفيلية بأي شكل كانت) فأي توفيق ونجاح ، يحصل دون جهد ، وسعي ، سيكون بالتالي قد تأتىٰ بواسطة نوع من الاستجداء ، والشحاذة .

ج ـ العبودية والذل بأي شكل أو صورة ، سواء أكان اجتماعياً ، أو سياسياً ، أو اقتصادياً ، أو أخلاقياً .

د ـ الغرور العرقي أو التفاخر بالأنساب والأعراق ، الأمر الذي يوجد الفواصل ، والثغرات ، بين أفراد البشر وبالتالي يُفقد الإنسان قيمته الذاتية .

٢٩ ـ هناك قول لإقبال بهذا الخصوص لا بأس من استذكاره هنا ومضمونه : « إنّ أي مجتمع يسعىٰ لتحقيق الاستقرار والسعادة لنفسه ، لا بد له من تنمية الذاتية الجماعية ، والاجتماعية ، بين صفوفه ، والمُضيّ بذلك حتىٰ درجة الكمال ، وهذا لا يحصل إلّا في ظل الحفاظ على العادات والتقاليد وصيانتها » .

وإذا أردنا ملاحظة أهمية الدور الذي لعبته العادات ، والتقاليد ، والأعراف في حياة الجماعات البشرية ، فلا بد لنا من العودة إلى دراسة التاريخ اليهودي .

إنّ هذه الجماعة الصغيرة قد عاشت طوال القرون ، والعصور الماضية في بلدان العالم كافة وهي تعاني من الضغط والاضطهاد ، من قبل الآخرين ، وقد مرّت بمراحل كادت أن تقضي على أساس وجودها .

لكن هذه الجماعة من قوم يهود استطاعت رغم ذلك أن تخرج سالمة من كل تلك الأعاصير ، وتحافظ على نفسها ، والسبب في ذلك يعود في الواقع إلى أنّ هؤلاء القوم كانوا أوفياء إلى عاداتهم ، وأعرافهم ، وتقاليدهم ، طوال تلك الأيام العصيبة والمحزنة التي مرّوا بها .

إنّ كل فرقة وجماعة من البشر لا بد وأن تكوّن لنفسها في مراحل نجاحها وصعودها ، نوعاً من التقاليد والأعراف السليمة ، وإنّ طريق خلاصها ، وخروجها من مرحلة تكالب الظروف العصيبة ، إنّما يتمثل في الحقيقة ، في الاستمساك بتلك التقاليد والأعراف ، بانتظار ساعة الأنفراج .

إنّ تعظيم الشعائر الدينية ، والوطنية ، شرط من شروط الحفاظ على الشخصية الوطنية .

وأنّ شعار « حتمية التحوّل جسماً ، وروحاً ظاهراً ، وباطناً نحو الغرب » والذي يبدو أنّ البعض يرفعه ـ ما هو سوى فتوى بفناء الأمة ، واضمحلالها ، وذوبانها في هاضمة الأجنبي .

إنّ هدف الاستعمار هو محو الشخصية والاستقلال الروحي والفكري

لأمتنا ، وليس تركنا جُهلاء ، أو دون أبنية عالية ، أو كهرباء ، أو غير ذلك من وسائل التكنولوجيا .

إنّ الخسارة الكبرىٰ التي تلحق بالأمم ، هي خسارة الشخصية ، ويا أسفاً على أُمةٍ تكون من مفاخرها أن تتكلم بلغة الأجانب ، وتتأدّب بآداب الأجانب . .

٣٠ ـ هناك قول مشهور للألمان بعد الحرب الثانية وهو القول بأنهم قد خسروا كل شيء في هذه الحرب عدا شخصيتهم .

الخلاصة

لقد قلنا إنّ الإمام الحسين (ع) استطاع بنهوضه وكفاحه ، أن يُحطّم قصور الظلم ، ويُجدّد الحياة في الإسلام ، ويسقي شجرة الدين ، ولكن بأي نحو ؟

من خلال استنهاضه للشخصية المعنوية للمسلمين ، وإحيائه لها ، وبث روح الحماسة في أجسامهم الميتة .

ثم عرجنا في البحث على موضوع الشخصية والفلسفة المستقلة ، لحياة كل أُمة ، وضرورة تعظيم الشعائر الوطنية والدينية ، والتي هي ثروة كبيرة لا تُقدّر بثمن ، وكونها أغلىٰ من العلم .

ثم قلنا إنّ النبي (ص) قد منح العرب كياناً وشخصيةً[1] عالية . كيف ؟

من خلال الدعوة إلى الإيمان بمبادىء الإسلام التي تصنع الشخصية .

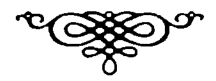
إنّ خسران الشخصية أعلى مراتب الخسران ، وما الخوف ، والعجز ، والعبودية ، والتملق ، والنفاق ، والذل ، والهوان ، وغير ذلك من صفات الوهن ، والانحطاط ، إلا المولود الطبيعي ، لفقدان الشخصية ، وخسرانها .

---

(١) إن ميزة الشخصية تتمثل في عدم ذوبان صاحبها في الآخرين ، وكل نقص قابل للإصلاح والتعويض ، عدا فقدان الشخصية .

إنّ حركة الإمام الحسين (ع) خلقت الحماسة والغيرة في أمّة الإسلام ، وأوجدت الحمية ، والشجاعة ، وروح الكفاح ، في نفوس أفرادها ، وجعلت الدم يغلي في العروق ، ولم تكن شهادة الإمام يوماً سبباً في إيجاد الرعب والوحشة في قلوب الناس ، بل على العكس من ذلك .

والحماسة الحسينية هي صاحبة الفضل في تقوية عوامل ترسيخ الشخصية عند الأمة ، مثل الاستغناء ، والتحمل ، والصبر ، والصمود ، والغيرة ، كما هي صاحبة الفضل في إضعاف عوامل اضمحلال الشخصية ، مثل الخوف ، والرعب ، والعبودية ، والذل ، والاستجداء ، والطفيلية ، والغرور العرقي ، والقومي .



حماسة « سيد الشهداء »

١ ـ في ورقة البحث « كرامة النفس ، محور الأخلاق الإسلامية » قلنا إنّه يوجد مصطلح في عصرنا الراهن يقول : بأنّ البعض يفتقر إلى روح الحماس ، بينما البعض الآخر يملك تلك الروح الحماسية .

وقلنا إنّ الحماسة عبارة عن نوع من الإحساس بالشخصية مقابل الآخرين .

هناك أشخاص في هذه الدنيا يفتقرون إلى روح الحماسة تماماً ، وتراهم يحسّون بالحقارة ، والتبعية ، والانكسار ، ولا يحملون في أعماقهم أي فكر ، أو عقيدة ، تستحق الدفاع .

وإذا ما فكّروا بالدفاع عن شيء فإنهم يُدافعون عن أموالهم وأنفسهم لا غير ، وكل شيء آخر غير ذلك سواء أكان وطناً ، أو قومية ، أو لغةً ، أو ديناً ، أو مبدأً معيّناً ، أو حرية ، أو كرامةً ذاتية ، لا يعتبرونه يستأهل الدفاع ، أو حتى التعلُّق والارتباط به .

ولا يمكنك أنْ تجد في مثل هؤلاء الأشخاص أيّ تبلور للشخصية ، فهم أشبه ما يكونون ، بالحيوان الذي تعلّم النطق .

ولكن في مقابل أولئك ترى البعض الآخر ممن يملك إحساساً بالشخصية في نفسه ، وترى نوعاً من الحماس في روحه .

فمثلاً كانت الأمة الألمانية تحمل حماسة « الألمان فوق الجميع » ، وكذلك كان حال العرب حيث كانوا يحملون حماسة تفوُّق العرب على غير العرب ، وهي الفكرة التي حاربها الإسلام .

وبشكل أو بآخر هناك نوع من الحماسة لدى كل قوم ، أو ملة .

بالطبع من وجهة نظر الإسلام ، فإنّ الحماسة القومية هي حماسة مذمومة ، لكن هناك نوع آخر من الحماسة ، هو الحماسة الإنسانية ، وإذا ما تعصب لها الإنسان ، فإنّ التعصب هنا يكون تعصباً ممدوحاً ، وهذه الحماسة هي حس الكرامة ، والتحرر ، وعزة النفس ، وعدم الرضوخ للعار ، ورفضه .

٢ ـ هل هناك آيات قرآنية تشير إلى الحماسة ؟

نعم فهناك الآية : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] والآية الكريمة : ﴿ولن يَجْعَلَ الله لِلكَافِرينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[٢] .

إنّ الحماسة بشكل عام ، نوع من التوجه نحو الكيفية المعنوية للحياة ، لكن بعض هذه الكيفيات ، كيفيات موهومة ، وفاقدة للأساس المنطقي ، مثل القول « بأنّ الألمان إمّا أن يُعدموا من الوجود ، أو يسودوا على العالم » .

وكذلك حال سائر الشعارات الحماسية المُعبّرة عن الأفضلية العرقية ، أو حُب السيادة والسيطرة ، غير أن ذلك لا يمنع من وجود كيفيات واقعية تدعو إلى عدم خضوع مصائر الأفراد والجماعات إلى الآخرين ، بل أن يصبح الفرد الإنساني حُراً كما خلقهُ الله : « وَلاَ تَكُنْ عبد غيرك وقد خلقك الله حراً »[٣] . وأن لا يُلوّث الإنسان نفسه بالكذب ، والغيبة ، وخيانة الآخرين .

---

(١) سورة المنافقون : الآية ٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٣) نهج البلاغة الرسالة٣١. من رسالة الإمام علي (ع) إلى ابنه الحسن .

٣ ـ وقد ورد في « نفس المهموم » (ص ١٨٧) بيت شعر يُنسب إلى الإمام الحسين سيد الشهداء (ع) جاء فيه :

وإنْ تَكُنْ الدُّنيا تُعدُّ نفيسةً ... فدارُ ثوابِ الله أعلىٰ وأنبلُ



القسم الثامن
ملاحظات حول عامل التبليغ في النهضة الحسينية

عامل التبليغ في النهضة الحسينية

١ ـ إنّ النهضة الحسينية نهضة متشابهة[1]، وذات وجوه عميقة ، ولها عدة جوانب وأبعاد ، وإنّ أحد وجوهها وأبعادها هو عنصر التبليغ .

فهي امتناع وتمرد وعصيان ورفض (من ناحية رفض المبايعة ليزيد) ، وهي جهاد ، وهي أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، وهي إتمام للحجة (من ناحية الدعوة الكوفية) ، وهي تبليغ أي إبلاغ نداء الإسلام ، ورسالته إلى العالم والعالمين .

٢ ـ توجد مشاكل في طريق إيصال رسالة الإسلام في العصر الحديث حيث آلاف الرسائل والدعوات الموجّهة من آلاف المراكز والنواحي ـ الجنسية ، والشهوانية ، والاقتصادية ، إلى المراكز الفكرية والسياسية ـ والمُحيطة بالناس من كل جانب .

---

(١) قلنا « متشابهة » استناداً إلى ما حققه السيد الطباطبائي ، والمتعلق بشكل أساسي بمعاني الطول ، والبطون ، كالقول بأنّ القرآن عبارات، وإشارات، ولطائف، وحقائق، العبارات للعوام والإشارات للخواص واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء . وبعبارة أخرى يمكن القول بأنّ النهضة الحسينية في الواقع نهضة عامة شاملة ـ جامعة ـ وكما هي الكلمات بعضها جامع ، وبعضها غير جامع ، كما قال الرسول الكريم (ص) « أوتيتُ جوامع الكلم » فإنّ النهضات أيضاً ، والحركات ، بعضها له عدة معانٍ ، وبعضها الآخر ذو معنىً واحد .

٣ ـ إنّ الحرب الدعائية اليوم بحاجة إلى تنسيق للقوى ، ومهارة عالية ، وتكتيك ، ومجابهة منظمة ، وقيادة ، وانضباط .

٤ ـ ولأن الدعاية اليوم تأخذ طابع الحرب فإنّ مبدأ ﴿ **وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوةٍ وَمِنْ رِبَاط الخيل** ﴾ ينبغي أن يكون هو الحاكم .

لكن من الطبيعي أن يكون التبليغ بين الناس بشكل مُحبّب وجذاب ، بينما العمل في صفوف الأعداء ، وفي مواجهة الدعاية المضادة ، هو الذي يأخذ طابع الحرب .

٥ ـ هناك أربعة شروط لنجاح أية رسالة :

أ ـ غنىً واقتدار مضمون الرسالة (الغنى المنطقي ، والعاطفي ، والعملي) وبعبارة أخرى احتواء الرسالة على قوة الجذب الكافية للعقل ، وللقلب ، وقدرتها على حل المشاكل ، والقضايا المستعصية في الحياة .

وهنا بالذات ينبغي العثور على السر الأساسي وراء تقدم الإسلام بالرغم من عدم امتلاكه لجهازالدعاية والتبليغ مقابل المسيحية ، والأقليات المذهبية ، مثل اليهودية ، وفرقة البهائيين الجوفاء .

ب ـ حيازة الإمكانات اللازمة ، من وسائل ، وأدوات ، ووسائط الدعاية الحضارية ، مع الأخذ بعين الاعتبار ، الشروط ، والظروف الاجتماعية المحيطة ، دون تردد .

ج ـ استخدام منهج التبليغ مقابل منهج التحقيق ، ومنهج التعليم (تعليم المسائل والقضايا العلمية ، بينما التبليغ يقتصر على الأهداف الاجتماعية ، والمعنوية) والتعلّم ، واستغلال الأدمغة المُفكّرة ، والذكية ، بالإضافة إلى امتلاك مواهب الإدارة ، وعلم المكتبات ، والأرشفة ، وغيره .

د ـ توفر الصلاحية الفنية ، والأخلاقية ، لحامل الرسالة .

٦ ـ إنّ العامل الأساسي في نجاح التبليغ في القضية الحسينية ، هو في عدم اعتبار عامل امتناع الحسين عن المبايعة ليزيد ، باعتباره العامل الوحيد ، بل

ينبغي دمج هذا العامل مع العاملين الآخرين ، وهما : إجابته عليه السلام للدعوة الكوفية بهدف السعي لامتلاك زمام الأمور ، ومن ثم عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وبالطبع فإن فترة ما بعد سقوط الكوفة ينبغي التركيز ، عند الإشارة إليها ، على عامل الأمر بالمعروف أثناء التبليغ .

إنّ قرار خروج الإمام من المدينة نحو مكة ، والإقامة في الحرم الإلهي في أشهر شعبان ، ورمضان ، حتى ذي الحجة ، والتي تقع فيها أيام العمرة ، وثم الحج ، لا يبدو أنه جاء نتيجة تصوّر الإمام بحصول الأمن، واحترام العدو لهذا الأمن الإلهي ، بقدر ما يكون السبب في عوامل أخرى هي :

أولاً : اعتبار نفس عملية الهجرة ذات قيمة تبليغية عالية ، تهز النفوس ، مما شكّل منها فرصة سانحة لإيصال نداء الإمام ورسالته ، وهذا أول عرض ، وإبراز ، لمخالفة الإمام ، وامتناعه عن البيعة .

وثانياً : كانت مكة في تلك الأشهر ، تُشكّل مجالاً واسعاً للاتصال ، واللقاء ، بأكبر عدد من الأفراد والجماعات ، من نواحي البلاد الإسلامية المختلفة .

وثالثاً : **إن اختيار مكّة نفسه ، كان يعني فقدان الأمن بالنسبة للإمام** ، وبالتالي سيوحي بعدم وجود الأمن له حتىٰ في مكة نفسها .

٧ ـ ثمّ إنّ خروج الإمام من مكة في يوم التروية أي في الثامن من ذي الحجة ، وهو اليوم الذي ينطلق فيه الحجاج نحو منىٰ وعرفات ، كان له أثر تبليغي هام وعنيف ، أقوى حتى من الإقامة في مكة .

ثم إنّ إدارة ظهر الإمام للكعبة المُسخّرة ، بيد الأمويين ، والحج الذي تُديره الأجهزة اليزيدية ـ وهو الحج الإسلامي ظاهراً ، والجاهلي روحاً ـ أثبتت كعملية تبليغية رائعة ، بأنّ الإسلام الحقيقي ، هو ليس ذلك الإسلام المعروض آنذاك ، إسلام الجمود ، والاعتكاف ، والركود ، بل هو ذلك الإسلام المعنىٰ والحقيقة ، والذي قد أصبح في خطر ، ولا بد من القيام أجله .

٨ ـ العرض التبليغي الثالث الذي قدّمه الإمام (ع) ، بل قل التكتيك التبليغي ، هو حمله لأهله ، وعياله ، وأولاده ، في القافلة الحسينية ، وبهذه الطريقة يكون قد استخدم العدو استخداماً غير مباشر ، من خلال فرض هؤلاء الناس ، كحربة تبليغية ، ورُسُل دعايةٍ للإسلام الحسيني ، ضد يزيد والإسلام اليزيدي ، وهذا العمل واحد من أهم العناصر التبليغية في حركة الإمام (ع) .

٩ ـ التكتيك التبليغي الرابع للإمام كان في تعامله بكل مروءة ، وإنسانية ، وروح مترفعة ، طوال مدة المواجهة بين الجيشين ـ وذلك من لحظة المواجهة الأولى إلى يوم العاشر من محرّم ـ وخير مثال على ذلك سقي جيش العدو بالماء ، وعدم الشروع بالحرب ضدهم .

١٠ ـ التكتيك الخامس للإمام ، كان في خلقه وإيجاده لمشاهد أكثر مساعدةً ، لإيصال رسالته التبليغية ، وذلك من خلال صبغ المشاهد الحساسة للمعركة بلون الدم القاني ، كرميه دم الرضيع نحو السماء ، وقوله عليه السلام : « عند الله احتسبه » . ومن ثم تخضيب وجهه ورأسه بذلك الدم ، وقوله بأنّه يُريد لقاء الله بتلك الحالة .

وإلى جانب ذلك يمكن ذكر مشاهد عناق الإمام للقاسم ، ولحبيب بن مظاهر ، وكيفية تشابه هذه الحركة التبليغية بالآثار المترتبة على الإيقاعات الفنية ، للآيات القرآنية .

١١ ـ إنّ ما يُلهمنا في مسيرة النهضة اليوم ، ليست أقلام أولئك الذين شرحوا تعاليم الإسلام على الورق ، بل هي أقلام أولئك الذين كتبوا لنا بواسطة دمائهم الخطوط البارزة للإسلام على جباههم ، وأبدانهم ، ورؤوسهم (وقُتل في محرابه لشدة عدله) ، وسجّلوا لنا تلك التعاليم على كل شعرة من بدنهم المقدس ، وفوق صدورهم ، وقلوبهم ، وعلى جباههم المتكسرة ، وأسنانهم المتناثرة ، وعروق رقبتهم النازفة .

وكم هو خطأ كبير أن نقوم بالتقليل من أهمية ، وقيمة الشهيد والشهادة ، من خلال الاستناد إلى عبارة « مِدادُ العُلماء أفضل من دماء الشهداء » .

نعم ، فالتاريخ المُلهم لنا اليوم ، ليس تاريخ تلك الأقلام ، إنه تاريخ تلك التضحيات العظيمة ، وتلك الدماء المُراقة ، والوقائع والآثار التاريخية النورانية .

فرسالة الإسلام لم يسمعها العالم إلّا من خلال مسيرات الجهاد ، والهجرة ، والتضحية ، والفداء ، والعطاء .

١٢ ـ الظاهر أنّ أبا عبد الله (ع) ، كان قد تعمّد إبراز دموية المشهد الحسيني ، وصبغه باللون الأحمر القاني ـ وكما يقول المرحوم آيتي ـ فإنّه بسبب كون اللون الأحمر ، اللون الأكثر ثباتاً من سائر الألوان ، أو على الأقل الأكثر رونقاً .

لذلك ترى أنّ نوعاً من التلوين المتعمد للمشهد الحسيني قد حصل يوم عاشوراء . وإلّا كيف نُفسر ارتفاع حرارة الخطابات الحسينية ، بعد فقدان أي أمل بالانتصار تماماً ، وتطوُّر الأمور نحو المواجهة المُحتمة ؟

أو كيف نُفسّر عدم السماح لأهله بالعودة من حيث أتوا بل تشويقهم إلى الشهادة ؟

أو كيف نفسّر استنصار الإمام لجيشه ، وطلب مزيدٍ من المتطوعين للشهادة ، من خلال قبوله لنزول الحُر إلى الميدان ، وإرساله لحبيب بن مظاهر إلى بني أسد ، بهدف تعزيز القوات الحسينية ؟

١٣ ـ قيام الإمام ببعض الحركات العجيبة المؤدية إلى صبغ الأحداث بالدم مثل :

أ ـ في (إبصار العين الصفحة ١٥) : وبعد استغاثة النساء ، وبُكائهم ، وتوجهه إليهم لإسكاتهم : « وأخذ طفلاً له من يد أُخته زينب ، فرماهُ حرملة ، أو عُقبة بسهم ، فوقع في نحره (نحر الطفل) فتلقىٰ الدم بكفّه ، ورمىٰ به نحو السماء ، وقال : هوّن عليّ ما نزل بي ، أنّه بعين الله » .

ب ـ ص ١٥ : « ثُمّ جرّد سيفه ، فجعل ينقُفُ الهام ، ويُوطىء الأجسام ؛ ورماه رجلٌ من بني دارم بسهمٍ ، فأثبته في حنكه الشريف ،

فانتزعه ، وبسط يديه تحت حنكه ، فلمّا امتلأتا دماً ، رمىٰ به نحو السماء ، وقال : « اللهم إني أشكو إليك ، ما يُفعل بابن بنت نبيّك ! » .

ج ـ ص ١٦ : « وجَعَل ينوءُ برقبته (بِركبته) ، ويكبو ، فطعنه سنانُ في ترقوته ، ثم انتزع السنان ، فطعنه في بواني صدره ، ورماه سِنان[1] ، أيضاً بسهمٍ ، فوقع في نحره ، فجلس قاعداً ونزع السهم ، وقرن كفّيه جميعاً حتىٰ امتلأتا من دمائه ، فخضّب بها رأسه ولحيته ، وهو يقول : هكذا ألقىٰ الله مُخضّباً بدمي ، مغصوباً على حقي ! » .

١٤ ـ لقد قلنا إنّه كما القرآن الكريم ليس بالشعر ، لكنه يحتمل الإيقاعات الموسيقية ، وبألحان مختلفة ، وذلك بشكل يتناسب فيه كل لحن مع آية من الآيات ، ومع معاني تلك الآيات ـ وهو ما بيّنه طه حسين في « مرآة الإسلام » ـ فإنّ واقعة كربلاء هي الأخرى ، تحتمل الإيقاعات المسرحية ، أي إنها تحملُ في داخلها استعداداً للتحوُّل إلى مسرحية ، فهي وبالرغم من كونها واقعة طبيعية وواقعية ـ حقيقية ـ لكنها بتسلسل وقائعها على الطبيعة ، تُعطي الانطباع ، وكأنها إنما أُعدّت لتُمثّل بشكل مسرحية .

أما الآن فإننا نضيف القول بأنّ هذا الانطباع المتكون عن حادثة كربلاء إنما سببه في الواقع ناتج عن شيء آخر ، وهو أنه كما يبدو ، فإنّ المطروح في حادثة كربلاء هو إظهار الإسلام وإبرازه بأبعاده وجوانبه كافّة .

وبعبارة أخرى فإن المقصود هو تجسيم الإسلام وبلورته عملاً وواقعاً ، أي تطبيقه على أرض الواقع ـ وليس ظاهرياً ومن أجل العرض المسرحي ـ .

نعم فمسألة تجسيم الفكر وتجسيده تُعبّر أحياناً عن محض دورٍ ، يُلعب في هذا الاتجاه ، وشكل وصورة يتم عرضها ليس أكثر ، أي تجسيد من دون روح وذلك باستخدام الخيال أداةً للتجسيد ؛ ومثال ذلك ما ينقله لنا السيد راشد من خلال رؤيته لأحد التعابير في أحد المتاحف الغربية المتمثّل بعرض تمثالين متجاورين ، أحدهما لفتاة جميلة فوق العادة وهي نائمة على السرير ، وإلى جانبها

---

(١) لا يستبعد أن يكون « سنان » هنا قد ورد خطأ وأن المقصود هو « دارمي » .

شاب يبدو وكأنه قد نزل لتـوّه من على السريـر ، وقد ألقىٰ بنفسـه بعيداً عن تلك الفتاة ، وهو بحالةٍ نفور منها .

ويبدو أنّ المراد عـرضه من خـلال التمثالـين هو : فكـر أفلاطـون ، الذي يقول بتحوُّل العشق ، أيِّ عشق ، إلى اشمئزاز وتنفُّر ، بعد حصول الوصال بـين العاشق والمعشوق .

نعم مثل هذا التجسيـد للفكرة يُقـال له تجسيـد من دون روح ، أي تجسيد ميِّت وجامد .

بينـما التجسيد الحـاصل في الإسـلام ، للأفكـار والمبادىء ، إنّمـا هو ذلـك التجسيد الحي والواقعي .

وما حادثة كربلاء إلاّ تجسيد للإسلام بكل أبعاده وجوانبه كافة لكنـه تجسيد مفعمٌ بالحيوية ، والروحية المتعالية .

إنّ واقعـة الإمـام الحسـين (ع) ، يبـدو أنها جـاءت لتُعـبّر عن عـرضٍ مسرحي ، حماسي ، ونهضوي ، ومأساوي ، ووعـظي ، وتبلور للعشق الإلهي ، والمسـاواة الإسلاميـة ، والعواطف الإنسـانية ، وكـل ذلـك في أعـلى أوج ممكن ، وبواسطة مختلف صور الأبطال : الشيخ والشاب ، المرأة والرجل ، الحُر والعبد ، الراشد والطفل الرضيع ، مع تصوير لكل أبعاد الإسلام .

فهي واقعة أرادت التعبير عن التوحيد ، كما عن العرفـان والعشق الإلهي ، والتسليم والرضا ، والتضحيـة في سبيل الله ، أمـلاً بنيل الحق ، في نفس الـوقت الـذي حملت فيه جـانب الاعـتراض والتمـرد العنيف ، ومسـانـدة المحـرومـين ، بـالإضافـة إلى التعبير عن حمـاسة أخـلاقية ، وإنسـانية ، وشجـاعة ، وحكمـة ، ووعظ ، ومسـاواة إسـلاميـة ، وتجلٍ رفيـع وسـامٍ ، للعـواطف الأخـلاقيـة والإسلامية .

فمثـلاً يمكن رؤية الإيثـار في قصـة تضحيـات أبي الفضـل العبـاس (ع) ، واندفاعه المنقطع النظير في الفداء ، والعطاء ، وهكذا سائر الأمثلة الكثيرة .

وهذا هو المعنى المقصود من شمولية النهضة الحسينية وجامعيتها .

فهي نهضة جامعة وشاملة لتعاليم الإسلام الأساسية كافة من ناحية الأهداف ، والغايات المرفوعة .

وهي ثانياً جامعة وشاملة لكل الأدوار الممكنة من ناحية أبطال الواقعة وروّادها .

بالطبع هناك الكثير من الشعراء والكتاب ، أو المُفكرين الإسلاميين الذين قاموا بعرض جوانب مختلفة للنهضة الحسينية ، ونحن بدورنا لا يجوز أن ننفي الجوانب التي ركّز عليها البعض أحياناً ، كالجانب المأساوي والحزين ، أو عرضهم لجانب المظلومية في الحركة الحسينية ، لكننا نقول إنّ كل ذلك صحيح شرط أن يُنظر إليه في سياق الشمولية والجامعية ، التي تطبع حركة النهضة الحسينية ككل ، مما يجعلها حركة توحيدية كاملة ، جامعة لكل الدرجات والمراتب .

مثال البُعد التوحيدي والعرفاني

« رضا الله رضانا أهل البيت رضاً بقضائك وتسليماً لأمرك ، لا معبود سواك ، يا غياث المستغيثين » .

وهو إشراق مُنير لوجه أبي عبد الله في اللحظات الأخيرة من عمره الشريف .

إلى جانب حديث الإمام السجّاد عليه السلام وهو يصف بعض الأصحاب .

وكذلك الروحانية الخاصة في ليلة عاشوراء أو ما اصطلح على تسميته بالمعراج الحسيني .

وأيضاً صلاة يوم عاشوراء ـ عند الظهر ـ وقوله عليه السلام عند اشتداد المصائب : « عند الله أحتسبُ . . . » .

مثال التمــرُّد

« ألا وإنّ الدعي ابن الدعي . . . » .

مثال البُعد الحماسي ، ومظاهر المروءة ، والشرف

« الموت أولى من ركوب العـار » و« هيهات منّـا الذلـة » وكما يقـول ابن أبي الحـديد : « سيـدُ أهل الإبـاء ، أُباة الضيم » . أو « لا أُعـطيكم بيـدي إعـطاء الذليل ، ولا أفرُّ فرار العبيد » . و« ويلكم يا شيعـة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين ، فكـونوا أحـراراً في دُنياكم » . و« لا أرى المـوت إلا سعـادة ، والحيـاة مـع الظالمين إلّا برماً » . . . الخ .

مثال البُعد الأخلاقي

أ ـ المروءة ، ومثالها البارز في تقديم الماء لجنود العدو ولخيله ، ثم قبول توبة الحر ، إضافةً إلى عدم استعداده لأن يكون البـادىء برمي السهـام . وعدم رميهم السهم نحو شمر بن ذي الجوشن ، بالرغم من معرفتهم بنيته ، لكنه عليه السلام أراد أن يفعل كما فعل أبوه علي (ع) مع ابن ملجم . . .

ب ـ الإيثار : قصة الأنفار الثلاثـة ، أو العشرة في حرب مؤتـة . ومقابلهـا قصة إيثار أهل البيت ، وسورة الدهر ، وإيثار أبي الفضل العباس (ع) .

ج ـ الصداقة والصراحة في التعامل .

د ـ الـوفاء : ومثـال ذلك قـول عمر بن قـرظة ، وهـو في طور الاستشهـاد لإمامة الحسين (ع) : « أوَفَيْتُ ؟ »[1] .

---

(١) نفس المهموم ص ١٤٠ .

مثال بُعد الموعظة

وهـو البُعد الـذي يظهـر من خلال أمثلة كثـيرة ، من جملتهـا : خُـطب أبي عبد الله نفسه كقوله : « الناسُ عبيد الدنيا ، والدين لَعقٌ على ألسنتهم . . . » إلى جـانب أقوالـه ، وتوجيهـاتـه ، وردوده المختلفـة . هـذا بـالإضـافـة إلى مـواعظ (زُهير بن القين)و (حنظلة الشامي) وغيرهما .

مثال المبادىء الاجتماعية ، والمساواة الإسلامية

ويمكن الاكتفاء هنا بذكر قصة (جَوْنَ) مولى أبي ذر الغفاري ، البليغة :

« فـوقف عليه الحُسـين عليه السـلام وقـال : اللهم بَيِّض وجهـهُ ، وطيِّب ريحَه ، واحشرهُ مع الأبرار ، وعَرِّف بينه وبين محمد وآله »[1] . بالإضافة إلى قصة الغلام التركي[2] .

١٥ ـ أرضيـة التبليغ التي بـرزت بعـد استشهـاد الإمـام ، والأصحـاب ، والأنصار ،وبعد وقوع الفاجعة ، وتراجع أحاسيس العـداوة ، والحقد الأعمى ، والـطمـع ، وظهـور إحسـاسـات العـطف ، والـترحم محلهـا ، وبـروز جـانب المظلومية ، مما ساعد على نشوء ظروف مستحدثة أمكن استغلالها جيداً ، للتبليغ ضـد الطرف المعتـدي من جهة وإبـراز جانب الحقيقـة ، وتمزيق ستـائر الـظلمات والنفاق ، والدعاية المضادة ، والمُزوَّرة ، للطرف المقابل من جهة أخرى ، وهـو ما جرى على أهل بيت أبي عبد الله (ع) بعد استشهاده .

قـال أمير المؤمنـين عـلي (ع) : « إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبَـرت نَبّهَتْ »[3] .

نعم فالإنسان الذي يعيش وسط الفتنة ، وفي خضم أحداثها ، لا يستـطيع

---

(١) نفس المهموم ص ١٥٥ .

(٢) نفس المهموم ص ١٥٦ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٩٢ .

أن يرى خطوطها جيداً ، ولا يتمكن بالتالي من كشفها ، وتبيان أخطارها على أحسن وجه .

في حين أنّ المشاهد والمراقب لها عن قُرب ، يستطيع كشف حُجبها ، أفضل وأحسن ، لا سيما بعد انتهاء فصولها .

وهكذا نرىٰ إنّ أرضية كشف تلك الحُجب ، وتنوير الأذهان المشوشة ، تصبح أفضل من وقت وقوع الفتنة ، وبالتالي فإن الدور الأساسي في الدعاية والتبليغ ، تراه يقع على عاتق أهل البيت ، والأسرى ، بعد الواقعة .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرين :

أ ـ انطلاقاً من إيماننا بصحة الروايات المتواترة عن أئمتنا ، وتأسيساً على عقيدتنا الخاصة بوجود الارتباط والاتصال الروحاني بين الإمام ، وبين عالم الغيب الحقي ، فإننا نعتقد بعصمة الإمام ، وأنه لا بد لكل عمل يقوم به عليه السلام ، من حساب ، ومن كتاب ، فهو إذاً لا يخطىء ، ولا يترك الأمور ، للصدفة والاتفاق .

من هنا نعتقد بأنّ أخذه عليه السلام الأهل ، والعيال ، والأطفال معه ، في تلك الرحلة المليئة بالمخاطر ، وفي نفس الوقت الذي كان عقلاء القوم ينصحونه بعدم الانطلاق بتلك الرحلة ، حفاظاً على نفسه ، وحياته ، وحياة أهل بيته ، بل وإصراره على الاستمرار بالرحلة ، حتى بعد سماعه لخبر مقتل مسلم بن عقيل .

وحتمية وقوع المواجهة بينه وبين الأعداء .

وعدم تفكيره بإعادة أهل البيت إلى المدينة ، ما دامت الأمور قد وصلت إلى تلك النقطة الحرجة .

كلها أمورٌ محسوبة ومدروسة جيداً من قبل الإمام .

وقد ورد في الروايات أيضاً بأنّ النبي (ص) قال للحسين (ع) : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً ، وإنّ الله شاء أن يراهنّ سبايا » .

وبالطبع فإن المعنى الذي كان يُستنبط من هـذا الكلام آنـذاك ، هو الإرادة التشريعية ، ولـيس الإرادة التكوينية .

فالمقصود من الإرادة التكوينية هو القضاء والقدر الإلهيان .

بينـما المقصود من الإرادة التشـريعية رضـا الله ومصلحته ، وهـو مثل قـوله تعالى : ﴿ **يُريدُ الله بكم اليُسر ، ولاَ يُريد بكم العُسر** ﴾[1] .

وبـالتـالي فـإن حمـل أهـل البيت ، والعيـال ، والأطفـال ، حسب منـطق الروايات ، كـان أمراً يقـوم على المصلحـة الإلهية ، وهـو أمرٌ لا يمكن لأمثـال ابن عباس أن يُدركوه .

ب ـ الأمر الثاني : وهو قضية دور المرأة في التاريـخ ، والأدوار الثلاثـة التي لعبتها ، أو كان بإمكانها أن تلعبها فيه .

فمـرةً كان يمكن لهـا أن تكون بمثـابة الشيء الثمـين ، وبالتـالي فهي وجـود سلبي محض ، وفي عـداد القـاصرين الـذين لا دور لهم في الحيـاة ، ومثلهم مثـل الأشياء الثمينة الكثيرة في هذه الدنيا .

وهذا المنطق يمكن أن يكون هو منطق أولئك الذين يُريدون للمرأة أن تُحجز في البيت ، ويقتصر دورها على الولادة والرضاعة ، وخدمة الرجـل ، من دون أن تأخذ مداها في الرشد ، والنمو الطبيعي لإمكاناتها ، واستعداداتها الروحية .

ومن دون أن تتقدم على صعيد التعليم ، والتربيـة الواقعيـة ، ومن دون أن تُنمي شخصيتها وكيانيتها الخاصة .

وطبقاً لهذا المنطق فإنّ المرأة الأفضل ، والأثمن هي المرأة الأكثر ابتعـاداً عن العلم ، والفن ، والمعرفة ، والإرادة الحـرة ، وهي أفضل وأثمن أكـثر كلمّا كانت أكثر إسارةً ، وتبعيةً ، وافتقاراً لأي نوع من أنواع الإبداع والخلاّقية .

أي أنّها كلما كـانت تفتقر أكـثر من غيرهـا إلى تلك العنـاصر الأسـاسيـة في

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

شكيل الشخصية الإنسانية : وهي المعرفة ، والحرية ، والإبداع ، كلما كانت أفضل وأثمن .

ولكن في هذه الحالة تكون المرأة ليست أكثر من لعبة وأداة ترفيهية للرجل الفرد ، لكنها ليست لعبةً ترفيهية للمجتمع طبعاً[1] !!؟ .

ولكن الدور الثاني الذي يمكن أن يوضع للمرأة هو : في النظر إليها من دون وضع أي تفاوت ، أو تمايز بينها وبين الرجل ، أي مع الأخذ بعين الاعتبار الحُرمة الخاصة للمرأة التي تُميِّزها عن الرجل فلا نضعها وسط المجتمع ، ونستغل وجودها أشد الاستغلال ، كعنصر مساوٍ للرجل تماماً .

وهذا يعني رفع الحُرمة تماماً ما بينها وبين الرجل . وفي هذه الحالة تكون المرأة قد عوملت معاملة شخص لا شيء ، وقد أدّت دوراً في التاريخ حقاً .

لكنها تصبح عند ذلك بمثابة شخص غير ثمين (رخيص) ، قام بلعب دور مفسدٍ في التاريخ .

بعبارة أخرى ربما تكون المرأة في الحالة الأولى قد لعبت دوراً عزيزاً ، ومحبوباً ، وثميناً ، لكنها أصبحت بالمقابل عنصراً ضعيفاً ، وهزيلاً ، وبالتالي أشبه بالشيء الثمين .

وأمّا في الحالة الثانية فصحيح أنها أصبحت « شخصاً » ، ولكنها شخص لا قيمة له .

وأمّا الدور الثالث ، أو المدرسة الثالثة ، فإنّ المطلوب هنا هو أن تصبح المرأة «شخصاً ثميناً» . وهذا يحصل من خلال التزامها بشيئين أو بأمرين :

أولاً : من خلال سعيها الدائم لتنمية استعداداتها ، وإبداعاتها الخاصة الإنسانية ، أي علمها ، وإرادتها ، وقدراتها ، وخلاقيتها ، وإبداعاتها الفنية والأخلاقية .

---

(١) في كل دولة غير إسلامية يجب أن تكون المرأة كذلك لإعطائها كل الفرص الممكنة لإنشاء الأجيال اللاحقة أداة التغيير من الظلم إلى العدالة .

وثانياً : من خلال ابتعادها عن الابتذال ، واجتنابها لدور البضاعة الاستهلاكية والاستغلالية ، لدى الرجل والمجتمع .

إذاً، من خلال تنمية الاستعدادات ، وحفظ الحُرمة الخاصة ، وفي هذه المدرسة ، تكون القاعدة في عمل المرأة هي حفظ الحرمة ، والابتعاد عن العزلة والحبس ، كما عن الاختلاط والابتذال .

من هنا يمكن أن يكون التاريخ مرةً عبارة عن تاريخ المُذكر ـ الرجل المحض وأخرى قد يكون تعبيراً عن تاريخ اختلاط الجنسين ، ولكنه اختلاط فاسد ومنحط .

إلاّ إنه يمكن أن يكون مرةً ثالثة تاريخاً للمذكر والمؤنث معاً ، وسوياً ، ولكن بالشكل الذي يبقىٰ فيه الرجل ضمن دائرته ومُحيطه ، وتبقىٰ المرأة فيها ضمن دائرتها ومُحيطها .

إذن قد تكون المرأة أحياناً عاملاً غير مؤثر في التاريخ ، وأحياناً أُخرى قد تكون عنصراً مؤثراً ،ولكن مختلطاً مع الرجل ، أو بالأحرى لعبةً بيد الرجل .

ولكن يمكنها أن تكون ثالثةً عاملاً مؤثراً ومُفيداً ، ولكن ضمن إطارها ، ومدار عملها المُقدّس .

إنّ المرأة في التاريخ الديني ، حسبما نفهمه ونستنبطه من القرآن الكريم ، تُشكّل عاملاً مؤثراً في التاريخ .

أي إنّ التاريخ الديني القرآني تاريخ مذكر مؤنث ـ بالأحرى إنساني ـ بمعنىٰ الحفاظ على مدار كل من الرجل والمرأة ـ وذلك يمكن أن نسميه تاريخ ـ المذنث ـ أو الزوج .

ولقد تعرضت لهذا الموضوع بالتفصيل في كتابات لي بعنوان « المرأة في القرآن »[1] ، .

---

(١) سيتم نشر هذه الأفكار ضمن سلسلة الأوراق والمذكرات العامة التي ستنشر للأستاذ الشهيد .

وإنّ واقعة كربلاء في الواقع عبارة عن تاريخ « إنساني » أي تاريخ الزوج وليس تاريخ الفرد . أي « مذنث » لا مذكر لوحده ولا مؤنث لوحده ، بل لعب المذكر والمؤنث دورهما معاً وسوياً .

ونحن نعتقد أنّه من غير الممكن للمرأة أن تلعب دوراً مستقلاً ومؤثراً في التاريخ إذا ما ظلت عبارة عن وسيلة ، أو بضاعة ، أو سلعة جميلة تُباع وتُشترى ، وتُبذل في سبيلها كل أدوات التجميل ، ووسائل المُتعة ، من أجل عرضها للرجل ، ولا سيما للعموم .

وهنا لا بد من التذكير بأننا لا نريد إنكار دور المرأة غير المباشر في صناعة التاريخ ، من خلال تربيتها للرجل ، وإعدادها لجيل الرجال ، سواء الابن أو الزوج ،والذين هم بدورهم مُساهمون في صناعة التاريخ ، فهذا أمرٌ متفق عليه لكننا نبحث هنا في دور المرأة المباشر .

إنّ القرآن الكريم وهو يذكر الرجال الصادقين والقديسين ، في آياته الكريمة ، تراه يذكر إلى جانبهم النساء الصدِّيقات والقدّيسات ، بل وأحياناً تراه يمنحهنّ دوراً ، وصفةً ملكوتية ، أكثر من الرجل .

ومثال ذلك العجب الذي يُصيب زكريا تجاه مقام مريم وهكذا موقع كل من حوّاء وسارة ، وهاجر وآسية ، وأم موسىٰ وأخته ، ومريم والسيدة الزهراء فاطمة ، وهي كوثرة النساء الصدّيقات في القرآن الكريم ، إضافة إلى خديجة التي هي بمثابة قدّيسة تاريخ الإسلام .

والقرآن الكريم تراهُ يُكرر في أماكن متعددة ذكره للعنصرين بقوله : المؤمنين والمؤمنات ، والمهاجرين والمهاجرات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصالحين والصالحات . . .

في بعض المذاهب والتعاليم القديمة ، تظهر المرأة ، وتُبرز على أنها عنصر ضالٌ ومضللٌ . وأنّ ابتداء ضلال الإنسان ، وانحرافه ، إنما يبدأ من خلال إغواء الشيطان لحوّاء ، التي تقوم هي بدورها في إغواء آدم .

لكن القرآن الكريم يدحض هذه النظرية بكل صراحة ووضوح ، ولا يقبلها مُطلقاً .

١٦ ـ في خطبة زينب عليها السلام ، نجدُ في المجموع عدداً من الموضوعات المطروقة هي :

أ ـ العتاب :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل ، والغدر ، والخذل ! ألا فلا رَقأتِ العبرة ، ولا هدأت الزفرة ، إنما مثلكم . . . هل فيكم إلاّ الصلف والعجبُ . . . ؟ » .

ب ـ تنبيههم إلى أخطائهم :

« فابكوا فإنكم أحرياء بالبكاء ، فقد بليتم بعارها ، ومنيتم بشنارها ، ولن ترحضوها أبداً ، وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، وملاذ حربكم ، ومعاذ حزبكم ، ومقر سلمكم ، وآسىٰ لحلمكم ، ومفزع نازلتكم ، والمرجع إليه عند مُقاتلتكم ، ومِدرة حُججكم ، ومنار محجتكم » .

ج ـ تحريك عواطف المعسكر الآخر إزاء ما فعلوه مع النبي :

« ويلكم ! أتدرون أيّ كبدٍ لرسول الله فريتُم ، وأيّ عهدٍ نكثتم ، وأيّ كريمة له أبرزتم ، وأيّ حُرمةٍ له هتكتُم ، وأيّ دمٍ لهُ سفكتم » .

وما لهذا العمل المُفجع من أثر عظيم :

« لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكادُ السموات يتفطّرن منه . . . » .

د ـ النقمة الإلهية المتوقعة :

« فلا يستخفّكم المهل ، فإنه عزّ وجل لا يحفزه البدار ، ولا يُخشىٰ عليه فوت الثأر ، كلّا إنّ ربك لنا ولهم لبالمرصاد » .

١٧ ـ عند حديثنا عن شروط نجاح أية رسالة في التبليغ ، قُلنا : إنّه لا بد

من أن تكـون الرسـالة غنيـة المحتوىٰ ، ولا بـد أيضاً من أن تستخـدم الوسـائـل المشروعة ، واجتنابها لاستخدام الوسائل المضادة .

ولا بد من استخدام المنهج والطريقـة الصحيحين، وأخيراً لا بد من جـدارة الشخصية الحاملة للرسالة .

وأمّا الآن فإني أُريد البحث والتعليق حول موضوعين :

أولهما : الإشارة بشكل عام إلى الشروط اللازم توفرها في حامل الرسالة .

وثانيهما يتعلق بـالبحث الخاص حـول تأثـير شخصية عيـال الحسين (ع) في التبليغ ، وهو التبليغ الذي حمل دورين ، دور التعريف بـالإسلام ، ودور إعـلام الناس ، ووضعهم بالصورة الصحيحة عمّا كان يجري من أحداث .

وحـول هذا القسم الثـاني من دور أهل البيت لا بـد أولاً من الاطلاع عـلى الأرضية التي كان قد أعدّ لها الأعداء ، والحُجُب التي وضعوها أمام أعين الناس ، والانطباع المُعيّن الذي أرادوا للناس أن تخرج به عن مجريات الأمور .

وكيف تمكن أهل البيت بالتالي من تمزيق حُجب النفاق تلك ؟

فهذا ابن زياد مثلاً يخاطب السيدة زينب عليها السلام في المجلس بقوله :

« الحمد لله الذي قتلكم وفضحكم وأكذب أحدوثتكم » .

ومعلوم تماماً ماذا يُريد ابن زياد قـوله بعبـارة « وأكذب أحـدوثتكم » . فهو يريد القول : أليس ما حصل لكم دليلاً على كوننـا مع الحق وأنّ الحكم في النهـاية من مسؤوليتنا وإلّا ما جعل الله الغلبة لنـا ! وهذا عـلى كل حـال هو منـطق الذين يرون الحق إلى جانب الواقع المُعاش باستمـرار ، ودليلُ ذلـك أنه تعـالى لو لم يكن راضياً على ما يجري لما ترك الأمور تحصل كما حصلت !

ولمّا كانت قد وقعت وهي موجـودة فعلاً ، فـإنها يجب أن تكون وهي لا بـد صحيحة وجيدة[1] .

---

(١) وهـذا هو منـطق الجبريـين الذي يـرون في حصول العدل، ووجوده في الجـبر أيضـاً ، وهـو منـطق المرجئة .

وهو القول الذي يشبه قولهم في الجاهلية : ﴿ **أنُطعم من لو يَشَاء الله أطعَمَه** ﴾[1] . أو كما ورد في الآية الكريمة : ﴿ **تؤتي المُلك من تَشَاء ، وَتَنْزِعُ المُلْكَ ممَّن تَشاء ، وتُعزُّ من تَشاء ، وَتُذلُّ من تَشاء** ﴾[2] .

وتفسيرهم لهذا الآيات الكريمة بالطبع ، بذلك الشكل المعروف لا شك مغالطة كبيرة ، لكن زينب (ع) تردُّ عليه بقولها :

« الحمدلله الذي أكرمنا بنبيه محمد ، وطهّرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفتضح الفاسق ، ويكذبُ الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله » . وعندما يرُدُّ عليها ابن زياد : « **كيف رأيت صُنع الله بأخيك** » .

« **قالت : « كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم ، فانظر لمن يكون الفلج ، هبلتك أمك يا بن مرجانة . . . » يقول الراوي : « فغضب ابن زياد واستشاط . . . »** .

وعندما يُعرض علي بن الحسين (ع) عليه ، يقول له ابن زياد : « من أنت ؟ .

فقال : أنا علي بن الحسين .

فقال : أليس قد قتل الله علي بن الحسين ؟

فقال له علي : قد كان لي أخٌ يسمىٰ علياً ، قتله الناس .

فقال له ابن زياد : بل الله قتله .

فقال علي بن الحسين : اللهُ يتوفىٰ الأنفس حين موتها . . . .

فغضب ابن زياد فقال : وبك جُرأةٌ لجوابي ؟ وفيك بقيةٌ للرد عليّ ! اذهبوا به فاضربوا عُنُقَهُ . . . » .

ومن مجموع ما نقلناه ، يتضح لنا أنّ ابن زياد إنّما أراد أن يُبرهن على صحة

---

(١) سورة يس : الآية ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

ما فعله ، وذهب إليه ، من خلال الاستناد إلى الفلسفة الجبرية الملازمة للعدل كذلك !

وكل حركة سياسية بالتالي لا بد وأن تستند في أعمالها إلى فلسفة وخلفية فلسفية تُبرر لها أعمالها . وما الحرب الدعائية إلاّ عبارة عن المواجهة بين الفلسفات المُتعارضة أو المتحاربة .

فكان أهم شيء فعله أهل بيت النبي (ص)- وهو من أهم آثار وجودهم - كونهم لم يتركوا مجالاً لفلسفة العدو الإقناعية بأن تأخذ مجالها في التأثير .

العمل الآخر الذي تمكن أهل البيت من إنجازه هو تحقيق الاتصال الجماهيري ، والتحدُّث إلى الجمهور العام من على منبر العدو نفسه ، في الوقت الذي لم يكن مثل ذلك الأمر ممكناً قبل الحادثة ، أو أثناءها ، لخوف الناس ، وعدم تجرئهم على الاتصال بآل البيت بسهولة .

وبهذا تكون العقيلة زينب وسائر أهل البيت قد نقلوا الحرب إلى داخل بيت العدو .

وبهذه المناسبة أيضاً استطاع أهل البيت استغلال الفرصة المناسبة للتعريف بالشخصية الواقعية والحقيقة ، للإمام وأهل بيته ، الأمر الذي حوّل الكوفة إلى معسكر للثورة ، وصار أهل الكوفة يقولون عن آل البيت: « كهولهم خيرُ الكهول وشبابهُم . . . . » .

وبشكل عام يمكن القول إنّ الشام والكوفة ، قبل دخول آل البيت إليها ، هي غير الشام والكوفة بعد دخولهم إليها . وقد تطوّرت الأمور في الكوفة إلى الدرجة التي ظهر فيها من عُرفوا فيما بعد بالتوّابين ، بل وإنّ الكوفة هذه نفسها قامت ضد الشام وابن زياد ، وقد قُتل هذا الأخير في الحرب التي أعلنها الكوفيون ضده .

كما أنّ تأثير أهل البيت على وضع الشام والشاميين قد امتدّ حتى وصل إلى المسجد الأموي هناك .

وما يُقال عن تغيير يزيد لأسلوبه في أيامه الأخيرة ، إنّما يُبيّن علامات الضعف والانهزام التي بدأت تظهر عليه ، وما تعليماته ، التي أصدرها بضرورة السماح لآل البيت بالعودة مُكرّمين مبجّلين إلى المدينة المنوّرة إنْ صحّت ، إلاّ علامة على هذا الضعف . كما ينبغي تفسير تعليماته للجند بعدم التعرض لعلي بن الحسين في معركة الحرّة التي خاضها يزيد ضد أهل المدينة في هذا الاتجاه أيضاً .



القسم التاسع
ملاحظات متفرقة

هل كان الإمام الحسين (ع) يعمل بتعليمات خصوصية ؟

في مقدمة « تحقيق في تاريخ عاشوراء » يقول ـ أعتقد أن الأستاذ هنا يقصد المرحوم آيتي ـ : هناك حديث صحيح ورد في « الكافي » وبسند موثق ، ومعتبر ، عن ضُريس الكُناسي ، عن أبي جعفر (ع) قال : « إنّ حُمران بن أعين الشيباني ، قال للإمام الباقر (ع) :

جُعلت فداك ! أرأيت ما كان من أمر علي ، والحسن ، والحسين ، عليهم السلام ، وخروجهم ، وقيامهم ، بدين الله عز وجل ، وما أصيبوا من قتل الطواغيت إياهم ، والظفر بهم ، حتى قُتلوا ، وغُلبوا ؟ .

فقال : أبو جعفر عليه السلام : يا حُمران ، إنّ الله تبارك وتعالى ، قد كان قدّر ذلك عليهم وقضاه ، وأمضاه ، وحتمه ، ثم أجراه ، فبتقدم علم ذلك إليهم من رسول الله (ص) ، قام علي ، والحسن ، والحسين ، وبعلمِ صَمَت من صَمَتَ مِنّا » .

ينبغي مراجعة أصل الخبر والرواية لا سيما السطر الأخير منها .

واقعة كربلاء ، أو الرسالة التي كُتبت بالدم

١ ـ المرحوم آيتي في محاضرته التاسعة (ص ١٧٩) من كتابه « تحقيق في تاريخ عاشوراء » وبعد أن يشرح حول محوري القوة والاقتدار غير القابلين للتسخير واللذين كان يتميز بهما الإمام ، ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن التقرير الكاذب والمخادع ، الذي حاول ابن زياد عرضه على الناس بعد مقتل الإمام الحسين (ع) وذلك بعد أن دعا الناس إلى المسجد الأعظم في الكوفة ، وصعد المنبر ، وخاطبهم قائلاً :

« الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب ، الحسين وشيعته !! » .

ثم يضيف : إلاّ أنّ « عبد الله بن عفيف الأزدي الغامدي » وهو الرجل الأعمى الذي كان حاضراً المجلس نهض لابن زياد وقال له : يا بن مرجانة ! إنك أنت الكذّاب ابن الكذّاب ، وذلك الذي أرسلك لحكومة العراق » . وهو ما أدى إلى مقتله .

ثم يقول المرحوم آيتي : « إنّ هذا الرجل الجليل ، قد قدّم نفسه الطاهرة بسبب هذا الكلام إذ سرعان ما قتله ابن زياد ، ولكن بعد أن أشعل صفحة مضيئة في التاريخ ، كما أنّه بهذا يكون قد كتب بدمه صفحة من صفحات تاريخ عاشوراء » .

وفي الحقيقة فإنه ينبغي القول : إن العبارات الواردة في تاريخ عاشوراء من قبيل : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه . . . » .

و« أيها الناس ! من رأى سُلطاناً جائراً . . . » .

و« ألا وإنّ الدعي ابن الدّعي . . » و« هيهات منّا الذلة . . . » .

و« إن لم يكن لكم دين . . » و« الموتُ أولى من ركوب العار . . . » و« رضاً بقضائك . . . لا معبود سواك . . . » و« خُطّ الموتُ على وُلد آدم . . . » .

وأمثالها الكثير ، قد كتبت جميعاً بالدمّ ، وإنّ لون الدم هذا من أكثر الألوان

ثباتاً وتلألؤاً بين الألوان كلها .

كما أنّ الوقائع ، والدقائق التفصيلية ، لمعركة عاشوراء ، قد كُتبت جميعاً بالدم . وهي أمور أشبه ما تكون بما نسمع أحياناً من اقتراب الموت من أحدهم ، ولمّا لم يكن بين يديه قلم وورقة يكتب عليها تراه ، يكتب وصيته بالدّم . أو ما يُنقل عن كتابة البعض جملة تذكارية عن الثورة بدمهم .

وقد ورد أيضاً أنه كان متعارفاً بين العرب ، ما قبل الإسلام ، أنّ المتحالفين عندما يجتمعون ليُقرّوا حِلفاً ، ويعقدوا عهداً ، فيما بينهم ، كانوا يأتون بكأسٍ من الدم ، ثم يغمسون أصابعهم فيها ليثبتوا ذلك التحالف والميثاق بالدّم .

إنّ استشهاد عبد الله الرضيع ، وإلقاء دمه نحو السماء هو الآخر نوع من أنواع كتابة التاريخ بالدّم .

وكما ورد في الخبر أيضاً فإن أبا عبد الله الحسين (ع) ، وبعد أن يجرح في جبهته ـ من خلال ارتطام حجر فيها كما يبدو ـ تراهُ يمسحُ يدهُ الملطّخة بالدماء بوجهه وهو يقول : « هكذا حتى ألقىٰ جدّي » .

٢ ـ لماذا يا ترى كتب الإمام إلى أهل البصرة يدعوهم إلى التحرك ؟

ألم يكن ذلك نوعاً من رغبة الإمام في توسيع نطاق الثورة والدم ؟

والأكثر من ذلك لماذا يا ترى قام الإمام بإرسال حبيب بن مظاهر الأسدي في ليلة عاشوراء إلى بني أسد ؟

ألأنهم كان بإمكانهم الصمود والمقاومة ، وتغيير ميزان المعركة ؟

أبداً ليس كذلك .

ثم لماذا لم يُلزم أعوانه وأهل بيته بالخروج من ميدان الوغىٰ وساحة المعركة ؟ .

وأخيراً لماذا قبل طلباتهم التطوعية للقتال ، والاستشهاد ، والقتل ؟

هل كان الإمام يُريد بشكل خاص أن يُسجّل اعتراضه ، وتمرده ، وعدم رضاه ، ومطالبته بالعدالة والحقيقة (وبالتالي نشر راية الإسلام) بواسطة سيل من الدماء التي تدفقت من بدنه وأبدان أصحابه ، وذلك بأكبر عددٍ ممكن منهم ، وبشكل لا يمكن أن يمحو آثاره تقادم الأيام ؟ .

إنّ الإمام (ع) قد ألقى خطبه الحماسية بعد اصطدامه بجيش الحرّ ، وبعد وصول محادثاته مع عمر بن سعد إلى طريق مسدود .

والتاريخ يُثبت لنا أنّ الخطب والأقوال التي تُسجّل بالدم ، لا يمكن أن تُمحىٰ من الوجود أبداً ، ذلك أنها تعبّر عن خلوص نية ، وعمق إرادة ، وكمال إخلاص ، وصفاء فكر .

وإن منطق الشهيد هو فوق منطق الآخرين جميعاً .

إنّ كثيراً من السلاطين ، كانوا يتمنون أن تبقىٰ أسماؤهم ، وأقوالهم ، ورسالاتهم ـ وإن كانوا لا يحملون أية رسالة تُذكر ، بل هي مُجرد ادّعاءات ذاتية ، وهوى نفس ـ خالدة في التاريخ ولذا تراهم كانوا يتركون تلك الأقوال والأسماء على لوحات صخرية ، أو فلزية ، وهم يتبخترون بواسطتها بأنهم مثلاً الملك الفلاني ابن الملك الفلاني . . . !! لكن تلك الكتابات التي تركوها ، لم تترك رغم كل ذلك أي أثرٍ في قلوب الناس ، بل ماتت واندثرت مع ذهابهم .

بينما رسالة الإمام الحسين (ع) وأقواله ، وبالرغم من أنها لم تُنحت على صخرة ، ولم تُحفر في المعادن ، بل كُتبت فوق صفحات الهواء المهتزة ، لكنها رغم ذلك تراها قد نُحتت نحتاً في قلوب الناس ، وتخلّدت مثلها مثل خطوط الوحي النورانية في قلب الأنبياء إلى أبد الآبدين . (إنّ للحُسين محبةً مكنونةً في قلوب المؤمنين)[1] ، وصار يكفي أن يُذكر اسمه عليه السلام حتىٰ تسيل الدموع من المآقي ، والله وحده يعرف كم هي آلاف الأطنان من الدمع السائل الذي خرج من مآقي المؤمنين ، كماء الورد الذي يُعصر من الورود والأزهار ، لماذا ؟

لأنه قال تعالى : ﴿ **إنّ الّذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ سيَجْعَلُ لَهُم**

---

(١) ورد شبيه هذه العبارة في بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٢٧٢ .

الرّحمن وُدّاً ﴾[1] .

لأنّه حامل رسالة الحقيقة ، ولأنّ رسالته كانت تعبيراً عن القلب البصير والفطرة الواضحة البيّنة ، ولأن حديثه لم يكن حديث الأنا ، بل حديث الله والناس .

« سيد الشهداء » عليه السلام عظمة في الروح ، وعدم استقرار في البدن

١ ـ يقول « المتنبي » :

وإذا كانت النفوس كِباراً تَعِبتْ في مُرادها الأجسَامُ

بشكل عام يمكن القول إنّ الروحية الصغيرة ، والنفس الدنيئة ، ولّما كانت لا تملك هدفاً تسعى إليه ، وليس لها معاناة تعيشها ، بل إنّ كل آلامها وأهدافها تتلخص في مطالبها الجسمانية ، ولا مُثل عُليا تسعىٰ لتحقيقها ، فإنها لا تُتعب الأبدان ، بل وتراها تكتفي بلقمة العيش التي غالباً ما تنالها بالتسوُّل والاستجداء .

أمّا الأنفس الكبيرة في المقابل فإنها تدفع أبدانها نحو الحركة باستمرار ، وتجلب العناء ، والمعاناة ، وعدم الاستقرار لها ، فتكسر رؤوسها وتشق جباهها .

ولهذا ترى الشهادة بالنسبة لها فخراً واعتزازاً إذ ترى فيها عظمة النفس وعلوُّها .

وهؤلاء الأشخاص الذين تتميز أرواحهم بكبرها مقابل أبدانها ، ترى أبدانهم تتعذّب ، وتتحمّل المشاق باستمرار .

فجسم علي (ع) كان عليه أن يكيّف حاله مع روح علي ، ويتحمل طعام

---

(١) سورة مريم : الآية ٩٦ .

الشعير ، وسهر الليالي العبادية ، وأحياناً تحمُّل المعاناة الشديدة المفروضة عليه من قبل علي .

وهكذا جسم الحسين (ع) إذ كان عليه مُسايرة روح الحسين فقد وجب عليه تحمل العطش الطويل ، ووطء الخيول وتحمُّل الجراحات ، وآلامها ، التي كانت تخزه كما ورد في الروايات كالقنفذ .

فما أسعد ذلك البدن الذي خُلِق توأماً مع روح صغيرة ، فإنه سينال بذلك كل رغباته في غاية السهولة ، ويؤمّن خبزه اليومي بواسطة الاستجداء والسرقة ، وسيحصل على المقام الذي يُريد بواسطة القتل ، والجناية ، والاجرام .

وبالمقابل ما أشقى ذلك البدن ، الذي خُلق ونشأ مع روح شريفة ، نبيلة ، وعظيمة ، فهذا البدن لن يحصل بعد العناء سوى على لقمة بسيطة من خبز الشعير ، إلى جانب معاناته ، وهو يقضي الليالي الطوال بتنفيذ واجبات العبادة والرهبانية ، ثم يمضي عليه النهار ، وهو يُمسك بالدرة ليُراقب النظم الاجتماعية ، أو ماسكاً بالسيف ليقطع به رقاب المُفسدين ، أو يأتي عليه القوم ليُدخل الرأس في التنور . . .

٢ ـ يقول علي عليه السلام بشأن المتقين :

« أنفسُهُم منهم في تعبٍ ، والناسُ منهم في راحةٍ »[١] : والمراد هنا بالنفس هي النفس الحيوانية ، والتي يكمن استقرارها في حصول الاستقرار للآخرين ، وفي عدم سلب راحتهم .

٣ ـ إنّ القول المشهور للإمام الحسين (ع) ، عن النبي الأكرم محمد (ص) أنه قال : «إنّ الله يحب معالي الأمور ، ويُبغض سفاسفها »[٢] ، يدلُ على أنّ روح الإمام تواقة إلى المعاني السامية ، وبعيدةً عن الغوص في الأمور المادية الحقيرة .

---

(١) ورد مثل هذه العبارة في نهج البلاغة الخطبة ١٨٤ المعروفة بالمتقين .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٤٦ .

٤ ـ أحياناً ترى الروح لدى البعض أسيرة الجسم ، وفي خدمة البدن أي إنّ العقل والعاطفة يكونان في خدمة الأهداف الجسمية، والبدنية ، والحيوانية ، لذلك الإنسان ، وبالتالي فإنّ الروح هنا تتألم إلى حدّ ما ، وإن كانت الروح الصغيرة ، لا تتألم ، ولا تشعر بالمعاناة ، فهي إن أحست بالألم والمعاناة ، فإنها ليست بصغيرة إذاً ، ولا يمكن لها أن تكون في خدمة البدن .

٥ ـ هذان البيتان من الشعر :

لَنَقلُ الصخرِ من قُلل الجبال   أحبُّ إليّ من منن الرجال
يقولُ الناسُ لي في الكسب عارٌ   فإنّ العار في ذُلّ السؤال

يُشكلان في الواقع تصويراً آخر عن معاناة البدن من أجل كِبَر الروح .

٦ ـ كما أنّ قوله عليه السلام : ألا وإنّ الدعيّ ابن الدّعي . . . وهيهات منّا الذلة . . . يُشكلاّن أيضاً نموذجاً آخر من نماذج عذاب الجسم ، بسب عظمة الروح .

٧ ـ إنّ العلاقة بين الروح والبدن بالرغم من اتحادهما في شخص الإنسان ، إلاّ أنهما يُشكلان وجوداً متضاداً لبعضهما البعض أيضاً ، فهما أشبه برفيقين يسيران في درب واحد ، ولا يستطيعان الافتراق عن بعضهما ، إلاّ أنهما لا يسعيان لتحقيق هدف واحد .

ولهذا ترى أنّ صغر حجم أحدهما يُشكّل فائدةً للآخر ، بينما كبر أحدهما يُعرّض الآخر للضرر .

٨ ـ يقولون إنّ النوابغ عادةً مايكونون شركاء سيئين في الحياة الزوجية . ودليل ذلك أنّ أُفق أرواحهم ، يصبح ما فوق أفق الآمال ، والأفكار ، والتمنيات ، التي يضعها شريك الحياة .

ولذلك ترى النابغة يشارك رفيق دربه في جسمه . لكن روحه تسبح في عالم آخر ، لكنه إذا ما وجد من يستطيع أن يجمع بين نبوغه وأُفقه العالي ، وبين العشرة العادية مع الشريك العادي ، فإنه عند ذلك سيثبت أنه نابغة النوابغ .

فربما صادف وحصل لك أن عاشرت أشخاصاً من أصحاب الأفق العادي ، وأنت تسبح في أفق المعالي ، فهل تحسست ذلك العذاب والألم في تلك المعاشرة .

لقد حصل لي أحياناً مثل هذا ، وعندها كُنت أشعر بأنني فقدتُ توازني ، ونسيتُ كل معلوماتي مرة واحدة .

العَظَمة ونُبل الروح ، وجلالها

٩ ـ إنّ كبر الروح يُقاس ويُعرّف ، مقابل صغر الأرواح الأخرى ، وحقارتها . وهو الجانب الكمّي في القياس .

نعم فالروح الكبيرة تعني الروح التي تسعى نحو الآمال الكبيرة ، والأفكار الكبيرة ، والأمنيات الواسعة ، وبالتالي فهي صاحبة إرادة كبيرة ، ومطالب كبرىٰ ومن ثم فإنّ لها همّة كبيرة في العمل والنشاط ، فمن يُريد أن يكون الأول في كسب المال ـ عندما يكون ذلك مقروناً بالعمل والنشاط الفعلي ـ يقال له بأنه صاحب روح كبيرة .

والروح الكبيرة لا تقبل بالقليل ، ولا تقنع بالبسيط واليسير ، وصاحب هذه الروح تراهُ صاحب مهاجرة وسفر ، ورحل وارتحال ، بين هنا وهناك ، بحثاً عن الكنز ، والإمكانات ، والفُرص ، فهو لا يقنع بالماء ، والتراب المحدود في بيته ، وبلاده ، بل إنه يسعىٰ للوصول إلى أقاصي البلاد ، ويطوي البراري ، ويغوص في البحار ، ويصعد الجبال ، ويشيب بسرعة قبل الأوان ، وأحياناً يُصاب بانفراط القلب . وهناك قول لموسوليني في هذا المجال ورد فيه : « أُفضّل أن أعيش سنة كالأسد ، على أن أعيش مئة عام كالخروف » .

والإنسان الكبير ، لا يهاب عيش السجون ، فهو على استعداد لتحمل قضاء عشر ، بل عشرين سنة ، في السجون من أجل أن يسعىٰ ولو لعامين من عمره بسعادة ونجاح .

١٠ ـ إنّ أرواح كل من (الإسكندر) و(خشايار شاه) و(نادر شاه)

و(نابليون) هي في الواقع كبيرة ، وغير مستقرة ، لكنها تُعبّر عن روح توسعية تبحث عن الهيمنة ، وتُحرّكها مشاعر الحسد ، والمنافسة ، والشهوة الكبرىٰ ، والعظمة ، والفخفخة .

وهذه الأرواح بالمقارنة مع الأرواح الصغيرة ، يمكن اعتبارها أرواحاً عظيمة ، وذات أهمية كبرىٰ .

وهذه الأرواح وإن ذهبت إلى جهنم ، لكنها تذهب إلى جهنم وهي كبيرة ! فهي روح تتبلور فيها نزعة حب الذات بشكل كبير ، والنمو الذي يحصل في هذه الروح إنما يحصل في شهواتها ، وحبها للسلطة ، وحقدها ، وحسدها .

ولكن هناك أمراً آخر في الروح وهو النبل ، والنبل هو غير الكبر في الكمية ، فنُبل الروح لا يُقابله صِغر الروح ، بل دناءة الروح وحقارتها .

فما معنى هذه الحقارة ؟

وهذه مسألة في الحقيقة من مسائل ما وراء الطبيعة ، وهي تقع في نطاق المنطق المضاد للمادية ، لأنّ مثل هذه الأمور لا يمكن لمسها بالوسائل المادية ، إذ كيف يمكن لمس معاني الذليل ، والحقير ، أو بالعكس ، العزيز ، والفاخر ، وغير ذلك من معاني الروح .

نعم إنه النُبل الروحي الذي من الصعب لمسه ، وهو يُعبّر عن نفسه في قول علي عليه السلام : « إنّ الحياة في موتكم قاهرين ، والموت في حياتكم مقهورين »[١] .

١١ ـ كما أننا نرى كبر روح الإمام ، ونُبلها ، في جمل وعبارات مثل : « أشهدُ أنّك قد أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة ، وأمَرْتَ بالمعروف . . . » .



(١) نهج البلاغة الخطبة ٥١

كلمات الحسين بن علي (ع) ، أو شعارات حياة الإمام

١ ـ يذكر « اليعقوبي » في تاريخه أنه طُلب من الإمام الحسين (ع) مرةً أن ينقل حديثاً سمعه بنفسه عن رسول الله (ص) فقال :

سمعت رسول الله (ص) يقول : « إنّ الله يحب معالي الأمور ، ويبغض سفاسفها » وهذا القول ورد عن رسول الله (ص) في سفينة البحار أيضاً .

في « المنجد » ورد عن كلمة سفساف : « السفساف : الرديء من كل شيء . يقال : فلان سفساف الكلام أي ليس لكلامه معنىً . الأمر الحقير » .

٢ ـ ورد عن الإمام (ع) أيضاً أنه قال : « الناسُ عبيد الدنيا، والدين لَعقٌ على ألسنتهم ، فإذا مُحصّوا بالبلاء ، قلّ الديّانون »[1] .

وجاء في « المنجد » : « اللعقة : ما تأخذه في الملعقة ، أو بإصبعك . القليلُ مما يُلعق .

إنّ هذه العبارة ولا سيما كلمة « العبيد » إنما أراد الإمام من خلال استخدامها هنا أن يُبرز أهمية عزة النفس من جهة ، ويُحقّر الاستعباد ، وعبيد الدنيا بالذات ، من جهة أخرى .

٣ ـ وقد ورد نظير هذه العبارة ، قول معروف له عليه السلام ، وهو ما نُقل في « الأنوار البهية » ص ٤٥ : « وفي وصية موسىٰ بن جعفر عليهما السلام لهشام قال :

وقال الحسين بن علي عليهما السلام : إنّ جميع ما طلعت عليه الشمس ، في مشارق الأرض ، ومغاربها ، بحرها وبرها ، وسهلها وجبلها ، عند ولي من أولياء الله ، وأهل المعرفة بحق الله ، كفيء الظلال . ثم قال : ألا حُرٌ يدعُ هذه اللّماظة[2] لأهلها (أي الدنيا) ليس لأنفسكم ثمنٌ إلّا الجنة فلا تبيعوها بغيرها .

---

(١) « تحف العقول » : ص ٢٤٥ .

(١) اللماظة كنهامة وهو ما يتبقىٰ من الطعام في زوايا الفم (الأنوار البهية) .

فإنه من رضي من الله بالدنيا ، فقد رضي بالخسيس » .

من هذه الأقوال الثلاثة نستنتج

أولاً : بأنّ روح الحسين روح خاصة لا تقبل بالدنيء ، ولا ترضى النزول عند صغائر الأمور ، وهي طالبة المعالي (كما ورد في المثال الأول) .

ويتضح **ثانياً** : بأنّ كل هدف مادي ودنيوي ، **لا يتصل في النهاية برضا الله** ، أي الهدف الكلي من الخلقة ، أو يريد الانفصال عن هدف الخلقة الكلي ، يكون **هدفاً حقيراً ودنيئاً** .

ولهذا فمنطق (نابوليون) الذي يقول : إنّ فرنسا بالنسبة لي صغيرة ، وأُريد أن أضم روسية إليها ، يصبح منطقاً مرفوضاً .

وكذلك منطق (الإسكندر) الذي يقول : إنّ اليونان بالنسبة لي صغيرة ، فأنا أُريد ضم إيران إليها .

كما يتضح لنا أنّ كلّ من تعلّق بالمقام الدنيوي ، أو بثروات الحياة ، أو بكلا الأمرين ، فإنه يكون قد حقّر نفسه ، وصار دنيئاً ، وساقطاً بعين الحسين (ع) .

ومن هنا يتضح لنا أنّ مفتاح الشخصية الحسينية هي الحماسة الحسينية (والتي ورد تفصيلها في قسم : الملاحظات حول الحماسة الحسينية) .

٤ ـ بلاغة الحسين : دراسة العلم لِقاحُ المعرفة ، وطول التجارب زيادةٌ في العقل .

ـ لو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب .

ـ لا يأمن إلا من خاف الله .

ـ القدرة تُذهب الحفيظة .

ـ من البـلاء على هـذه الأمة أنّـا إذا دعونـاهُم لم يُجيبونـا ، وإذا تركنـاهم لم يهتدوا بغيرنا .

تأثير الأفكار المسيحية في واقعة كربلاء

يقول السيد صالحي[1] نقلاً عن « إرشاد المفيد : ص ١٨٥ » بـأنّ يزيـد قد اختار ابن زياد لمحاربة أبي عبـد الله الحسين (ع) ، بعـد التشاور مـع « سرجون » الرومي .

كما ورد أيضاً في « الكامل لابن الأثير الجزء الثالث ص ٢٦٨) :

« فلمّا اجتمعت الكتب (كُتب أتبـاع يزيـد بالكـوفـة) عنـد يـزيـد ، دعـا سرجون مولىٰ معاوية ، فأقرأه الكتب ، واستشاره فيمن يوليه الكوفة ، وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد ، فقال له سرجون :

أرأيت لو نشر لك معاوية كنت تأخذ برأيه ؟

قال : نعم . **فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة** » .

ولكن السؤال هو كيف حصل أن يكون عهد عبيد الله عند سرجون ؟!

أليس هذا بحد ذاته دليلاً على نوع من التخطيط الماهر والحاذق .

« فقال : هذا رأي معاوية ومـات وقد أمـر بهذا الكتـاب ، فأخـذ برأيـه ، وجمع الكوفـة والبصـرة لعبيـد الله ، وكتب إليه ، وسـيّره إليه مـع مسلم بن عمرو الباهلي ، والد قتيبة فأمره بطلب مسلم بن عقيل ، وبقتله ، أو نفيه . . . » .

في المقدمة التي كتبها الأستاذ الغفاري لكتاب « تحقيق في تاريخ عـاشوراء » كتب يقول :

إنّ يـزيـد قـد قضىٰ أغلب سني عمـره في أديـرة النصـارىٰ ، والتي كـانت تلعبُ في تلك الأيام دور الطابور الخامس ، إذ كان يُمضي الوقت في اللهو ، واللعب على

---

(١) وهو مؤلف كتاب « الشهيد الخالد » .

الدوام وبالتالي فإنه بالتأكيد كان يتلقىٰ التعليمات ، والتدريبات اللازمة أيضاً من أسياده من أرباب الدير .

والعجيب في هذا الأمر كيف أنّ مراكز العبادة ، والخلوات الرهبانية هذه ، قد صارت سبباً في ترويج الفحشاء والشراب في عالم الإسلام .

ولأنّ الشراب ، والاختلاء بالنسوة ، لم يكن ممنوعاً ، والحجاب ليس من تعاليمهم أيضاً ، فإنّ الأمر الطبيعي أن تتحول مراكز العبادة هذه إلى مراكز للفساد .

إنّ إحدى القرائن التي تؤكد أنّ يزيد كان واقعاً تحت تأثير الأفكار المسيحية ، هي هذه الأبيات الشعرية التي تُنسب إليه :

شُميسةُ كرمٍ ، بُرجها قَعْرُدَنّها ... وَمَشْرِقُها الساقي ، ومَغربُها فمي
إذا نزلت من دنها في زجاجةٍ ، ... حكت نقراً بين الحطيم ، وزمزم
فإن حُرّمت يوماً على دين أحمدٍ ، ... فخُذها على دين المسيح بن مريم

وفي نفس الكتاب أيضاً ينقل الأستاذ الغفاري عن اليعقوبي ، وغيره تلك القصة المعروفة عن يزيد التي قالت :

إنّ معاوية قد أرسله ذات مرة ، على رأس جيش ، لفتح بلاد الروم ، وإنه نزل في « غذ قذونة » أو « الفرقدونة » كما ورد اسمها في كتاب (أبو الشهداء للعقّاد) ، في ديرٍ اسمه (ديرمُران) .

ولّما كان الجيش قد حطّ الرحال هناك ، فإنّ يزيد التزم الدير مع عشيقة له اسمها أم كلثوم .

وإنه على الرغم من سوء الأحوال والظروف التي حلّت بالقوات ، وموت الكثير منهم ، وانتشار الأمراض ، والأوبئة ، في وسطهم إلاّ أنّه رفض الانتقال من ذلك الموقع ، رغم إصرار المستشارين ، والأعوان ، ولكن كما يبدو من نقل صاحب كتاب أبو الشهداء ، فإنّ ابتلاء الجند بالأمراض ، والأوبئة ، قد حصل

في مكان آخر ، وأنه كلّما طلب من يزيد ، أن ينتقل من الدير إلى حيث تُعسكر القوات ، ليطّلع على أمرهم ، كان يرفض مغادرة الدير ، وأنه صار ينشدهم :

ما أن أُبالي بما لاقت جموعهم ... بالقدقذونة ، من حُمّىً ومن مُومِ
إذا اتكأتُ على الأنماط في غُرفٍ، ... بدير مُرّانٍ ، عندي أُمُّ كلثومِ

المرثيات الحسينية ـ رثاء الجن

في « القمقام » الصفحات (٥٠٩ ـ ٥١٣) تم نقل قسم كبير من مراثي الجن بصورة الشعر ، ولا يُستبعد أن تكون هذه الأبيات الشعرية قد نُظِمتْ من قبل المُحبين والشيعة ، خاصةً وأنها تُعبّر عن حنين ، وعمق في الإحساس ، والعواطف .

ولكن لمّا كان الوضع لا يحتمل التصريح بتلك العلاقة ، في زمن الحكومات ، التي كانت تُطارد الشيعة ، والمُحبين لآل البيت ، فإنّ أصحابها كانوا ينشرونها على أنها من أشعار الجن ، وبهذا كانوا يُخفون على النظام من جهةٍ الجهات الحقيقية الناظمة لها ، ويجعلون الناس تحفظها ، وتُرددها بسهولة أكثر ، من جهة أخرى .

وهناك شعر معروف لدعبل الخزاعي نظمه في الحسين (ع) :

زُر خيرَ قبرٍ في العراق يُزار ، ... واعصِ الحمار فمن نَهاك حِمارُ
لِمَ لا أزورك يا حُسين لكَ الفدا ... قومي ومَنْ عطفت عليه نِزارُ
ولكَ المودةُ في قلوب ذوي النُهىٰ ، ... وعلى عدُوِّك مقتة ، ودَمارُ
يابن الشهيد ، وياشهيداً عمُهُ ... خيرُ العمومة ، جعفرُ الطيّار

وهذه الأبيات الشعرية تُنشر آنذاك باسم أشعار الجن أيضاً (القمقام ص ٥١٢) .

* * * *

الإمام الحسين (ع) - والأصحاب -
أبو الفضل العباس عليه السلام

ورد في الحديث : أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بأرض كربلاء في أيام صفين فشمّ تربتها وقال : « واهاً لكِ أيتها التُربة ، ليُحشَّرنَ منك أقوامٌ ، يدخلون الجنة بغير حساب »[1] .

كما ورد في الحديث أيضاً[2] . أن رسول الله (ص) قد قال عن الإمام الحسين (ع) :

« كأني به وقد استجار بحرمي ، وقبري ، فلا يُجار ، ويُرتحل إلى أرض مقتله ومصرعه ، أرض كربٍ وبلاءٍ ، وتنصرُهُ عصابةٌ من المسلمين ، أولئك سادة شهداء أمتي يوم القيامة » .

وفي مكان آخر ورد أيضاً[3] :

« خرج عليٌّ عليه السلام يسيرُ بالناس ، حتىٰ إذا كان بكربلاء ، على ميلين أو ميلٍ ، تقدّم بين أيديهم حتىٰ طاف بمكانٍ ، يُقال له المقذفان ، فقال : قُتل فيها مئتا نبيٍّ ، ومئتا سبطِ نبيٍّ كُلُهم شهداء ! هٰهُنا مُناخُ ركابٍ ، ومَصارعُ عُشاقٍ ، شُهداء لا يسبقهُم من قبلهم ، ولا يلحقهم من بعدهم » .

فإذا كان مقام الشهيد في الأساس ، كما ذكرنا سابقاً ، في أعلى عليّين ، فكيف إذاً تتصورون موقع ومقام أبي الفضل العباس والذي ورد بحقه : « إنّ له عند الله درجةً ، يَغبِطُه بها جميع الشهداء »[4] .

وعليه يمكننا تلخيص ما سبق كالآتي :

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٥٥ .

(٢) نفس المهموم : ص ٣٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٠ .

(٤) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ .

أ ـ إن مقام الشهيد هو فوق سائر الناس ، والصالحين ، والمُبرّزين ، من بني البشر .

ب ـ إنّ مقام شهداء كربلاء ، فوق مقام سائر الشهداء .

ج ـ إنّ لأبي الفضل العباس ، موقعاً خاصاً ، بين شهداء كربلاء .

شعارات كربلاء التاريخية

لقد نقل المؤرخون عباراتٍ ، وأقوالاً تاريخية عظيمة ، وكثيرة ، من كربلاء ، وهي تبين جميعها عن إنسانية كاملة ، وايمان خارقٍ للعادة ، كما تحكي لنا في الحقيقة عن حماسةٍ منقطعة النظير .

ولمّا كانت قد كُتبت وسُجلت بالدم ، فإنها تأخذ قيمة أخرى ما فوق قيمتها السابقة ، حيث منها نتمكن فهم واستيعاب الروح الحسينية ، وماهيّة النهضة الحسينية ، ومن هذه العبارات والأقوال :

١ ـ أقوال أبي عبد الله الحسين (ع) : ـ « ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ . . . ـ « هيهات منّ الذلة . . . ـ « الموت أولى من ركوب العار . . . ـ « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به . . ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً . ـ «الناسُ عبيد الدنيا والدين لَعقٌ على ألسنتهم . . . ـ « لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أُقرُّ إقرار أو (أفر فرار) العبيد . . . وغيرها الكثير .

٢ ـ قول علي الأكبر المشهور : « إذاً والله لا نُبالي . الحربُ قد بانت لها الحقائق . . . ويا أبتاه هذا جدي رسول الله . . .

٣ ـ قول القاسم بن الحسن : « الموتُ أحلى عندي من العسل .

٤ ـ قول أبي الفضل العباس (ع) :

يا نفس من بعد الحسين هوني ، هذا حُسين شاربُ المنونِ . .

٥ ـ أقوال مسلم بن عوسجة ، وسعيد بن عبد الله الحنفي ، وبشر بن عمرو

الحضرمي ـ يتم مراجعة مؤلف « تحقيق في واقعة عاشوراء » وقد ورد بشأنها بحث شيّق هناك .

الرسالة الحسينية

إنّ الذين ينهضون من أجل سلسلة من الأصول والمبادىء لديهم رسالة ونداء يودون توجيهه إلى العالم أجمع ، وهو ما يصطلح عليه أحياناً بالوصية .

وأبناء المستقبل والأجيال المتوالية ينبغي أن تعرف ما هي رسالة النهضة الحسينية .

والحسين بن علي (ع) لديه كلام بهذا الخصوص إذ يقول : « إني لم أخرج أشِراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله ، أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي » .

دور المرأة في واقعة كربلاء

لقد كُتب الكثير عن دور النساء في واقعة كربلاء ، ولا سيما في كتاب تحقيق في « واقعة عاشوراء » ، والذي يمكن من القول بأنّهن قد لعبنَ دوراً مُفيداً وفاعلاً في الواقعة ، إضافة إلى العقيلة زينب (ع) وهنّ نساءٌ من قبيل : زوجة زهير بن القين ، وزوجة عبد الله بن عمير الكلبي « أم وهب » ، ورباب بنت امرىء القيس (زوجة الإمام) وامرأة من قبيلة بكر بن وائل .

« سيد الشهداء » وكرامة النفس

وقد اشتهر عليه السلام كما ورد ذكر ذلك من قبل بكرامة للنفس ، وسمو ، وتعالي روحه الطاهرة الشريفة ، وقد كانت حياته في الواقع تبلوراً وتجسيداً مستمراً لهذا الأصل والمبدأ الإسلامي الكبير .

الإمام الحسين ، ثورة دموية

نعم هذه هي حركة الحسين ونهضته وقيامه المقدس ثورة كتبت بالدم ، باللون الأحمر القاني الذي يُعتبر من أكثر الألوان ثباتاً على صفحات التاريخ والمجتمعات البشرية . وعن هذا الموضوع وموضوعات أخرى كثيرة متفرقة يمكن مراجعة الكثير من الكتب الهامة التي كتبت بهذا الشأن ،والتي أجد أنها أمور ضرورية ينبغي على المُبلّغين مطالعتها ، ودراستها ، لأهميّتها في المباحث المنبرية .



القسم العاشر
حواشٍ نقدية حول كتاب
« الشهيد الخالد »

توضيح

إنّ متون الكتاب المنقود ستكون بخط مميّز بينما يكون تعليق **الأستاذ الشهيد بخط آخر** . وأما صفحات الكتاب المذكورة هنا فإنها تستند إلى **نسخة الطبعة الأولى من** الكتاب . [هذا مع الإضافة إلى أن الشرح والنقد المفصل ورد في الجزء الثاني من الكتاب الحاضر للأستاذ الشهيد] .

ص ٨ : لسنوات طويلة وأنا أرتجف وأنزعج كثيراً كلما سمعت مقالة البعض : « **إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد توجه إلى العراق حتىٰ يسيل دمه وتؤسر عائلته** » . وكنت أقول بيني وبين نفسي : إنّ الإمام الذي يغلي الدم المقدس في عروقه ، فيُعطي المجتمع الإنساني حرارة ، وحركة ، ونوراً ، ودعماً للإسلام والمسلمين ، لماذا كان يُريد الإمام إذاً، أن يُهدر هذا الدم الطاهر ، والفائر ، هكذا على أرض الصحراء ، ويحرم بالتالي عالم الإنسانية من تلك القيادة العظيمة ؟!!!

■ إنّها مغالطة .

ص ٩ : إنّ الذين كتبوا حول ثورة الحسين بن علي عليه السلام نراهم

منقسمين في الواقع إلى فئتين متضادتين في النظرة إلى تلك الثورة ، وهم على العموم إمّا قد أخذوا جانب الإفراط أو التفريط ، وبالتالي فإن الفئتين قد شكّلتا قطبين متضادين تماماً .

■ لم تُذكر الفئة الثالثة هنا .

ص ٣٧ : **يتضح مما قلناه منذ القسم الأول حتىٰ الآن ما يلي : إنّ الأسباب والعوامل التي دفعت يزيد أن يحمل على الحسين بن علي (ع) ثلاثة هي : ١ ـ تدعيم نظام حكمه . ٢ ـ عقدة الحقارة . ٣ ـ حس الانتقام . وأمّا من ناحية الإمام : فإنه ينبغي علينا الآن دراسة عوامل النهضة من ناحية الحسين بن علي (ع) .**

■ إنّ هذا النوع من التحليل ، يدفع بالعدو إلى الاستناد إلى القياس بالمصلحة المقابلة ، والقول بالتالي بأنّ نفس هذه العوامل هي التي دفعت بالحسين إلى النهوض ضد يزيد ، مع فارق أنّ الحسين أراد الوصول إلى الحكم بدلاً من تثبيته لدى الطرف الآخر ، بينما المطلوب هو دراسة متون الواقعة وتحليلها .

ص ٤٢ : رأي الفرزدق : **أثناء توجه الإمام الحسين (ع) نحو الكوفة التقىٰ في منزل « صفاح » بالشاعر الفرزدق فسأله عن الأوضاع في الكوفة ، فردّ عليه الفرزدق : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُمية »[1] وتوضيح مقالة الفرزدق هنا هو : إنّ الرأي العام ، والعواطف الشعبية مع حكمك وإنّه لو تُرك الناس أحراراً ، لنهضوا لمساعدتك بكل إخلاص ، لكن حكم بني أُمية يوجّه القوى الشعبية بالضغط والإجبار للتحرك لصالح حكومتهم وضداً لك في المقابل .**

■ إنّ هذا التحليل لمقالة الفرزدق ليس صحيحاً .

إنّ الفرزدق لا يريد أن يقول : إنّ الناس منافقون ، وإنهم بالرغم من إعلان محبتهم لك ، فإنهم يقومون بمساعدة بني أُمية بكامل اختيارهم ، إذ كيف

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٩٠

يمكن لروح الناس وقلوبهم أن تكون مع الإمام ثم تقوم ضده بكل حرية ؟! وإنما يقصد الفرزدق بأن القوى الوطنية تؤمن بك حقيقة وتحبك من صميم قلبها . وإذا ما تركت حراب الحكم الأموي الناس أحراراً ، فإنها ستنهض لمناصرتك بكل شوق . لكن قوى السلطة هي التي تقوم عملياً باستخدام قوى الشعب لصالحها .

■ أي حرابٍ كانت في الكوفة ؟ فقوة القمع اليزيدية في الكوفة لم تأتِ من الخارج .

ص ٤٣ : وهنا بالذات أحسّ الإمام بمسؤولية أكبر ورأى أنّ من الضروري التحرك لإحياء الإسلام وتغيير الوضع الراهن آنذاك من خلال تشكيل حكومة ـ دولة ـ قوية تخرجُ الإسلام والمسلمين من مخالب الاستبداد الأسود .

■ القول بأنّ الإمام قد اطمأن لأهل الكوفة ، لا يعتبر رأياً صحيحاً .

ص ٤٤ ـ ٤٥ : وحسب الاتجاه الطبيعي للأحداث فإنّ الاحتمال الأقوى ظناً ، كان يرى بأنّ إقامة الإمام الحسين (ع) للحكم الإسلامي في العراق كان يعني إضافة إلى وقوف قوات المتطوعين الكوفيين ، إلى جانب الحسين ، فإنّ جماهير الحجاز ، واليمن ، وخراسان ، وآذربايجان ، وسائر الولايات الأخرى ، ستقف دون تردد إلى جانب الإمام بعدما ذاقته من ويلات على يد حكام بني أُمية ، مع ما تذوقته من حلاوة أيام حكومة أمير المؤمنين علي (ع) في المقابل ، وبالتالي فإنها سوف لن تبخل عن تقديم أي شكل من أشكال الدعم للحكم الحسيني الجديد .

■ إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا منعوا الإمام من الحركة ولم يبرز سياسي واحد بينهم يُصادق على رأي الإمام ؟ مما يعني أنّ حركة الإمام لم تكن محكومة بالمنطق الذي اتخذه المؤلف لتفسير الأحداث . بل إنّ منطقاً آخر كان يشكل قاعدة التحرك الحسيني ، وذلك المنطق ليس المهمة الخاصة الموكلة لشخص الإمام بل منطق الشهداء ، والفدائيين .

ص ٥١ ـ ٥٢ : مما سبق يتضح بأنّ قوة الحسين بن علي (ع) ، وإمكاناته العسكرية ، والجماهيرية ، أثناء توجهه إلى الكوفة ، ومبادرته الساعية لتشكيل الحكم الإسلامي هناك ، كانت في المجموع العام (بين الكوفة والبصرة كان لديه ما يقارب المئة ألف نصير) ليست بأقل من إمكانات يزيد .

وأمّا من ناحية القوىٰ المنتظر تشكُّلها ، والتحاقها بالإمام فيما بعد ، فإنها كانت أكثر من احتياطي يزيد .

وأمّا من زاوية الكفاءة الشخصية والجدارة والتعاطف الشعبي فإنه لم يكن هناك مجال للمقارنة مع ابن معاوية .

وعليه فإنّ من حقنا القول : بأنّ القدرات العسكرية للإمام الحسين (ع) كانت أكثر من قدرات يزيد .

■ يبدو أنّ المؤلف يعتقد بأنّ الإمام الحسين كان يُراهن على قوى الكوفة ، أثناء حركته ، وخروجه إليها .

ص ٥٢ : ومن ناحية أخرى فإنّ القدرة العسكرية كانت موجودة بدرجةٍ كافية وعوامل النصر للإمام كانت متوفرة أيضاً .

■ إنّ ما يُضعف تحليل المؤلف ، وتقديراته للأمور ، هي هذه النقطة بالذات ، أي هل كانت هناك قوة عسكرية يمكن المراهنة عليها حقاً أم لا ؟ وهل كانت شروط قبول المسؤولية موجودة بالفعل أم لا ؟

ص ٥٤ ـ ٥٥ : مما عرضنا سابقاً تبين ، بأنّ إقدام الحسين بن علي (ع) ، بخصوص السيطرة على الطرق وإقامة الحكم ، والدولة الإسلامية فيه ، يشبه إقدام أبيه أمير المؤمنين علي (ع) بخصوص قبوله بالخلافة ، وتشكيل الحكم ، وإقدام جده رسول الله (ص) في فتح مكة ، والسيطرة على جزيرة العرب ، ومن ثم فإنه لا يجوز الفصل بين حركة الحسين (ع) ، وحركة كل من أبيه ، وجده ، واعتبار حركة الإمام هنا حركة استثنائية ، وعملاً خاصاً .

■ لا يبدو أنّ هناك مجالاً للقياس والمقارنة بين هذه الأحداث من ناحية الظروف المحيطة بكل واحدة منها .

ص ٥٦ ـ ٥٧ : من خلال هذه الدعوة الصريحة التي وجهها الإمام إلى أهل البصرة للتعاون معه ، وإرجاع الخلافة الإسلامية إلى أهل بيت النبي ، وإحياء سنة رسول الله ، يتّضح بشكل جيد بأنّ الأمل بانتصار الإمام كان موجوداً ، وبأنّه كان ممكناً بالتالي إنقاذ الإسلام المضطهد ، من خلال تشكيل حكم إسلامي قوي ، وكذلك إحياء سنة النبي المنسية .

■ ومن يدّعي بعدم وجود مثل هذا الأمل ، ومثل هذه الإمكانية مئة بالمئة لكن المؤلف يُريد هنا القول بأنّ الظروف المحيطة كانت مساعدة إلى درجة لا تقل عن (٥٠٪) وهذا ما لا يمكن إثباته بهذا الدليل .

ص ٥٨ : من خلال قول الإمام : « فإن نزل القضاء بما نحب ، فنحمد الله على نعمائه » . يتضح لنا جيداً بأنّ ما كان يهم الإمام بالدرجة الأولى ، هو تشكيل الحكم (إقامة السلطة المركزية) ، وإنقاذ الإسلام ، وهذا الأمل كان موجوداً من خلال دعم جيش الكوفة للإمام ، واستقراره عليه السلام في تلك المدينة ، وإعلانه لحكومة مستقلة ، وإحياؤه لسنة النبي من جديد .

■ ليس هناك شك في صحة هذا الأمر ، ولا يوجد أحد يدّعي بأنّ الإمام لم يكن ليرغب ، ولا أراد أن يقيم حكماً إسلامياً ، أو إنه لم يكن يسعىٰ لذلك وينشط من أجله .

لكننا نقول بأنّ الأمل والاحتمال بالغلَبَة لم يكن بالقَدر الكافي متوفراً للإمام ـ ذلك الإمام الذي يرى فيه المؤلف بأنه كان يرىٰ في المحافظة على نفسه ، من أهم الأمور التي تهمه وتهم الإسلام ـ حتىٰ يُعرّض حياته للخطر .

وثانياً لو فرضنا جدلاً بأنّ هذا الاحتمال كان سلبياً مئة في المئة فهل كان الإمام سيقعد ويتخلّف عن النهوض ؟!

ص ٥٩ : إنّ رسالة الإمام إلى أهل الكوفة كانت مليئة بالفرح والحبور ،

فرح الإمام من اتفاق أهل الكوفة ورؤسائها على تشكيل حكومة مستقلة بزعامة الإمام ، وإرجاع الخلافة الإسلامية إلى أهل بيت النبي (ص) .

■ وهذا أمرٌ بديهي أيضاً ، فليس هناك من يدّعي بعدم وجود مثل هذا الاحتمال ، أو أنّ الإمام لم يكن ليفرح من تحقق مثل هذا الأمل .

ص ٦٠ : من البديهي أن لا تكون كتابة مثل هذه الرسالة عقلانية ومنطقية إلّا بوجود إمكانية للنصر .

■ إنّه لأمرٌ حتمي أنّ مثل هذا الاحتمال كان وارداً ولو كان ضعيفاً .

ص ٦١ ـ ٦٢ : من كلام الإمام هذا يتضح بأنّه عليه السلام إنما قصد الكوفة التي سبقه إليها ممثله الشخصي مسلم بن عقيل ، والذي أعدّ القوى الداعمة والمساندة بهدف تلبية نداء الشعب المضطهد ، وإلهاب تلك القوى المُناصرة ، وتحويلها إلى نار تُحرق جذور الاستبداد الأسود ، وتُحطّم قصر الظلم والاستعباد ، وتبني على أنقاض حكم بني أُمية الظالم ، حكومة إسلامية مئة بالمئة ، تنشر العدل وتعمل بالقسط . وقد اختار ابن النبي (ص) أسلوباً ومنهاجاً تمثل في جواب الحجر بالحجر ، والقوة بالقوة ، ومن خلال خطبته النارية عليه السلام يتبينّ بأنّ شروط انتصار الحسين على العدو كانت موجودة .

■ إن دعوة أهل الكوفة واستصراخهم لإمام الأمة ، شكّلت من دون شك أحد عوامل النهوض والثورة ، وهي بذلك أوجبت تكليفاً ووظيفة خاصة للإمام . لكن هذا لا يُشكّل دليلاً على أنّ وضع أهل الكوفة كان مناسباً ، ومُهيأً لنصرة الإمام إلى الدرجة التي كان يمكن المراهنة عليها ، لا سيما وأنّ نظرة المؤلف عن الإمام بأنّه كان يُعطي أهمية بالغة لمسألة المحافظة على الذات ، وكما سبق وقلنا فإنه لا يمكن البرهنة على هذا الموضوع من خلال هذه الأدلة .

ص ٦٢ ـ ٦٣ : وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ ابن عباس الذي غادر البصرة حسب رأي أغلب المؤرخين ، في زمان أمير المؤمنين في العام (٤٠ هجري) ذاهباً إلى مكة[1] ، لم يَعد إليها بعد ذلك . ومنذ ذلك الحين حتى

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

العام (٦٠ للهجرة) يكون قد مضى على مغادرتـه للعراق ، عشرون سنة ، مما يعني أنه لم يكن مُطَّلعاً عن قرب على أوضاع العـراق ، وخاصـةً الكوفـة منه في الوقت الذي تكون فيه أوضاع العراق الاجتماعية قـد تغيّرت تغيّـراً كُلياً في هـذه المدة الطويلة ، كما أنّ جيلاً جديداً قد تشكّل في هذه الأثناء وأصبح يُشكّل غـالبية سكان العراق الجديد في هذه الأثناء .

■ لكنه ثبت عملياً بأنّ تحليل ابن عباس كان صحيحاً ، وقد قـال الإمام : « لله دَرُّ ابن عباس ينظر من ستر رقيق » .

ص ٦٤ : إنه ينبغي القول وبدون أي تعصُّب : نظراً لأن معلومـات ابن عبـاس ، حول أوضـاع الكـوفـة ، لم تكن ذات قيمـة ، بينـما كـانت معلومـات مسلم بن عقيل أكثر دقـة ، وأكثر واقعيـة ، فإنـه من الطبيعي في هـذه الحالـة أن يكون رأي مسلم بن عقيل ، هو الأوزن ، والأكثر صلاحاً .

■ عجبـاً ! إنّ كل أقـوال المعترضـين تنتقد تقييم مسلم بن عقيـل لأوضاع الكوفة ، وتتهمه بالضعف .

ص ٦٥ : وعلى هذا الأساس ينبغي القول : بأنّ كل الذين حذّروا الإمـام من التوجه إلى الكوفة ، عطفاً وإشفاقاً عليه ، لم يكونـوا في الواقـع مُطلّعـين على الأسرار العسكرية للإمام ، وعلى وجود ذلك الجيش من المتطوعـين ، الذي كـان ينتظر وصول الإمام عليه السلام ، وإلاّ لما أبدوا ما أبدوه من اعتراض .

■ إنّ أساس اعتراض المعترضين هو في عدم وجود مثل هذا الجيش .

ص ٦٦ : لكنه يجب أن نعرف بـأنّ التنبؤ بالأوضـاع السياسيـة ، وتقييمها شيء ، وبروز الحوادث من خلف الستار ، شيء آخر .

■ إنّ المؤلف يُريد القول بأنّ إنقـلاب الأوضاع فجـأة لغير صـالح الحسـين كـان أمراً غـير مترقب ، وغـير قابـل للتنبؤ ، وما تنبؤات الفـرزدق وابن عباس إلاّ رمية من غير رامٍ .

ص ٦٧ ـ ٦٨ : فهل يمكن القول هنا[1] : بأنّ تنبؤ رسول الله (ص) بخصوص الغلبة على العدو لم يكن دقيقاً ، بينما كانت نبوءة « عبد الله بن أبي » قائد المنافقين أكثر دقةً ؟! بالطبع كلاّ . بل إنّ تنبؤ وتقييم رسول الله (ص) كان دقيقاً وصحيحاً تماماً ، ودليل ذلك هو النصر الذي أصاب المسلمين في البداية ، لكن الحادثة المستترة ـ غير القابلة للتنبؤ ـ وهي مخالفة الرُماة لتعليمات النبي ، وتخلية مواقعهم ، سببت تلك الانتكاسة للمسلمين ، وإصابة النبي بالجراح . وهذه الحادثة غير المترقبة لم يكن بالإمكان التنبؤ بها من خلال مجريات الأمور العادية ، والقنوات الطبيعية ، للتحليل ، كما لم تكن هناك وسيلة بيد رسول الله (ص) ، لاجتناب وقوع مثل تلك الحادثة .

الإمام الحسين (ع) أيضاً قام بدوره بدراسة أوضاع العراق ، وتقييم الحالة فيه ، بل وفي الحجاز ، وفي سائر الأقطار الإسلامية ، بشكل دقيق ، وظل لأكثر من أربعة أشهر (من ٣ شعبان إلى ٨ ذي الحجة) وهو يتابع بدقة ، ويدرس الأوضاع السياسية ، ويُطالعها من كل جوانبها ، إلى أن تأكد لديه من خلال القنوات الطبيعية ، والظروف العادية ، التي كانت سائدة ، بأن إمكانية النصر العسكرية ، كانت موجودة . لكن ابن عباس الذي خالف فكرة خروج الإمام إلى العراق ، لم يكن واقفاً على عمق المتابعة ، والمعايشة السياسية للأحداث ، من قبل الإمام .

■ إنّ هذه المقارنة غير صحيحة . فالمسلمون في أُحد كانوا مستعدين للقتال والتضحية ، وكانوا يمتلكون القدرات الكافية لذلك . وما حصل من انكسار سببه خطأ واحدٌ ارتكبه الرُماة . بينما الحالة في الكوفة واستناداً إلى أقوال الفرزدق ، والآخرين ، التي أفادت بأنّ الناس « قلوبُهُم معك وسيوفهم عليك » أي إنها لم تكن مستعدة للقتال . كل ما هنالك كانت لديها الأحاسيس والعواطف المناصرة للإمام وليس الاستعداد للتضحية والفداء في سبيله .

ص ٦٨ : ولمّا كان موضوع مخالفة الرُماة لتعليمات رسول الله (ص)

---

(١) هنا أي في معركة أُحد .

الخاصة ، بمعركة أُحد ، من الموضوعات المُستترة ، فإنه لا يجوز التدخل في حريم التقييم الخاص لرسول الله (ص) وتنبؤاته بانتصار معسكر الإسلام في تلك المعركة . وهكذا أيضاً لا يحق لنا أن نخلط بين الحوادث المستترة التي سببت هيمنة عبيد الله بن زياد فجأةً على الكوفة ، وبين تقييم الإمام الحسين (ع) بشأن الأوضاع السياسية للعراق ، إذ إنّ مثل هذه الحوادث المستترة لا يمكن التنبؤ بها من خلال القنوات العادية للتحليل .

■ إنّ المؤلف هنا يدّعي بأنّ الإمام كان قد شخّص أوضاع وأحوال العراق بأنها تميل لصالح استلامه السلطة في الكوفة ، ولكن الأحداث أثبتت عدم صحتها .

وقد يسأل سائلٌ هنا : إذا كان الإمام الحسين (ع) ينوي تشكيل الحكم (استلام السلطة) فما الذي يمتاز به الإمام عن عبد الله بن الزبير ، الذي كان بدوره أيضاً يسعى لاستلام السلطة ؟

لكننا نقول بأنّ مثل هذا السؤال كان يمكن أن يُطرح في زمن رسول الله (ص) ، فنقول وما هو امتياز رسول الله (ص) على أبي سفيان والمشركين ، الذين كانوا يسعون هم الآخرون إلى نيل الغلبة في معركة أُحد، وتحقيق الانتصار على الطرف المقابل ؟

والجواب ، هو : إنّ رجال الله الذين يُقاتلون في سبيله ، يمتازون على رجال الهوىٰ والدنيا بامتيازات ثلاثة . . .

■ إن مثل هذا السؤال والجواب لا محل له من الإعراب هنا وهو نوع من الجدل اللفظي ، والعبث المحض .

ص ٧٠ : هناك سؤال يطرح نفسه هنا على كل عاقل وهو : إذاً ،ماذا حلّ بذلك الجيش من المتطوعين الأقوياء ، الذين أعلنوا استعدادهم لنصرة الحسين ؟ ولماذا لم ينجدوه ويقضوا على حكم يزيد ؟!

لكن مثل هذا السؤال يتبادر إلى ذهن المرء كذلك بشأن حالة أمير المؤمنين

علي (ع) : وهو ماذا حلّ بجيش الإمام القوي في حـرب صفين ؟ ولمـاذا لم ينهض بمهِمّة القضاء على معاوية ، ونصرة علي (ع) ؟!

■ إنه لقياس غير صحيح البتّة

ص ٧١ : إنّ جيش الإمام الحسين القوي ، وبعد انقلاب الحالة في العراق وإغلاق الطرق ، لم يتمكن من إقامة اتصالاته مع الإمام ، ومـع إرسال عبيـد الله ابن زياد لجيش الحُر بن يزيد بهدف جلب الإمام ، فـإن قيادة الجيش الشعبي قـد سُلِبت عملياً من الإمام ، وفي مثـل هذه الحـالة أصبـح النصر العسكري بـالنسبة للإمام أمراً غير ممكن .

■ ولم يكن هؤلاء الجُند من غير أهل الكوفة . وأهل الكوفة كلهم كانوا على هـذه الشاكلة ، وإلاّ كيف استـطاع عبيد الله بن زيـاد بعدد محـدود من الأفراد أن يُسيـطر عـلى أوضـاع الكـوفـة ، وينتصر عـلى مسلم بن عقيـل ، المقيم والمتحكم بأوضاع الكوفة ، حتى لحظة وصول ابن زياد ؟

ص ٧١ ـ ٧٥ : وعليـه فـإنّ السبب الأســاسي في عـدم تحقق الانتصــار العسكري للإمام علي (ع) في حرب صفين ، وللإمام الحسين (ع) في نهضته ، هو انقطاع الصلة وفك الارتباط الحاصل بين مـوقع القيـادة ، وبين الجيش التـابع ، مـع فارق أنّ سبب هـذا الانفكاك ، والقـطع ، في حرب صفـين كان في سيـطرة حالة النفـاق ، والاختلاف الشـديد ، في صفـوف جيش الإمام عـلي (ع) ، بينما سبب ذلك في حالة الإمام الحسـين (ع) هو تحـوُّل أوضاع الكـوفة ، وانقـلابها ، وسيطرة عبيد الله بن زياد ، وإغلاقه للطرق ، وقطعه الإمدادات .

فإضافة إلى خطاب كثير بن شهاب نفسـه ، فقد صعـد عدد من أصحـاب كُثير ورفاقه ، وخطبوا بالناس من على سطح الإمارة ، الأمر الذي ترك أثراً بالغاً في معنويات أنصار مُسلم وجيشه .

■ وهـذا هـو دليـل عـدم استعـداد أهـل الكـوفـة للحــرب ، واكتفـائهم بالعواطف التي أبرزوها لصـالح الإمـام . ثم إذا ما تصـورنا أنّ مثـل هذه الحملة المضادة ، قد حصلت في صفوف جيش أمير المؤمنين في صفين ، أو أصحاب النبي

في معركة أُحد ، مع مُرادفة ذلك بالتهديد أيضاً ، فهل كانوا سيتفرقون أيضاً ؟ لكن الذي كسر جيش أُحد هو الخطأ العسكري المعروف ، كما أنّ الذي كسر اندفاعة علي وأصحابه هو ذلك الجهل والتحجر ، الذي أصاب بعض قياداته وأعوانه ، وليس تهديدات العدو . إنّ الشعب الذي يتفرق عن قائده بالتهديد والوعيد ، لا يكون مستعداً للثورة والجهاد من الأساس .

ص ٨٣ : إنّ الاختلافات في وسط أهل الكوفة ، وحالة الانحطاط والتخلف ، لديهم لم تكن أسوأ من حالة قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة ، ومع توفر الشروط التي ذكرناها فإنّ تشكُّل السلطة والحكم الحسيني ، وقلب الأوضاع ، ودفعها باتجاه المُراد الحسيني بدعم قوة أهل الكوفة ، كان أمراً ممكناً جداً .

■ هل صحيح المقارنة بين أهل الكوفة وأهل الأوس والخزرج ؟

ص ٨٥ : في مثل تلك الظروف الإيجابية قرّر الإمام الحسين (ع) العمل على إقامة الحكم الإسلامي ، والبدء بإصلاحاته المرجوة في ظل تلك الحكومة المنتظرة ، وفي تلك الأيام كانت أكثرية أهل الكوفة تُريد الحكم الحسيني من أعماق قلبها ، وليس من باب النفاق .

■ إنّ القارىء هنا كما أظن يستنتج ما يلي : إذا كان الهدف من النهضة الحسينية هو هذا الذي يُحدّده المؤلف فقط وإذا كان استعداد أهل الكوفة كما يطرحه المؤلف ، وإذا كان المخطط الموضوع لاستلام السلطة هو بالشكل الذي يطرحه المؤلف أيضاً ، فإن النقص لا بد وأن يكون في التكتيك ، والقيادة ، وإنّ دفاعات المؤلف ضعيفة أيضاً .

. . . إنّ المختار بن أبي عبيدة قد تمكن من تشكيل حكومته بمساعدة أهل الكوفة هؤلاء أنفسهم ، واستطاع أن يسيطر على قسمٍ وسيع من البلاد الإسلامية ، و لا شك بأنّ محبة أهل الكوفة وإخلاصهم للإمام الحسين (ع) أكثر بمئات المرات من محبتهم وإخلاصهم لسليمان بن صرد والمختار . بل إنّ إطاعة أهل الكوفة وانصياعهم لسليمان بن صرد والمختار لم يأت في الواقع إلاّ بسبب

عشقهم وإخلاصهم للإمام الحسين (ع) .

■ بل إنّ شهادة الإمام هي التي نبّهت أهل الكوفة ، وأيقظتهم ، وجعلتهم يُخلصون في ثورتهم وقيامهم . وإلّا فإنّ حالتهم قبل استشهاد الإمام ، ليست هي كحالتهم وروحيتهم بعد الاستشهاد .

ص ٨٦ : ٣ ـ إنّ الأقلية المنافقة والمخادعة من أمثال عمرو بن الحجاج[1] ، والذين يمكن العثور عليهم في أية نهضة ، كما هو حالهم بين أصحاب رسول الله (ص) ، وأصحاب أمير المؤمنين علي (ع) . هم الذين يتوجه إليهم الإمام الحسين (ع) باللوم ، والعتاب ، والتوبيخ ، في يوم عاشوراء ، وليس تلك الأكثرية المخلصة . إذ إنّ تلك الأكثرية المخلصة ، التي كانت موضع علاقة الإمام ومحبته ، قد تلقّت رسالة الشكر والتشجيع المعروفة التي أرسلها إليها الإمام ، وهو في الطريق إلى الكوفة كما ورد ذكرها في الصفحة (٥٩) .

■ ليس صحيحاً .

ص ٨٩ : بديهي القول إنّه إذا ما كانت الحكومة الإسلامية القوية ، قد تشكّلت حقاً كما كان يُريدها الإمام الحسين (ع) ، وبالتالي أصبحت زعامة البلاد بيد سبط النبي (ص) ، وبالطبع انتقالها فيما بعد إلى أهل بيت العصمة والنبوة ، الذين كانوا سيديرون تلك البلاد الإسلامية العظيمة ، فإن وحدة سياسية قوية ، ومفيدة ، وعظيمة ، كانت ستنتج من خلال تلك التطورات . ومن ثم فإنّه كان من الطبيعي أن نرىٰ العالم الإسلامي كله وقد أصبح تابعاً لأهل بيت العصمة والطهارة ، بعد مُضي أقل من نصف قرنٍ من الزمان ، وهنا بالذات يمكن اكتشاف حقيقة التشيع . ولو كان ذلك قد حصل لما كنا قد رأينا هذا الشقاق والخلاف الضار الموجود بين المسلمين ، والذي يعود في منشئه إلى سقيفة بني ساعدة . ولما بقي شيء اسمه التضاد المعروف بالتضاد الشيعي ـ والسني ، ولما كان لحق بالإسلام كل هذه الضربات التي لحقت به . وفي الحقيقة يمكن القول بأنّ الإمام الحسين (ع) ـ بانتصاره في واقعة كربلاء ـ كان بإمكانه تلافي كل تلك

---

(١) يدور البحث هنا حول تقسيم مجتمع أهل الكوفة .

الأضرار التي لحقت بالمجتمع الإسلامي من قبل الحكومات السابقة طوال نصف قرن من الزمان ، ولا سيما حكومة ابن أبي سفيان المضادة للإسلام .

وعليه يجب القول : إنّ حصول الوحدة السياسية ، والقضاء على الاختلافات المسلكية ، والمذهبية ، والتي وجدت تربتها الخصبة في جو الاختلاف على السلطة ، والخلافة ، كان يمكن أن تكون من الآثار المُفيدة ، والقيّمة للحكومة الحسينية .

■ إنّها نظرة مثالية للغاية .

من مجموع التحقيقات التي حصلت حتىٰ الآن يتضح لنا بأنّ الإمام الحسين (ع) وبعد أن امتنع عن مبايعة يزيد ، فقد هاجر إلى مكة ، وانتظر هناك ، وهو يدرس الأوضاع السياسية ، بكل دقة وعمق ، حتىٰ وصله تقرير مسلم بن عقيل المُطمئن ، الذي يُستخلص منه بأنّ جيش المتطوعين القوي للإمام في الكوفة والبصرة ، يبلغ مئة ألف رجل .

■ جيش المئة ألف رجل !

ص ٩٠ : . . . عندما أرسل الإمام الحسين (ع) مسلماً إلى الكوفة ليستقصي الحقائق فيها ، كان قد أمره بالعودة إلى مكة في حالة رؤية أوضاع الكوفة غير مناسبة ، وغير مُهيأة لانتقال الإمام إليها . وعليه فإنه لو كان مسلم قد عاد إلى مكة ، وقال : بأنّ أهل الكوفة ليسوا على استعداد لتحمل الواجب ، فإنّ الإمام ما كان سيخرج إلى الكوفة .

■ إذا كان « مسلم » قد بعث بتقرير سلبي عن أوضاع الكوفة لما كان الإمام قد توجه إليها . (ولكن ماذا كان سيفعل ؟ الجواب ليس واضحاً من قبل المؤلف) .

ص ١٠٩ : . . . مع قراءة هذه الرواية ، قد يتصور البعض بأنّ الإمام قد انطلق من مكة متجهاً نحو الكوفة ، بهدف أن يقتل هناك . لكن علينا أن نعرف هنا بأنّ ناقل هذه الرواية هو « سفيان بن وكيع » ، وهو من أهل السنة المتهمين بالكذب ، وهو هنا يُلصق كذباً واضحاً بالإمام ذلك أنه يقول : إنّ الإمام قد

قال : « إنّ هناك مصرع أصحابي ، لا ينجو منهم إلّا ولدي علي (ع) » .

في حين أنه قد بقي عدد لا بأس به من أصحاب الإمام نذكر لكم بعض أسمائهم هنا . . .

■ الأصحاب غير المرافقين .

ص ١٠٩و١١٠ : ثم ما معنى نسبته مثل هذا القول إلى الإمام : « لولا تقارب الأشياء وهبوط الأجر لقاتلتهم بهؤلاء ؟ ! » هل يعني ذلك أنّ استعانة الإمام بالملائكة في مقاتلة العدو ، وقتله له ، وإحياؤه للإسلام يعني ضياعاً لأجره ؟!!

■إنّ المقصود هنا هو أنّ الملائكة تقتل العدو بتعليمات مني (بأمرتي) .

. . . وكما ترون فإنّ أهل السنة قد نقلوا هذه الرواية القبيحة ، وغير اللائقة ، ونسبوها إلى الإمام ، واعتبروها من كرامات الإمام ، ولم يستحوا من ذلك .

■ بل سفيان بن وكيع .

ص ١١١ : والذي يبعث على العجب أيضاً بأنّ السيد الجليل المرحوم ابن طاووس رضوان الله عليه قد نقل هذه الرواية في كتابه اللهوف (ص٥٤) دون أن يرىٰ أية نقطة ضعف في الرواية .

■ كيف حصل حتىٰ تحولت تلك اللهجة الشديدة هناك إلى لحن مخفف ؟

ص ١٢٥ : يقول ابن طاووس رحمه الله : « ورويت من أصل لأحمد بن الحسين بن عمر بن بريدة الثقة ، وعلى الأصل ، أنه كان لمحمد بن داوود القمي بالأسناد عن أبي عبد الله (ع) قال . . .

■ والظاهر أن صيغة الرواية تفيد المجهول ، والمقصود هو أنّ أحداً نقل لي هذه الرواية من هذا الكتاب . . . وإذا كان غير ذلك فالرواية مُسندة وواضحة وعندها يصبح إشكال المؤلف لاغياً .

ص ١٢٦ : من البديهي القول بأنّ نقل (ابن مخنف) مُرسل أيضاً مثل نقل (اللهوف) ، ذلك أن الناقل ـ الراوي - الأصلي مجهول . وفي هذه الحالة فإنّ مُرسل (أبي مخنف) يتعارض مع مُرسل (اللهوف) وبالتالي فإن كليهما يسقط من الاعتبار وكأنه لم ينقل شيئاً لا من قبل (أبي مخنف) ولا من قبل صاحب (اللهوف) والنتيجة ستكون أن نقل اللهوف ـ نقل أبي مخنف ـ صفر .

■ المطروح هنا معادلة جمع وليس معادلة طرح .

. . . « عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : كتب الحسين بن علي من مكة إلى محمد بن علي ، ومن قبله من بني هاشم ، أما بعدُ ، فإن من لحق بي استشهد ، ومن لم يلحق لم يُدرك الفتح والسلام » .

■ وهذا بدوره يُدلّ على أنّ الإمام كان يعلم بشهادته ، بل وكان يعلم حتى مكان استشهاده .

ص ١٢٩ : وإذا ما قال أحدهم : بأنّ القتل في سبيل الدين ، مطلوب من الله ، فإنّ جوابه هو أنّ القتل ليس هوالمطلوب من قبل الله ، بل المطلوب هو حماية الدين ، والدفاع عنه ، وهو ما يُلازمه أحياناً حصول القتل . إذاً ما أراده الله ، وما هو مطلوب عند الله الدفاع عن الدين ، وليس القتل .

■ وهو كذلك ، فكما يكتب الكاتب ، يعتقد الجميع أيضاً بأنّ المقصود ليس عمل القتل الذي يحصل للإمام من حيث أنه عمل قتل ، وأنّ علينا التوسل بهذا القتل . إنّ المطلوب الأساسي هو حماية الدين الذي يستلزم صرف الأموال ، والجهد ، والوقت ، والأنفس . ولهذا السبب ترى أنّ صرف المال على طريق الجهاد في سبيل الله أمر مطلوب بالرغم من أنّ إتلاف المال أمر غير مطلوب . وصرف الأنفس في المواقع التي يتطلبها أمر الجهاد ينطبق عليها نفس الحكم . ففي (نهج البلاغة) ورد أنّه عندما أبلغ رسول الله (ص) الحسين (ع) بخبر استشهاده سأله : وكيف صبرك على ذلك ؟ فقال الحسين إنّ هذا من مواطن الشكر ، وليس الصبر . فالشهادة يُشكر لها . وكل المؤملين أنفسهم بالشهادة من هذا القبيل . وقد ورد في الأدعية « وارزقني قتلاً في سبيلك » .

ص ١٣١ ـ ١٣٢ : وعليه لا معنى للقول بأنّ رسول الله (ص) قد أمر الإمام الحسين (ع) : أنْ اذهب يا حسين ، وعرّض نفسك للقتل*، لأن الله شاء أن يراك قتيلاً . بل إنه لو أراد رسول الله (ص) أن يُصدر أمراً للإمام الحسين (ع) ، فإنه لكان قد قال له : اخرج لحماية الإسلام ، لأنّ الله شاء ، أن يراك حامياً ، ومدافعاً ، عن الإسلام . وهذا بدوره لا يحتاج إلى تعليمات جديدةخاصة، لأن حماية الإسلام واجب مفروض على كل مسلم . وعلى هذا فإنه ما أن توفرت *** شروط الانتصار العسكري للإمام الحسين (ع) ، فإنه ومن أجل إنقاذ الإسلام ، وإقامة السلطة والحكم الإسلامي ، خرج إلى الكوفة بقرار حاسم من دون التوقف عند كلام هذا وذاك .**

■ *إنه لأمر عجيب جداً ! فمعنىٰ الجملة هو : اخرج إلى الثورة فالله يُحبّ مثل هذه الثورات ـ **إنها ليست تعليمات جديدة ، بل الأمر يتعلق بمصداق معين وحالة خاصة . ***لماذا يجب أن تكون شروط الانتصار متوفرة حتماً ؟

ص ١٣٣ : يكتب المؤرخون : بأنّ الإمام الحسين (ع) مثله مثل سائر الحجاج الآخرين ، كان قد بدأ مراسم الحج بالشروع بالإحرام في اليوم الثامن من ذي الحجة ـ يوم التروية ـ ولكنه قبل أن يتوجه إلى عرفات ، أحس فجأةً بخطر يُهدده ، فانصرف عن تأدية مراسم الحج العادية ، وأقام العُمرة سريعاً ، وخرج من إحرامه ، واتجه صوب الكوفة ، حتىٰ لا يقع بيد عُمّال يزيد .

■ لا يمكن التصديق بأنّ الإمام قد قرر خلال ساعات أن يُعدّ نفسه ، وأهله ، للرحيل ، واتخاذ قرار السفر .

ص ١٣٣ ـ ١٣٤ : إنّ النتيجة التي يمكن استخراجها من البحث والتمحيص حول حديث : « اخرج فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً » هي أنّ هذا الحديث ليس له لا سند معتبر وموثق ، ولا معنىٰ صحيح ومنطقي .

■ إنّ معناهُ من خلال فهم جملة : إن الله قد شاء . . ليس فيه إشكال أمّا إذا كان هناك إشكال في الحديث ، فإنه يكون في سنده ، أو مضامينه الأخرى .

ص ١٣٥ : ولكن كيف يكون مقتل الحسين بن علي (ع) سبباً في ترويج الدين ، وتقدم الإسلام؟ إنّه المُشكل الذي لم نجد له حلاً حتى الآن . فهل أن وجود الإمام الحسين (ع) كان يُشكّل مانعاً لتقدم قوات الإسلام حتىٰ إذا قُتل الحسين ، نتج عن ذلك ترويج لصالح الإسلام ؟ . وهل تمكن المسلمون بواسطة مقتل الحسين التقدم أكثر فأكثر في جبهات الشرق والغرب ؟ أم هل كان مقتل ابن النبي (ص) سبباً في تنفيذ أحكام الإسلام ، وتطبيق مقررات الدين أكثر من ذي قبل ؟

■ الكاتب هنا يقوم بعملية مغالطة واضحة .

ص ١٤٠ ـ ١٤١ : . . . أحرَم استعداداً للحج ، وكان ينوي التوجه إلى عرفات ، لكنه لمّا أحس بالخطر انصرف عن الحج ، وأدى العمرة ، وخرج من الإحرام ، وتحرك نحو الكوفة .

■ سبق وقلنا بأنّ مثل هذا الأمر غير ممكن أن يكون قد حصل بهذه الطريقة أي إنّ قرار التوجه إلى الكوفة ، لا يمكن أن يكون قد أُخِذ خلال ساعات ، ذلك اليوم ، وبتلك السرعة ، إلاّ إذا قلنا بأنّ الإمام كان قد أعدّ كل شيء للتوجه نحو الكوفة ، بعد إتمامه لمراسم الحج إلاّ أنّه قام فجأةً بالتعجيل وبالانطلاق ، بسبب الأخطار المستجدة .

ص ١٤١ : وأما نتيجة الكلام ، فإنها ستكون مع الافتراض ، بأنّ كل هذه الخطبة[1] قد تم إيرادها في مكان واحد ، ولكن لمّا كانت جملة « فإني راحلٌ مصبحاً . . » موجودة فيها فإنه ينبغي القول : بأنّ الإمام لم يُلق هذه الخطبة في مكة ، ذلك أنّ الإمام لم يكن ينوي التحرك من مكة في صباح يوم (٨ ذي الحجة) بل كما سبق وأشرنا فإنّ حركة الإمام في ذلك اليوم ، قد تمت بشكل فجائي ، وبدون سابق تصميم ، ونتيجةً للاضطرار ، والإجبار .

■ إنه لأمر مستبعد جداً جداً .

---

(١) المقصود هنا خطبة « خُط الموت على وُلدِ آدم . . . » .

ص ١٤٢ : كتب أحد علماء النجف يقول بأنّ الإمام قد أورد هذه الخطبة وهو في الطريق . فإذا كان هذا النقل موضع ثقة ومُسنداً ، فإنه قد يكون كذلك بالفعل ، وإن مثل ذلك قد حصل أثناء توقف الإمام في أحد المنازل ، ولدىٰ سماعه خبر شهادة مسلم بن عقيل ، حيث أراد عليه السلام المبيت هناك ، والاستمرار في المسير صباح اليوم التالي .

■ إنه فرض جيد ، ولكن هل لهذه الفرضية سندٌ أم لا ؟

ص ١٤٢ ـ ١٤٣ : ولنفترض الآن بأنّ الإمام قد أورد هذه الخطبة من أولها لآخرها في مكة قبل خروجه منها نحو الكوفة . هنا ينبغي علينا دراسة أوضاع وأحوال المحيط الذي أُنشئت فيه هذه الخطبة ،حتى نصل إلى إدراك صحيح لهذه الخطبة :

إنّ تحقيقات الإمام الحسين (ع) التي دامت لعدة أشهر ، ودراسته الدقيقة ، والمعمقة ، لميزان القوىٰ ، بين الحكومة من جهة ، والقوىٰ العسكرية التابعة له من جهة أخرى ، أعطت النتائج التالية : إنّ عوامل الانتصار كانت قد توفرت لحركة الإمام وإنّه فيما لو تمت السيطرة على الكوفة بسبب تلك الظروف المساعدة ، وتشكيل الحكم الإسلامي الحسيني ، فإنه يصبح بالإمكان إنقاذ الإسلام في ظل اقتدار الحكومة الوليدة ، كما يمكن أيضاً إحياء سنة النبي (ص) .

لكن من المعلوم أيضاً بأنّ عمال الحكومة لم يكن من المنتظر منهم أن يبقوا جالسين دون حراك منهم إذ إنهم يراقبون الأحداث ، والأوضاع ، فإنّ احتمال وقوع المجابهة العسكرية موجود أيضاً . وعليه ينبغي على الأفراد المؤهلين للكفاح والقتال أن يكونوا مستعدين لتقديم أيّ نوع من أنواع التضحية والفداء ، بكل جدية وقاطعية ، لا سيما قائد هذه النهضة الذي ينبغي عليه أن يكون على أتم الاستعداد لمثل تلك التضحية .

وفي مثل هذه الظروف فإنّ الإمام الحسين (ع) سَيُخاطب بلا شك أصحابه بلهجة مفعمة بأحاسيس التضحية والفداء ويُعلن لهم النفير العام .

■ لكن هذا التحليل لا ينسجم مع لحن الخطبة القاطع .

ص ١٥٤ : الحقيقة هي أنّ أمير المؤمنين عليّاً(ع) عندما يعقد العزم على محاربة معاوية ، فإنه يُعبىء كل قُواه ، حتىٰ يقضي على معاوية ، ويمحوهُ من على وجه البسيطة ، وبالتالي فإنّ كل جهده منصبٌ على تحقيق هذا الهدف ، ولا يعمل بالتالي أبداً على الوصول إلى درجة الاستشهاد ، أو ينشط من أجل أن يُقتل هو في المعركة .

■ إنّ الحديث لا يدور حول العمل ، وبذل الجهد ، من أجل تحقق القتل .

ص ١٥٦ : مما سبق يتضح بأن ما قام به الإمام الحسين (ع) منذ اللحظة التي قرر فيها التوجه نحو الكوفة هو السعي بالدرجة الأولى لمقاومة الحكم ، واستبداله بحكومة إسلامية مثة بالمثة وإحياء سنة النبي ، ولم يكن ، قد بذل أي جُهدٍ يذكر من أجل تحقق القتل ، أو أنّه إنما تحرك لتحقيق مثل هذا الهدف .

■ إنه لأمرٌ عجيبٌ جداً !

ص ١٥٧ : لكن بعض الأفراد ، وبسبب تقارن زمانهم مع زمان ما بعد وقوع حادثة كربلاء ، فإنهم تراهم يولون جُل اهتمامهم لشهادة الإمام فقط ، دون سائر مجريات الواقعة وبذلك يكون التركيز لديهم على خطبه الخاصة بالشهادة ، دون الاهتمام بخطبه عليه السلام مثلاً بشأن ضرورة إقامة الحكومة الإسلامية ، وضرورة تغيير الحكومة الظالمة ، والقضاء على جذور الاستبداد ، ونُصرة المظلوم المُنادي بالعدالة والقسط .

■ أليس حدوث عملية الثورة حتىٰ الموت ، إحدى علل هذا التفكير ؟

ص ١٥٨ : هنا لا يُريد الصدّيق يوسف أن يقول : بأنّ السجن هو رغبتي ومرامي ، وإنني أسعىٰ من أجل ذلك ، فالسجن معاناة ، وألم ، وعذاب ، للجميع بل إنه أراد أن يُبرز قُبح الفسق والفجور ، من خلال المقارنة ، بين الذهاب إلى السجن ، مع كل ما يُرافق ذلك من معاناة ، وآلام ، وبين الغرق ، والتلوُّث بآفة الفسق والفجور . وبالتالي إظهار قبح الفجور بأسوأ شكل ممكن .

■ بالضبط كذلك هي قضية الحديث آنف الذكر .

ص ١٦٠ : فمثلاً لو أن عبيد الله بن زياد قد بايع مُسلماً(ابن عقيل)، وكتب مسلم إلى الإمام يشرح له ما آل إليه الوضع بالنسبة إلى ابن زياد ، وكيف أنّه قد سلّمه أمر الحكومة هناك ، وأنه وأهل الكوفة ينتظرون مجيئه . فإنّ ذلك كان سيتطلب من الإمام حسب تصوُّر أولئك الناس بأنْ يكتب إلى مسلم يقول : يا مسلم قل لابن زياد بأنني غير راغب في حكم العراق ، ولست كذلك راغباً في القضاء على حكومة يزيد ، بل إنني أود التوجه نحو كربلاء ، حتىٰ أُقتل هناك ، وعليه فإنّ المطلوب منك أن تقنع ابن زياد بضرورة الإمساك بالسلطة ، وإرسال الجيش خلفي لمحاصرتي ، وإجباري على النزول بأرض كربلاء . ومن ثم تعزيز تلك القوات بقوات أخرى ، حتى يتمكنوا من قتلي ، وقتل أصحابي وأسر أهل بيتي .

■ إنها مُهاترات . . . .

ص ١٦١ : أو إنه لو حصل ، وتاب عمر بن سعد صبح يوم العاشر من محرم ، وقرر هو وجيشه الالتحاق بالحسين ، واستخدام ذلك الجيش في السيطرة على الكوفة ، ومن ثم التوجه للقضاء على حكم يزيد ، فإن المطلوب من الإمام الحسين (ع) ، حسب تصوُّر ذلك البعض بأنْ يطلب الإمام من عمر بن سعد سحب توبته ، وأن لا يضع يده وقواته بيد الإمام ، بل استمراره في الحرب ، وإصدار أوامر قتل ابن النبي (ص) ، وإنه إذا ما رفض عمر بن سعد كل ذلك من الإمام فإن برنامج الحسين (ع) ـ برنامج القتل ـ عندها يبقىٰ دون تنفيذ ، مما يتطلب منه العودة إلى المدينة ، وفي حال أن وجه أحدهم السؤال له : ولماذا عُدت إلى المدينة ؟ فإنّ عليه القول : إنّ خطتي كانت أن أُقتل على يد عُمال حكومة يزيد ، ولمّا رفض أولئك العُمّال قتلي ، وأسر عائلتي فإنني تراني قد عُدت إلى المدينة مُضطراً !!!

■ إنّها (مرة أخرى) مهاترات (لا أكثر) .

ص ١٧١ ـ ١٧٢ : بعد التأمل التام في الوثائق التاريخية ، يتضح لنا بأنّ ثورة الإمام قد بدأت بهجوم أجهزة السلطة الحكومية ضده ، وعلى أربعة مراحل :

١ ـ من الوقت الذي قرر فيه الهجرة من المدينة إلى مكة حتىٰ اللحظة التي كان لا يزال فيها مصمماً على البقاء في مكة .

٢ ـ من اللحظة التي قرر فيها الخروج إلى العراق ، حتىٰ لحظة المواجهة ، مع جيش الحُر بن يزيد الرياحي .

٣ ـ من لحظة المواجهة مع الحر حتىٰ بدء المعركة .

٤ ـ مرحلة المعركة .

■ حيث يرى المؤلف أنّ نهوض الإمام وقيامه لم يكن ابتدائياً أيْ (هجومياً) إلاّ في المرحلة الثانية .

ص ١٧٤ : فهل من الممكن التصور لشخصية فكرية رفيعة المستوىٰ مثل ابن الإمام علي بن أبي طالب : بأنْ يقدم على عمل هجومي (ثورة ابتدائية) من دون حساب دقيق لتفاصيل ما تحتاجه مثل هذه الثورة من تجهيزات ، ومستلزمات عسكرية ولوجستية ؟! مع العلم أنّ مثل هذا الإقدام مع عدم توفر القدرات الكاملة ، لا يعني سوىٰ خلق الفوضىٰ والتشنج داخل المجتمع ، وانتهاء ذلك كله بالهزيمة المُرة لِلمُهاجمين .

■ لماذا وكيف من دون حساب دقيق ؟

**ثم أي نظم هذا الذي سيفرط عقده ؟! النظم القائم على الظلم والاستبداد ، وخنق الأنفاس في الصدور ؟!

ص ١٧٥ : لقد أثبتت التجربة بأنّ الشخصيات الدينية العظيمة كانت على الدوام ملاذاً للمحرومين والمظلومين ، وقد استطاعت بتدابيرها العاقلة ، أن تُحدّ إلى حد كبير من انحرافات السلطة الحاكمة ، وذلك هو ما تم لعلي (ع) مثلاً في زمن الخلفاء ، لا سيما زمن الخليفة الثاني ، حيث تمكن في كثير من الموارد ، تجنيب الأمة أضرار الأخطاء السياسية ، والقضائية ، للسلطات الحكومية . لكن الشخصيات الوجيهة والبارزة والمحبوبة إذا ما أقدمت على القيام بالثورة ، من دون امتلاكها للقوة الكاملة ، بل لمجرد اعتمادها على التعاطف الجماهيري العام ،

وسمعتها الوطنية ، فإنها سوف لن تُخلّف وراءها سوى المزيد من استبداد الحكومة القائمة ، واستفزازها ، أكثر من ذي قبل لاتخاذ الإجراءات المضادة ضد أفراد المعارضة ، ومن أجل تثبيت مواقع السلطة ، إلى ضرب كل الأفكار الخيّرة ، وعدم التردد في ارتكاب أية جريمة تُحقق أهدافها .

وتأسيساً على هذه الحسابات الواضحة ، والحاسمة ، فقد تفضّل أمير المؤمنين علي (ع) قائلاً : « وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء ، أو أصبر على طخية عمياء » .

■ إذا كانت تلك الحسابات واضحة وحاسمة ، فما معنىٰ و« طفقت أرتئي » إذاً ، حيث يتضح هنا أنّ المطلوب أحياناً أن يكون العمل « أن أصول بيد جذّاء » ولذلك تراه عليه السلام يقول : وشرعت أُقلّب الأمور وأدرسها من كل جانب .

ص ١٧٦ : فهل من الممكن أن يتصرف الإمام الحسين (ع) بخلاف نهج أبيه ، فيُقدم على البدء بالهجوم والحملة الثورية ضد السلطة الحاكمة ، من دون تهيئة القوة العسكرية الكافية ، ومن دون تحرُّش الحكومة به ؟!

■ بلى ، إنه ممكن ، فالظروف المحيطة هنا مختلفة من ناحية الآثار التاريخية والنفسية .

ص ١٨٠ : لكنه لا يستطيع إضفاء المشروعية القانونية على حكومة يزيد المفروضة ، والعمل بذلك خلافًا لعقيدته ورأيه ، وخلافاً للواقع خاصة إذا ما توفرت لديه القدرة على الدفاع ، وعدم التسليم ليزيد ، دون قيد أو شرط .

■ أيـة قـدرة ؟!

ص ١٨٧ : . . . ذلك أنّ طريق تغيير الظلم ، قد أصبح منحصراً بإقامة الحكومة القوية ، القادرة على قطع جذور الظلم ، والفساد . . .

■ أبداً لم تكن تلك هي الطريق الوحيدة [بل إنّ الثورة حتىٰ الشهادة كانت هي الأخرىٰ طريقاً أخرى لقطع جذور الظلم] .

ص ١٨٩ : في خطبة سليمان بن صرد هذه ، هناك جملة تُبيّن لنا بوضوح ماهية حركة الإمام في المرحلة الأولى وتلك الجملة هي : « وهذا الحسين بن علي قد خالفه ، وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان » .

■ في هذه العبارة لم تتم الإشارة إلى امتناع الإمام عن المبايعة ، بل تمت الإشارة إلى المخالفة ، أي الإنكار والتمرُّد .

إنّ سليمان بن صرد ، الذي عاصر حركة الإمام ، والمُطلّع على الأوضاع ، والأحوال السياسية لذلك العصر بشكل جيد ، شخّص حركة الإمام من المدينة إلى مكة ، باعتبارها حركة دفاعية ، مقابل هجوم حكومة يزيد . وهذا دليل واضح جداً على أنّ حركة الإمام في المرحلة الأولى ، كانت قبل كل شيء ، تعبيراً عن الدفاع والمقاومة ، اللذين لم يكن بالإمكان اجتنابهما مقابل هجوم السلطات اليزيدية

■ ذلك ليس دليلاً أبداً . بل إن الجملة المذكورة تدل على التمرد ، ومخالفة الإمام لحكومة الطاغية ، ثم إنّ من الأمور المُلازمة للمخالفة هي الفرار من تعرض العدو ، ولذلك فإنه انتقل عليه السلام إلى مكة ، هروباً من تعرّض الحكومة له .

ص ١٩٠ : وهنا فإنّ الإمام (ع) قد ردّ على ابن عباس ضمن ما ردّ عليه إذ قال : « يا ابن عباس ! فما تقول في قومٍ أخرجوا ابن بنت رسول الله من وطنه ، وداره ، وموضع قراره ، ومولده ، وحرم رسوله ، ومجاورة قبره ، ومسجده ، وموضع مهاجرته ، وتركوه خائفاً ، مرعوباً ، لا يستقر في قرار ، ولا يأوي إلى وطن ، يُريدون بذلك قتله ، وسفك دمه » .

وخطاب الإمام هذا إلى ابن عباس يدلُّ بوضوح على أنّه عليه السلام قد غادر المدينة خائفاً مرعوباً ، وتوجه إلى مكة متحصناً فيها ، من أجل المقاومة .

■ ليس هناك شك بأنّ مكة كانت أكثر أمناً للإمام بعد أن امتنع عليه السلام عن البيعة ، ولم يَعُد قادراً على البقاء في المدينة ، خاصةً وأنّ الحُرمة كانت قد سقطت أيضاً .

ص ١٩٢ : . . . وشخّص عليه السلام بأنّ الطريق الوحيد لإنقاذ الإسلام والمسلمين صار مُنحصراً بإقامة الحكم الإسلامي .

■ لماذا الطريق الوحيد ؟ [فالثورة حتى الشهادة كانت طريقاً آخر أيضاً لانقاذ الإسلام والمسلمين] .

ص ١٩٦ : يجب أن نعلم أنّه بعد اصطدام الإمام (ع) بجيش الحر بن يزيد ، فإن إمكانية الانتصار العسكري ، أصبحت منتفية ، مما يعني أنّ تكليف إقامة الحكومة الإسلامية أصبح لاغياً بالنسبة للإمام ، إذ إنّ أي تكليف مشروط بالاستطاعة . وهذا الأمر متفق عليه بين العلماء . وعليه فإنّ تحرك الإمام من ذلك الحين فصاعداً ، يصبح دفاعاً خالصاً كما أنّه كان يجري في إطار المحافظة على الصلح والسلام ، واجتناب الحرب والمجابهة .

■ أي صلح ؟ فالمؤلف نفسه يعترف أنّ الطرف الآخر مُهاجم . فصلح كهذا يُعتبر استسلاماً محضاً .

ص ١٩٧ ـ ١٩٨ : وبديهي اعتبار كلام الإمام ، القاضي بالعودة ، من حيث أتى ، في حال رفض أهل الكوفة لاستقباله ، نوع من الكلام الجدي ، وليس تكتيكاً ومراوغة . فالإمام كان مصمماً على العودة بالفعل لو سمحوا له بذلك . لأنّ العراق كان قد أصبح تحت سيطرة ابن زياد التامة ، وها هو قد بعث جندَه لجلب الإمام ، وعليه فإنّ إمكانية تشكيل وإقامة الحكم الإسلامي من قبل الإمام أصبحت منتفية ، ولمّا كانت القدرة منتفية ، فالتكليف يصبح لاغياً أيضاً . ومن هنا نرى أنّ تصميم الإمام في مثل هذه الحالة يصبح في العودة والحفاظ على قواه الاحتياطية متماسكة حتىٰ تحين اللحظة المناسبة من جديد ، وعندها تُتخذ الإجراءات الداعمة للإسلام مرةً أخرى .

■ في الصفحة (١٩٣) ورد أنّ الإمام قد قال لأبي هرة الأزدي وللآخرين غيره بأنّهم ـ أي أجهزة السلطة ـ إنما يريدون قتلي ، مما يعني أنّ الإمام كان في خطر . وعليه يكون معنىٰ الجملة هنا شيئاً آخر .

ص ١٩٨ : إنّ هذا المنهج ، منهج عقلاني للغاية ، وذلك عندما يواجه

المرء تدابير الحكومة الديكتاتورية المستهترة بالمقاومة ، والدفاع الحكيم ، مع ملاحظة اجتناب الفتنة ، وسيل الدماء ، قدر الإمكان .

■ يبدو أنّ المؤلف يرى بأنّ الفتنة ملازمة لإراقة الدماء . فإذا توقف سيل الدم ، انقطع دابر الفتنة . ولكن القرآن الكريم يقول : ﴿ **وَقَاتِلُوهُم حتىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾ .

ص ١٩٩ : إنّ هذا الاقتراح الحكيم النابع من روح ابن النبي (ص) الباحثة عن الصلح والسلام ، توضح لنا جيداً ، بأنّ الإمام وبعدما أصبح الانتصار العسكري غير ممكن إنما كان يسعىٰ لاجتناب المجابهة ، وتركيز جهده ، ونشاطه ، في هذه المرحلة ، في الدفاع ، والمحافظة على القوىٰ التعبوية ، التابعة لأهل بيت العصمة والنبوة ، كذخيرة احتياطية يمكن الاستفادة منها ، في مناسبات أخرى ، عندما تحين الساعة المؤاتية لإحياء الإسلام ، وإنقاذه .

■ مرة أخرى يتحدث المؤلف عن الصلح ! والفرصة المناسبة هنا بالنسبة للمؤلف ، تنحصر برأيه في حصول التوازن في ميزان القوى ، أو التفوق المادي لصالح قوى الإمام .

ص ٢٠١ : كما تبين بوضوح أنّ المرحلة الثالثة للتحرك الحسيني حيث إمكانية إقامة السلطة والحكومة ، صارت مستحيلة ، فإن نظرية الإمام صارت متّجهة نحو ترك المخاصمة قدر الإمكان ، وإقامة صُلح مُشرّف لتجنّب المواجهة العسكرية ، وإراقة الدماء .

■ أي صُلح مُشرّف هذا ؟!

ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ : إنّ الإمام كان على يقين بأنّ استسلامه لعبيد الله بن زياد يعني أنه سيُقتل قتلاً ذليلاً . ودليل ذلك أنّ جواب الإمام إلى قيس بن الأشعث الذي جاء ليعرض عليه الاستسلام لابن زياد ، مع ضمان عدم التعرض لحياته هو التالي : « أنت أخو أخيك ! أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل » . أي إنّك تُريد أن تتحمل جُرم إراقة دمي مثل أخيك محمد بن الأشعث الذي أتىٰ بالأمان لمسلم ، ولم يتوان ابن زياد عن قتله . وبذلك تكون

مُطالباً بدمي ، وبدم مسلم ، من قبل بني هاشم .

■ وهل يعتقد المؤلف إذاً، أنّه لو لم يقم ابن زياد بقتل الحسين (ع) ، فإنّ الحسين كان سيقبل بالعيش الذليل إلى جانب ابن زياد ؟! لكنني أرى بأنّ المقصود من هذه العبارة ليس هذا التفسير الذي ذهب إليه المؤلف على كل حال .

ص ٢٠٥ : إنّ الإمام قدّم ثلاثة مقترحات لابن سعد ، وأيٌّ منها كان سيقبل به الطرف الآخر ، كان بلا شك حافظاً للصلح والسلام .

■ وماذا كانت هذه المقترحات الثلاثة ؟ يبدو أنّ أحدها التسليم بدون قيد أو شرط ، وهو ما يخجل المؤلف من ذكره .

ص ٢٠٨ : لو أنّ معاهدة الصلح قد وقّعت بين الطرفين في المرحلة الثالثة لقيام الإمام ، لكانت قد حملت بعض النتائج القيّمة معها :

١ ـ لما كان قد قُتل الإمام بتلك الطريقة الوحشية والمُفجعة ، والتي أدّت إلى خسارة الأمة الإسلامية ، لمثل ذلك الوجود الطاهر والمُقدّس ، وهو الذُخر الربّاني العظيم ، وقائد أهل بيت العصمة والرسالة ، ولَما كان الإسلام قد تلقّى مثل هذه الضربة ، التي لا يمكن تعويضها ، مع ما يعني ذلك من فقدان الأمة ، وحرمانها من بركة ذلك القائد العظيم .

■ إنّ الأمة كانت محرومة من بركة هذا الإمام ، والقائد العظيم ، حتى في زمن حياته .

ص ٢٠٩ : ٣ ـ وإنْ كان موت يزيد غير قابل للتنبؤ إلاّ أنّ من الآثار القطعية المتوقعة للصلح يمكن أن تكون : بعد ثلاث سنوات من واقعة كربلاء مات يزيد وعندما جاء دور ابنه معاوية فقد رفض تولي الخلافة من بعده ، الأمر الذي جعل العائلة الأموية تعيش حالة اضطراب ، وقلق ، وظهور علامات ضعف شديدة ، كان أبرز معالمها مبايعة مروان بن الحكم لعبد الله بن الزبير .

■ كل هذه النتائج من آثار شهادة الحسين (ع) ، وليست بمعزل عن آثار الواقعة التاريخية أبداً .

ص ٢١١ ـ ٢١٢ : في حين أنّه ينبغي القول : إذا كان الإمام الحسن المجتبى (ع) قد أمضى عشر سنوات في حالة صلح مع معاوية ، فإنّ الإمام الحسين (ع) قد أمضىٰ عشرين سنة من الصلح مع معاوية ، عشرة منها في زمن أخيه الحسن (ع) ، وعشرة أخرىٰ قضاها بعد موت أخيه (ع) حتىٰ نهاية ـ عهد معاوية ـ .

■ لا الإمام الحسن (ع) كان في حالة صلح مع معاوية ، إذ سرعان ما نقض معاوية معاهدة الصلح المعروفة ، ولا الإمام الحسين (ع) ، إذ إنّ عدم القيام بالثورة غير الصلح .

ص ٢١٢ : إنّ خطأ هذه الفتنة من الناس هو في عدم تشخيصها وإدراكها الصحيح لثورة الإمام الحسين (ع) ، الأمر الذي جعلها تقع بمثل هذا الانحراف . في حين أنهم لو تدارسوا الحوادث التاريخية بدقة أكثر ، لفهموا ، كيف أنّ الإمام الحسين وبعد أن انهزمت القوىٰ الشعبية العراقية ، قد سعىٰ في الواقع كثيراً من أجل استقرار الصلح والسلام ، ولم يكن أبداً يرغب في محاربة يزيد ، وهو يفتقر إلى وجود القوة الكافية . وعليه نقول إنّ النهج السياسي للإمام الحسين (ع) ، هو نفس النهج السياسي لأخيه الإمام الحسن (ع) ، مقابل حكومة بني أمية ، ولا يوجد بالتالي أي فارق بينهما ، اللهم إلا إذا كان الفارق هو بين حكومة معاوية ، وحكومة يزيد . نعم فحكومة معاوية كانت راغبة في الصلح بينما عُمّال يزيد لم يقبلوا الصلح ، وهذا الاختلاف لا يجوز وضعه بحساب الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام .

■ إنّ الإمام الحسين (ع) لم يُصرّح بالصلح في أيّ موقع أو مكان . وإذا ما افترضنا أنّه حاول تجنب المواجهة ، أو المعركة ، فإنّ ذلك شيء آخر غير الصلح .

وأمّا عن معاوية ورغبته في الصلح ، فكيف نرى رغبة معاوية في الصلح وهو الذي نقض معاهدة الصلح منذ اليوم الأول .

ص ٢١٣ : الحقيقة إنّ الإمام المجتبىٰ عليه السلام لم يُعط حقه كما يجب وكما يليق بمقامه الكريم في أوساط المجتمع الشيعي .

■ لكن المؤلف أضاف إلى ذلك بأنّه جعل حق الإمام الحسين (ع) يُفرًّط بـه أيضاً .

ص ٢١٥ : وفي الدرجة الثـالثة أيْ بعـد أن رفض عُمّال السلطة اليـزيديـة اقتراح الصلح وأصبح الإمام على يقين بأنّ استسلامه للسلطات يعني قتله بطريقة مُذلّة فإنه دافع عن نفسه بعد أن بدأه العدو بالهجوم .

■ لماذا إذن ترك شباب أهل البيت وأصحابه يُقتلون ؟

انتهى الجزء الثالث ، وبانتهائه نصل إلى خاتمة الكتاب والحمد لله .



محتويات الجزء الثالث
من كتاب الملحمة الحسينية

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الثالث

القسم الرابع

القسم التاسع

القسم العاشر